تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف

ميرسيا الياد

ترجمة

عبد الهادي عباس

الجزء الثالث



دار دمشق

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES

ET DES IDEÉS RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

الجزء الثالث

تأليف

ميرسيا إلياد

ترجمة

عبد الهادي عبّاس

المحامي

ديانات أوراسيا القديمة - الكنائس المسيحية حتى الأزمنة الأيقونية - نهضة الإسلام - الكاثوليكية الغربية

صوفيات إسلامية - اليهودية وتمرد باكوبا - حركات دينية في أوروبا منذ القرون الوسطى حتى الإصلاح - ديانة التيبت



طبعة أولى
١٩٨٦ - ١٩٨٧
طبع في مطابع الشام
١٩٨٦/١٠/٣٠٠٠

دار دمشق
دمشق - شارع بور سعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢

مقدمة الجزء الثالث

ان التأخير الحاصل بظهور هذا الجزء يرجع لاسباب صحية ، فمنذ بعض الوقت استمر بصري يضعف ، وبسبب من ألم المفاصل العنيف كتبت بصعوبة . وهذا ما الزمني باكمال القسم الأخير من تاريخ المعتقدات والافكار الدينية بمعونة العديد من زملائي ، المختارين من بين طلابي القدامى .

وكما انه لن يفوت القارىء ملاحظة انني غيرت مخططي للكتاب الذي كنت اشرت إليه في مقدمة الجزء الثاني . لقد اكملت تاريخ الكنائس المسيحية حتى عصر الانوار ونقلت في الجزء الأخير الفصول حول تفتح الهندوسية ، وحول صين القرون الوسطى وحول الديانات اليابانية . لقد كرست اربعة فصول لتاريخ المعتقدات ، والافكار والمؤسسات الدينية لاوروبا بين القرن الرابع والسابع عشر ولكنني لم اصر كثيراً على الابداعات المألوفة للقارىء الغربي - (على سبيل المثال السكولاستيك ، والاصلاح) لكن لكي اتمكن من الوقوف على بعض المظاهر التي تمر بصمت أو يشار اليها في الكتب المختصرة : الهرطقات ، الميثولوجيات والممارسات الشعبية ، والسحر والكيمياء والباطنية . فهذه الابداعات المفسرة في افقها الروحي لا تعدم الفائدة ، وأحيانا حتى العظمة وعلى كل حال ، انها تشكل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الديني والطقوسي لأوروبا .

ان جزءاً هاماً من الجزء الاخير من التاريخ سيكون مؤلفاً بتقديم الاديان

القديمة والتقليدية لاميركا ، وافريقيا واوقيانيوسيا . واخيراً وفي الفصل الأخير ساهتم بتحليل الابداعية الدينية للمجتمعات الحديثة .

انني اشكر البروفيسور شارل ادامز الذي تلطف وقرأ الفصول /٣٣/ و/٣٥/ واعلمني بالعديد من الملاحظات القيمة ؛ ومع ذلك ، فإنني مسؤول عن شرح الشيعية والصوفية الاسلامية شرحاً مبنياً على تأويل صديقي المأسوف عليه هنري كوربان انني اقر بالعرفان لزميلي وصديقي البروفيسور اندريه لاكوك للعناية التي قرأ بها وأصلح النص بكامله من الجزء الراهن ، ولصديقي جان لو بيدو بايو لصبره وللعناية التي بذلها لاخراج هذا الجزء .

إن حضور ، وعطف وتضحية زوجتي حقق ظفري على التعب والقنوط المثار بآلامي وعجزي . وبفضلها أمكن لهذا الكتاب ان يظهر .

م. اياد

جامعة شيكاغو نيسان ١٩٨٣

الفصل الواحد والثلاثون

اديان أوراسيا القديمة :
الترك ـ المغول ـ الفينو ـ اوغريان ، البالطو ـ سلاف .

٢٤١ ـ صيادون ، رحّل ، محاربون

إن غزوات الترك ـ مونغول الصاعقة ـ منذ الهانس في القرن الرابع ، وحتى تيمور لنك (١٣٦٠ـ١٤٠٤) استوحيت من نموذج اسطوري للصيادين البدائيين لأوراسيا : آكل اللحم المطارد لطريدته في السهب . فالمباغتة وسرعة الحركة ، وذبح السكان جميعهم وازالة العلامات الخارجية لثقافة الاستقرار (مدن ، وقرى) ، جميعها تقرب فرسان الهانس ، الآفار ، والترك والمنغول من سرب الذئاب الصائدة لأيائل السهب ، أو المهاجمة لقطعان الرعاة (المتجولين) من البدو الرحل . وبالتأكيد ، إن الأهمية الاستراتيجية والنتائج السياسية لهذا السلوك كانت معلومة جداً للرؤساء المحاربين . ولكن الاحترام الصوفي للصياد المثالي ـ المفترس ـ لعب دوراً بارزاً . وإن عدداً من القبائل الآلطية altaiques تدعي ان جدها القديم هو ذئب مما فوق الطبيعة (ر. ف ١٠ع) . .

إن الظهور الخاطف السرعة «لامبراطوريات السهوب» وخاصيتها الآنية ، قلت أو كثرت ، ما زالت تشده المؤرخين و(تثير اعجابهم) ، وفي الواقع إن الهانس سحقوا ، في ٣٧٤ ، الاوستروغوث les ostrogothes على الدينيستر ، ودفعوا قبائل جرمانية أخرى على الهجرة العاجلة بدءاً من السهل الهنغاري ، والعديد من مقاطعات الامبراطورية الرومانية . ولقد نجح آتيلا في اكتساح قسم كبير من أوروبا الوسطى ، ولكنه بعد زمن قصير من موته (٤٥٣) انقرض الهانس المنقسمون والحائرون من التاريخ . كذلك فإن الامبراطورية المنغولية الضخمة التي خلقها جنكيز خان في عشرين سنة (١٢٠٦-١٢٢٧) والمتنامية بواسطة خلفائه (اوروبا الشمالية بعد ١٢٤١ ، الفرس ، العراق ، والاناضول بعد ١٢٥٨ ، الصين في ١٢٧٩) تنحدر بعد الغزوة الفاشلة لليابان سنة ١٢٨١ .

وكان التركي تيمورلنك (١٣٦٠-١٤٠٤) المعتبر خليفة لجنكيز خان ، آخر الفاتحين الكبار المستوحي طريقة المفترسين .

ولنحدد بدقة ان كل هؤلاء (البرابرة) المتدفقة من السهوب في وسط آسيا . لم تكن تجهل بعض الابداعات الثقافية والدينية للشعوب المتحضرة ، ومن جهة أخرى ، وكما سنرى ، فإن اجدادهم الصيادون مما قبل التاريخ والرعاة البدو ، قد افادوا هم ايضاً من الاكتشافات المنجزة في بقاع مختلفة من آسيا الجنوبية .

إن الشعوب الناطقة باللغة الآلتية شغلت اقليما واسعا جداً : سيبيريا ، اقليم الغولغا ، آسيا الوسطى ، الشمال والشمال الشرقي للصين ، منغوليا وتركيا . وتميز ثلاثة فروع اساسية :

١) الترك العامون ويغور ، وشاغاطاي
٢) المنغول (كلموك ، مونغول ، بوريا)
٣) الماندشو- تونغور[1] .

وقد كانت السهوب حول جبال الألطالي وشنغهاي بين التيبت والصين ، الممتدة للشمال حتى التايجا السيبرية هي على الأرجح الموطن البدائي للشعوب الآلطية .

وإن الجماعات الألطية المختلفة ، والشعوب الفنلدنية ـ الاوغرية التي كانت تعيش على الصيد البري والبحري في المقاطعات الشمالية ، وعلى الترحال الرعوي في آسيا الوسطى وبمعيار متواضع على الزراعة في الإقليم الجنوبي ، كانت منذ ما قبل التاريخ قد أغنت اوراسيا الشمالية ، بثقافاتها ، وصناعاتها وافكارها الدينية التي وصلت إليها من الجنوب . وتربية غزال الرنة في المقاطعات السيبيرية استوحي من تدجين الحصان الحاصل على ما يرجح ، في السهوب . كذلك فإن المراكز التجارية مما قبل التاريخ (على سبيل المثال ، مركز جزيرة الغزلان على بحيرة أونيغا ، والتعدين في (بيرم) لعبت دوراً هاماً في اقامة ثقافات سيبيرية . وتباعاً فإن آسيا الوسطى وآسيا الشمالية تلقيتا تدريجياً افكاراً دينية من أصل ميزوبوتامي وايراني وصيني وهندي وتيبتي (لامية) ؛ ومسيحية نسطورية ومانوية ، والتي يجب ان يضاف إليها تأثيرات الاسلام ، ومن وقت قريب ، المسيحية الروسية الارثوذكسية .

مع ذلك يجب التأكيد ، بأن هذه التأثيرات لم تنجح دوماً بتغيير البنى الدينية الأصولية بشكل ملموس . وان بعض المعتقدات والاعراف المميزة للصيادين من العصور الحجرية المتأخرة مازالت تعيش في اوراسيا الشمالية . ونتعرف على الاساطير والمفاهيم الدينية القديمة ، في عدد من الحالات ، تحت قناع لامي واسلامي ومسيحي[٢] .

وبالنتيجة ، ورغم مختلف التركيبات ، يمكن تمييز بعض المفاهيم المميزة : الاعتقاد باله سماوي ، حاكم البشرية ، الذي هو نموذج مميز للنشكونية ، والتضامن الصوفي مع الحيوانات ، والشامانية . ومع ذلك . فإن الفائدة الكبرى لديانات اسيا الوسطى والشمالية تقوم بخاصة في ابداعاتها لبنية توليفية ..

٢٤٢ ـ تانجري ، (الاله ـ السماء)

من بين كل آلهة الشعوب الألطية ، فإن الأكثر أهمية والمعروف بشكل افضل هو بالتأكيد (تانجري) عند المغول والكلموكس ، و/تينجري/ عند البوريات و/تانجيرا/

عند التاتار ـ الفولغا و/تينجي / عند البلطيق . ولفظ تانجري الذي يدل على «اله» و«سماء» ينتمي للمفردات اللغوية التركية والمنغولية . موجود «منذ ما قبل تاريخ آسيا ، وعرف قدراً متفرداً . وحقل امتداده في الزمان ، وفي المكان وعبر الحضارات غير محدود : يعرف منذ اكثر من الفي سنة ؛ إنه استعمل عبر القارة الاسيوية بكاملها ، من حدود الصين إلى جنوب روسيا ، ومن كامتشاتكا لبحر مرمرة ؛ لقداستخدمه«الوثنيون» الألثيون لتعيين آلهتهم وربهم الأعلى ، وقد احتفظ به في كل الأديان العالمية الكبرى حتى أنه عبر تاريخها احتضنه الترك والمنغول تباعا (مسيحية ـ مانوية اسلام الخ) .

إن كلمة تانجري مستعملة لتعبر عن الاله ، بصفته الها سماوياً ، فقد تأكد لدى الهوينغ ـ نو في القرن الثاني ق.م ان النصوص تظهر وكأنه «سام» (اوزا) «أبيض وأسود» (كوك) «خالد» (مونجكا) «متمتع بالقوة» (كيوك)[٤] .

وقد دوّن في واحد من النقوش الباليوتوركية Paléoturques للأرخون de l'orkhon (القرن السابع ـ الثامن) : «عندما صنعت السماء الزرقاء في العلى ، والأرض المظلمة في الأسفل صنع ابناء الانسان (= البشرية) بين الاثنتين»[٥] . ويمكن تفسير الفصل بين السماء والأرض كعمل نشكوني ولكنه لا يوجد سوى اشارات للنشكونية بمعنى الكلمة ، صانعها هو تانجري غير ان تاتار الأكطاي والياكوت يشيرون إلى إلههم «كخالق» ، وحسب البوريات فإن الآلهة (تينجري) خلقت الانسان ، وان هذا قد عاش سعيداً حتى الفترة التي نشرْت فيها الأرواح الشريرة المرض والموت على الأرض .

وعلى كل حال ، فإن النظام الكوني ، وبالتالي تنظيم العالم والمجتمع ، ومصير البشرية يتعلق جميعه بتانجري . وبالنتيجة فإن على كل ملك ان يتلقى تنصيبه من السماء . ويقرأ في نقوش الاورخون : «تانجري الذي رفع والدي الخان . . تانجري الذي اعطى الامبراطورية . . هذا التانجري أقامني أنا كخان . . .[٧] وعليه فإن الخان هو ابن السماء حسب النموذج الصيني (ف ١٢٨ع) . إن الملك هو مبعوث أو ممثل السماء ـ الاله . وعبادة تانجري مدعومة في كل عظمتها وفي كل كمالها من قبل الملك «عندما تسود الفوضى ، وعندما تتفرق القبائل ، عندما لا توجد بعد امبراطورية (كما في ايامنا) فإن تانجري ، كما سبق أن أشار يرمي لأن يصبح إلها مفارقا un deus otiosus ، أن يترك مكانه لآلهة سماوية ثانوية أوليتفجر إلى اجزاء (تعدد التانجري . . .) . . عندما لا

يوجد حاكم بعد ، فإن السماء ـ الاله سينسى ببطء ، وتتقوى العبادة الشعبية لتتجه وتأخذ المكان الأول» . (يعرف المونغول ٩٩ تينجري ، والاكثرية منها ، لها اسماء ووظائف محددة) . فالتحول من إله سماوي وحاكم إلى اله مفارق ظاهرة مؤكدة عالميا . وفي حالة تانجري ، فإن تعدده أو ابداله بآلهة اخرى يبدو أنه قد تبعه نفجر الامبراطورية غير ان العملية ذاتها تحققت في مالا يحصى من النصوص التاريخية . .

ليس للتانجري معابد ومن المشكوك فيه انّ يكون قد ابرز بشكل تمثال . وفي مناقشة جنكيز خان الشهيرة مع امام بخارى قال له : «ان العالم بكامله هو بيت الله ، فلماذا اذن تعيين مكان خاص (على سبيل المثال ـ مكة) لكي يحج إليه ؟» . وكما في أي مكان آخر ، فإن الاله السماوي للآلطيين هو كلي القدرة . ويقول المونغول عندما يحلفون : «لتعلم السماء . . .» وكان الرؤساء المحاربون يصعدون لقمة الجبال (صورة مميزة لمركز العالم) لكي يصلون للاله ، أو ، قبل الغزوات ، كانوا يعتزلون في خيامهم احيانا، لثلاثةأيام ، كما فعل جنكيز خان ، بينما كان الجيش يدعو السماء . وكان تانجري يظهر عدم رضاه بعلامات كونية: مذنبات، مجاعات ـ طوفانات . وكانت توجه إليه الصلوات (على سبيل المثال لدى المونغول والبلطيار الخ) وكان يضحى إليه بأحصنة ، وثيران وخراف . وقد تأكدت الأضحية السماوية عالميا ، وبخاصة في حالات المصائب والكوارث الطبيعية . غير انه في آسيا الوسطى والشمالية ، كما في أي مكان آخر ، فإن تعدد التانجري ، متبوع بتمثيلها بآلهة أخرى (العاصفة ، الخصب الكوني الخ . .) . وهكذا ، فإن البي اوغان Bui ugan (الكبير جدا) قد أبدل في الألطاي بتانجري كيزكان Kasekan (الرحيم سيد السماء) وإليه تقدم الأضحية بحصان[٩] . ويميز التباعد والسلبية آلهة سماوية اخرى ؛ وهكذا فإن البوغا Buga «(سماء) (عالم)» للطنجوز des Tongauses لا يتلقى عبادة ، فهو كلي القدرة ، ولكنه لا يتدخل في الأعمال البشرية ، انه لا يعاقب حتي المذنبين . فأورون اي توجون Urun aitojon لليقوط Yakoutes يسكن السماء السابعة، ويدير كل شيء ولكنه لا يفعل سوى الخير أي لا يعاقب أبداً[١٠] .

٢٤٣ ـ بنية العالم

إن علم الكون والنشكونية للشعوب الآلتية تقدم فائدة كبرى . فمن جهة ،

تحافظ على عناصر قديمة ، مؤكدة في عدد من الثقافات التقليدية ، ومن جهة اخرى ، فان الأشكال التي نقلت إلينا فيها ، تدل على عملية توليفية طويلة من التمثل واعادة التفسير لبعض الافكار المتلقاة من الخارج . واكثر من هذا : ان علم الكون لا يبدو دائماً متضامنا مع الأسطورة النشكونية ، الاكثر انتشاراً في آسيا .

وبالتأكيد يجب ان يؤخذ في الحسبان التنافر للوثائق المتوفرة : فالاسطورة النشكونية قد دارت في الأوساط الشعبية ـ وسنتحقق من دلالة هذا فيما سيأتي .

ففي آسيا ، كما في كثير من أقاليم العالم . كانت بنية العالم مفهومة كما لو أن لهذا الكون ثلاث طبقات ـ سماء ـ ارض ـ جحيم ـ مرتبطة فيما بينها بمحور أو قطب Axe مركزي . وهذا القطب يمر «بفتحة» ، «بثقب» ؛ ومن هذا الثقب تنزل الآلهة على الأرض ، وان الموتى هم في الاقاليم تحت الأرض ؛ وكذلك فإن روح الشامان تستطيع من هنا ان تطير أو تنزل خارجاً من اسفارها السماوية أو الجحيمية . فالعوالم الثلاثة ـ حيث تسكن الآلهة ، والبشر وحاكم الجحيم مع الموتى ـ متخيلة اذن كثلاث صفائح متوضعة فوق بعضها .(١١)

وان عدداً من الشعوب الآلثية تخيلت السماء كخيمة : المجرة (درب اللبانة) هي درزها (خياطتها) ؛ والنجوم ، هي الثقوب من أجل الضوء . ومن وقت لآخر ، تفتح الآلهة الخيمة لكي تنظر إلى الأرض ، وهؤلاء هم النيازك les metèores . والسماء هي كذلك مدركة كغطاء ، ويحصل أن لا تكون مثبتة بشكل كامل على اطراف الأرض ، وعندئذ تتدخل رياح كبيرة بواسطة الفجوة ، وهكذا عبر هذا الفضاء المختصر تستطيع الابطال والكائنات الاخرى المتميزة الانزلاق والدخول للسماء . وفي وسط السماء تشع نجمة القطب ، التي تثبت الخيمة السماوية كوتد وهي تسمى عمود الذهب (بوريات ، مونغول الخ) ؛ وعمود الحديد (تتر سيبيريا الخ) ، والعمود الشمسي (التيليوت الخ)(١٢) .

وكما يجب أن نتوقع ، فإن هذه الكوزمولوجيا وجدت جوابا في الأصغر microcosme المسكون من قبل البشر . فقطب العالم l'axedu monde . تمثل بطريقة مادية ، إن بواسطة الاعمدة التي تسند المسكن ، وان تحت شكل اوتاد منعزلة ، مسماة (اعمدة العالم) وعندما تغير شكل البيت «من الخيمة إلى سقف مخروطي ، وانتقل إلى

خيمة اللباد «yaurte» فإن الوظيفة الاسطورية ـ الدينية للعمود قد تطورت لفتحة عليا حيث يخرج منها الدخان . وهذه الفتحة تناسب الثقب المماثل «لبيت السماء» المشابه «للثقب» الذي صنعته نجمة القطب في القبة السماوية ، وهذا الرمز منتشر جداً[١٣] . والفكرة الكامنة في ذلك هي الاعتقاد بإمكانية الاتصال المباشر مع السماء . فعلى المستوى الأكبر macrosomique، هذا الاتصال ممثل بقطب (عمود ، جبل شجرة الخ) ، وعلى المستوى الأصغر microsomique، مستدل عليه بالعمود المركزي للبيت أو الفتحة العليا للخيمة ؛ الأمر الذي يعني ان كل مسكن بشري مطروح في (وسط العالم) أو ان كل مذبح ، خيمة أو منزل يجعل ممكنا الانفصال للمستوى ومنه الاتصال مع الآلهة ، لا بل (في حال الشامان) الصعود للسماء .

وكما لاحظنا في العديد من المناسبات ، فإن الصورة الاسطورية (لمركز العالم) الاكثر انتشاراً (فيما سلف مما قبل التاريخ) (ف. ٧ع) هي الجبل الكوني وشجرة العالم . ونصادف كذلك هذه الصور لدى الشعوب الألطية وفي كل مكان من آسيا . فتاتار آلتاي يتخيلون ان بي اولغان Baiulgan في وسط السماء ، جالساً على جبل من ذهب . وتاتار آباكان يسمونه (جبل الحديد) وفي الواقع ان المونغول ، والبوريات والكالموك يعرفونه تحت الاسم سوبو ، سومور او سومر ، الأمر الذي يخالف بوضوح التأثير الهندي (= ميرو ، الجبل الاسطوري) ولا يستدعي بالضرورة انهم جهلوا هذا الزمن القديم والعالم[١٤] . أما بالنسبة لشجرة العالم ، فقد تأكدت في أي مكان من آسيا ولعبت دوراً هاماً في الشامانية . وشجرة العالم ، كونيا ، ترتفع في وسط الأرض في محلة «سرتها» وتلامس أغصانها قصر بي اولغان . والشجرة تربط الأقاليم الكونية الثلاثة ، لأن جذورها تنغرس في عمق الأرض . وحسب المنغول والبوريات ، تتغذى الآلهة تانجري من ثمار الشجرة . وتعتقد شعوبآتية أخرى ، أن أرواح الأولاد ، قبل الولادة ، تستريح كعصافير صغيرة على أغصان الشجرة الكونية ، وهنالك يذهب الشامان للبحث عنها[١٥] . والشامان يهتم بانشاء طبلة من خشب شجرة العالم . وأمام خيمته (يورت) وداخلها توجد بقايا من هذه الشجرة ، وهو يرسمها أيضاً على طبله ، وأكثر من هذا ، كما سنرى (ف٢٤٥ع) فإن الشامان الآلتي بتسلقه شجرة السندر الطقوسية يتسلق بالفعل الشجرة الكونية . . .

إن اسطورة التشكونية المعروفة اكثر بين شعوب آسيا الوسطى والشمالية هي اسطورة منتشرة عالميا تقريباً ، مع انها تحت مظاهر متباينة إلى حد ما . وان قدمها (ف ٧ع) وانتشارها البارز ـ خارج آسيا ، قد تأكد في الهند الآرية وما قبل الآرية ، وفي آسيا جنوب ـ شرق وفي اميركا الشمالية ـ وان التغييرات المتعددة التي تلقتها عبر العصور جعلت من هذه الاسطورة واحدة من المسائل الأكثر تشويقاً بالنسبة لمؤرخ الأديان . ولكي نبرز الخصائص المميزة للترجمات الأسيوية ـ الوسطى (والترجمات لاوروبا الشرقية) (ف ٢٥٠ع) . نبرز بدئياً ما يمكن افتراضه بأنه الأشكال الأولى للأسطورة .فالمشهد دائما هو ذاته : المياه الكبرى قبل الخلق . والسيناريو يتضمن مفارقات : ١) الاله ، تحت شكل حيوان هو نفسه يغطس في عمق اللجة بهدف استخراج قليل من الطين ، الطمى ليصنع العالم . ٢) أو انه يرسل حيواناً برمائياً (طائر مائي) ٣) أو يغطس كائنا (أحيانا خلد الماء ، الذي كان يجهل حتى ذلك الحين الوجود والذي يتضح ضده فيما بعد . وقد تأكدت الترجمة الأولى في الهندوسية «اله كبير ـ براجاباتي ـ براهمان ، فيشنو ـ ممسوخاً بشكل خنزير بري ، ينزل في أعماق المياه ويرفع الأرض (ر. جزء ١) ، والترجمة الثانية منتشرة جداً (منذ ما قبل الآرية ، آسام ، اميركا الشمالية الخ) ونشير بتأكيد إلى أنه في هذه الترجمة لا يوجد اي تعارض بين الحيوانات الغاطسة والخالق) ؛ وليس سوى في آسيا وأوروبا الشرقية ان الغاطس النشكوني يتطور في اتجاه ثنائي .

ولدى مختلف الشعوب التركية يفاجأ أحياناً باختلاف هاتين الترجمتين الاخيرتين . فتشمل اسطورة بورياتية سومبال ـ بوركان واقفاً على المحيط البدئي . ويراقب طائراً مائياً ويطلب إليه ان يغوص في الاعماق . ومن الطين الذي ينقله الطير ، يصنع الأرض .وحسب روايات اخرى مختلفة ، يصنع بوركان الانسان فيما بعد ، ودائما من الطين[١٦] . وفي اسطورة لدى التاتار أن ليبيد (بجع ابيض) يغطس بناء على أمر الأله ويحمل له قليلاً من التراب في منقاره . ومنه صنع الأله الأرض ، مسطحة وزلقة ، وانه فيما بعد من وصول الشيطان يصنع المستنقعات[١٧] . .

وحسب تاتار الالطاي ، في البدء ، حيث لم يكن يوجد سوى الماء ، سبح الاله و«الانسان» سوية تحت شكل أوزات سوداء . فأرسله الاله ليبحث عن الطمي . ولكن «الانسان» احتفظ بقليل منه في فمه ، وعندما أخذت الأرض في النمو ، بدأ الطمي ينتفخ . فاضطر لبصقه ، وبهذا تولدت المستنقعات . فقال له الاله : (لقد اذنبت وسيكون اتباعك أشرار . وان اتباعي سيكونون انقياء ؛ وسيرون الشمس . والنور وسأدعى كوربيستان(= اوهرمازد)، وانت ستكون ايرليك)[١٨] . ان التوليفة مع الأفكار الايرانية واضحة ، ولكن السيناريو للغاطس النشكوني قد حوفظ عليها بكاملها تقريباً . وان التماهي بين «الانسان» وسيد الجحيم «ايرليك خان» تفسر بواقع أن الانسان الأول ، الجد الأسطوري ، كان كذلك الرجل الأول ، والجد الاسطوري ، كان أيضاً أول ميت «وهـي اسطورة مؤكد عليها بشكل واسع في العالم» .

إن الروايات المختلفة لدى المنغول هي ايضاً أكثر تعقيداً . فأوسيرفاني Öcirvani (= فجر اباني) وتساكان ـ سوكورني نزلا من السماء على البحر الأولي . فطلب اوسيرفاني من رفيقه ان يغطس ويحمل له الطمي . وبعد ان نشر الطمي على سلحفاة ، نام الاثنان . فوصل الشيطان سلموس الذي جهد لاغراقهما ولكنه بمقدار ما كان يحركهما كانت الأرض تكبر . وحسب روايةأخرى ان اوسرمان ، الذي يعيش في السماء ، اراد خلق الأرض ويبحث عن رفيق ، فوجده في تساغان ـ سكورتي ، وارسله ليفتش عن الغضار باسمه . ولكن هذا تبجح قائلاً : «بدوني ، لن تستطيع الحصول على الغضار» وعندئذ سالت المادة من بين اصابعه . وغاطساًللمرة الثانية ، أخذ الطين هذه المرة باسم اوسرمان . وبعد الخلق عاش سولموس الذي طالب بجزء من الأرض ، تماما بما يستطيع ان يلمسه بطرف عصاه . وضرب سولموس التراب بعصاه فظهرت الافاعي[١٩] . وهذه الاسطورة تضع باعثين ثنائيين مختلفين جنبا إلى جنب :

١ ـ تماهي الضد مع بطل الرواية الغاطس .
٢ ـ الشرير الذي يصل من حيث لا يعرف من أين ، في حين أن الأرض كانت قد خلقت سابقاً ، فيطلب جزءا منها ، أو أنه سيسعى لخرابها .

إن الغطس النشكوني قد تأكد كذلك لدى الفنلديين الاغريين ولدىالسلاف الغربيين وفي اوروبا الشرقية وسنعود اذن لتفحص الفرضيات المتقدمة حول الاسطورة

وحول أصلها (ف ٢٥٠ ع) ونكتفي هنا بالتأكيد على انه بدءاً من المظهر الثالث ـ عندما غطس الخالق مع مساعدين بشر ـ تكونت الامكانيات المأساوية ، وفي اللحظة الأخيرة ، «ثنائيات» لغطس نشكوني . وان انقلابات غطس وعمل نشكوني تلاه أثيرت منذئذ لتفسير نقصان الخلق ، كذلك الأمر ظهور الموت وظهور الجبال والمستنقعات ، و«كولادة» الشيطان وكذلك وجود الشر ، وكما ان الخالق ليس هو نفسه الذي غطس لجلب مادة الأرض ، ولكن الحاجة اكملت من قبل مساعديه او من قبل أحد خدمه ، فقد أصبح من الممكن ان يدخل في هذا الاسطورة ، بالفعل وبفضل المشهد ، عنصر من التبعية أو من العداوة والتعارض . ان التفسير «الثنائي» للخلق قد جعل ممكنا بواسطة التحول المتنامي لمساعد الاله في «خادمه» ، «رفيقه» وفي النهاية «خصمه»[٢٠] . وسنتفحص فيما بعد أهمية هذا التفسير الثنائي في الالهيات الشعبية (ف ٢٥٠ ع) .

وتبرز الاساطير حول خلق الانسان ايضاً الدور المحزن للعدو أو الضد ـ فكما في كثير من الميتولوجيات ، يكون الله الانسان من الغضار وينفخ فيه الروح . ولكن السيناريو في آسيا الوسطى والشمالية ، يتطلب مشهداً مأساوياً : فبعد ان صنع اجساد البشر الأول ، ترك الاله كلبا لحمايتها وصعد للسماء من أجل ان يفتش لها عن روح . واثناء غيابه يحضر ايرليك ، وبعرضه على الكلب (الذي كان عاريا حتى هذه اللحظة) جزة صوف ، فيما اذا دعاه يقترب ، لوث الاجساد بلعابه .

ويعتقد البوريات انه بدون توسيخ شولم (الضد) فإن البشرية لم تكن تعرف الامراض والموت . وحسب مجموعة روايات أخرى آلتية ، ان ايرليك ، مستفيداً من غياب الاله ، ومضللاً الكلب ، أحيا الاجساد[٢١] .

والمقصود في هذه الحالة الاخيرة ، جهد بائس ، ليس من أجل اعفاء أوحل الاله من وجود الأمراض وميتة الانسان فحسب ، وانما من شقاوة الروح البشرية ايضا .

٢٤٥ ـ الشامان والتلقين الشاماني

إله سماوي حاكم أصبح إلهاً مفارقاً deusotiosus أو يتكاثر إلى مالانهاية (تانجري والـ ٩٩ تينجري) ؛ اله خالق ، ولكن أعماله (العالم والانسان) مفسدة بالتدخل الماكر

من ضد شيطاني ؛ عرضية الروح البشرية ، الأمراض والموت المثارة بالشياطين والأرواح الشريرة ، عالم مثلث ـ سماء ، ارض ، جحيم ـ يدخل جغرافيا ، اسطورية أحياناً ومعقدة جداً (تعدد المستويات السماوية والجحيمية الطالبة معرفة الطرق الموصلة للسماء أو العالم الآخر . . . ويكفي التذكير بهذه العناصر الجوهرية للتحقق من الدور البارز للشامان في ديانات اسيا الوسطى والشمالية . وعليه ، فإن الشامان هو في آن واحد لاهوتي وشيطاني ، متخصص بالانتشاء ورجل طبيب مساعد في الصيد ، حامي الجماعة والقطعان محرك نفسي ، وفي بعض المجتمعات ، مثقف وشاعر .

وما يقصد بالعبارة (شامانية) هو ظاهرة دينية قديمة (يبدو التأكيد عليها منذ العصر الحجري) ومنتشرة عالمياً (بالأحرى يوجد استثناء في افريقيا) . ولكن الشامانية في المعنى الدقيق للمصطلح ، تسود بخاصة في اسيا الوسطى والشمالية وفي الاقاليم الشمالية . والشامانية تعرضت دائما في آسيا لتأثيرات كبرى (ايرانية ، ميزوبوتامية ، بوذية ، لامية) دون ان تفقد ابداً بنيتها الخاصة .

ان القوى المتعددة للشامان هي النتيجة لتجاربه التلقينية . وانه بفضل التجارب اثناء تلقينه يقوم شامان المستقبل عرضية الروح البشرية ويتعلم الوسائل لمنعها أو للدفاع عنها ، كذلك فهو يعرف بالتجربة المعاناة المثارة بمختلف انواع المرض وينجح في تعيين نوع فاعليها ، وهو يتحمل موتا طقوسياً ، ينزل إلى الجحيم وأحيانا يصعد إلى السماء . وباختصار ، ان كل قدرات الشامان تتعلق بتجاربه ومعارفه للنظام «الروحي» ؛ لقد نجح في التآلف مع كل «الارواح» : ارواح الاحياء وارواح الأموات ، ومع الآلهة والشياطين ، ومع مالا يحصى من الوجوه ـ الغير مرئية بالنسبة لبقية البشر ـ التي تسكن الأقطار الكونية الثلاثة .

ويصبح المرء شامانا ، ١) بالهام عفوي (الدعوة أو الاختيار) ٢) بالانتقال الارثي للصنعة الشامانية و٣) بقرار شخصي أو في بعض الحالات النادرة بارادة القبيلة . الا انه مهما كانت طريقة الاختيار ، فإنه لا يعترف به شامانا الا بعد تلقيه تعليما مزدوجاً : ١) من نظام وجدي (احلام ، رؤى ، ارتعاشات الخ) و٢) ومن نظام تقليدي (صياغات شامانية ، اسماء ووظيفة الارواح ، ميثولوجيا ، وعلم انساب القبيلة واللغة السرية

الخ) . وهذا التعليم المزدوج ، الذي هو من مهمة الأرواح والمعلمين القدامى الشامانيين ، يشكل التلقي الذي يمكن ان يكون علنياً ، وغياب حفلة التلقين لا يقتضي البتة غياب التلقي : فهذا يمكن له تماماً ان يجري في الحلم أو في التجربة الوجدية للتلميذ . وتناذر الارشادات الصوفية يتم التعارف عليها بسهولة . وإن شامان المستقبل يتفرد بسلوك غريب ، يصبح حالماً ، ويبحث عن العزلة ، ويحب التجول في الغابات أو المحلات المقفرة . له تبصرات رؤوية ، ويغني اثناء النوم ، الخ . . وأحياناً تتميز هذه الفترة من الحضانة أو الإعداد بظواهر أو أمارات حادة : فعند جماعة الياكوت يحصل ان يصبح الشاب عصبي المزاج ويفقد المعرفة بسهولة ،ويلتجيءللغابات ، ويتغذى بقشور الاشجار ، ويلقى بنفسه في الماء والنار . ويجرح نفسه بالسكاكين[٢٠] .

حتى عندما يتعلق الامر بالشامانية الارثية ، فإن انتخاب شامان المستقبل يسبقه تغيير في السلوك : ارواح اجداد الشامان تختار شاباً من الاسرة ، وهذا يصبح غائباً وحالما . ومولعاً بحاجته للعزلة ، وله رؤى تنبؤية وبالمناسبة ، يتحمل المهاجمات التي تتركه بلون وعي . واثناء هذه الفترة يعتقد البورياشي ، ان الروح حملت بالارواح ، واستقبلت في قصر الآلهة ، وانها قد ثقفت من قبل اجداد الشامان باسرار الصنعة ، وأشكال واسماء الآلهة ، واسماء وعقيدة الأرواح الخ . . وبعد هذا التلقيفقط تكمل الروح الجسد[٢٣] .

ويقتضي الارشاد الصوفي على الغالب ازمة عميقة تلعب دور التلقين . وعليه فكل مسارة تلقينية ، من أي نوع كانت ، تلائم مرحلة من الفرز وعدداً من التجارب والتعذيبات . ان المرض المثار لدى شامان المستقبل بالشعور المغرق بالغم الذي كان «اختاره» هو بهذاالعمل ذاته مقوّم في «مرض تلقيني مساري». والعرضية والعزلة المتكشفتين بكل مرض ، هما في هذه الحالة الدقيقة ، مثقلتين برمزية الموت الصوفي : لأن ، اعتلاء «الانتخاب» المافوق، الطبيعي يترجم بالشعور المتروك للقوى الالهية أو الشيطانية ، أي المنذور لموت وشيك . و«جنون» الشامانيينالمقبلين، و «اضطرابهم النفسي» يعني ان الانسان المدنس هو على وشك ان «يذوب» وان شخصية جديدة هي على أهبة أن تولد .

وفي العديد من المرات تتبع أمارة (المرض) عن قرب بالـغ الطقس الكلاسيكي

للتلقين . فعذابات «المختار» تشبه في كل نقطة منها العذابات المساريَّة ؛ وتماما كما في طقوس التطهير ، فإن التلميذ المبتديء يقتل من قبل الشياطين - «معلمي التلقين» ، وشامان المستقبل يُرى مقطعاً ومجزءاً من قبل «شياطين المرض» . والموت الطقوسي مجرب من قبل المريض تحت شكل هبوط للجحيم :

يشهد في الحلم تقطيع نفسه إلى قطع ، ويرى الشياطين وهي تجتث له رأسه ، وتقلع عينيه الخ . . وحسب شعب الياقوط ، تحمل الارواح شامان المستقبل إلى الجحيم وتحبسه ثلاث سنوات في منزل . وهنالك يتحمل تلقينه : فتقطع الأرواح رأسه ، وتدعه جانباً (لأن على التلميذ ان يشاهد بعينيه الخاصتين عملية تقطيعه) ؛ وتقطعه إلى أجزاء صغيرة توزع بالتالي لأرواح مختلف الأمراض ، وبهذا الشرط فقط ، سيحصل الشامان المقبل على قدرة الاشفاء .

وتغطى العظام بالتالي بلحم طري وفي بعض الحالات يعطى دما جديداً . وقد روى شامانيون آخرون بأنهم ، اثناء مرضهم المساري ، قد ثقبهم اجداد الشامانيين بالاسهم ، وانهم قطعوا لحمهم وانتزعوا عظامهم لتنظيفها ، وعلى الأقل اذا لم يفتحوا بطنهم ، أكلوا لحمهم وشربوا دمهم ؛ أو انهم اخاطوا لهم الجسد وحلدوا (طرقوا) رأسهم على سندان . وخلال هذا الوقت يجسمون بدون وعي ، شبه فاقدي الحياة من ثلاثة إلى تسعة ايام ، في الخيمة أو محل منعزل . ويبدو بعضهم وكأنه انقطع عن التنفس ، ولم يفلح بدفنه . واخيراً ، أعيد احياؤهم ، وانما مع جسد متجدد بالكلية ، ومع منحة (ألشومنة) - اي ان يصبح شامانا(٢٤) .

وبصورة عامة ، عندما يجسم التلميذ بدون شعور في الخيمة ، تستدعي الاسرة شامانا ، وهذا الأخير هو الذي سيكون له دور المعلم . وفي حالات اخرى ، بعد «تقطيعه التلقيني» يذهب التلميذ للبحث عن معلم بهدف تعلم اسرار الصنعة . هذا وان التعليم هو ذي طبيعة باطنية ، ويتلقى احيانا في حالة انتشاء ؛ وبعبارة أخرى ، فإن المعلم - الشامان - يعلم تلميذه بنفس طريقة الشياطين والأرواح . ولدي الياقوط ، يأخذ المعلم معه روح التلميذ في رحلة طويلة وجدانية . فيبدآن بتسلق جبل ؛ ومن الأعلى هنالك ، يظهر المعلم للتلميذ مفارق الطريق حيث تصعد شعاب اخرى نحو رؤوس الجبال : إنها هنالك تستقر الأمراض التي تعذب البشر . ويقود المعلم بعد ذلك التلميذ

إلى منزل . وهنالك يرتديان الألبسة الشامانية ويشومنان مجتمعين . فيكشف له المعلم كيف يعرف ويشفي الامراض التي تهاجم مختلف اجزاء الجسم . واخيراً ، يقود تلميذ . إلى العالم الأعلى ، نحو الأرواح السماوية . ويتصرف الشامان الجديد منذئذ «بجسد متلقى» ويستطيع ممارسة مهنته(٢٥) .

كذلك يوجد حفلات عامة للتلقين ، وبخاصة لدى البوريات والجولد والألطيين والثونغوز والمانشو . وتصنف حفلات البوريات بين الأكثر أهمية . وتقتفي الشعيرة الأساسية صعوداً . فيثبت في الخيمة Youste شجرة سندر صلبة ، جذورها في الموقد ورأسها خارج من ثقب الدخان . وهذه الشجرة تسمى «حارس الباب» ، لأنها تفتح للشامان مدخل السماء . ويتسلق المتدرب حتى الشجرة Boulcan، ويخروجه من ثقب الدخان، يصرخ بقوةليستدعي مساعدةالآلهة. وبعدئذٍ، يتجه الحفل بكامله بطواف حول محل بعيد عن القرية ، حيث كان قد غرس مساء عدد كبير من اشجار السندر Boulcan من أجل الحفلة ، وبالقرب من شجرة ، يضحى بتيس ، فيدهن المدرَّب ، وهو عاري الجذع ، بالدم حتى رأسه وعينيه واذنيه ، بينما يلق الشامانيون الآخرون على الطبل .

ويتسلق المعلم ـ الشامان عندئذ على شجرة ، ويجري تسعة حِزَات (جروح) في قمتها . ويمتطي المدرّب بدوره شجرة ويتبعه شامانيون آخرون يسقطون جميعاً ـ أو يتظاهرون بالسقوط ـ بانتشاء . وحسب مصدر معلومات ، على المرشح ان يتسلق تسعة شجرات ، والتي هي كالحزات التسعة ترمز للسموات التسعة(٢٦) .

والذي يستخلص من هذا الطقس التلقيني ، ان المتدرب الشامان مهتم بالذهاب إلى السماء لكي يكرّس . وكما سنرى ، فإن الصعود بواسطة شجرة أو عمود يشكل كذلك الطقس الأساسي لاجتماعات الشامانات الآلثية . فشجرة السندر أو العمود يتمثلان بالشجرة أو العمود اللذان ينتصبان في وسط العالم ويوصلان الأقاليم الكونية الثلاثة في القمة ، وان الشجرة الشامانية لها كل الاحترامات التي هي للشجرةالكونية .

٢٤٦ ـ اساطير وشعائر شامانية

إن الاساطير حول أصل الشامان تبرز فكرتين ذات دلالة عالية : ١) أول شامان

كان مخلوقاً من قبل الاله (أو الآلهة السماوية) ؛ ٢) ولكنه بسبب تعاسته حددت الآلهة قدراته . فحسب البوريات ، قررت التينجري ان تعطي شامانا واحداً للبشرية لكي تكافح ضد المرض والموت، المدخلين عن طريق الارواح الشريرة. وقد أرسلت النسر ، الذي رأى امرأة نائمة فتعاطى معها . وولدت المرأة ولداً هو الذي أصبح «الشامان الأول» . ويشاركهم الياقوط ذات العقيدة . ولكن النسر يحمل ايضاً اسم الكائن الأعلى آجي (الخالق) أو آجي توجون (خالق النور) . وابناء آجي يمثلون كارواح - طيور موضوعة على اغصان شجرة العالم ؛ وفي القمة يوجد النسر ذي الرأسين ، الذي يشخص على الارجح آجي توجون ذاته[٢٧] .

إن أجداد الشامان - الذين تلعب ارواحهم دورا في الاختيار والتكريس للمدرب - تتحدر من هذا (الشامان الأول) المخلوق من قبل الكائن الأعلى على شكل نسر .

مع ذلك ، فإن دور الاجداد في الشامانية الحالية هو دور معتبر من قبل البعض كانحطاط . وحسب سنة تقليدية بورياتية ، كان الشامانيون في الزمن القديم (ينالون) سلطتهم مباشرة من الأرواح السماوية ؛ وليس سوى في زمننا انهم يتلقونها من اجدادهم[٢٨] .

وهذا الرأي يعكس العقيدة ، المؤكدة في أي مكان من آسيا وفي المناطق الشمالية ، لانحطاط الشامانية . وفي السابق ، كان (الشامانيون الأول) يطيرون حقيقة في الغيوم على (احصنتهم) (أي على طبولهم) ؛ وهم يستطيعون اتخاذ أي شكل وصنع معجزات لا يستطيع اخلافهم الحاليون صنعها وهم غير مؤهلين لاستعادتها . ويفسر البوريات هذا الانحطاط بالزهو وسوء حظ أول شامان : عندما دخل في مزاحمة مع اله ، فقد انقص هذا قدرته بسهولة[٢٩] . ويمكن كشف الرمز في هذه الاسطورة السببية بتأثير غير مباشر للمعتقدات الثنائية .

إن الشامان يلعب دوراً رئيسياً في الحياة الدينية للجماعة . ولكنه لا يملؤها ابداً . انه ليس مضحياً ، وفي الالتاي لا يتدخل في حفلات الولادة والزواج الا اذا حصل شيء غير مألوف ؛ على سبيل المثال ، في حالة العقم او الولادة الصعبة . وعلى العكس فإن الشامان يظهر غير ممكن ابداله في كل حفلة تمس بتجارب الروح البشرية مثل

الآتي : مرض (خسارة الروح أو تحللها بأرواح شريرة) والموت (عندما يتوجب ان تقاد الروح في عالم آخر) ، ومن جهة اخرى ، فإن الشامان في آسيا ، يستدعى عندما تنذر طرائد الصيد، أو لأجل المهارات التقنية الوجدية (تنبؤ ، تبصر الخ)[٣١] .

ولقد اعطى (راودلف) تفصيل وصف أصبح كلاسيكياً للأضحية الألطية بالحصان . فهذه الأضحية يحتفل بها من وقت لآخر من قبل كل عائلة ، وتستمر الحفلة سهرتين أو ثلاث سهرات متتالية . ان القام le kam (= شامان) يقيم في المرج خيمته الجديدة ، ويضع في داخلها شجرة سندر مجردة من اغصانها ومحززة بتسعة حزوز ، وبعد عدد من الشعائر الأولية ، يبارك الحصان ، وبمساعدة بعض الحضور ، يقتله وذلك بأن يكسر عموده الفقري بطريقة ان لا تسيل منه نقطة دم . وبعد اجراء تقدمات للاجداد والأرواح الواقية يحضر اللحم ويؤكل احتفاليا .

والجزء الثاني من الطقس ، الأكثر أهميـة ، يجري في المساء التالي . يرتدي القام Kam ثيابه الشامانية ويستدعي عدداً من الأرواح . وهي حفلة طويلة ومعقدة تكتمل بالصعود ، ويجري الشامان حركات ، وهو يضرب على طبله صارخاً ، ويشير في حركاته انه يرتفع للسماء . وبانتشاء يصعد على الحزوز الأولى للشجرة ، داخلاً تباعاً في السماوات المختلفة ، حتى التاسعة ، أو ، اذا كان قويا حقا ، حتى الثانية عشرة وحتى أعلى من ذلك . وعندما يدرك القمة التي تسمح له بها قوته ، يقف ويدعو بي اولغان .

أنت ، اولغان ، خلقت كل البشر . . .
انت ، أولغان ، وهبتنا جميعا القطعان !

لا تدعنا نسقط في الالم !!
اجعلنا نستطيع مقاومة الأشرار ،

لا ترينا ، ابدا كوموس Kormos (الروح الشريرة
لا تسلمنا إلى يديه .
لا تعاقب ذنوبي . .»

ويتلقى الشامان من بي اولغان فيما اذا كانت الاضحية مقبولة كما يتلقى تنبؤات عن الوقت وعن المحصول الجديد . وهذا المشهد يشير إلى ذروة (الانتشاء) : يتدحرج الشامان مجهداً . ويعد بعض الوقت يفرك عينيه ويبدو متيقظاً من نوم عميق ويحيي الاشخاص الحاضرين ، كما لو كان بعد طول غياب[٣٢] .

ان الصعود السماوي له مضاده في نزول الشامان إلى الجحيم . وهذه الحفلة هي اكثر صعوبة . فالنزول يمكن ان يكون عموديا ، أو افقياً ، وبالتالي ثنائي عموديا (صعود متبوع بهبوط) . ففي الحالة الأولى ، يبدي الشامان انه ينزل السلالم السبعة واحداً بعد الآخر ، أو الأقاليم الماتحت الارض المسماة بوداك Pudak (عقبات) . انه مصحوب باجداده وارواحهم المساعدة . ولكل (عقبة) مجتازة يصف تجلياً جديداً لما تحت الارض . وفي (العقبة) الثانية يظهر أنه يشير لصنجات معدنية ، وفي الخامسة ، يسمع الامواج وصفير الريح ؛ وأخيراً ، وفي السابعة ، يرى قصر ايرليك خان ، مبنيا من حجارة وغضار اسود محمي في كل أقسامه ، فيتلفظ الشامان بصلاة طويلة أمام ايرليك «حيث يذكر أيضاً بي اولغان (الذي في العلى) ؛ ويرجع بعدئذٍ إلى الخيمة ويروى للحضور نتائج سفره .

والنمودج الثاني من النزول - افقي ثم عمودي - هو اكثر تعقيداً واكثر مأساوية . فالشامان يمتطي جواداً عبر الصحارى والسهوب . ويتسلق جبل الحديد ، ويعد سفرة جديدةيصل امام «ثقب دخان الارض» المدخل الى العالم الآخر . وبنزوله ، يصادف بحراً ، ويجتاز جسراً له عرض الشعرة[٣٣] . ويمر امام محل تعذيب المذنبين ، وبامتطائه مجدداً ، يصل امام ايرليك خان حيث ينجح في الدخول رغم الكلاب التي تحرسه ورغم الحارس . ان اللقاء مع ملك الأموات - المومى إليه بصعوبة - يقتضي عدداً من المشاهد المرعبة والضخمة في آن واحد . ويقدم الشامان إلى ايرليك هدايا مختلفة ثم يقدم أخيراً الكحول . وينتهي الأمر بالاله بأن يسكر ويصبح رحيماً ، فيباركه ويعد بتكاثر القطيع الخ . . فيعود الشامان فرحاً إلى الأرض . ممتطياً ليس الحصان ، وانما اوزة . فيفرك عينيه كما لو أنه قد استيقظ ، فيطلب إليه : «هل امتطيت جيدا ؟ هل نجحت ؟» ويجيب : لقد اجريت سفرة عجيبة ، لقد استقبلت بشكل جيد جداً»[٣٤] .

وكما سنرى ، فإن هذه الهبوطات الانتشائية للجحيم كان لها أهمية بارزة في الديانة والثقافة لدى الشعوب الآلثية . ويمارسها الشامانيون للحصول على بركة ملك الأموات على القطيع والمحاصيل (كما في الأمثلة المذكورة اعلاه) ، وانما لقيادة المتوفين خاصة أو للبحث وتحرير روح المريض أسيرة الشياطين . هذا وان السيناريو هو نفسه دائما ، ولكن المشاهد المأساوية تختلف من شعب لآخر . ويومىء الشامان لصعوبات النزول ، وحده أو مترافقاً بمساعديه ؛ وبوصوله ، ترفض ارواح الموتى الدخول للقادمة الجديدة ، ويجب ان تقدم لها ماء الحياة . وينتعش المشهد ويصبح أحياناً مضحكاً . وفي حالات أخرى ، وبعد عدد من المغامزات ، يصل إلى بلاد الموتى ويفتش بين الجمهور عن ارواح الاقارب المقربين للروح التي يقودها لأجل أن يعهد بها إليهم . واذا عاد مرة ، فإنه يحمل إلى كل واحد من الحضور تحيات اقاربهم الموتى وحتى انه يوزع هدايا صغيرة من جانبهم .[٣٥]

ولكن الوظيفة الرئيسية للشامان هي الأشفاء . وبصورة عامة ، توصف الأمراض بتيه أو «باعتصاب» الروح ، فيبحث عنها ، الشامان ويأسرها ويعاود ادخالها إلى جسد المريض . واحيانا ، يكون للمرض سبب مزدوج : سرقة الروح ، المثقلة بامتلاكها من قبل الأرواح الشريرة ، والوظيفة الشامانيةتقتضي ايضاً البحث عن الروح باكثر من طرد الشياطين ـ وفي كثير من المرات يشكل البحث عن الروح بذاته استعراضاً تاما . فالشامان يباشر السفر الانتشائي بدئيا في الاتجاه الافقي ـ ليتأكد ان الروح ليست تائهة إلى حد ما في الاقاليم المجاورة أو البعيدة ـ وبالتالي ينزل إلى الجحيم ، ويماهي الروح الشريرة التي يمسك بها اسيرة وينجح في انتزاعها منها .

٢٤٧ ـ دلالة وأهمية الشامانية

باختصار ، ان الشامانيين يلعبون دوراً اساسياً في الدفاع عن التكامل النفسي للجماعة . فهم بامتياز الابطال ضد الشياطين ، وهم يحاربون الشياطين والامراض كما يحاربون السحر الاسود . إن العناصر الحربية التي لها أهمية كبرى في بعض نماذج الشامانية الأسيوية (ترس ، حربة ، قوس ، سيف الخ) تفسر بضرورة المعركة ضد الشياطين ، الأعداء الحقيقيين للبشرية . وبصورة عامة ، يمكن القول إن الشامان يدافع عن الحياة ، والصحة والخصب ، وعالم النور ، ضد الموت والأمراض والعقم ، وسوء

الحظ وعالم (الظلمات) ومن الصعب التصور ماذا كان مثل هذا البطل يستطيع ان يمثله بالنسبة لمجتمع قديم . انها القناعة ، في المكان الأول ، بأن البشرية ليست وحدها في عالم غريب ، محاطة بالشياطين و«قوى الشر» . فما عدا الآلهة والكائنات مما وراء الطبيعة التي توجه إليها الصلوات وتقدم إليها الاضحيات ، يوجد «متخصصون بالمقدس» ، رجال مؤهلون لرؤية الأرواح ، وللصعود إلى السماء والاجتماع بالآلهة ، والهبوط إلى الجحيم ومحاربة الشياطين والمرض والموت . ان دور الشامان الرئيسي للدفاع ولحماية التكامل النفسي للجماعة يقوم خصوصاً في هذا الخط : ان الناس متيقنون أن واحداً منهم مؤهل لمساعدتهم في الظروف الصعبة المثارة من قبل سكان العالم غير المرئي . ومن المواسي والمريح معرفة ان عضوا من الجماعة هو قادر لأن يرى ما هو مخبوء وغير مرئي بالنسبة للآخرين ويقدم لهم معلومات مباشرة ومحددة عن عالم ما فوق الطبيعة .

ان الشامان بفضل أهليته للسفر في عوالم ما بعد الطبيعة ، ورؤية الكائنات المافوق بشرية (الهة ، شياطين) وأرواح الموتى ، قد استطاع المساهمة بطريقة حاسمة بمعرفة الموت . ومن الراجح ان عدداً من الخيوط «الجغرافيا الجنائزية» ؛ كذلك فإن عدداً من افكار ميثولوجيا الموت ، هي حصيلة التجارب الوجدية للشامانيين . فالمشاهد التي يراها الشامان والشخصيات التي يصادفها عبر اسفاره الوجدية في الآخرة هي موصوفة حصراً من قبل الشامان نفسه ، اثناء أو بعد الرعدة . ان العالم المجهول والمرعب للموت يتشكل ، وينتظم بتوافق مع نماذج متميزة ، وينتهي بتقديم بنيته ، ومع الزمن ، يصبح مألوفاً ومقبولاً . وبدورهم فإن سكان عالم الموت يصبحون مرئيين ، فيتخذون وجهاً ، ويتمسكون بشخصية ، لا بل بسيرة ذاتية وشيئاً فشيئاً ، فإن عالم الأموات يغدو معروفاً والموت نفسه مقوم ، بصورة خاصة كشعيرة للمرور نحو طريقة روحية للتكون . . وفي آخر المطاف فإن قصص الأسفار الوجدية للشامانيين تساهم في اخفاء الصفة الروحية لعالم الأموات ، تماما باغنائه بأشكال وبصور محترمة .

إن مغامرات الشامان في العالم الآخر ، والتجارب التي يتعرض لها في هبوطاته الوجدية للجحيم وفي صعوداته السماوية ، تذكر بمغامرات الشخصيات في الحكايات الشعبية وابطال الأدب الملحمي . ومن الراجح جداً ان عدداً كبيرا من الموضوعات ، من

بواعث ، ومن شخصيات ، ومن صور ونماذج من الأدب الملحمي ، انما هي في التحليل الأخير ، من مصدر انتشائي ، وهم في هذا المعنى قد استعاروا قصص الشامانيين الراوية لاسفارهم ومغامراتهم في العوالم الماورائية .

وهكذا ، على سبيل المثال ، تروى مغامرات بطل البوريات مومانتو الذي نزل إلى الجحيم مكان أبيه وعاد للأرض ، ووصف عذابات المذنبين . وان التاتار يملكون أدباً معتبراً حول الموضوع . فلدى تاتار السهوب رساغان ، ان فتاة شجاعة كوبيكو، نزلت إلى الجحيم لتحمل منها رأس شقيقها المقطوع من قبل غول ، وبعد عدد من المغامرات ، وبعد ان شاهدت مختلف انواع العذابات التي تعاقب بمختلف الذنوب ، وجدت كوبيكو نفسها امام ملك الجحيم بذاته . فسمح لها بحمل رأس أخيها اذا خرجت منتصرةمن احدى التجارب . وهنالك أبطال آخرون في الأدب الملحمي التتري مكلفون بالمرور بمثل هذه التجارب التلقينية ، مطبقين دوماً نزولاً إلى الجحيم[٣٧] . ومن الراجح كذلك ان الغبطة القبل الانتشائية قد شكلت واحداًمن مصادر الشعر الغنائي . وعندما يتجهز الشامان لرعدته ، يضرب الطبل ، ويدعو ارواحاً للمساعدة ، ويتكلم (لغة غامضة ، أو (لغة حيوانات) . ويقلد صراخ الحيوانات وبخاصة غناء العصافير . وينتهي بالحصول على (حالة ثانية) تضع باهتزاز الابداع اللغوي والايقاعات للشعر الغنائي . ويجب كذلك تذكر الخاصية المأساوية لحضور الشاماني الذي يشكل استعراضا لا مثيل له في عالم التجربة اليومية . إن عرض المآثر السحرية الدوران مع النار و«معجزات» اخرى يكشف عالما آخر ، العالم الخرافي للآلهة وللسحرة ، عالم حيث يبدو كل شيء ممكناً ، وحيث يرجع الأموات إلى الحياة . وحيث يموت الأحياء من أجل ان يبعثوا بعدئذ إلى الحياة ، وحيث يمكن التلاشي أو الغياب ومعاودة الظهور آنياً ، وحيث تلغى (قوانين الطبيعة) ، وحيث ان بعضاًمن«الحرية» الفوق بشرية هي مشهورة وتكون حاضرة بطريقة عجيبة . وتفهم معقولية مثل هذا الاستعراض في جماعة «بدائية» . ليست «المعجزات» الشامانية فحسب تدعم وتقر البنى لدين تقليدي ، ولكنها تثير وتغذي ايضاً الخيال وتزيل الحواجز بين الحلم والحقيقة المباشرة ، وتفتح الباب نحو العوالم المسكونة من قبل الآلهة . والموتى والأرواح[٣٨] .

إن بنية هذا الكتاب ـ الذي يهدف لتحليل الابداعات الدينية بخاصة ـ تسمح فقط بتقديم موجز للأديان العامة للشعوب المنتمية لمجموعات لغوية للسيبرية القديمة Paléo- Sibérian ، الأورواليان ، والفينو ـ الاوغرية . ليس أن اديانهم تنقصها الفائدة ، ولكن لأن عدداً من اركانها المميزة (آلهة سماوية ، واله مفارق ، واسطورة الغطس النشكوني وتصليبها الثنائي ـ الشاماني) هي مشابهة لما هو موجود لدى الشعوب الآلثية . وهكذا وعلى سبيل المثال، يمكن تذكر اس Es للاينيسيين des iénisséiens (كيتس Kets) اسم يعني في آن واحد «سماء» و«اله سماوي» (ر. تانجري) . وحسب آنوتشين ، فإن اس غير ممكن رؤيته بمعنى ان أحداً لا يراه مطلقاً ؛ وان الذي يراه يصبح أعمى . واس هو الخالق وسيد العالم ، وانه كذلك قد خلق الانسان . وهو طيب ، كلي القدرة ، الا أنه لا يهتم باعمال البشر ؛ «انه يترك هذا إلى الأرواح من الصنف الثاني ، وإلى الابطال وكبار الشامانيين» . ليس له عبادة ؛ ولا تقدم له اضحيات ، ولا توجه إليه صلوات . مع ذلك فهو يحمي العالم ويساعد البشر .

وكودجو Kudju («سماء») اليوكاخير des Yakaghirs اله رحيم ، الا أنه لا يلعب دوراً في الحياة الدينية[٤٠] . ويسمى الكورجاكس إلههم الأعلى «الواحد الأعلى» و«المعلم الأعلى» و«الرقيب» و«الموجود» الخ[٤١] . الا أنه ساكن inactif .

ويبدو نوم الساموييد Num des Samoyèdes اكثر أهمية ومعروفاً بشكل افضل . فحسب اقدم معلومات(أ ـ م ـ كاسترن)ان نوم يقطن السماء. وهو يديرالرياح والأمطار ، ويرى ويعلم كل ما يجري على الأرض ، وهو يكافيء فاعلي الخير ويعاقب المذنبين[٤٢] . ويشير بعض المراقبين إلى طيبته وإلى قوته ، ولكنهم يضيفون إلى ذلك ، انه بعد ان خلق العالم ، والحياة والبشر ، عهد نوم بسلطاته إلى كائنات الهية اخرى ، أدنى منه . ومؤخراً ، قرر لوهيتسالو le htisale معلومات اضافية ؛ نوم يسكن السماء السابعة ، والشمس هي عينه ، وهو لا يمثل بصور ، وتقدم إليه اضحيات من غزال الرنة[٤٣] . وبمناسبة تنصير l'evangelisation الساموييد (١٨٢٥ـ١٨٣٥) دمَّر المبشرون

آلان (الاصنام) البشرية ، بعضها من ثلاثة أو سبعة أوجه . وبما انه ليس لنوم حسب رأي الغالبية من الشهادات صور ، فقد استنتج بحق ، ان هذه التماثيل تمثل الاجداد والارواح المختلفة . ومع ذلك فإن من الراجح أن البوليسفالي la poly cépalie (تعدد الرؤوس) تعني القدرة لرؤية ومعرفة كل شيء ـ انتهت لأن تناط بالشمس ، المظهر الرئيسي لنوم[٤٤] .

هذا وان الاسطورة النشكونية الأكثر شعبية هي ، كما في اي مكان من آسيا الوسطى والشمالية ، الغطس من قبل كائن ، المساعد أو الضد للاله . يرسل نوم تباعاً البجعات والأوزات «الغاطس» «القطبي» والطائر لغورو Iguru لتحمل له الأرض . ولم ينجح منها سوى هذا الأخير بالعودة مع قليل من الطين في منقاره . وعندما خلق نوم الأرض ، وصل «من جهة ما» «شيخ» طلب منه الاذن بأن يستريح . وانتهى نوم بقبوله ، ولكنه فوجيء صباحاً بالشيخ على ضفة الجزيرة ، على اهبة تدميرها . ومنذرا بالذهاب ، طلب الشيخ ـ وحصل ـ على القليل من الأرض التي استطاع تغطيتها بطرف عصاه .

وقد اختفى في هذا الثقب . بعد ان أعلن بأنه منذ الآن سيقيم هنالك ، وسيفتن البشر . وقد عرف نوم خطأه مذعوراً : لقد كان ظن بأن العجوز يريد الاستقرار على الأرض وليس تحتها[٤٥] . إن نوم في هذه الاسطورة ، ليس كلي المعرفة ، فقد جهل وجود ونوايا (العجوز) (الشرير الذي ادخل الموت) . وهنالك روايات مخالفة مؤكلة لدى التشيرميس Tchérémine والفوجول Vogouls تشير إلى الخاصية «الثنائية» للخلق[٤٦] . ولكن «الثنائية» هي ايضاً وبشكل اكثر ملحوظة في اساطير الفندلديين Finnois والأستونيين ، والموردفيين : الشيطان ـ نفسه الذي يغطس ، بناء على أمر الاله . ولكنه يخفي قليلاً من الطين في فمه «وهكذا تولد الجبال والمستنقعات»[٤٧] .

أما بالنسبة للشامانية ، فإن بنية الشامانيـة الاسيوية تبرز خيوطها الكبرى التي لحظناها (و٢٤٥-٢٤٧ع) . ومع ذلك يلاحظ ان الابداع الادبي في فنلندة . للإلهام الشاماني يدرك أوجه . ففي كاليفالا، الملحمة القومية التي قمشها الياس لونرو (الطبعة الأولى ١٨٣٢) ، ان الشخصية الرئيسية هوفيناموانيان Vainamoinan «الحكيم الخالد» .

وهو من أصل ماورائي مبصر ـ وجدي موهوب بقوى سحرية لا حصر لها ، واضافة لذلك ، فهو شاعر ، مغني وعازف على الهارب ، ومغامراته وكذلك مغامرات رفيقيه ـ الحداد ايلمارينين والمحارب بيمينكانيين ـ تذكر في مرات كثيرة بانتصارات الشامانيين والأبطال ـ السحرة الاسيويين(٤٨) .

وتلعب في مجتمعات الصيادين في البر والبحر ، الأرواح الحامية لمختلف اصناف الحيوانات واسياد الوحوش الكاسرة ، دوراً بارزاً . فالحيوان شبيه بالانسان ، وكل حيوان يملك روحاً ، وبعض الشعوب (على سبيل المثال «اليوكا جهيرت») ترى انه لا يمكن قتله قبل أسر روحه(٤٩) . ويرسل الاينوس والجيلاكس روح الدب المقتول إلى وطنه الأصلي . وان سيد الوحوش الكاسرة يحمي الطريدة والصيادين في آن واحد . ويشكل الصيد بذاته طقساً معقداً جداً . لأن الطريدة معتبرة كأنها موصولة بقوة مما فوق الطبيعة(٥٠) . وإن فائدة هذه المعتقدات والشعائر تكمن في قدميتها البالغة (تصادف كذلك في الاميركيتين وفي اسيا الخ) . وهي ترشدنا إلى التضامن الصوفي بين الانسان وعالم الحيوان . وهو مفهوم سحري ـ ديني سبق ان تأكد لدى الشعوب من الصيادين من العصور الحجرية (ف ٢ع) .
ومماله دلالته . ان المعتقدات في الأرواح الحامية للاجناس الحيوانية ، وفي اسياد الوحوش الكاسرة ، الشبه غائبة في ثقافات المزارعين ، مازالت تعيش في اسكندينافيا ، وما هو اكثر من ذلك ، ان عدداً من الصور الماورائية والافكار الميتولوجية المبرزة للقوى السحرية ـ الدينية لليحوانات ، توجد في معتقدات الرعاة وبخاصة في فولكلور المزارعين ، كما هو الأمر في بقية اوروبا وآسيا الغربية . ولهذه الواقعة نتيجة هامة : فهي تؤكد على استمرار حياة المفاهيم الموغلة في القدم في بعض المجتمعات الزراعية الاوروبية ، أقله حتى بداية القرن العشرين .

٢٤٩ ـ ديانة البلطيقيين

ان الشعوب البلطيقية الثلاثة ـ الليتوانيين ، والليتون ، والبروسيين القدامى (أو بروتيين) ـ هي الممثلة الأخيرة المستأصلة في حرب طويلة من التحول ومن الغزو مع

فرسان التيتون وقد انتهت بزوالها ، وبامتصاصها في كتلة المستعمرات الالمانية . وان الليتونيين والليتوانيين كانوا قد اخضعوا كذلك من قبل الجرمن ، وعلى الأقل ، انهم اعتنقوا المسيحية اسميا ، في القرن الرابع عشر ؛ ومع ذلك فقد نجحوا في الابقاء على تقاليدهم الدينية . وليس سوى بدءاً من القرن السادس عشر أن المبشرين اللوثريين قاموا بحملة مستمرة ضد الوثنية . ومع ذلك ، فإن الاثنوغرافية والفولكلور لشعوب البلطيق قد حافظت على قسم من التراث القديم وشكلت من حيث النتيجة ؛ مصدرا لا مثيل له لمعرفة الدين التقليدي[٥١] . وبصورة خاصة فإن الديناس les dainas (اغاني قصيرة من اربعة ابيات) هي ذات أهمية . وهي مرتبطة بطقوس الزراعة ، والزواج والموت . والقصص الشعبية . وقد شجعت جغرافية البلطيقيين محافظتهم «على العديد من المعتقدات والعادات القديمة التي مازالت حية في جبال البيرنية والآلب والكاربات والبلقان». الأمر الذي لا يستبعد ابداً تأثيرات الجوار ـ جرمن ـ استونيين ـ سلاف في القرون الاربعة الأخيرة المسيحية .

ومع وجود بعض المفارقات بين مجمعات الآلهة ومع المفاهيم الدينية والممارسات لشعوب البلطيق الثلاثة ، فإننا نقدمهم مجتمعين لتسهيل العرض . ومنذ البدء ، يقتضي الاشارة إلى واقعة ان البلطيقيين حافظوا على اسم الاله السماوي الهندو ـ اوروبي القديم ديبوس deiues ليتوني dieses ليتواني dievas بروسي قديم deivas وبعد اعتناق المسيحية ، استعمل ذات الاسم الديني للاشارة إلى الاله التوراتي . وفي الفولكلور الديني الليتوني فإن Dieus ، أب العائلة الالهية ، يسكن في مزرعته جبل في السماء : ومع ذلك يزور الأرض ويساهم في اشغال المزراعين وفي الأعياد الموسمية المكرسة له . وان ديفس Dive أحيا النظام في العالم وهو الذي يحدد مصير البشر ويسهر على حياتهم الخلقية[٥٢] ومع ذلك ، فإن ديفس ليس إلها أعلى وليست الألوهية الاكثر أهمية .

وان إله الرعد بيركونا Perkunes (ليتواني) أو بيركوناس Perkunas (ليتوني)[٥٣] . يقيم كذلك في السماء ، ولكنه غالباً ما ينزل على الأرض لمحاربة الشيطان والشياطين الأخرى (خطوط تشير للتأثير المسيحي) . وهو محارب عنيد وحداد للآلهة ، ويراقب الأمطار وبالتالي خصب الحقول . ويلعب بيركيماس/ بيركونس دوراً أكثر أهمية في حياة الفلاحين ، وتقدم إليه اضحيات في مناسبة الجفاف ومناسبة الأمراض . وحسب شهادة

من القرن السادس ، فإنه كان يقدم إليه ، اثناء العاصفة ، قطعة من لحم وترفع إليه هذه الصلاة : «أيها الاله بيركونا ، لا تضربني ، انني ابتهل إليك أيها الاله ! انني أقدم اليك هذا اللحم» وهي شعيرة قديمة مطبقة اثناء العاصفة ، من قبل شعوب بدائية على شرف الآلهة السماوية (ب ١٤ع) .

ويبدو ان هنالك مكان بارز في البانتيون البلطيقي مشغولاً من قبل الربة الشمس ، «التي رمز إليها منذ زمن طويل برمز مشابه لسوريا Surya الڤيدية» . انها متخيلة في آن واحد كالأم والشابة . والشمس Saule تملك أيضاً ، مزرعة على جبل سماوي ، بالقرب من مزرعة ديفس . واحيانا يتصارع هذان الالهان ضد بعضهما وتستمر المعركة ثلاثة أيام . وتبارك الشمس الارض المزروعة ، وتساعد الذين يتألمون ، وتعاقب المذنبين . وأهم عيد لها يحتفل فيه بالانقلاب الصيفي[٥٤] . وفي الفولكلور الديني الليتواني ، إن الشمس رسول ، هي زوجة مينوس méneus اله القمر ؛ وهذا الأخير يبدو ان له دور محارب . وكل هذه الآلهة السماوية متشاركة بالخيول : فهي تسافر على جبال السماء وتنزل على الأرض بعربات .

إن أغلب الآلهة المحلية هي ربات : الأرض الأم تسمى زيمن مات Zemen-mate من قبل الليتونيين وزيمينا Zemyna من قبل الليتوانيين ، وهؤلاء الأخيرون يعرفون كذلك (سيد الأرض) زيمبياتيس Zemepatis . ولكن عدد (الأمهات) كبير : وعلى سبيل المثال ، ام الغابة (ميزامات) و(ميدين) في الليتوانية . تتكاثر باصدارها ، لأم الحدائق . وأم الحقول ، وأم العنبيات ، أم الزهور الخ» . وبتشخيصات أخرى لظواهر طبيعية (أم المطر ، الرياح الخ) . وكما لاحظ اوسنر Usener[٥٥] ، فإن تكاثر امثال هذه الهويّات الميتولوجية يذكر بظاهرة مميزة للديانة الرومانية (ف ١١٣ع) . وعند (الليتون) إن أهم ربة هي (ليما Laima) من جذر laim = سعادة ـ حظ . وهي بامتياز آلهة الحظ أو المصير وهي تحدد مصير البشر منذ ولادتهم . ولكن ليما تدير ايضا الزواج ، ووفرة المحصول ، وحالة القطيع الممتازة . وبالرغم من التوليف مع العذراء مريم ، فإن ليما تمثل صورة دينية قديمة تنتمي على الأرجح لمرحلة متقدمة جداً من الوثنية الليتونية[٥٦] .

وقبل اعتناق المسيحية ، كانت العقيدة العامة قد طبقت بخاصة في الغابات .

وان بعض الأشجار ، وبعض الينابيع ، أو بعض الامكنة كانت معتبرة كمقدسة مسكونة قبل الآلهة ، وبالنتيجة ، فإن القرب منها كان محرماً . وكانت الجماعة تقدم لها الاضحيات في الهواء الطلق ، وفي الاجمات أو في الأمكنة الاخرى المقدسة ، وكان بيت الغابة يشكل حيزاً مقدساً ، كما هي الزاوية المقدسة للبيوت . وبالنسبة للمعابد بمعنى الكلمة ، فإن معلوماتنا عنها قليلة جداً . وقد كشفت الحفريات آثار معابد صغيرة ، مبنية من الخشب ، بشكل دائري وبقطر خمسة امتار تقريباً ، وكان تمثال الاله مقاماً في الوسط .

وإننا مع ذلك في ريب حول وجود طبقة كهنوتية . وتظهر المصادر وجود (سحرة) ، وعرَّافين ، ووجديين ؛ وكان تقديرهم بارزا . وتتعلق المعاهدة المفروضة في ١٢٤٩ من قبل الفرسان ذوي النظام الثيتوني للبروسيين القدامى - بأول وثيقة مكتوبة حول الديانة البلطيقية - وقد قضت بالزام المغلوبين بالعدول عن حرق أو دفن الموتى مع احصنتهم ، ومع خدمهم وسلاحهم وثيابهم أو أية اشيائهم الثمينة ٧٥٠ ؛ وبعدم التضحية للأنصاب بعد الموسم ، وللآلهة الأخرى ، وعدم استشارة الشعراءالرائين (ليفاثون) الذين يمدحون الموتى في المآدب الجنائزية ويزعمون رؤيتهم طائرين على خيول في الأجواء نحو العالم الآخر .

ويمكن التعرف في (الشعراء الرائيينBardsvisionnaire) على طبقة من الوجديين والسحرة المماثلين للشامانيين في آسيا . ومن الراجح جداً ، انهم كانوا يقودون في (نهاية المأدبة الجنائزية) روح الأموات نحو العالم الآخر ، لدى شعوب البالطيق ، وكما في أي مكان آخر ، كانت السلطات الكنسية تعتبر التقنيات الوجدية والممارسات السحرية كما لو انها موحى بها من قبل الشيطان . ولكن الوجد والوجدللشفاء يشكلان في العادة عملية دينية ، (أو «السحر الأبيض» : الشامان يتخذ شكل حيوان بهدف محاربة الارواح الشريرة . وقد تأكدت عقيدة مشابهة عند اللتيوانيين في القرن السابع عشر : اعترف شيخ متهم بالتشبه بالذئب بأنه كان ذئباً ، وانه ، في ليالي القديسة لوسيل ، من عيد العنصرة والقديس يوحنا ، أنه هو ورفاقه المتحولين إلى ذئاب ، وصلوا مشياً على الاقدام إلى «طرف البحر» اي (جهنم وخاضوا معركة مع الشيطان والسحرة . وكما روى العجوز فإن الذئاب حولت نفسها إلى ذئاب ونزلت إلى الجحيم لتسترد منهاالأموال المسروقة من

قبل السحرة ـ قطيع ، قمح ، وثمار أخرى للأرض ـ وفي ساعة الموت ، تصعد روح الذئاب إلى السماء ، في حين ان الشيطان يقود روح السحرة . وان الذئاب هي «كلاب الاله» . ولولا تدخلها الايجابي ، لكان الشيطان قد اجتاح الأرض[٥٨] .

إن التماثل بين الشعائر الجنائزية وشعائر الزواج يشكل ايضاً دليلاً على القدمية البالطيقية . وان مثل هذا التضامن الشعائري بين الزواج والموت كان يوجد ايضاً في بداية القرن ، في رومانيا وشبه جزيرة البلقان . وكذلك فإن هنالك عقيدة قديمة جداً بأن ديفس وسول وليما يرتدون احيانا لباساً كالفلاحين ويرافقونهم في حقولهم ، وهي عقيدة تأكدت في الفولكلور لجنوب شمال أوروبا .

وكنتيجة ، فإن الخطوط المميزة للديانة البلطيقية هي : ١) معنى عدة عائلات إلهية . ٢) الدور السائد لآلهات الشمس والعاصفة ، ٣) أهمية الربات في الولادات وفي المصير (ليما) وآلهات جوف ارضية وركود دمها . ٤) مفهوم معركة شعائرية ، منجزة برعدة entranse ، بين «السحرة الطيبين» المنذورين للاله ، والسحرة خدم الشيطان . وبالرغم من التوليفة المسيحية ، فإن هذه الأشكال الدينية قديمة جداً ، وهي متأتية إما من التراث الهندو ـ أوروبي (ديفس ، بيركوناس ، سول) ، واما من اساس اوروبي اسيوي (ليما ، زيمن مات) .

والديانة البلطيقية ـ تماما كديانة السلافيين والشعوب الفنلدية ـ الاوغرية ـ تقدم فائدة جلى لأن قدميتها تتوضح بمساعدة الاثنوغراف والفولكلور . وفي الواقع وكما قال ماريجا غيمبوتا ، mariga Gimbuta ، فإن الأرومة الما قبل المسيحية للفولكلور البالطي «هي قديمة لدرجة انها ترجع دون أي ريب إلى ازمنة ما قبل التاريخ ، وعلى الأقل إلى عصر الحديد ، او حتى بالنسبة لبعض عناصرها ، لعدة ألوف من السنوات السابقة»[٥٩] .

٢٥٠ ـ الوثنية السلافية :

إن السلاف والبالطيين هما آخر الشعوب ذات اللغة الآرية الداخلة إلى اوروبا . وقد كان السلاف المحكومون على التوالي من قبل السيت les ceythes والسارمات

Sarmates والقوط Goth مكرهين للاقامة خلال اكثر من الف عام ، في إقليم محلد بين الدنيستر والفيستون . ألا ان اجتياح اوروبا من قبل الهانس ، والبلغار والأفار ، وبدءاً من القرن الخامس سمح بفيضان الشعوب السلافية واستقرارها المتوالي في اوروبا الوسطى والشرقية(٦٠) . وقد تأكد اسمها ـ سكلافيني Sclavini ـ لأول مرة في القرن السادس . وقد قدمت الحفريات عدداً من المعلومات حول الحضارة المادية وحول بعض الاعراف والمعتقدات الدينية للسلافيين الساكنين في روسيا واقليم البلطيق . ولكن المصادر الوحيدة المكتوبة حول ديانة السلاف القدامى هي تالية على المسيحية ؛ وحتى عندما تكون صحيحة ، فإنها تقدم لنا حالة منحطة عن الوثنية العرقية . مع ذلك ، وكما سنرى ، فإن التحليل بانتباه للشعائر والمعتقدات الشعبية يسمح لنا بادراك بعض الخطوط المميزة الخاصة للتدين السلافي الأصلي .

وقد وصلت الينا معلومات قيمة من قبل هيلموند Hellmond في تاريخه عن السلاف المكتوب بين ١١١٧ و١١٧٢ . فبعد ان ذكر الأسماء والوظائف لبعض الآلهة التي سنعرضها فيما سيأتي أكد هيلموند ان السلاف لم ينكروا وجود «اله واحد في السماء» ولكنهم قدروا ان هذا الاله «يهتم فقط بالشؤون السماوية» تاركاً حكم أو ادارة العالم إلى آلهة أدنى منجبين من قبله . وقد دعا هيلموند هذا الاله (قدرة مطلقة prepotens واله ديورم deus deorum ، ولكنه ليس الها للبشر ، : انه يحكم على الآلهة الأخرى ، ولا علاقة له مع الأرض(٦١) . فهو يتعلق اذن باله سماوي أصبح مفارقاً deus otiosus سبق ان اشرنا له لدى الشعوب الآلثية والفينور اوغريان . ولكنه مؤكد كذلك لدى الهنود الاوروبيين [ر. الاله الڤيدي ف. ٦٥ع] .

أما بالنسبة للآلهة الأخرى ، فإن القائمة الأكثر كما لاتوجد في تاريخ اخبار كييف المسمى تاريخ وقائع نسطور Nestor وهي وقائع محررة في القرن الثاني عشر . وهذا المؤرخ الاخباري يعرض بشكل سريع و«بسخط» وثنية القبائل الروسية في عصر الأمير الكبير فلاديمير (٩٧٨ـ١٠١٥) . ويذكر سبعة آلهة بيرون Perun ، فولوس Volos ، كورس Khors ، دازهبوج Dazhbog ستريبوح Stribog ـ سماغلو وموكوش Simarglu et mokosh ـ ويؤكد «ان الشعب كان يقدم لها اضحيات [. . .] وكان يقود لها ابناءه

وبناته . ليضحي بها لهذه الشياطين . . .»[٦٢] .

وبفضل معلومات اضافية ، تم التوصل لاعادة تكوين ، على الأقل في جزء منها ، بنية ووظيفة البعض من هذه الآلهة . بيرون كان معروفاً من كل القبائل السلافية ؛ وتوجد ذكراه في التقاليد الشعبية وفي اسماء المواقع وان اسمه هو هندو ـ اوروبي (من الجذر Pesk-Per بمعنى خرب ، فجرّ وهو يدل على اله العاصفة ، المشابه لبارجانيا الفيدي وبيركونا البلطيقي . ومن المحتمل ، انه كان يشبه بيركونا ـ ممثلاً كرجل كبير ونشيط ، ذي لحية حمراء ، وفأس أو مطرقة في يده يقذفها ضد الأرواح الشريرة . وبعض القبائل الجرمنية تضاهي بيرون وطهور . وان اشتقاق اسمه يوجد في بيوروم Piorum ، وهو مصطلح بولوني لأصل الرعد والبرق ، وفي عدد من تعبيرات الشعوب السلافية[٦٣] . وكانت شجرة السنديان موقوفة عليه مع بقية آلهة العاصفة لأوروبا ما قبل المسيحية . وحسب رأي المؤرخ البيزنطي ، بروكوب ، كان يضحي له بديوك الدجاج وبالكباش . . وفي الفولكلور المسيحي ـ كان بيرون قد ابدل بالقديس ايلي Elie ، متخيلاً كشيخ ذي لحية بيضاء ، مجتازاً السماء في عربة نارية .

وفيلس Volos أو قيلس Veles . إله للقطيع من ذات القرون ، وهو يجد موازيات له في الليتوانية كـ فيلنياس Velnias الذي يعني الآن (شيطان) وفيلية velé (ظل الموت)» ، وفي السلتية تكلم تاسيت عن فيلادا Velada نبية السلتيين»[٦٤] . وحسب رومان جاكوبسون ، انه يتفرع عن مجمع الآلهة العام الهندو ـ اوروبي ويمكن مقارنته بفارونا. وقورش Khors هو الاسم الديني المستعار من الايرانية خورشيد Kl.ursid ، تشخيص الشمس . كذلك فإن سيما ـ غلوهومن أصل ايراني ؛ وقد قربه جاكوبسون من الفارس سيمورغ (العنقاء الالهي . وقد استعاره السلافيون على الارجح من السارماتيين الذين كانوا قد عرفوه تحت الاسم سيمارغ .

وحسب الاشتقاق اللغوي فإن دازهبوج Dazhbog تعني «موزع الثروات» [في السلافية duti «أعطى» و logu «ثروة» ، ولكن ايضاً «إله» ، مصدر الثروات] .

وهذا الاله قد تماهى ايضا بالشمس . أما بالنسبة لستريبورغ striborg فلا يعرف

عنه شيء ؛ غير ان نصاً روسياً قديما ، قصيدة ايغور ، يؤكد ان الرياح هي احفاده(٦٦) . وموكوش آخر الالهة المذكورة من قبل مقمش الاخبار نسطور ، كانت على الراجح ربة للخصب . وفي القرن السابع عشر ، طلب القساوسة الروس من الفلاحين : «أذهبت لعند موكوش ؟» . وكان التشيك يدعونها اثناء الجفاف والمحل . وتذكر بعض مصادر القرون الوسطى الاله رود Rod (اسم مرتبط بفعل Raditi بمعنى «حمل») وروز هينيشات les Rozhenitsa («أم ، رحم ، خصب») جنيات مشابهة للنورمات Normes الاسكندينافية . ومن المحتمل ان الروزهينيشات هي التجليات أو الاقانيم lypostures للربة الأم القديمة المحلية ماتي سيرازين ليا «الأم الأرض الطيبة» التي استمرت عبادتها حتى القرن التاسع عشر .

ويعرف كذلك خمسة عشر من اسماء آلهة البلطيق ، الاقليم الذي بقيت فيه الوثنية قائمة حتى القرن الثاني عشر . واكثر هذه الآلهة أهمية كان (سفيتوفيت) svetovit الاله المعلم لجزيرة روجن ، والذي كان له معبده في آركونا والذي يقاس تمثاله بثمانية أمتار(٦٨) . ويشير الجذر svet أصلا إلى القوة (كان قويا) . وقد كان سفيتوفيت في آن واحد محارباً وحاميا للحقول . وفي ذات الجزيرة كانت جاروفيت Jarovit وروجفيت وبوروفيت معبودات كذلك . ويشير اسم الأولين منها إلى وظيفة تتعلق بالتقويم : جارو «شاب ، متقد ، آني» ويعني «الربيع»(٦٩) . ورينو هو الاسم للشهر الخريفي عندما تتزاوج الحيوانات الفتية ؛ وبورا يعني «وسط الصيف» .

إن البوليسيفالي (متعدد الرؤوس) poly cephalis يصادف لدى بعض الشعوب الهندو ـ اوروبية (علىٰ سبيل المثال ثلاثي الرؤوس الغالي (الفارس التراسي ذي الرأسين أو الثلاثة رؤوس الخ) ، ولكنها تأكدت كذلك لدىٰ الفينور اغريان (د ٢٤٨ م) التي قدم بعدها السلاف الأوائل عدداً من المشابهات . ودلالة البوليسيفالي واضحة : انها تعبر عن كلية الرؤية الآلهية ، وهي صفة مميزة للآلهة السماوية ، ولكن ايضاً للآلهة الشمسية ، ويمكن الافتراض ان الآله الأعلىٰ للسلافيين الغربيين تحت مختلف أشكالهم (تريجلاف . سفانتفيت ، روجيفيت) . كان إلها شمسيا . وتعيد إلىٰ الذاكرة بأن كورس ودازهبورغ كانت متماهية بالشمس لدىٰ السلاف الشرقيين . واله آخر سفاروغ Svarog (لدىٰ السلاف الغربيين سفاروزيك) كان الأب للدازهبورغ ، وقد كان معتبراً كاله أعلىٰ .

وحسب التقليد ، ان النار ـ سواء أكانت سماوية باكثر مما هي منزلية ـ كانت ابن سافوزغ . . وفي القرن العاشر كتب الرحّالة العربي المسعودي ان السلافيين كانوا يعبدون الشمس ؛ وكان عندهم معبد مع فتحة في قبته لكي يراقبون منها طلوع الشمس[٧١] . ومع ذلك ، ففي معتقدات وأعراف الشعوب السلافية ، ان القمر (من نوع مذكر ، يلعب دوراً أكثر أهمية من الشمس «الحيادية والمشتقة على الارجح من اسم مؤنث» . وتوجه الصلوات للقمر ـ مدعواً «أب» أو «جد» ـ للحصول على الوفرة والصحة ، ويحصل النحيب والتأوه في حالات الكسوف[٧٢] .

٢٥١ ـ طقوس . اساطير ومعتقدات السلاف القدامى

سيكون من العبث محاولة إعادة تكوين الدين السلافي من التاريخ . ومع ذلك يمكن تمييز الطبقات الأساسية وتحديد معطياتها بدقة لبناء الروحية السلافية . فإضافة للإرث الهندو ـ اوروبي والتأثيرات الفينو ـ اوغرينية والايرانية ، يمكن مضاهات الطبقات التي مازالت أكثر قدما . فتبنى اللفظ الايراني بوغ bog «غنى» ولكن «اله» ايضا ، قد حل محل الاسم الديني الهندو ـ اوروبي ديفوس deivos المحافظ عليه من قبل البلطيقيين (ب . ٢٢٨ع) . ولقد اشير فيما سلف إلى استعارات أخرى من مصدر ايراني [٧٣] . أما بالنسبة للتماثل مع معتقدات واعراف الفينو ـ اوغريني ، فيمكن لها ان تفسر إما بالاحتكاكات اثناء عصور ما قبل التاريخ واما بتفرعها من تقليد عام .

وعلى سبيل المثال ، فقد تم ابراز المشابهات بين بنية معابد السلاف الغربيين وغربيين ومعابد الفينو ـ الأوغريين ، وابراز التشابه بين تصوراتهم المتعددة الرؤوس للآلهة وللأرواح[٧٤] . وهنالك عادة ما قبل سلافية ، مجهولة لدى الهندو ـ اوروبيين هي الدفن المزدوج[٧٥] . فبعد ثلاث أو خمس او سبع سنوات ، تنبش العظام ، وتغسل وتغلف بفوطة ؛ وكانت هذه تنقل إلى البيت وتوضع موقتا في «الزاوية المقدسة» هنالك حيث تكون الايقونات معلقة . والقيمة السحر ـ دينية لهذه الفوطة هي بسبب تماسها مع جمجمة وعظام الموتى . وأصوليا كانت توضع قطعة من العظام المنبوشة في «الزاوية المقدسة» ، وهذه العادة ، القديمة جداً (تأكدت في افريقيا واسيا) توجد لدى

الفينوا[٧٦] .

وهنالك مؤسسة سلافية أخرى غير معروفة من قبل الهندو- اورويين وهي سنوشا سيتفو le snochacestvo أي يمين العم (أبو الزوج) لينام مع خطيبات ابنائه البالغين ومع كنائنه عندما كان ازواجهن يغيبون لفترة طويلة . وقد قارن اوتو- شرادر otto chrader السنو شاسيتفو بالتطبيق الهندو- اوروبي للنقل الزواجي adiutor matrimon . ولكن نقل الابنة أو الزوجة كان يتم من قبل الأب أو الزوج ، واللذان كانا يمارسان هكذا سلطتهما الأبوية أو الزوجية ، والنقل لم يكن يتم دون معرفة ، أو ضد ارادة الزوج[٧٧] .

وليس بأقل من ذلك تمييزا المساواة بالحقوق في المجتمعات السلافية القديمة . فالجماعة بكاملها كانت تتمتع بكامل سلطاتها ، وبالنتيجة فإن المقررات تصبح متخذة بالاجماع ، وكلمة مير mir في الأصل كانت تدل في آن واحد على الجمعية المشتركة وعلى الاجماع في مقرراتها ؛ الأمر الذي يفسر لماذا توصلت كلمة مير لأن تدل في آن واحد على السلام والعالم . وحسب غاسباريني ، فإن كلمة مير تعكس مرحلة في الجماعة التي يكون كل عضو فيها- نساء ورجالا- يملك ذات الحقوق[٧٨] .

وكما في الاثنيات الأوروبية ، فإن الفولكلور الديني ، والمعتقدات والعادات السلافية قد حافظت على قسم كبير من التراث الوثني قل أو كثر صبغه بالصبغة المسيحية .

ان منفعة خاصة ترتبط بالمفهوم الماقبل- سلافي لروح الغابة (بالروسية ليشي leshy ، والبيلوروسية ليشوك leshuk الخ) التي تضمن للصيادين الكمية الضرورية من الطرائد . ويتعلق بنموذج قديم من الألوهية : سيد الوحوش الكاسرة (ف ٤ع) وان روح الغابة ليشي ستصبح فيما بعد حماية القطعان . كذلك فإن الاعتقاد بان بعض أرواح الغابة تدخل في المساكن اثناء بنائها ، هو اعتقاد قديم . وهذه الارواح خيرة أو شريرة تدعم المنازل .

وتبرز الميتولوجيا الشعبية بوضوح اكثر استمرارية حياة المفاهيم القديمة الماقبل مسيحية . وكمثال وحيد على ذلك وهو اكثرها شهرة واكثرها دلالة : اسطورة الغاطس النشكوني ، المنتشرة كما رأينا (ف ٢٤٤ع) في كل اسيا الوسطى والشمالية . تحت شكل

متمسيح قل أو كثر ، ونجدها في اساطير الشعوب السلافية والأوروبية الجنوبية ـ الشرقية والأسطورة تتبع المخطط المعروف جداً ؛ يصادف الاله ، حول البحر البدئي ، الشيطان ويأمره بأن يغطس لعمق المياه ويحمل القليل من الطين أو (الرمل) في فمه أو يده ، وعندما تبدأ الأرض بالنمو ، فإن هذه الحبيبات القليلة تصبح جبالاً أو مستنقعات . وثمة خاصية للترجمات الروسية ألا وهي ظهور الشيطان ، وفي بعض الحالات ، الاله ، تحت شكل طائر مائي .

وعليه فإن الصفة الطيرية للشيطان هي أثر من أصل وسط ـ اسيوي . ففي «اسطورة بحر طبريا» (انجيل مزور توجد مخطوطاته منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر) أن الاله ، الذي طار في الأجواء ، شاهد ساتانيل تحت شكل طائر مائي . ونص آخر يبرز الاله والشيطان تحت شكل ذكري بط غاطسين ابيض واسود(٨٠) .

وبالمقارنة مع الروايات الأخرى لوسط اسيا لذات الاسطورة النشكونية ، تعبر الترجمات السلافية والشمالية الشرقية الاوروبية عن الثنائية . اله ـ شيطان . وقد فسر بعض العلماء هذا المفهوم للاله الذي يخلق العالم بمساعدة الشيطان كما لو انه التعبير عن معتقدات بوغوميلية . غير ان هذه الفرضية تصطدم بصعوبات . فبدئيا لا توجد هذه الاسطورة في أي نص بوغوميلي ، واكثر من ذلك ان هذه الاسطورة ليست مؤكدة في الاقاليم التي كانت ابوغومولية قائمة فيها خلال قرون (حربيا ، البوسنة ، الهرسك ، هنغاريا)(٨١) .

ومن جهة أخرى ، فإن انواعاً مختلفة قد حصلت في اوكرانيا وفي روسيا ، وفي المقاطعات البلطيقية ، حيث ان المعتقدات البوغومولية لم تدخلها مطلقاً. وأخيراً فقد رأينا ، أن الاثبات الاكثر تركيزا للاسطورة يوجد لدى شعوب اسيا الوسطى والشمالية . وقد افترض لها مصدر ايراني . لكن اسطورة الغاطس النشكوني لم تعرف في ايران(٨٢) . واضافة إلى ذلك ، وكما كنا اشرنا ، فإن انواعاً مختلفة من هذه الاسطورة تصادف في اميركا الشمالية وفي الهند الايرانية وما قبل الايرانية وفي اسيا الجنوبية الشرقية .

وباختصار ، انه يتعلق باسطورة قديمة ، اعيد شرحها واعيد تقييمها مراراً . وان مسيرتها الملحوظة في اوراسيا واوروبا من الوسط والجنوب ـ شرق تثبت انها تلبي ضرورة عميقة من الروح الشعبية . فمن جهة ، ومع الأخذ بعين الاعتبار عدم كمال العالم ووجود الشر ، فإن الاسطورة كانت تفصل الاله عن الأخطاء الاكثر جسامة للخلق . ومن جهة اخرىٰ كانت تبرز مظاهر للاله الذي سبق له أن عاشر التصور الديني للانسان القديم : خاصيته كاله مفارق (بارزة بخاصة في الخرافات البلقانية) وهكذا فسرت التناقضات والآلام للحياة البشرية والرفاقية أو حتى الصداقة بين الاله والشيطان .

ولقد اكدنا على هذه الاسطورة لعدة اسباب ، فبدئيا تشكل - في ترجمتها الأوروبية ، أسطورة كلية ، لا تروى خلق العالم فقط ، وانما تفسر كذلك أصل الموت والشر . واضافة إلى ذلك ، اذا أخذنا بعين الاعتبار من كل هذه المتغيرات ، فإن هذه الاسطورة تبرز عملية تصليب (ثنائي) يمكن مقارنته بابداعات دينية أخرى مشابهة (الهند ف ١٩٥ع وايران ف ١٠٤ع ٢١٣ع) . مع ذلك ، فإنه يهمنا في هذه المرة اساطير فولكلورية ، كيفما كان مصدرها ، من جهة اخرى . وبعبارة اخرى ، فإن دراسة هذه الاسطورة تخولنا الامساك ببعض مفاهيم التدين الشعبي . ان الشعوب الاوروبية الشرقية بعد زمن طويل من اعتناقها الديانة المسيحية بررت ايضاً بترجمتها الاسطورة ، الوضع الحالي للعالم ولشرطنا البشري . فوجود الشيطان لم يعارض أبداً من قبل المسيحية . ولكن دور الشيطان في النشكونية كان تجديداً (ثنائياً) ضمن النجاح الكبير والدورة العجيبة لهذه الخرافات .

ومن الصعب التحديد بدقة ، فيما اذا كان السلاف القدامى قد تشاركوا بمفاهيم ثنائية اخرى من نموذج ايراني أوغنوصي . وما يعنينا هنا البرهان على استمرارية التركيبات والبنى الاسطورية الدينية القديمة في معتقدات الشعوب الاوروبية المسيحية ومن جهة اخرى ، الأهمية بالنسبة للتاريخ العام للأديان ، لاعادة تقييمات منشأة على مستوى فولكلوري لتراث ديني موغل في قدمه .

حواشي الفصل الواحد والثلاثين

١ ـ ان الفرضية لأسرة لغوية اورال ـ آلطية تحتوي الفنلدية ايضاً قد أهملت

٢ ـ الوثائق المكتوبة قليلة ومتأخرة : بعض الاشارات في التقويمات السنوية الصينية من القرن الثاني قبل المسيح ، ولدى بعض المؤرخين اللاتين والبيزنطيين من القرن الرابع بعد المسيح (المتعلقة بحملات آتيلا) (القرن السابع والثامن) والأدب المنبثق على غزوات جنكيزخان ، والذي يجب ان يضاف إليه علاقات ابناء ماركوبولو والبعثات الكاثوليكية الأول ، وليس سوى بدءاً من القرن الثامن عشر ان مؤلفات الكتاب الأوروبية قدمت معلومات اكثر تماسكاً حول المعتقدات والاعراف الأوراسية .

٣ ـ ٥ ـ اسماء المراجع

٦ ـ في المعتقدات الدينية للشعبية للمونغول ان تانجري «خلق الكل ـ النار ـ اللبن الخ ولكنه لا يتعلق بنشكونية بمعنى الكلمة .

٧ ـ ذات المعتقد تأكد في فترة المونغول (كانَ خاناً بقوة وسلطة السماء الخالدة) ـ فروسية ـ امبراطورية السهوب

٩ ـ ١٠ ـ حول اسماء الآلهة من بنية اورانية ـ رئيس ، معلم ـ أب خالق . الكبير النور الخ . . (اسماء المراجع)

١١ ـ هذه الصورة مكملة بالاعتقاد ان العالم مستند إلى حيوان (سلحفاة ـ حوت يمنعه من الغوص في المحيط)

١٢ ـ انظر المصادر المعتمدة في كتاب الشامانية للمؤلف . وان البوريات تمثل النجوم كقطيع من احصنة والنجمية القطبية هي الوتد الذي يربط به ـ والفكرة عامة لدى الشعوب الألتية والايغورية .

١٣ ـ ١٤ ـ تأكد كذلك لدى عدد من سكان العصور القديمة كما في الثقافات المتطورة لمصر ـ الهند ـ ميرسوبوتاميا اليونان ـ والمراجع .

١٥ ـ ١٧ ـ اسماء المراجع

١٨ ـ رادولف مرجع سابق . ص ١٠٢ تروى الاسطورة ايضاً خلق الانسان . فإيرليك خان يطلب المزيد من التراب الذي يستطيع تنظيمه بالعصى . فيضرب الأرض وتظهر الحيوانات الضارة . اخيراً يرسله الاله تحت الأرض . ان العداوة بين ايرليك والاله لا تشير بالضرورة الى مفهوم ثنائي - في نقوش صخرية تركيبية ، ايرليك هو اله الموت .

١٩ ـ ٢٢ ـ اسماء المراجع

٢٣ ـ منذ بداية نصف القرن الأخير ،جرت المحاولة عدة مرات لشرح ظاهرة الشامانية السيبرية والشمالية بمرض عقلي . ولكن المسألة طرحت بشكل سيء . فمن جهة ان الشامانيين المقبلين ليسوا مؤهلين للنرفزة ، ومن جهة اخرى فإن الذين كانوا من بينهم مرض اضحوا شامانيين لأنهم نجحوا فعلاً بالشفاء . ان اعادة تعادل شفاء ؛ انها تترجم بين اخرى بتكامل نفسي جديد . (الشامانية للمؤلف) .

٢٤ ـ ٢٥ ـ اسماء المراجع

٢٦ ـ هذه الشعيرة تذكر ببعض حفلات الاسرار الميثرية . وهكذا فإن تطهر المرشح بالدم كبش ، وصعوده من الشجرة يذكر بالصوفي الميثري المتسلق سلماً من سبع درجات ممثلاً السموات السبع الكوكبية (ف. ٢١٧) وكما لاحظنا فإن التأثيرات الشرق اوسطية القديمة واضحة في كل مكان من اسيا الوسطى في سيبيريا ، والشعيرة التكريسية للشامان بوريات ويجب لها على الراجح جد أن تصنف بين تجارب هذه التأثيرات . الا انه يجب ان نضيف ان رمزية شجرة العالم وشعيرة الصعود التكريسي للشجرة يسبق العناصر لثقافة واصلحة من ميز وبوتانيا وايران .

٢٧ ـ انظر المصادر المذكورة في كتاب الشامانية للمؤلف ف. ٧١ـ٧٢ . . عندما خلق آجي توجون اول شامان ، غرس كذلك شجرة سندر ذات اغصان ثمانية في مقره السماوي وعلى هذه الاغصان اعشاش حيث وجدت اطفال الخالق . فقد غرس اضافة لذلك ثلاثة اشجار على الأرض ، وعلى ذكرها ان الشامان يملك هو ايضا شجرة ، وحياتها بتوع ما هو مرتبط وذات المرجع . وبعض الشامانيين في احلامهم الوجدية نقلوا بالقرب من الشجرة الكونية ، التي يوجد في قمها سيد العالم .

٢٨ ـ ٢٩ ـ لدى المونغول يرتبط شامانيون حصراً باجدادهم (سترانبرج .) اختيار الهي ف ٤٥٥

٣٠ ـ كما سنرى فإن لدى الألثيك ـ ان الشامان هو ذاته الذي يضحي بالحصان ، ولكنه يفعله لأنه مدعو ليقود روح الضحية حتى بي ـ اولغان .

٣٣ ـ لكي يعطى صورة اخاذة عن سفره ، يتأرجح ويتفادى السقوط . ينظر في قاع البحر عظام مالا يحصى من الشامانيين الذين سقطوا فيه ، لأن المذنب لا ينجح في اجتياز الجسر .

٣٤ ـ ٤٤ ـ اسماء المراجع

٤٥ ـ ليهنيالو ـ ملخصة في ذالموكسي و ـ اسطورة ثانية مهامويدية تمثل منذ البدء العداوة بين نوروم والموت .

٤٦ ـ ٥٠ ـ اسماء المراجع

٥١ ـ المصادر المكتوبة (سير ذاتية) تقارير المبشرين والعاملين والكنائس الخ . تحتوي احياناً على معلومات مفيدة ولكن يجب الأخذ بها بحذر . فأغلبية منشئيها يجهلون اللغة البالطية اضافة لذلك ، فإنهم قد (مثلوا) الوثنية العرقية حسب نماذج الدعاية للمؤرخين المسيحيين .

٥٢ ـ ٥٦ ـ المصادر التي اعتمدها المؤلف .

٥٧ ـ هذه العادة القديمة تأكدت مما قبل التاريخ كما هو في ميزوبوتاميا والصين والتيبت الخ واستمرت مع ذلك حتى القرن الخامس عشر .

٥٨ ـ ٦٥ ـ اسماء المراجع

٦٦ ـ ٦٧ ـ اشتقاقه اللغوي غير مؤكد ، فقد فرض الجذر السلافي srei ـ لون او الايراني سريري = جميل لقب عام بالنسبة للريح ولكنها توحي ايضا ببريق الشمس .

٦٨ ـ دمر المعبد في ١١٦٨ . وبعض المعابد الصغيرة لجزيرة روجين ، كذلك المعبد المرتفع على تلة ريلدريفو دمرت في القرن ١٢ و١٣ اثناء حملات الايمان المكره عليها بالمسيحية .

٦٩ ـ القس جارفوا أعلن باسمه «انني ربكم الذي يغطي الحقول بالعشب والغابات بأوراق الشجر . وان محاصيل الحقول والغابات وكل الاشياء النافعة للبشر هي من قدرتي» .

٧٠ ـ ٧٢ ـ اسماء المصادر

٧٣ ـ لنضيف ان العبارة roy التي اقبل تعبيرها عن المعنى المسيحي للجنة ، كان لها ذات الدلالة لـ Bog = ثروة = غنى .

٧٤ ـ ٧٦ ـ اسماء المصادر .

٧٧ ـ غاسباريني يذكر بخطوط اخرى ليست هندو ـ اوروبية ، الاعراس الزواجية ـ وجود قبيلة امومية وسلطة الخال الأمومية ـ والرجوع الدوري للزوجة لعند الاقارب .

٧٨ ـ ٨٠ ـ اسماء المصادر .

٨١ ـ كذلك غير معلوم في المانيا وفي الغرب ، حينئذ أن les patarini, les cuthres انتشرت حقاً في فرنسا الجنوبية وفي المانيا والبيرنيه ، عدد من البواعث الفولكلورية من أصل ما نوى وبوغومولي .

٨٢ ـ مع ذلك نجد في التقاليد الايرانية التي تمضي تنفذ تمل الذرفانيين (ذ ٢١٣) ـ سببيين او بواعث ، مثلان : إخوة الاله «مسيح» ـ شيطان ، وفي الاساطير البلقانية ،القصور أو الشلل العقلي للاله بعد خلق العالم .

الفصل الثاني والثلاثون

الكنائس المسيحية حتى الأزمة الايقونية (القرن ٨ ـ٩)

٢٥٢ ـ روماليست.. pereat

كتب هوغ تريفور ـ روبر Hug trevor- Roper «إن نهاية العصور القديمة ، والافلاس النهائي لحضارة البحر المتوسط الكبرى للاغريق والرومان . يشكل واحدة من المسائل الأكثر أهمية من التاريخ الأوروبي . ولم يتفق على اسبابها ـ حتى على تاريخ بدايتها . وكل ما يمكن تأكيده هو ان عملية بطيئة ، قدرية ذات اتجاه واحد في ظاهرها ، تبدو أنها بدأت في القرن الثالث وانتهت في اوروبا الغربية في القرن الخامس[١]».

ومن بين اسباب انحلال الامبراطورية وخراب العالم القديم أثير ـ وما زال يثار ايضاً ـ المسيحية ؛ وبدقة اكثر ، اعلاؤها كدين رسمي للدولة . ولن نعالج هنا هذه المسألة الصعبة والمثيرة . ويكفي التذكير بأن المسيحية اذا كانت لم تشجع النزعة والفضائل العسكرية ، فإن الحرب الكلامية (المجادلة) ضد الامبراطورية من قبل المدافعين الأول

عن المسيحية قد فقدت حجتها لأن تكون بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية (ف. ٢٣٩ع) . وما هو اكثر من ذلك : قرار قسطنطين بتبني المسيحية وانشاء عاصمة جديدة على البوسفور قد جعل ممكنا الحفاظ على الثقافة التقليدية الاغريقية ـ اللاتينية[٢] . الا انه من الواضح ، ان هذه النتائج الجيدة لتمسيح (جعل الامبراطورية مسيحية) قد فاتت المعاصرين . وبخاصة ، عندما حاصر آلاريك زعيم القوط (هو مسيحي ايضاً دائما حسب هرطقة آريوس) روما في آب ١٠ع واستباحها مبيداً قسماً من سكانها . وهذا الحدث ، رغم ثقله النوعي ، لم يشكل ، من الوجهة النظر العسكرية والسياسية ، كارثة ، لأن العاصمة كانت في ميلان .

ومع ذلك فإن الحدث هـز الامبراطورية من طرفها إلى طرفها الآخر . وكما كان متوقعاً ، فسرت النخبة الدينية والاوساط الثقافية والسياسية للوثنيين ، هذه النكبة التي لا سابقة لها بالتخلي عن الديانة الرومانية التقليدية وبتبني المسيحية[٣] .

وللرد على هذه التهمة حرر اوغسطين اسقف هيبون بين ٤١٢ و٤٢٦ اهم مؤلف له De cévitac Dei Contrapagnas . وهو مؤلف يتعلق بدئياً بنقد الوثنية وبعبارة أخرى الميتولوجيات والمؤسسات الدينية الرومانية. متبوعاً بلاهوت من التاريخ ميّز بعمق الفكر المسيحي الغربي . وفي الواقع لم يهتم اوغسطين بالتاريخ العالمي ، كما كان مفهوماً في ذلك العصر . فلم يذكر من بين امبراطوريات العصر القديم سوى آشور وروما [على سبيل المثال ١٨ ـ ٢٧ ـ ٢٣] . ورغم تنوع الموضوعات التي تعرض لها وثقافته البارزة ، فإن اوغسطين قد التزم فقط بالحدثين اللذين ، بالنسبة للمسيحي ،بدأا ووجها التاريخ : خطيئة آدم ، وخلاص البشرية بالمسيح . لقد رفض نظريات أبدية العالم ، والعود الأبدي ، ولكنه لم يهتم برفضها . فالعالم مخلوق من قبل الاله وسيكون له نهاية ، طالما أن الزمن ممتد ومحدود . وبعد السقوط الأصلي ، كان التجديد الوحيد الهام هو التجسيد . وان الحقيقة ، التاريخية والانقاذية معا ، تكشفتا في التوراة ، لأن مصير الشعب اليهودي يظهران للتاريخ معنى ويتابع هدفاً محدداً : سلامة البشر [١٧ ، ٣ ، ٧ ، ٨١٢ ـ ٢٥ الخ] . وبالجملة فإن التاريخ يتكون في الصراع بين المتحدرين من قابيل والمتحدرين من هابيل [١ ، ١٥] .

ويعين اوغسطين هذه المراحل : ١) من آدم حتى الطوفان ، ٢) من نوح لابراهيم ، ٣) من ابراهيم لداوود ٤) من داوود إلى الأسر البابلي ، ٥) من النفي للمسيح . هذا وان المرحلة السادسة ستمتد حتى العودة الثانية للمسيح[٤] . وكل هذه المراحل التاريخية تسهم في المدنيةالعرضيةالموقوتةàlacivitasTeremmaالمستعملة لأول مرة مع جريمة قايين والتي تعارضها مدينة الله Civitas dei . إن مدينة البشر تتفتح تحت علامة الخيلاء vanita فهي موقتة وفانية ، وتستمر بالتوالد الطبيعي ، ومدينة الله خالدة وغير فانية ومضاءة بالفضيلة ، وهي تقيم المكان الذي يتم فيه التجدد الروحي . ففي العالم التاريخي (سيكولوم saeculum) يكون الصالحون ، تماما كهابيل ، حجاج ماضون نحو الخلاص . وفي آخر المطاف ، فإن مهمة ـ وتحقيق ـ الامبراطورية الرومانية . هو لاسناد السلام والعدالة ، لكي يتمكن الانجيل من الانتشار عالميا[٥] . ولا يشارك أوغسطين في رأي بعض الكتاب المسيحيين الذين كانوا وضعوا رخاء الامبراطورية في علاقة مع نجاحات الكنيسة . وهو لم ينقطع عن تكرار ان على المسيحيين أن لا ينتظروا سوى الظفر النهائي للمدينة الالهية ضد حضارة البشر . وهذا الانتصار لن يكون محله في الزمن التاريخي كما توهم الشيلياستيون والألفيون و les chiliastes et les millénaristes . الأمر الذي يدعو إلى القول ، إنه حتى ولو آمن كل العالم بالمسيحية ، فإن الأرض والتاريخ لن يكونا متحولين . ومما له دلالته ان آخر كتاب من مدينة الله [٢٢] مكرس لبعث الاجساد .

أما بالنسبة لاجتياح المدينة من قبل آلاريك ، فإن اوغسطين يذكر بأن روما قد عرفت في الماضي كوارث اخرى ، وهو يصر على واقعة ان الرومان قد استعبدوا واستغلوا شعوبا عديدة لا تحصى ، وعلى كل حال ، وكما أعلن اوغسطين في قسم شهير أن روما لن تفنى اذا لم يفنى الرومان !! وبعبارة اخرى ، ان صفات أو مزايا البشر هي التي تضمن استمرارية المؤسسة وليس العكس .

وعندما ازف عام ٤٢٥ قبل خمس سنوات من موته ، كان اوغسطين قد اكمل مدينة الله ، وتدنيس آلاريك كان قد نسي ، ولكن الامبراطورية في الغرب قربت من نهايتها . وبالنسبةللمسيحيين، خاصة ، الذين خلال القرون الأربعة التالية ، كان عليهم مشاهدة تبعثر الامبراطورية ، وتبربر اوروبا الغربية ، فإن مؤلف القديس

اوغسطين كان ملائماً . فكتاب مدينة الله قطع جذريا التضامن التاريخي بين الكنيسة والامبراطورية الرومانية العاتية . وبما ان الارشاد الحقيقي للمسيحي هو متابعة الخلاص ، وان اقتناعه الوحيد هو بالنصر النهائي والأخير لمدينة الله ، فإن كل الكوارث التاريخية تتحقق في آخر مرحلة ، مجردة من دلالة روحية .

واثناء صيف ٤٢٩ وخريف ٤٣٠ ، اجتاح الفاندال الذين اجتازوا مضيق جبل طارق موريتانيا ونوميديا . واحتلوا ايضاً هيبون عندما مات أوغسطين في ٢٨ آب ٤٣٠ . وبعد سنة من موته استبيحت المدينة واحرقت وانقطعت افريقيا الرومانية عن الوجود .

٢٥٣ ـ اوغسطين : من تاغاست إلى هيبون .

كما هو الأمر بالنسبة لمؤسسي الأديان ، قديسين ، أو صوفيين (على سبيل المثال ، بوذامحمد القديس بولس ، ميلاريبا ، اغناطيوس ودي ليولاالخ) فإن السيرة الذاتية للقديس اوغسطين تساعدنا لفهم بعض ابعاد عبقريته . فقد ولد في ٣٥٤ في تاغاست ، وهي مدينة صغيرة من افريقيا الرومانية ، من أب وثني وأم مسيحية ، وقد جذبه بدئيا علم البيان ، واعتنق المانوية بعدئذ وبقي وفيا لها تسعة اعوام ، واتخذ له خليلة انجبت له ابنه الوحيد ايديوداتوس Adeodatus . وفي ٣٨٥ ، استقر في روما مع أمل ايجاد وظيفة معلم . وبعد سنتين ، ارسله حاميه سيماتوس قائد النخبة الوثنية المثقفة إلى ميلان ، وخلال هذا الوقت ، ترك اوغسطين ديانة ماني وكرس نفسه بشغف للدراسة الافلاطونية المحدثة . وفي ميلان تقرب من الاسقف امبرواز ، الذي كان يتمتع باحترام ملحوظ قبل الكنيسة كما في البلاط الامبراطوري . ومنذ فترة من الزمن ، كان تنظيم الجماعات قد تبنى التركيبات التي استمرت قائمة حتى القرن العشرين : استبعاد النساء من طبقة رجال الدين ومن النشاطات الروحية (توزيع القداسات ، التعليم الديني) ؛ والفصل بين رجال الدين والعلمانيين ؛ واستعلاء الاساقفة .

وسرعان ما انضمت (مونيك) والدة اوغسطين إليه ، وكانت على ما يرجح هي

التي اقنعته بالانفصال عن خليلته (لكن اوغسطين سرعان ما اتخذ غيرها) . وقد توصلت مواعظ وامثلة امبرواز ، وتعمقه بالافلاطونية المحدثة إلى اقناعه بتوجب الانعتاق من الخدانة . وفي يوم من صيف ٣٨٦ ، سمع في الحديقة المجاورة صوت طفل قائلاً : «خذ واقرأ» . ففتح اوغسطين العهد الجديد وتوقف بصره على مقطع من الرسالة للرومان [١٣:١٣-١٤] «لا قصف ولا تهتكات ، لا دعارة ولا فجور .. ولا خصام ولا حسد .. بل البسوا الرب يسوع المسيح .. ولا تشغلوا بالجسد لاشباع شهواته» .

لقد عمِّد من قبل امبرواز في عيد الغطاس من عام ٣٨٧ وقرر الرجوع إلى افريقيا مع عائلته ، ولكن (مونيك) توفيت في اوستي (آديوداتوس سيموت بعد ثلاث سنوات) . وقد شكل اوغسطين في تاغاسيت ، مع اصدقائه نصف رهبانية ، وتم اعتماده كاهنا وعيِّن مساعداً للاسقف الذي خلفه في ٣٩٦ . وحتى موته كرِّس اوغسطين نفسه في مواعظه ورسائله ومؤلفاته الكثيرة للدفاع عن وحدة الكنيسة وتعميق المذهب المسيحي . ولقد اعتبر بحق وكأنه اللاهوتي الاكبر والأكثر تأثيراً من كل لاهوتيي الغرب . ومع ذلك ، لم يتمتع بمثل هذا في الكنيسة الشرقية .

ويمكن التعرف في لاهوت اوغسطين على العلاقات العميقة لمزاجه ولسيرته الذاتية الداخلية فبرغم نبذه للمانوية ، حافظ ايضا ، كما سنرى ، على مفهوم مادي «للطبيعة الشريرة للانسان» ، نتيجة للخطيئة الأصلية المتنقلة بالجنسية . أما بالنسبة للافلاطونية المحدثة ، فإن تأثيرها كان حاسماً . فالانسان ، بالنسبة لأوغسطين ، هو روح تستخدم جسداً . . وعندما يتكلم كمسيحي فإن اوغسطين يهتم ويتخذ كل عناية ليذكر بأن الانسان هو وحدة الروح والجسد ، وعندما يتفلسف ، يعاود السقوط في التعريف «الافلاطوني»[٦] . ولكن مزاجه الحساس بخاصة ، وصراعه المستمر ، بدون نجاح من جهة اخرى ، ضد التسري ، والتي ساهمت جميعها في التمجيد اللامحدود للعناية الالهية ، وبصورة خاصة في تصليب متنامي لأفكاره حول سبق تقرير المصير (ف ٢٥٥ع) .

واخيراً ، بالرجوع إلى الحياة التأملية ، وتقبله كل مسؤوليات الكاهن والاسقف ، عاش اوغسطين حياته الدينية في جماعة المؤمنين . واكثر من أي لاهوتي كبير آخر ، وحد

اوغسطين التوجه نحو الخلاص مع حياة الكنيسة . ولأجل هذا السبب أجهد نفسه حتى أواخر أيام حياته لدعم وحدة الكنيسة الكبرى . فعند أوغسطين ، كان الذنب الاكثر بشاعة هو التمذهب sehisme . ولم يتردد أبداً في التأكيد على ايمانه بالاناجيل لأن الكنيسة كانت أمرته بالاعتقاد .

٢٥٢ ـ السلف الكبير لأوغسطين ـ اوريجين

عندما تأمل أوغسطين مؤلفاته ، كان اللاهوت المسيحي في عز نهضته . وفي الواقع ، يشكل النصف الثاني من القرن الرابع ، العصر الذهبي لآباء الكنيسة . إن الآباء الكبار ومن هم أقل عظمة بينهم ـ باسيل قيصرية ـ وغريغوار نازيامز ، وغريغورنيس ، ويوحنا فم الذهب ، وايفا جر الراهب وغيرهم ايضا ـ قد نهضوا واكملوا عملهم ، تماما قبل امبرواز ، في سلام الكنيسة . فقد كان اللاهوت محكوماً ايضاً من قبل الآباء الاغريق . وكان اتهاناس هو الذي صاغ ، ضد هرطقة آريوس ، نظرية وحدة الجوهر في الأقانيم الثلاثة la consubstantialité من الآب والابن ، صيغة قبلت من المجمع المسكوني في نيس سنة ٣٢٥ . ومع ذلك فإن الاكثر عبقرية والأكثر جرأة ، اوريجين (١٨٥ـ٢٥٤) والوحيد الذي يمكن مقارنته بأوغسطين ، لم يتمتع ابداً بالسلطة التي كان يستحقها ، مع ان تقديره وتأثيره قد ازداد بعد موته .

إن اوريجين المتولد في الاسكندرية من أبوين مسيحيين تميز بذكائه ، وبحماس وابداعية فوق المألوف ، وقد وهب نفسه ، بحمية وثقافة ، لخدمة الكنيسة (بدئياً في الاسكندرية وبعدئذ في قيصرية) . غير انه ، وهو مقتنع بأن الكشف التوراتي والانجيلي ليس لهما ما يخشيان من الفلسفة الافلاطونية ، فقد درس على امونيوس ساكاس الشهير «الذي سيصبح بعد عشرين سنة معلم افلوطين» . وقد قدّر اوريجين أن على اللاهوتي ان يعرف ويتمكن من الثقافة الاغريقية ، وذلك بهدف ان يتفهمه المثقفون الوثنيون ، وكذلك المسيحيون الجدد المتشبعون بالثقافة التقليدية . (وهكذا سبق عملية أصبحت عامة بدءاً من القرن الرابع) .

إن عمله غير محدود : ففي دراسة النصوص (فيلولوجيا) (أسس النقد التوراتي

مع الهيكسابل les Hexaples ، منافح عن الكنيسة (ضد سيلز) ، مفسر (حفظت له عدة شروح كبيرة) ، بليغ على المنابر ، لاهوتي ، ميتافيزيقي ، ولكن هذا العمل الكبير ضاع في القسم الأكبر منه . وخارجاً عن (ضد سيلز) وبعض الشروح و الخطابات المنبرية ، يوجد لدينا رسالة الصلاة وارشاد الشهيد ، ورسالة لاهوتية ، والمبادىء الذي هو بلا شك أهم مؤلفاته ، وكما يقول اوزيب ، فإن اوريجين لكي يتخلص من الشهوة ، فسَّر «في معنى ادبي بالغ» مقطعاً من انجيل متى[٨] ومجَّد طيلة حياته المحن وموت الشهداء . واثناء اضطهاد ديسيوس في سنة ٢٥٠ حبس ومات اثناء التعذيب سنة ٢٥٤ .

ومع اوريجين اخصبت الافلاطونية المحدثة نهائيا الفكر المسيحي ، فالنظام اللاهوتي لأوريجين هو بنيان من عبقرية أثرت كثيراً بالأجيال التالية . غير ان العديد من التعليمات ، الجريئة جداً ، كانت قابلة لتفسيرات سيئة المقصد . فحسب اوريجين ، ان الاله الآب هو متصاعد (مفارق) وغير ممكن ادراكه ، وقد أحدث ابديا ، الابن ، صورته ، الذي هو في آن واحد لا يمكن ادراكه وقابل للادراك . وعبر الكلمة ، يخلق الاله العديد من الأرواح النقية (logikoi) ، ويهبها حياة ومعرفة . غير ان كل الارواح الطاهرة ، باستثناء المسيح ، تبتعد من الله . ان اوريجين لا يفسر السبب الدقيق لهذا الابتعاد . انه يتكلم عن الاهمال ، والسأم ، والنسيان . وباختصار ، فإن الازمة تفسر ببراءة الأرواح الطاهرة . وبابتعادها عن الله تصبح «ارواحا» دبَّرها الآب لأجساد مادية ذات علاقة مع ثقل ذنوبها : أجساد ملائكة ، بشر ، او شياطين .

وعندئذ وبفضل قرارها الحر ، ولكن بالعناية الالهية ايضاً ، تبدأ هذه الأرواح الساقطة الرحلة التي ستنتهي بتقريبها من الله . وفي الواقع ، إن اوريجين يفكر بأن الروح لم تفقد الحرية بالاختيار بين الخير والشر على اثر الإثم الأصلي (فكرة سيعاد الأخذ بها من قبل بيلاج كما سنرى) . إن الاله ، الكلي العلم ، يعرف مسبقاً اعمال أو تصرفات حريتنا [حول الصلاة ـ٥ـ٧] . ويرفض اوريجين ، وهو يشير إلى الوظيفة الغفرانية للحرية ، قدرية الغنوصيين وبعض الفلاسفة الوثنيين ، إن الجسد ، بالتأكيد ، يشكل عقابا ، ولكنه في ذات الوقت الوسيلة التي بها يكشف الاله ذاته ، ويدعم الروح في رفعتها .

إن المأساة العالمية يمكن لها ان تعرَّف كما لو أنها المعبر من البراءة إلى التجربة ، عبر تجارب الروح اثناء رحلتها نحو الله . والخلاص يعادل العودة للكمال الأصلي ، l'apokatastasis («بعث كل الاشياء») . ولكن هذا الكمال النهائي هو أعلى من كمال الأصول ، لأنه معصوم ، اذن نهائي [مبادىء ٢٠-١١-٧] . وفي هذه الفترة سيكون للأرواح «اجساد من القيامة» . إن خط المسيرة الروحية للمسيحي موصوفة على نحو باهر بمجازات السفر ، من التنامي الطبيعي والمعركة ضد الشر . وفي النهاية ، فإن اوريجين ظن ان المسيحي الكامل يستطيع معرفة الله والاتحاد معه بالحب(٩) .

إن أوريجين ، وقد سبق ان انتقد اثناء حياته ، فإنه قد هوجم ايضاً من قبل اللاهوتيين لزمن طويل بعد مماته ، وبناء على طلب الامبراطور جوستنيان ، ادين نهائياً في المجمع المسكوني الخامس في عام ٥٥٣ . وبخاصة فإن إناسته ومفهومه عن الكمال الأصلي هما اللذان ازعجا العديد من اللاهوتيين . فقد اتهم بوصفه فيلسوفاً وغنوصياً اكثر مما هو لاهوتي مسيحي . فالأبو كاتاستاز اقتضى الخلاص الشامل ، إذن خلاص الشيطان ؛ واكثر من هذا ، أدخل عمل المسيح في عملية من نموذج كوني . الا أنه يجب أن يؤخذ في الحسبان الزمن الذي كتب فيه اوريجين وبخاصة الصفة الموقتة لتأليفه . فقد اعتبر نفسه بذاته في خدمة موقوفة على الكنيسة ، وعبَّر عن ذلك بالعديد من التصريحات(١٠) ، الواضحة والثابتة ، كذلك فإستشهاده قد اثبت هذا ، ومما يؤسف له ، ان الخسارة بفقدان العديد من مؤلفات اوريجين يجعل من الصعب احيانا التمييز بين افكاره الخاصة وأفكار (الاوريجنيين) . ومع ذلك ، ورغم الشك بجزء من التسلسلية الكنسية ، فإنه مارس تأثيراً على الآباء القبادوسيين . وبفضل باسيل الكبير وغريغوار النازيانزي وغريغورالنيسي ، فإن الجزء الرئيسي من الأفكار اللاهوتية لأوريجين قد حفظت داخل الكنيسة . وعبر القبادوسيين ، أثر على ايفاجر الراهب ، وجان كاسيان ، خاصة في مفاهيمهم حول التجربة الصوفية والرهبنة المسيحية .

ولكن الادانة النهائية لأوريجين حرمت الكنيسة من امكانية وحيدة لتدعيم عالميتها ، خاصة بفتحها اللاهوت المسيحي للحوار مع نماذج أخرى من الفكر الديني (على سبيل المثال الفكر الديني الهندي) . ومع كل تطبيقاته الجريئة ، فإن رؤية الخلاص الشامل l'apocatastasie تصنف بين الابداعات الأخروية الكبرى(١١) .

بعد بضع سنوات من تكريسه اسقفاً ، حرر اوغسطين اعترافاته في سنة ٣٩٧ ، لقد اغتم بالذكريات الحية جداً عن شبابه ، «مذعوراً بعمق بثقل ذنوبه» [١٠،٤٣،١٠] . لأن «العدو حولها ضد ارادتي إلى غل اوثقنى به بكل قوة» [٨ ـ٥ـ١] . وتأليف هذا الكتاب يعادل علاجاً طبياً : فجهده بهدف المصالحة مع ذاته . وهذا هو في آن واحد سيرة ذاتية روحية ، وصلاة طويلة ، يحاول اوغسطين بمساعدتها ، الدخول إلى طبيعة الله . «انني غبار ورماد ، ولكن دعني اتكلم ! لرحمتك اتكلم وليس إلى البشر !! . .» [١ـ٦،٧] . انه يتضرع لله بعبارات صلاة : «اله قلبي» يا لفرحي المتأخر» «مرْ بما تريد» . . «اعطِ ما أحب» . إن اوغسطين يستدعي ذنوبه ، ومآسي شبابه ـ سرقة ثمار الكمثرى ، ترك خديته ، يأسه بعد موت صديق ـ ليس من اجل منفعتها القصصية ، وانما من أجل الانفتاح على الأله ، ومنه ، لتحقيق ثقلها بشكل افضل . ان اللهجة المثيرة للاعترافات تصدم قرائها ، تماما كما اثرت في بيترَاك وكتاب العصور التالية .(١٣) ومن جهة أخرى فإن هذا الكتاب هو الوحيد لأوغسطين الذي ، حتى يومنا ، يقرأ مع فائدته في العالم كله ـ وكما ردَّدنا غالبا ، فإن الاعترافات هي «الكتاب الأول الحديث» .

ولكن أوغسطين بالنسبة لكنيسة ، القرن الخامس ، كان اكثر من كاتب الاعترافات . فقد كان ، قبل كل شيء اللاهوتي والناقد المعتبر للهرطقات والتمذهبات . وقد استهدفت مجادلاته الأولى المانوية ومبدعات دونا (اسقف قرطاجة في القرن الرابع) . فأوغسطين في شبابه اعجب بمانى ولأن الثنائية سمحت له بتفسير الأصل والقوة ، التي تبدو غير محدودة ، للشر ، ومنذ بعض الوقت ، كان قد نبذ المانوية ، غير ان مسألة الشر ظلت تقلقه دائما . بدئيا ، ومع باسيل الكبير ، حل اللاهوتيون المسيحيون هذه المسألة بافكار الحقيقة الانطولوجية للشر . وعرف باسيل الشر بأنه «فقدان الخير» وبالنتيجة ، فإن الشر غير مرتبط بمادة خاصة به ، ولكنه يظهر بالتشويه للروح» [هيكساميرون ٢ : ٥] وكما يبدو بالنسبة لتيت البصري Tite de Bosra (المتوفي ٣٧٠) وبالنسبة ليوحنا فم الذهب (٣٤٤ـ٤٠٧) تقريبا . فإن الشر كان «غياب الخير» .

ويعاود اوغسطين أخذ ذات البراهين في رسائله الخمسة التي ألفها ضد المانوية بين ٣٨٨ و ٣٩٩ . كل ما خلقه الله فهو حقيقي ، يشترك في الكائن ، ومن هنا فهو خير . والشر ليس جوهراً ، لأنه لا يحتوي على أي اثر للخير . وان هذا الجهد يائس لانقاذ الوحدة ، والقدرة الكلية والطيبة لله ، بحله من التماسك عن وجود الشر في العالم . (لقد لوحظ جهد مماثل لحل الله من ظهور الشر ، في الأساطير النشكونية الأوروبية الشرقية والوسط ـ اسيوية ر.ف ٢٥١) . إن مذهب la Privatio boni قد شغل اللاهوتيين المسيحيين حتى أيامنا هذه ؛ ولكنه لم يفهم ولم يشارك فيه جمهور المؤمنين . وعند اوغسطين ساهم الجدل ضد المانوية ١٤ في تصليب مفهومه عن الانحطاط العام للانسان ، وتوجد في لاهوته بعض الخيوط من التشاؤمية والمادية المانوية عن العناية [٥٠ـ ٥٨] .

ومذهب دوناتوس ، اسقف فوميديا ، بدأ في ٣١١ و ٣١٢ اثناء مرحلة السلام التي تلت اضطهادات ديوكليسيان . وقد كان الدوناتيست استبعدوا من كنائسهم الاعضاء من طبقة رجال كانوا تزعزعوا بطريقة أو اخرىٰ اثناء الاضطهاد . وقد حسبوا ان توسط النعمة باسرار القربان المقدسة كان مشبوها اذا كان من يدير الاسرار مذنباً . ومع ذلك ، فإن اوغسطين قد رد عليهم ، بأن قداسة الكنيسة لا تتعلق ابداً بكمال طبقة رجال الدين والمؤمنين ، وانما بالنعمة المنقولة بالتقديسات ؛ وتماما ، كما ان الفضيلة الانقاذية للتقديسات لم ترتبط بإيمان من تلقاها . ولكي يتجنب التمذهب ، اجهد اوغسطين نفسه خلال سنوات عديدة لمصالحة الدوناتيت مع الكنيسة الكبرى ، ولكن دون جدوى .

إن المجادلة الأكثر حدة والتي كان لها نتائجها البارزة ، هي التي حصلت مع بيلاج Pélage وزملائه . وبيلاج راهب بريطاني متقدم في السن وصل الى روما سنة ٤٠٠ ، وقد تأثر جداً بسلوك واخلاق المسيحيين فأجهد نفسه لاصلاحهم . وسرعان ما أدى عنفه التنسكي وثقافته إلى تمتعه باحترام كبير . وفي سنة ٤١٠ ، التجأ مع بعض زملائه إلى افريقيا الشمالية . ولكنه لم يوفق في لقاء أوغسطين ، فتوجه عندئذ صوب المقاطعات الشرقية ، حيث حصل على ذات النجاح الذي صادفه في روما ، وقد مات هنالك بين ٤١٨ و٤٢٠ .

لقد كان لبيلاج ثقة غير محدودة في امكانيات العقل ، وبخاصة في ارادة الانسان بممارسته للفضيلة والنسك ، وكان يعلِّم بأن كل مسيحي مؤهل للوصول إلى الكمال ، واذن للقداسة . والانسان وحده مسؤول عن ذنوبه ، لأنه يتصرف بقدرة على فعل الخير وتجنب الشر ؛ وبعبارة اخرى ، انه يتمتع بالحرية ، «لتحكم حر» . وذلك هو السبب الذي من أجله لم يقبل بيلاج الفكرة بأن الخطيئة الأصلية هي آليا وبشكل شامل موزعة بين ابناء آدم . «اذا كانت الخطيئة فطرية فهي غير ارادية واذا كانت ارادية ، فهي غير فطرية» . ان هدف تعميد الاطفال ليس غسل الذنب الأولي ، وانما تقديس المولود الجديد بالمسيح . وبالنسبة إلى بيلاج ، توجد الرحمة في كشوفات الاله عبر القانون ، وبخاصة عبر يسوع المسيح . وان تعليم المسيح يشكل نموذجاً يمكن ان يحتذى من قبل المسيحيين . وباختصار إن الانسان ، في اللاهوت البيلاجي ، يرنو لأن يكون نوعا ما الصانع لسلامه الخاص[١٥] .

لقد كان تاريخ البيلاجية قصيراً ولكنه على قسط كبير من الحركة ، فبيلاج جُرم وبَرِيء عدة مرات من قبل المجامع والسنودسات المختلفة ، ولم تدان البيلاجية نهائيا الا في سنة ٥٧٩ في سنودس البرتقال ، خاصة على أساس الردود التي حررها اوغسطين ما بين ٤١٣ و ٤٣٠ . وتماما كما في جداله ضد اللدوناتيستيين ، هاجم اوغسطين بدئيا التشدد في التنسك والرغبة المرضية في بلوغ الكمال الخلقي الذي سبق لبيلاج ان طرحه . وكان انتصاره بخاصة انتصار الجماعية العلمانية المتوسطة للكنيسة ضد فكرة مثلى من التنسك والاصلاح[١٦] . ان الأهمية الحاسمة المناطة بالنعمة من قبل اوغسطين ، اذن بالقدرة الكلية لله ، استندت للتقليد التوراتي ولم تكن لتعيق الشفقة الشعبية . أما بالنسبة لمذهب القضاء والقدر ، فقد عنى النخبة بصورة خاصة . .

وقد سبق لأوريجين ان اعتمد بأن العناية الالهية (أي سبق العلم الالهي) ليست سبب تصرفات الانسان ، هذه التصرفات التي يتمها بحرية تامة وهو مسؤول بالنسبة إليها . إن المرور من عقيدة سبق العلم الالهي ، الذي لم يعق حرية الانسان ، إلى لاهوت التقدير المسبق ، يكتمل بلاهوتية الخطيئة الأصلية . وقد كان أمبرواز لاحظ العلاقة السببية بين ، الحبل العذري بيسوع المسيح من جهة ، وبين الفكرة بأن الخطيئة الأولى تنتقل بالقران الجنسي من جهة اخرى . وبالنسبة لسيبريان (٢٠٠ ـ ٢٥٨) فإن

التعميد للأطفال كان ضروريا حقاً لأنه كان يمحي الخطيئة الأصلية .

ويعاود أوغسطين أخذ افكار سابقية ويمددها ويعمقها . ويؤكد بخاصة على واقعة أن الرحمة هي حرية الاله بأن يعمل دون أية ضرورة خارجية . فبما ان الله سيد مطلق - خلق كل شيء من عدم - فإن الرحمة ، هي ايضا سيدة .

وهذا المفهوم لسيادة souverainete القدرة الكلية والرحمة الالهية تجد تفسيرها الكامل في مذهب القضاء والقدر . فقد عرف اوغسطين القضاء المقدر prédestination وكأنه «التنظيم المسبق من الله لافعاله المقبلة التي لا يمكن لها ان تخطيء أو تتغير» . ولكن اوغسطين يضيف بأن القضاء والقدر لا يوجد له شيء مما يبدو في قدرية الوثنيين : الاله يعاقب ليظهرغضبه ويثبت قوته . ويشكل التاريخ العالمي الحلبة التي تظهر فيها افعاله . فبعض الناس يتلقى الحياة الابدية ، وبعضهم اللعنة الأبدية - وبين هؤلاء الأخيرين ، الأطفال الموتى دون تعميد . وهذا القدر المزدوج - في السماء وفي الجحيم - هو ، كما يعترف أوغسطين ، غير ممكن أن يعرف لأنه منقول بالتناسل الجنسي(١٧) فالخطيئة الأصلية شاملة ولا مفر منها كالحياة ذاتها . وفي آخر المطاف فإن الكنيسة تتألف في عدد ثابت من القديسين المعينين سلفاً حتى قبل خلق العالم .

وقد صاغ اوغسطين وهو مسترسل في جداله ، بعض الأطروحات ، التي ، مع أنها لم تقبل من قبل الكنيسة الكاثوليكية ، أثارت اعتراضات لا حد لها في اللاهوتيات الغربية . وقد قورن هذا اللاهوت الصلب بالقدرية الوثنية . وما هو اكثر من ذلك ، ان القضاء والقدر الاوغسطيني قد أحرج العالمية المسيحية ، التي تبعا لها أن الله يرغب في خلاص كل البشر . ولم يكن مذهب النعمة هو الذي عورض وانما مشابهة النعمة بنظرية خاصة للقدر ؛ ولوحظ بحق ان مذهب علم الله المسبق ، قد استبعد الاعترافات المثارة بالتفسير الاوغسطيني للقضاء والقدر .

ولنذكر ايضا النتائج التي توصل اليها لاهوتي كبير معاصر : «إن أوغسطين قد دافع ضد المانوية عن الحرية والمسؤولية البشرية . وان ما نعاه اوغسطين على المانويين ، هو القاءهم وحشرهم مسؤولية الشر على «طبيعة» أو على «مذهب» اسطوريين . وفي

هذا ، تصرف اوغسطين ايجابيا ومسيحيا . ولكن هل النظرية التي عرضها اوغسطين على الساحة مقنعة تماماً ؟؟ أليس التحضير الذي نقله أوغسطين لأجيال البشرية من خطيئة أصلية قابل إلى ذات النقد ؟؟ فالشر الذي ينعله الانسان اليوم [..] اليس هو ايضا ، في النظرية الأوغسطينية ، الانسان الحالي الذي هو مسؤول عنه ؟ وبالأحرى ، أليست «طبيعة» سيئة ، فاسدة ، التي «انتقلت» بخطيئة أول زوج ؟ [...] . في الانسان الأول ، قال لنا اوغسطين ، ان الانسانية قد أخذت ، في الجسد ، عادة الخطيئة . أليس هذا مفهوم مادي لتوارث الاثم ، مفهوم طبيعي ، وبهذا ذاته هو حتمي ؟!. فليس ما هو بيولوجي الذي يلقى بثقله على الانسان ، وفي الطفل الذي يولد لا توجد الخطيئة منقوشة في انسجته ولا في نفسيته ، ان توارث الخطيئة ، سيتلقاها الطفل ، بالتربية التي سيتلقاها [...] ، والأشكال العقلية ، والشيم les schémes الاخلاقية التي سيتبناها . ان النظرية المرعبة الاوغسطينية عن لعنة الاطفال الموتى دون تعميد تظهران العبقريات الكبرى ، والفقهاء الكبار في الكنيسة ، ليسوا بمنجاة عن ارتكاب تناقضات خطيرة [.....] ، إننا نتحمل ، في الكنيسة ، منذ ستة عشر قرنا ، ثمرات وثقل عظمة وضعف القديس اوغسطين»[١٩] .

٢٥٦ ـ عبادة القديسين : شهادة ـ رفات ـ مزارات . . .

خلال فترة طويلة ، ناهض أوغسطين عبادة الشهداء ـ ولم يكن يعتقد بمعجزات منجزة من قبل القديسين ، وكان قد فضح التجارة ببقايا القديسين[٢٠] .

ولكن نقل رفات القديس اتيين Etenne لهيبون في سنة ٤٢٥ والشفاء العجائبي التي تحققها هذه الرفات جعله يغير رأيه . ففي مواعظه التي تلفظ بها ما بين ٤٢٧ و ٤٣٠ وفي الكتاب[٢٢] من مدينة الله يفسر اوغسطين ويبرر تقديس الرفات ويسجل معجزاتها بعناية[٢١] .

ان عبادة الشهداء كانت طبقت ، وقبلت من الكنيسة منذ نهاية القرن الثاني . الا انه اثناء الاضطهادات الكبرى وبعد السلام الذي اقامه قسطنطين بخاصة . كسبت رفات شهود المسيح أهمية مقلقة . فقد رأى بعض الاساقفة في هذا التمجيد المبالغ فيه

خطر الانتكاس للوثنية . وفي الواقع ، يوجد استمرارية بين الممارسات الجنائزية للوثنيين والعبادة المسيحية للأموات ؛ وعلى سبيل المثال ، المآدب المحتفل بها قرب القبر يوم الدفن ، وفي كل عام ، في الذكرى السنوية . ولكن تنصير هذه الطقوس القديمة لم يتأخر عن الاستشعار : بالنسبة للمسيحيين ، كانت المأدبة قرب القبر تتقدم الوليمة الأخروية للسماء . وعبادة الشهداء تمدد هذا التقليد ، مع الفارق بأنها ليست حفلة عائلية ، ولكنها تهم الجماعة كلها وتجرى بحضور الاسقف . وما هو اكثر من ذلك ، ان عبادة الشهداء تظهر عنصراً جديد ، مجهولاً في المجتمعات غير المسيحية . فالشهداء قد صعدوا الشرط البشري ، مضحين من أجل المسيح ، كانوا في آن واحد بالقرب من الله في السماء ، وهنا على الارض كانت رفاتهم تتجسد بالمقدس . ولا يستطيع الشهداء المثول قرب الله فحسب ـ لقد كانوا احباءه ـ ولكن رفاتهم كانت قابلة لتحقيق معجزات تضمن شفاء مذهلاً . فالقبور ورفات الشهداء تشكل مكانا متميزاً ومتناقضاً ، حيث تتواصل السماء مع الأرض» .

إن المقارنة مع عبادة الأبطال لا تفرض نفسها . فلدى الوثنيين كانت العبادتان ـ عبادة الآلهة والابطال ـ متميزتان تماما (ر. ف٩٥ع) . فكان البطل بموته ينفصل نهائياً عن الآلهة ، في حين ان جسد الشهيد كان يقرب من الله أولئك الذي يقدمون عبادة له . وهذا التمجيد الديني للحم كان بنوع ما متضامنا مع مذهب التجسيد . فبما ان الله كان قد تجسد بيسوع المسيح ، فإن كل شهيد ، عذب وقتل في سبيل الله تقدس في جسده (لحمه) الخاص . فقداسة الرفات كانت تمثل موازيا أوليا لسر القربان المقدس . وتماما كما تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، كان جسد الشهيد قد تقدس بموته المثالي ، مماثلة حقيقية للمسيح Vraieimitatio christi . وقد تدعمت مثل هـذه المشابهة بالتجزئة اللامحدودة لجسد الشهيد وبواقع امكانية تكاثر الرفات إلى مالانهاية : ثياب أشباء ، زيت ، أو غبار اشتهرت بتماسها مع قبر أو جسد القديس .

وقد وصلت العبادة إلى شعبية ملحوظة في القرن السادس ، وفي الامبراطورية الشرقية أصبح هذا الورع المفرط مزعجاً أحياناً بالنسبة للسلطات الكنسية ، وفي القرن الرابع والقرن الخامس كان يوجد في سورية نوعان من الكنيسة : البازيليك

والمارتيريا[٢٣] . وكان لهذه الأخيرة «كنائس الشهداء eglises des martyrs» مذبح في وسطها موقوف للقديس ويحتوى على رفاته وهي تتميز بقبتها . وخلال زمن طويل ، وبالرغم من مقاومة رجال الدين كانت تجري احتفالات خاصة ، من تقدمات ونذور وصلوات واناشيد وترانيم على شرف الشهيد حول هذا المذبح المركزي (mensa) . وكانت الطقوس تقتضي كذلك اقامة بيرمونات : (عشيات لاعياد دينية مسيحية) ليليلية ، تمتد حتى الفجر . وهي بالتأكيد حفلات مثيرة للعواطف ، لأن المؤمنين جميعهم كانوا في انتظار المعجزات فيها .

وحول المذبح (mensa) كانت تقام حفلات ومآدب[٢٥] . إن السلطات الكنسية مجبرة بدون كلل لتطويع تمجيد القديسين وعبادة الرفات لخدمة المسيح . وأخيراً ، فإن العديد من الكاتدرائيات في القرنين الخامس والسادس تزودت بالرفاتات ، وفي بعض الحالات ، كانت تشاد في الداخل على شرفها كنيسة صغيرة خاصة ، مارتيريوم . martyrium ويؤكد في ذات الوقت على التحول التدريجي للمارتيريات إلى كنائس نظامية[٣٦] .

وفي ذات العصر من نهاية القرن الرابع حتى السادس ـ امتد تمجيد الرفات في كل مكان من الامبراطورية الغربية . غير ان العبادة روقبت بصورة عامة ، بل شجعت من قبل الأساقفة ، مديري المسارح الحقيقيين Vrais impersarios (حسب تعبير بيتر برادن ، عن هذا الولع الشعبي . ان أضرحة الشهداء ، انشاءات اكثر بروزا بشكل دائم في منطقة المقابر ، وعلى هامش المدن ، أصبحت مراكز الحياة الدينية للاقليم . وتتمتع المقابر باحترام لا مثيل له . فبولان دي نول يغبط لبنائه حول قبر القديس فيليكس عقدة من المباني بابعاد كان يستطيع الغرباء ملاحظتها وكأنها تشكل مدينة اخرى . وقد استقرت قوة الاساقفة في هذه /المدن الجديدة خارج المدن/[٢٧] . وكما كتب القديس جيروم بتكريمه للقديسين «لقد غيَّرت المدينة عنوانها»[٢٨] .

وكما في الشرق تماماً ، كان العديد من الحفلات يجري بالقرب من المقابر ، التي اصبحت الموضوع الممتاز للطوافات والحجيج ، طوافات وحجيج تمثل تجديداً متفرداً في التاريخ الديني في حوض البحر المتوسط . وفي الواقع ، إن المسيحية أفسحت مجالاً في

الحفلات العامة ، للنساء والفقراء . وكانت الطوافات والمواكب الشعائرية تشهر انتميز العنصري déségrégation والجنسي ، والاجتماعي ؛ وكانت تجمع الرجال والنساء ، اريستوقراطين وعبيد ، اغنياء وفقراء ، سكان البلاد الأصليين والغرباء . وعندما كانت الرفات تدخل رسميا في مدينة كانت تتلقى ذات التشريفات المخصصة لزيارات الاباطرة .

وكل «اكتشاف» لرفات (على اثر حلم أو رؤيا) كان يثير حمية دينية : وكان يعتبر كاعلان لنعمة الهية[٢٩] . وكان مثل هذا الحدث يستطيع لعب دور حاسم في التناقضات الكنسية . وتلك كانت حالة اكتشاف امبرواز لرفاة القديسين الشهيدين جيرفى وبروتيه . فقد كانت الامبراطورة جوستين طالبت بالكنيسة الجديدة لاستعمال الآرين des Ariens ، ولكن امبرواز ربح القضية بوضعه الرفات تحت المذبح .

وتنمو عبادة القديسين خاصة في الأوساط التنسكية (برادن. ص ٦٧٠] . وبالنسبة لبولان دي نول ، فإن القديس فيليكس كان معلما وصديقاً ؛ Patronus et Amieus وأصبح يوم وفاته بالنسبة لبولين يوم ولادته الجديدة . وبالقرب من قبره كان يتلى عن آلام الشهيد . وبهذه العودة لتحيين réaetualisation حياته ومماته المثاليتين ، كان الزمن يلغى ، وكان القديس حاضراً من جديد وكان الجمهور ينتظر معجزات جديدة : ابراءات للمرض ، طرد للشياطين . وقاية ضد الاعداء . الا ان المثل الأعلى لكل مسيحي كان الدفن المقدس حيث يفتش عن ايجاد القبر بأقرب ما يمكن من المكان الذي يرقد فيه القديس ، بأمل ان يدافع عن الميت امام الله في يوم الدينونة . وقد نبش عدد كبير من القبور المرصوفة بعضها ضد البعض الآخر تحت المارتيريات les martyria أو في جوارها المباشر .

إن النتف اللامحدودة من الرفاتات ، ونقلها من طرف لآخر من الامبراطورية ساهمت في انتشار الميسحية ووحدة التجربة المسيحية التضامنية . وبالتأكيد ، ان اساءات الاستعمال ، والحيل ، والخصومات الكنسية والسياسية قد زادت مع الزمن . وفي بلاد الغال وجرمانيا ، حيث كانت الرفات نادرة ، نقلت من جهات أخرى وبخاصة من روما .

واثناء حكم الكارولينجيين الأول (٧٤٠-٨٤٠) ، نقل عدد من القديسين والشهداء الرومان الى الغرب ؛ ويظن انه ، حوالي نهاية القرن التاسع ، كانت كافة الكنائس تحوز (أو يجب ان تحوز) رفاتا[٣٠] .

ورغم الخاصية (الشعبية) التي انتهت لتسودها مع الزمن ، فإن عبادة الرفات لم تجرد من بعض ابهتها . وفي آخر المطاف ، اشهرت تحول المادة ، متقدمة إلى حد ما على النظريات الجريئة لتيار دي شاردان . ومن جهة اخرى ، فإن عبادة الرفات قرّبت ، في حماس المؤمنين ، ليس فحسب الأرض والسماء ، وانما ايضاً البشر من الله ؛ لأن الله هو دائما الذي حقّق «اكتشاف» inventio الرفات واجاز المعجزات . واضافة لذلك ، فإن التناقضات المضمرة في العبادة «على سبيل المثال حضور الشهيد في آن واحد في السماء وفي قبره ، أو في قطعة من جسده) قد آلفت المعتقدات مع الفكرة المتناقضة . وفي الواقع . يمكن اعتبار تقديس الرفات «كمواز سهل» (أي ممكن القبول من العلمانيين) لعقائد التجسيد ، والتثليث ، ولاهوت الأسرار المقدسة .

٢٥٧ - كنيسة المشرق وانطلاق اللاهوت البيزنطي

إن بعض الفروق بين كنائس الغرب والشرق بدأ يتأكد خلال القرن الرابع . وعلى سبيل المثال ، فإن الكنيسة البيزنطية أقامت المؤسسة البطريركية ، التراتبية العليا للاساقفة والميترويوليت . وفي مجمع قسطنطينة (٣٨١) أعلنت الكنيسة الشرقية مشكّلة من اربع سلطات قضائية اقليمية ، لكل منها مقرها البطريركي . وكان يحصل احيانا ان التوتر بين القسطنطينية - أو بصورة غير مباشرة ، الامبراطور - وروما يصبح حرجاً . وقد كانت القسطنطينية بامتلاكها لرفات القديس اندريه «أول مدعو» (الذي له اذن التقدم على القديس بطرس) تدعي - على الأقل - المساواة مع روما . وفي القرون التالية ، اثيرت خصومات مسيحية أو كنسية متعارضة في امور عدة بين الكنيستين . ونذكر فقط تلك التي اثارت التمذهب (ف ٣٠٢ع) .

ففي المجامع المسكونية الأولى شارك فقط بعض ممثلي «البابا» - اسم اعطاه سيريس لنفسه (٣٨٤-٣٩٩) ، معلنا نفسه هكذا «الأب» وليس «الأخ» للأساقفة

الآخرين . ولكن روما . كانت استندت على الادانة الجديدة لآريوس (مجمع القسطنطينة ، الثاني (٣٨) وادانه نسطوريوس (مجمع ايفسس . الثالث ٤٣١) . وفي رابع مجمع (خلقدونية (٤٥) ضد القائلين بالطبيعة الواحدة le monophysime[٣١] ، قدم البابا ليون الأول صيغة بالنسبة للرمز الجديد للايمان الذي أقر من قبل الآباء الشرقيين ، لأنه توافق مع فكرة القديس سيريل ، فقد اعترف بـ «مسيح وحيد ، ابن آله واحد ، دون التباس ، دون تبدل أو تحول ، دون انفصال ، والفرق بين الطبيعتين لا يلغي الاتحاد أبداً ، ولكن الخصائص لكل منهما محفوظة لكل منهما محفوظة ومجتمعة في شخص واحد وفي اقنوم واحد» .

إن الصيغة كانت تكمل العلم التقليدي بالمسيحية ، ولكنها تخلف دون جواب بعض الصعوبات المثارة من قبل القائلين بالطبيعة الواحدة . فرمز خلقدونية أثار انعكاسات منذ ما قبل نهاية القرن الخامس وبخاصة في القرن التالي . انه لم يقبل بمجمله من قبل قسم من المسيحية الشرقية ، وجعل من المحتم فصل كنائس الطبيعة الواحدة[٣٢] . وان الخصومات حول الطبيعة الواحدة أو بعض التعاليم المتهمة بالقول بالطبيعة الواحدة ، تمددت ، عقيمة ومزعجة ، خلال القرون .

ونشير هنا إلى بعض التطورات التي اسهمت باعطاء الكنيسة الشرقية بنيتها الخاصة . فبدئيا ، الانطلاقة التي لا مثيل لها للطقس البيزنطي ، وابهته الكهنوتية ، وتألقه الشعائري والفني معا . فالطقس يجري «كسر» محفوظ للمتلقين . وكان عالم المجمع ينذر الذي اختبر السر الالهي : خذ حذرك بأن لا تبوح بطريقة مدنسة بالاسرار القدسية بينْ كل الاسرار . كن متبصراً واحترم السر الالهي . . . .» [التراتيبية الكنسية ١-١] . ستائر الايقونات ترفع في بعض الفترات ؛ وفي القرون التالية ، عزلت الايقونات تماما عن اجنحة الكنائس .

«الاجزاء الاربعة لداخل الكنيسة ترمز للاتجاهات الأربعة الاصلية . داخل الكنيسة هو العالم . والمذبح هو الجنة التي توجد في الشرق . الباب الامبراطوري imperide للمعبد بمعنى الكلمة كان يسمى ايضا «باب الفردوس» . وهذا الباب يبقى مفتوحاً اثناء الاسبوع الفصحي في فترة الخدمة ؛ وقد فسر معنى هذه العادة بوضوح في

القانون الفصحي canonpascal : المسيح نهض من القبر وفتح لنا الابواب إلى الجنة . الغرب ، على العكس ، هو اقليم ظلمات حزن الموت ، والمقرات الابدية للموتى ، الذين ينتظرون بعث الاجساد والدينونة الاخيرة .

وحسب مفاهيم كوزماس انديكوبلوزيت ، ان الأرض مستطيلة ومحددة بأربعة جدران تعلوها قبة . وان الأقسام الاربعةلداخل الكنيسة ترمز إلى الجهات الرئيسية الاربعة»[٣٣] . وبصفتها صورة عن الكون Cosmos فإن الكنيسة البيزنطية تجسد وفي ذات الوقت تقدس العالم .

وقد عرف الشعر والجوقة الدينية (كورال) تألقاً متفرداً مع الشاعر والمؤلف الروماني ميلود (القرن السادس) . واخيراً ، تقتضي الاشارة لدور الشماس diacre ، الذي يستخدم وسيطاً بين المحتفلين والمؤمنين . انه يدير الصلوات ويعين اللحظات الحاسمة للطقس بالنسبة للحضور .

ولكن الابداعات الاكثر دلالة للمسيحية الشرقية تبدو في اللاهوت بصورة خاصة . وبدئياً في اللاهوت التنسكي . صحيح ان بنية الفكر الديني البيزنطي قد غطى بنوع ما أصوليته ، وذلك لأن كل فقيه كدَّ للحفاظ والحماية ، والدفاع عن المذهب المنتقل من قبل الآباء . وكانت التيولوجيا ثابتة ، وكان التجديد ينتمي إلى الهرطقة ، وكانت عبارة تجديد وتجديف مترادفتين تقريباً[٣٤] . وهذه الرتابة الظاهرة (بتكرار الافكار المعلنة من قبل الآباء) يمكن لها ان تعتبر ـ وكانت كذلك خلال قرون ـ وكأنها علامة تحجر وجدب .

مع ذلك ، فإن المذهب المركزي للتيولوجيا الشرقية ، وبخاصة فكرة تأليه الانسان ، هي ذات أصولية كبرى ، مع انها تعتمد على القديس بولس ، وانجيل يوحنا ونصوص توراتية اخرى . إن التكافؤ بين خلاص وتأليه كان يشتق من سر التجسيد .

وحسب مكسيم المعترف Maxime le Confeueur ، فإن الله خلق الانسان موهوبا بطريقة من توالد إلهي وغير مادية ، وان الجنس كالموت ، هما النتيجة للخطيئة الأصلية . وتجسد اللوغوس جعل التأليه ممكنا ، ولكن نعمة الله وحدها هي التي

تصنعه . وهذا ما يفسر الأهمية للصلاة الداخلية (اصبحت فيها بعد «صلاة غير متوقفة») ، من التأمل وحياة الرهبنة في الكنيسة الشرقية . والتأليه مسبوق أو مترافق بتجربة من النور الصوفي . وفيها سلف لدى آباء الصحراء كان الانتشاء يظهر بمظاهر نورانية . فالرهبان «يشعون من نور النعمة» . ففي حين يكون المتنسك مستغرقاً في الصلاة ، تكون حجيرته مضاءة بكاملها(٣٥)

إن ذات التقليد (صلاة ـ نور ـ تصوف ـ ألوهية) عاودت وجودها بعد الف سنة لدى المعتكفين في جبل آتوس . وان الجدل المثار حول مزاعمهم أي بأنهم يتمتعون برؤية النور الغير مخلوق ـ أعطى المجال للمفكر الكبير غريغوار بالماس (القرن الرابع عشر) لاقامة لاهوت صوفي حول النور التابوري Taborique .

وفي الكنيسة الشرقية ، يشاهد اتجاهان متكاملان ، ومع انهما متعارضان في الظاهر ، فقد تناميا مع الزمن ، فمن جهة ، الدور والقيمة الكنسية لجماعة المؤمنين ، ومن جهة اخرى ، السلطة المعتبرة للرهبان المتنسكين والحالمين . وبينما ستبرز التسلسلية في الغرب بعض التحفظ حيال الحالمين والصوفيين ، فإن هؤلاء الأخيرين سيتمتعون في الشرق باحترام كبير من قبل المؤمنين والسلطات الكنسية .

ان التأثير الشرقي الوحيد ذي الدلالة على اللاهوت الغربي كان تأثير دينيس Denys عالم المجمع (المنتحل) . إن هويته وسيرته الذاتية مجهولتان . وكان على ما يرجح راهبا سورياً من القرن الخامس ، وبما أنه كان يُعتقد معاصراً للقديس بولس ، فقد تمتع بسلطة شبه رسولية . ان لاهوت عالم المجمع هذا l'Aréopagite يُستلهم من الافلاطونية المحدثة ومن غريغوار النيسي Grégoire de Nysse . وبالنسبة لدينيس هذا ، فإن المبدأ الأعلى ـ مع كونه فائق الوصف ، مطلق ، خارج الشخص واللاشخصي ـ وهو مع ذلك ذي علاقة مع العالم المرئي عبر تسلسلية كائنات . والتثليث هو قبل كل شيء الرمز للوحدة الكلية بين الواحد والتعدد . وهكذا يتجنب دينيس في وقت واحد القول بالطبيعة الواحدة وصيغ مجمع خلقدونية . انه يتفحص مظاهر الألوهية في الاعداد الالهية وتعبيراتها بواسطة الأنظمة الملائكية في التسلسلية السماوية . Hiéraschiecéleste غير ان رسالة صغيرة ، اللاهوت الصوفي la Théalogiemystique هي بخاصة

التي أقامت اعتباره الفائق . فلأول مرة في تاريخ التصوف المسيحي ، توجد عبارات «الجهالة الالهية» و«عدم المعرفة» راجعة لتصاعد الروح نحو الله . ويثير عالم المجمع ـ المنتحل (دينيس)«النورانية فوق الشعور للظلمات الألهيـة» ، «الظلمات التي هي خارج النور» ، ويرفض كل نعت إلهي «لأنه ليس اكثر صحة التأكيد بأن الله هو حياة وطيبة ، من التأكيد بأنه هواء أو حجر»

وهكذا يضع دينيس الأسس للاهوت سلبي ، يعيد إلى الذاكرة الصيغة الاوبانيشادية الشهير ، لا شي ، لاشي netil, neti (ف. ٨١ع) .

هذا وان غريغوار النيسي كان قد قدم بعضاً من هذه الأفكار بطريقة اكثر عمقاً واكثر منهجية . ولكن تقدير دينيس ساهم لحد كبير بجعله شعبياً بين الرهبان . هذا وان مؤلفات عالم المجمع المنتحل (دينيس) المترجمة إلى اللاتينية منذ وقت مبكر قد اعيدت نرجمتها في القرن التاسع عشر من قبل الراهب الايرلندي سكوت ايرجين ، وعبر هذه الترجمة عرف دينيس في الغرب .

لقد أعيد الأخذ بأفكاره وعمقت من قبل مكسيم المعترف «العقل الأكثر شمولية في القرن السابع وربما المفكر الأصولي الأخير بين لاهوتيي الكنيسة البيزنطية»[٣٦] وقد حرر مكسيم تحت شكل مدرسي des seüolia، شرحاً لرسائل دينيس الصوفية ، التي كانت ترجمت ايضاً من قبل ايريجين ، وفي الواقع ان هذه المدونة ـ الأصلية وشروح مكسيم ـ كوّن نصا لعالم المجمع المنتحل ، الذي أثر على فكر العديد من الصوفيين واللاهوتيين الغرابيين ، من برنارد دي كليرغو وتوماس لكونياس حتى نيقولا دي كوز[٣٧] .

٢٥٨ ـ تمجيد الايقونات ومحاربوها

إن افدح ازمة مثارة بمحاربة الايقونات (القرن الثامن والتاسع) كان لها اسباب متعلدة : سياسية ، اجتماعية ولاهوتية . فتبعاً للحظر المعلن في الوصايا العشر Decalogue لم يضع مسيحيو القرنين الأولين صوراً . ولكن هذا المنع قد تجاهله الناس

في الامبراطورية الشرقية بدءاً من القرن الثالث ، عندما ظهرت الرسوم الايقونية الدينية (صور او مشاهد مستلهمة من الكتابات) في المقابر وفي الصالات حيث كان يتجمع المؤمنون . وهذا التجديد تبعه عن قرب انطلاق عبادة الرفات . وفي القرنين الرابع والخامس ، تكاثرت الصور وتنامى تمجيدها . ثم عبر هذين القرنين حصل النقد والدفاع للايقونات وعنها . وقد كانت الحجة الاساسية للايقونيين . وظيفتها التأديبية - خاصة بالنسبة للأميين - والفضائل المقدسة للصور . ولم تصبح الصور موضوعاً للورع والطقوس في الكنائس كما في المساكن الخاصة[٣٨] الا حوالي نهاية القرن الرابع واثناء القرن السابع . فقد كان يصلى ، ويسجد امام الايقونات ، وكانت تعانق ، وترفع اثناء بعض الاحتفالات . وقد شوهد خلال هذه الفترة نمو عدد الصور المعجزة - مصادر القوة الخارقة للطبيعة - التي حمت المدن والقصور والجيوش[٣٩] .

وكما يلاحظ ارنست كيتزنجر فإن هذه العقيدة بالسلطة أو القوة المافوق طبيعية للصور والتي تفترض بعض الاستمرارية بين الصورة والشخص الذي تمثله ، هي الأثر الاكثر أهمية لعبادة الايقونات في القرنين السادس والسابع . فالأيقونة هي «امتداد عضو من الالوهية ذاتها»[٤٠] .

إن عبادة الصور منعت رسميا من قبل الامبراطور قسطنطين الخامس في سنة ٧٤٦ وأعلنت أنها لعنة من قبل المجمع المعادي للايقونات في القسطنطينية ، وفي ٧٥٤ - وكانت الحجة اللاهوتية الرئيسية بوصفها وثنية مستترة في تمجيد الايقونات . وان ثاني مجمع ضد الايقونات ، هو مجمع ٨١٥ وقد رفض عبادة الصور باسم علوم المسيحية . لأنه من غير الممكن رسم وجه المسيح بدون انصهار حضور الطبيعة الإلهية (الأمر الذي يعتبر الحاداً) أو بدون فصل الطبيعتين اللتين لا يمكن فصلهما بهدف رسم الطبيعة البشرية فقط (الأمر الذي يعتبر هرطقة)[٤١] . وعلى العكس فإن سر القربان المقدس يمثل (الصورة) الحقيقية للمسيح ، لأنها مغرقة بالروح القدس ؛ وهكذا ، فإن سر القربان المقدس ، على عكس الايقونة ، يملك بعداً إلهياً ومادياً في آن واحد[٤٢] .

أما بالنسبة للاهوت الإيقوني ، الاكثر منهجية فقد اقيم من قبل يوحنا الدمشقي

(٦٧٥-٧٤٩) وتيودور الستوديت (٧٥٩-٨٢٦) . فقد اشار المؤلفان ، اعتماداً على عالم المجمع المنتحل (دينيس)، للاستمرارية بين الروحاني والمادي وقد كتب يوحنا الدمشقي . «كيف تستطيعون انتم الذين يمكن رؤيتهم ، عبادة الاشياء غير المرئية ؟» ان الروحانية المفرطة لمحاربي الايقونات صنفتهم في ذات الفئة من الغنوصيين القدامى الذين ادعوا ان جسم المسيح ليس طبيعيا وانما سماويا[٤٣] . وعلى اثر التجسيد ، جعلت مشابهة الله ممكنة الرؤية ، وهكذا حذف المنع الايصائي القديم لتصوير الالهي . اذن ، فإن الذين ينكرون ، امكانية تمثيل المسيح بإيقونة ، ينكرون ضمنا حقيقة التجسد . مع ذلك فإن المؤلفين المذكورين ، يؤكدان بأن الصورة ليست مماهية في جوهرها ومادتها مع مثالها . ان الصورة تشكل مشابهة ، وبعكسها للنموذج تدعم التمييز معه . وبالنتيجة ، فإن محاربي الايقونات هم مجرمون بالتجديف عندما يعتبرون سر القربان المقدس كصورة ، لأنه بصفته متماهيا اساسا وماديا مع المسيح ، فإن سر القربان المقدس هو المسيح ، وليس صورته[٤٤] .

وفيما يخص ايقونات القديسين ، فإن يوحنا الدمشقي يكتب : «طالما كانوا أحياء ، فإن القديسين كانوا ممتلين بالروح القدس ، وبعد موتهم ، فإن نعمة الروح القدس ليست أبدا بعيدة عن أرواحهم ، ولا عن قبورهم ولا عن صورهم المقدسة»[٤٥] . بالتأكيد إن الايقونات لا تجوز عبادتها على ذات الطريقة التي يعبد فيها الله . «ولكنها تنتمي إلى ذات الفئة من الأشياء المقدسة بحضور يسوع المسيح . كما ، على سبيل المثال ، الناصرة ، الجلجلة ، خشبة الصليب . فهذه الامكنة وهذه الأشياء أصبحت «آنية للطاقة الالهية» لأن الله يصنع خلاصنا عبرها . ومن ايامنا ، تحتل الايقونات مكان المعجزات والأعمال الأخرى ليسوع المسيح ، ولتلامذته امتياز برؤيتها وبتأملها[٤٦] . وباختصار . فإن الايقونات كالرفات تماما جعلت من الممكن الاتصال بين السماء والأرض ، واعادت ترتيب المعجزة illud tempus ، عندما عاش المسيح والعذراء والرسل المقدسون بين البشر . والايقونات إن لم تكن مماثلة بقوتها للرفات ، فعلى الاقل ، هي اكثر سهولة بالحصول عليها من قبل المؤمنين : توجد في اكثر الكنائس تواضعاً ، وفي الكنائس والمساكن الخاصة ، وما هو اكثر من ذلك ، أن تأملها يسمح بالمرور إلى عالم من

الرموز . وبالنتيجة ، فإن الصور كانت قابلة لاتمام وتعميق التعليم الديني للأميِّين . (وفي الواقع ، ان هذا الدور ممتلىء بالتصوير الايقوني في كل التجمعات السكنية الزراعية في اوروبا الشرقية) .

وبغض النظر عن الاسباب السياسية والاجتماعية ، فإن حمى محاربة الايقونات لم تثمر . وذلك لأن محاربي الايقونات قد جهلوا من جهة أو قد استبعدوا الوظيفة الرمزية للصور المقدسة ؛ ومن جهة أخرى ، فإن عدداً من الايقونيين استعملوا عبادة الايقونات لمنفعتهم الخاصة أو لضمان الاحترام ، والتفوق والثراء لبعض المؤسسات الكنسية .

حواشي الفصل الثاني والثلاثين

١ ـ كتاب نهوض المسيحية للأوروبية ـ تروفر ـ روبير

٢ ـ «من سيستطيع حتى التكهن بما يمكن ان يحصل للعالم أو المسيحية لو لم تصبح الامبراطورية الرومانية مسيحية أو لو ان قسطنطينة لم تحافظ على الحقوق الرومانية والثقافة الاغريقية اثناء فترة البرابرة وغزوة المسلمين ؟! إن اعادة اكتشاف الحقوق الرومانية في القرن الثاني عشر قد دفعت مرحلة هامة في انبعاث اوروبا . ولكن الحقوق الرومانية التي اكتشفت مجدداً كانت الحقوق المحفوظة في المدونة البيزنطية لجوستنيان [ذات المرجع ص ٣٣ـ٣٥] كذلك اعادة اكتشاف الكتب الاغريقية في القرن ١٥ ، نتج عصر النهضة .

٣ ـ كتاب ردة الفعل الوثنية ـ إميل كايجي

٤ ـ لكن اوغسطين يكف عن التأمل حول تاريخ عودة المسيح الثانية ، التي كان بشر بها معاصره لاكتافس (٢٤٠ ـ ٣٢٠ / حول السنة ٥٠٠)

٥ ـ في كتابه مدينة الله ١٨ـ١٦ حسب اوغسطين ان الدول والاباطرة ليسوا من عمل الشيطان ، مع ذلك انهم نتيجة الخطيئة الأصلية .

٦ ـ إ . جيلون ـ الفلسفة في القرون الوسطى ص ١٢٨ . وهذا التعريف ، المعطى من قبل افلاطون في القيبادس أعيد استخدام من قبل افلوطين ، حيث وجده أوغسطين .

٧ ـ يذكر جيروم ٨٠٠ عمل ٧ ولكنه يضيف ان بامفيلوس اعطى قائمة ب ٢٠٠٠ عنوان

٨ ـ «فهنالك خصيان ولدوا من بطون امهاتهم على هذه الحال ، وهنالك خصيان خصاهم الناس ، وهنالك خصيان خصوا انفسهم من أجل ملكوت السموات . فمن استطاع ان يفهم فليفهم» متى ١٩ـ١٢ وبعضهم يفسر معناه بالتعفف وترك الزواج لخدمة الله والرب .

٩ ـ انظر طبعة وترجمة المبادىء (في مصادر مسيحية) مجلد ٢٥٢ـ٢٥٣ . . . الخ

١٠ ـ على سبيل المثال في المبادىء (فصل ا) «نؤكد الى الحقيقة الوحيدة التي يجب

الاعتقاد بها هي الحقيقة التي لا تعارض ابداً تقليد الكنيسة الرسل»

١١ ـ الف سنة بعد هذا ، ستعتمد الكنيسة التعليمات الجريئة لجيول ستينو دافوار وبيتر ايكاردت مضيفة هكذا الامكانية لمنفعة المعاصرين .

١٢ ـ اسماء المراجع .

١٣ ـ بعد بيتران بصورة خاصة ذكر القطع الشهير «لم أكن بعد محبا ولكنني كنت محبا للحب . لقد بدأت البحث عن مناسبة وقوع الحب لأنني أحببت بجنون فكرة أن أحب» [٣-١-١]

١٤ ـ اسماء المراجع

١٥ ـ من المحتمل ان زميله الاكثر شهرة كواليستس ، حلب ايضاً اطروحات بيكاج . وحسب بولس ميلان الذي رفض هذه الهرطقة في ٤١١ ـ ٤١٢ ان البيلاجية تعتبر أن آدم قد خلق فانيا وانه عرف الموت حتى بدون ان يذنب ، وآدم وحده الذي تضرر بخطيئته ، وليس الجنس البشري في مجموعه . فالاطفال يوجدون في ذات الوضع لآدم قبل السقوط واكثر من ذلك هو حتى قبل المسيح كان يوجد رجال ابرياء تماماً وبدون ذنب .

١٦-١٨ اسماء المراجع المعتمدة .

١٩ ـ كلود تريسموتان ـ ميتانيزيك المسيحية ص ٦١١ في الملاحظة ٤٠ يذكر المؤلف نصا من ليبنتر يؤكد ان المشكوك فيه لم يتطور أبداً «كيف يمكن للروح ان تعذب بالمخطئة الأصلي التي هي جذر الآثام الحالية ، بدون ان يكون هنالك ظلم في الله لأن يفرخها»[٤١] .

٢٠ -٢١ نحو ٤٠١ لص عدداً من الرهبان «الذين باعوا اعضاء الشهداء ، اذا تعلق أحياناً بشهدا» .

٢٢-٢٤ـ بيتر براون ـ عبادة القديسين ـ وبولد دين سميث (القبة)

٢٥ ـ عادة ملازمة دامت رغم مقاومة الكنيسة لها . في ٦٩٢ منع مجمع ترول من جديد المآدب وتحضير الاطعمة على المذبح .

٢٦-٢٧ ـ اسماء المراجع

٢٨ ـ يمكن مقارنة هذه (المدن خارج المدن) بمدينة الأموات nécropales الميغاليثية لمالطة بالدرجة الأولى مدينة الأموات الشهيرة هالسالفنيس) وتتحقق المشابهة عندما تتذكر ان هذه المراكز الاحتفالية الميغالثية لم تكن مقابر فحسب ، ولكنها كانت تضم كنائس صغيرة ومعابد ومصاطب تستخدم من اجل الطوافات والشعائر الإخرى . ويضاف مع ذلك . ان مثل هذه المشابهة المورفولوجية لا تقتضي تشابه المعتقدات .

٢٩ ـ برادن

٣٠ ـ باتريك جدي (القرن التاسع وتجارة الرفات) ص ١٠ ـ البابوات قبلوا اختيارا هذه التحولات لأن الرفات الرومانية رفعت احترام روما كعاصمة للامبراطورية ومركز المسيحية

٣١ ـ القائلون بالطبيعة الواحدة يحسبون انه اذا كان يسوع المسيح قد تكوّن بدءاً من الطبيعتين الهية وبشرية فإنه لم يبق بعد سوى واحدة في الاتحاد ، وبالنتيجة فإن طبيعةالكلمة المجسدة واحدة

٣٢ ـ المحميين ، وان القسطنطينية ٥٥٣ ـ ٦٨٠ تساهلا للمونوفيسيت

٣٣ ـ ٣٥ ـ ٣٨ ـ اسماء المراجع .

٣٩ ـ بين الاكثر شهرة ، ايقونة المسيح لمدينة ايديه المعتبرة وكأنها قادرة لردع غزوةجيش فارس وصورة المسيح الموضوعة فوق الباب الكبير من البروز للقصر الامبراطوري والتي سيميز تدميرها في ٧٢٧ بداية محاربة الايقونات .

٤٠ـ ٤٢ـ ٤٣ـ ٤٥ اسماء المراجع المعتمدة .

٤٦ ـ انظر النصوص التي حللها بيليكان ص ١٢١ . . تماما كما ان الانجيليين كتبوا حول المسيح مع كلمات ، فإنه يمكن الكتابة عنه في الذهب في الايقونات .

الفصل الثالث والثلاثون

محمد وانطلاقة الاسلام

٢٥٩ ـ الله ، إله أعلى للعرب

إن محمداً هو الوحيد من بين كل مؤسسي الأديان العالمية الذي تعرف سيرته الذاتية في خطوطها الكبرى[١]، وهذا لا يعني معرفة سيرته الداخلية . مع ذلك ، فإن المعلومات التاريخية التي بحوزتنا حول حياته والتجارب الدينية التي هيأت وقررت الهامه النبوي ، على الحضارة العربية من جهة ، وعلى البنى الاجتماعية لمكة من جهة أخرى ، هي معلومات قيمة لدرجة عالية . إنها لا تفسر أبداً شخصية محمد ولا نجاح نبوئته ، ولكنها تسمح لنا بالتأكيد على ابداعية الرسول . ان من المهم الحصول ، أقله بالنسبة لأحد مؤسسي الاديان العالمية ، على توثيق تاريخي غني ، ليعرف بشكل افضل القوة

* نحاول ترجمة ما جاء به المؤلف رغم ما يلاحظ من مخالفة استنتاجه للتفسير الاسلامي للنصوص ، ونحاول ايراد النص الأصلي للآيات المترجمة ، لاسيما وأن النص المترجم يفقد بيانه وقد ينعكس ذلك أحياناً على دلالته . وعلى كل حال فإن آراء المؤلف تخصه وحده ، وهي عرضة للخطأ في الكثير منها . (المعرب)

لعبقرية دينية ، وبعبارة أخرى ، يؤخذ بعين الاعتبار إلى أية درجة تستطيع عبقرية دينية استعمال الظروف التاريخية من أجل انجاح رسالتها ، وباختصار ، من أجل تغيير جذري لمجرى التاريخ ذاته .

لقد ولد محمد في مكة ما بين ٥٦٧ و٥٧٢ ، وكان ينتمي إلى القبيلة القوية قريش ، بقي يتيما في سن السادسة ، وتولى جده لأبيه بدئياً تربيته . وبعدئذ تولاها عمه ابو طالب[٢] . وفي سن الـ ٢٥ دخل في خدمة ارملة غنية ـ خديجة . وأجرى عدة سفرات مع القوافل في سورية . وبعد وقت قصير حوالي ٥٩٥ تزوج معلمته ، رغم فارق السن (خديجة كانت في سن الاربعين) . وقد كان الزواج سعيداً ، وان محمد الذي سيتزوج تسع نساء بعد موت خديجة ، لم يتخذ زوجة اثناء حياتها . وقد كان له سبعة اولاد ، ثلاث اولاد ماتوا في سن مبكرة ، واربعة بنات (الشابة الأكثر فاطمة ، ستتزوج عليا ، ابن عم محمد) . ان مكانة خديجة في حياة محمد ليست مهملة : انها هي التي شجعته اثناء محن «وحيه الديني» .

لم تكن حياة محمد معروفة بشكل جيد قبل الكشوفات الأولى حوالي ٦١٠ . وحسب التقليد ، سبق هذه الكشوفات فترات من التحنث في مغاور وأماكن اخرى منعزلة ، وممارسة غريبة عن الاعتقاد بالألوهية المتعددة لدى العرب . ومن الراجح جداً . أن محمداً كان متأثراً جداً بالمتيقظين ، وبالصلوات والتأملات لبعض الرهبان المسيحيين الذين كان يصادفهم ، أو الذين سمع كلامهم في اسفاره . وقد كان أحد ابناء عم خديجة مسيحياً . اضافة إلى ذلك فإن بعض اصداء النبوءة المسيحية ، أرثوذكسية أو مذهبية (نسطورية ، غنوصية) ، كما هو الأمر بالنسبة للافكار والممارسات العبرية ، كانت معروفة في المدن العربية . الا أنه لم يكن يوجد سوى القليل جداً من المسيحيين في مكة ، واغلبيتهم في شرط متواضع جداً (على الأرجح عبيد ، أو احباش) وغير متعلمين بما فيه الكفاية . . اما اليهود فقد كانوا يتواجدون ضمن كتلة ، في يثرب (المدينة مستقبلاً) : وسنرى (ف. ٢٦٢ع) إلى أية نقطة كان الرسول يعتمد على مساندتهم .

مع ذلك ، لايبلو ، في عصر محمد ، ان ديانة العرب المركزية تغيّرت بتأثيرات يهودية ـ مسيحية . وبالرغم من انحدار هذه الديانة ظلت تحافظ على بنيتها التعددية

للألوهية السامية . وقد كان المركز الديني ، مكة ، واسمها مذكور في المدونة البطلومية ptolemique (القرن ١١ ق.م) ، ماكورابا Makouraba ، وهو

لفظ مشتق من ماكورابا السبئي بمعنى (معبد) . وبعبارة أخرى ، ان مكة كانت في الأصل مركزاً احتفاليا ، نمت المدينة حوله تباعاً . وفي وسط المنطقة المخصصة ، الحمى ، كان يوجد معبد الكعبة (لغويا ـ مكعب) ، بناء في العراء ، ومركب في احدى زواياه الحجر الأسود الشهير ، المعتبر وكأنه من أصل سماوي . وقد كان الطواف حول الحجر يشكل في العصور الماقبل الاسلام ، تماما كما هو الأمر اليوم ، شعيرة هامة في الحج سنوياً إلى عرفات الكائنة على مسافة بضعة كيلو مترات من مكة . وكان رب الكعبة معتبرا انه الله «ذات الاسم مستعمل من قبل اليهود والمسيحيين العرب لدلالة على الاله» . غير ان الاله منذ زمن سابق أصبح الها متصاعداً ، ردت عبادته إلى بعض التقدمات والاضحيات من البواكير التي كانت تقدم إليه مشاركة مع مختلف الألهة المحلية[٤] . واكثر أهمية لدرجة بعيدة ، كانت الربات الثلاثة لشبه الجزيرة العربية المركزية : مناة (القدر) واللات مؤنث الاله ، والعزى (القوية) . وباعتبارهن (بنات الله) كن يتمتعن بشعبية .

وبحيث ان محمداً قبل نبوءته اخطأ (وقد صحح ذلك فيما بعد) بمدح وظيفتهن كوسيطات عند الله(*) .

وباختصار ، فإن الدين قبل الاسلام كان يرتبط بالدين الشعبي لفلسطين في القرن الرابع قبل المسيح ، كما انعكس ، مثلاً ، في وثائق المستعمرة اليهودية ـ الآرامية (الإلفانتين) d'Eléphantine** ، على النيل الأعلى : إلى جانب يهوه ـ ياهو

---

* قصة الغرانيق المشهورة حيث ينسب حديث هو موضوع شك : وهو : تلك الغرانيق وان شفاعتهن لترتجى . . . . وقد دار حول هذا الحديث من الجدال والمناقشات . . مما لا حاجة لعرضه هنا (المترجم)

** ـ الفانتين : جزيرة في النيل مقابل أسوان اشتهرت أيام الفراعنة .

Yahwè - Yahu، كان يعبد بتيهل Néthel وحرم بيتهل Haram Béthel ، والربة عرات Arat وإله للبنات(٥) .

وفي مكة كانت خدمة المعبد مناطة باعضاء العائلات ذات النفوذ ، وكانت الاعباء ، التي يكافأ عليها جيداً تنتقل من الأب إلى الابن . ويبدو أنه لم يوجد جهاز كهنوتي بمعنى الكلمة . ومع انه يوجد تماثل بين اللفظ كوهِن الذي يعني عند العبريين رجل الدين Prêtre فإن المصطلح العربي كاهن يدل على الرائي (المبصِّر) الذي بكونه مأخوذاً بالجن ، كان مؤهلا للتنبؤ بالمستقبل ولايجاد بعض الأشياء الضائعة أو الإبل الضالة(٦) .

إن الموحدين الوحيدين بين المعاصرين لمحمد كانوا بعض الشعراء والرائيين المعروفين تحت اسم (الحنيفيين) ، وكان بعضهم متأثراً بالمسيحية ، ولكن الأخروية الخاصة بالمسيحية (وفيما بعد بالاسلام) كانت غريبة عندهم ، كما يبدو انها كانت غريبة عن العرب بصورة عامة(٧) .

إن البعثة النبوية لمحمد قد انطلقت بعد عدد من التجارب الوجدية التي تشكل نوعاً ما المقدمة للكشف . وفي السورة [٥٣-١-٨] اشارة إلى أول الكشوفات ، «علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو ادنى . فأوحى إلى عبده ما أوحي» .

ورآه محمد مرة ثانية بالقرب من شجرة عنّاب «ولقد رآه . نزلة اخرى ، عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . ولقد رأى من آيات ربه الكبرى» [٥-٨ و ١٣-١٨] وفي السورة (٨١: ٢٢-٢٣) يعود محمد إلى هذه الرؤية «وما صاحبكم بمجنون - ولقد رآه بالأفق المبين» . وينتج من هذا أن الرؤى ترافقت بكشوفات سمعية وحيدة اعتبرها القرآن كأنها من أصل الهي . وقد سجلت التجارب الصوفية التي قررت مجرى حياته في السيرة المنقولة من قبل ابن اسحاق (سنة ٧٦٨) . وفي الحين الذي كان محمد ينام فيه في الغار حيث اكمل اعتزاله السنوي ، آتى إليه الملاك جبريل ممسكاً بيده كتاباً وطلب إليه أن يقرأ «اقرأ» . وبما ان محمد قد رفض أن يقرأ ضغط الملاك «الكتاب على فمه وانفه» بقوة كادت ان تخنقه ، وعندما كرر عليه في رابع مرة «اقرأ» سأله محمد :

«ماذا يجب ان اقرأ ؟» عندئذ أجابه الملاك : «اقرأ (بمعنى بشِّر) باسم ربك الأعلى الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، وعلمه مالم يعلم» [٩٦: ١-٥] ، فقرأ محمد ، وابتعد عنه الملاك «لقد تيقظت ، وكان هذا ، كما لو كنت كتبت بعض الشيء في قلبي» . وترك محمد الغار وما كاد يصل إلى وسط الجبل ، حتى سمع صوتاً سماوياً يقول له : «يا محمد ، أنت رسول الله وانا جبرائيل» فرفعت رأسي نحو السماء لأنظر ، وها هو جبرائيل كان على شكل رجل جالس في الأفق ، وجنباه متشابكان» . وكرر عليه الملاك الكلمات نفسها ، ونظر إليه محمد دون ان يتمكن من التقدم أو التراجع «ولم استطع تحديد منطقة من السماء دون رؤيته»[٩] .

إن رسمية هذه التجارب ، تبدو مؤكدة[١٠] . وان المقاومة الاساسية لمحمد تعيد إلى الذاكرة تردد الشامانيين والعديد من الصوفيين والانبياء في تقبل الارشاد الرباني لهم . ومن الراجح ان القرآن لا يذكر الرؤية ذات العلاقة بالمنام في الغار ليتجنب الاتهام بأن النبي مأخوذ بالجن . ولكن اشارات اخرى من القرآن تؤكد حقيقة الالهام . وكان املاء الوحي غالباً ما يترافق باختلاجات عنيفة وبضغوط حمى أو برداء .

٢٦٠ ـ محمد رسول الله

خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أوصل رسالاته الالهية الأولى فقط لزوجته خديجة ولبعض اصدقائه الخلّص (ابن عمه علي ، وابنه بالتبني زيد والخليفتين مستقبلاً أبو بكر وعثمان) . وبعد بعض الوقت لم ينقطع الوحي من الملاك وتجاوز محمد فترة الضيق وتثبيط الهمة ، واعادت رسالة الهية جديدة تشديد عزيمته «ما ودعك ربك ولا قلى [. . .] وسيعطيك ربك فترضى» [٩٣:٣-٥] . .

وبناء على رؤيا عام ٦١٢ أمره باعلان الوحي ، وبدأ محمد رسالته ، ومنذ البدء ، اكّد على قوة ورحمة الله الذي كوَّن الانسان «من علقة دم» [٩٦: ١ ـ ٨ ـ ١٧ ـ ٢٢ ـ ٨٧] وعلّمه القرآن وعلمه البيان [٥٥: ١-٤] وخلق السماء والجبال والأرض والجمال [٨٨: ١٧-٢٠] . ويذكر عطف الخالق (بالاشارة إلى حياته الخاصة) : «ألم يجدك يتيماً فآوى :

[٩٣: ٣-٨٠] ، ويقارن الصفة الآنية لكل وجود بأزلية الخالق : «كل من عليها فان ويبق وجه ربك ذي الجلال والاكرام» . مع ذلك يبدو مدهشاً ان محمد في اعلاناته الأولى لم يذكر وحدانية الله ، ما عدا استثناء واحد «لا تضعوا مع الله آلهة اخرى» [٥١-٥١] ، وعلى الأرجح يتعلق بتغيير متأخر[١٢] . وثمة نغمة أخرى من النبوءة هي اقتراب الدينونة وبعث الأموات . «عندما سينفخ في الصور ، سيكون يوم رهيب ، يوم عصيب بالنسبة للكافرين» [٧٤: ٨-١٠] «فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير» . وهنالك تذكير واشارات في أقدم السور ، ولكن اكثرها اكتمالاً يوجد في بداية سورة متأخرة : «اذا السماء انشقت [. . .] . اذا زلزلت الأرض زلزالها ، واخرجت الأرض اثقالها (= اجساد الموتى) [٩٩-٢] واذا الأرض مدت والقت ما فيها وتخلت ، يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيراً [. . .] فأما من أوتي كتابه من وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً [٨٤:١-١٢] . وفي العديد من السور المملاة فيما بعد طور محمد الأوصاف الرؤوية : ستغير الجبال مكانها ، وستذوب جميعا وتصبح رماداً وهباء وستنفجر القبة السماوية ، وسيطفأ القمر وتخمد النجوم . ويتكلم النبي كذلك عن حريق كوني (كوزمي) وعن قذائف من نار ونحاس مذاب مطلقة على البشر «يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتهران . فاذا انشقت السماء فكانت كالدهان . [٥٥: ٣٥]

وفي النفخة الثانية في الصور سيبعث الأموات ويخرجون من قبورهم . وستكون القيامة برمشة عين . ووراء السماء المدمرة سيظهر عرش الله ، مسنداً بثمانية ملائكة ومحاط بقطعان سماوية ، وسيحشر الناس أمام العرش ، الصالحون على اليمين والكافرون على الشمال . عندئذ تبدأ المحاكمة على اساس العلاقات المدونة في كتاب أعمال البشر (اللوح المحفوظ) .وسيد عى انبياء الماضي ليشهدون بأنهم بلغوا الوحدانية وانهم انذروا معاصريهم . والكافرون سيدانون بعذب الجحيم[١٣] . مع ذلك فإن محمداً يؤكد دوما على المسرات التي تنتظر المؤمنين في الجنة ، انها بخاصة من نوع مادي : انهار عذبة ، اشجار مثقلة الغصون بالثمار ، لحوم من كل نوع ، فتيان ولدان

(كأنهم لؤلؤ مكنون) يقدمون شرابا لذيذا ، حوريات ؛ طاهرات ، ابكار ، مخلوقات بصورة خاصة من قبل الله [٥٦ : ٢٦-٤٣] .لا يتكلم محمد عن «الأرواح» التي تتألم في الجحيم أو تتنعم في الجنة . وبعث الاجساد هو في الواقع خلق جديد . وبما ان الفترة بين الموت والدينونة تشكل حالة من اللاوعي فإن البعث سيكون له انطباع بأن المحاكمة ستكون مباشرة بعد الموت[١٤] .

وباعلانه : «لا يوجد اله آخر سوى الله» لم يتطلع محمد لاقامة دين جديد ، لقد اراد بكل بساطة ، ايقاظ مواطنيه ، واقناعهم بعبادة الله وحده ، لأنهم اقروا فيما سلف بأن خالق السماء والأرض وضامن الخصب [٢٩-٦١-٦٣] وهم يدعونه في الازمات والاخطار الكبرى [٢٩ : ٦٥-٣١: ٣١ : ١٧-١٩] وكانوا يقسمون بالله جهد ايمانهم [٣٥ : ١٢-١٦-٣٨] . وان الله كان من جهة اخرى رب الكعبة ، وفي واحدة من أقدم السور يطلب محمد من افراد من قبيلته الخاصة قريش ، عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [١٠٦-٣-٤] مع ذلك لم تتأخر المعارضة عن الظهور ، وكانت الاسباب والحجج متعددة ، ويؤكد ابن اسحاق ان محمداً بناء على أمر من الله أعلن الدين الحقيق (الاسلام = الخضوع) .

ولم يقاومه مواطنوه لفترة من الزمن الا عندما تكلم بالسوء ضد آلهتهم . وتذكر السنة انه بعد الآية ٢٠ من السورة ٥٣ (النجم) بصدد الربات الثلاثة اللات والعزة ومناة تبعت بهذه الآيات : «انها الغرانيق العلى (الربات العلى) وان شفاعتهن لترتجى» .

ولكن محمد فيما بعد ، اعتبر ان هذه الكلمات أوحى بها الشيطان . فأبدلها عندئذ بهذه الكلمات «إن هي الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» .

إن هذه الحادثة هي ذات دلالة لسببين : بدئيا ، تظهر صراحة الرسول : فقد اعترف انه بتلاوته الكلام الموحى به بوحي إلهي ، قد خدع من قبل الشيطان[١٥] . وفي المحل الثاني يبرر نسخ الآيتين من قبل الكلي القدرة والحرية المطلقة الرب[١٦] . وفي الواقع ، إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي اعترف بحرية النسخ لبعض مقاطع من الوحي .

وبالنسبة لطغمة قريش الغنية ، كان ارتدادهم للوثنية معادلاً لخسارة امتيازاتهم . إضافة إلى ذلك ، فإن الاعتراف بمحمد انه الرسول الحقيقي لله كان يقتضي كذلك الاعتراف بسيادة سياسية ، واكثر فداحة ايضاً : ان الوحي المعلن من قبل النبي ، كان يدين أجدادهم المشركين في جهنم الدائمة ، وهو أمر غير ممكن القبول بالنسبة لجماعة تقليدية . وبالنسبة لقسم كبير من السكان ، كانت المعارضة الاساسية (التواضع الوجودي) لمحمد «ما لهذا النبي : يأكل الطعام ويدور في الأسواق . لولا انزل إليه ملك فيكون معه نذيراً» [٢٥ ـ ٧] . لقد سخروا من الوحي واعتبروه مخترعاً من محمد أو أنه موحى به من قبل الجن . وبصورة خاصة اعلانه نهاية العالم وقيامة الاجساد ، اثارت السخرية من جهة أخرى ، فقد مضى الزمن والكارثة الأخروية تأخرت عن المجيء[٧] .

وقد لاموه ايضا لعدم وجود معجزات «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تتفجر الانهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قال سبحن ربي هل كنت الا بشراً رسولاً [١٥/٥ ـ ٩٣] .

٢٦٠ ـ السفر الوجدي للسماء والكتاب المقدس

بايجاز ، طلب إلى محمد البرهان على رسمية وحيه النبوي بأن يصعد إلى السماء حاملا كتاباً مقدساً . وبعبارة أخرى كان من المتوجب على محمد التوافق مع النموذج المشهر من قبل موسى ، دانيال ، هينوش ، ماني والرسل الآخرين الذين بصعودهم إلى السماء التقوا مع الرب وتلقوا من يده الخاصة الكتاب المتضمن الوحي الإلهي ، وقد كان هذا السيناريو مألوفاً ايضاً تماما لدى اليهوديةالمعيارية والرؤية اليهودية باكثر مما لدى السامارتيين ، وفي الغنوصيات والمانديات ويرجع أصله إلى الملك الاسطوري في ما بين النهرين ايماندوراكي ، وهو متضامن مع الايديلوجيا الملكية[١٨] .

وقد تطورت وتنامات تبرئات الرسول وردوده على المطاعن بمقدار وتبعاً لما يثيره الكافرون من اتهامات. وكالعديد من الانبياء والرسل الآخرين قبله، وكبعض انداده اعتبر محمد وأعلن نفسه الرسول (= المبعوث) من الله ١٩ : الذي حمل إلى مواطنيه وحياً الهيا. فالقرآن هو (تنزيل رب العالمين) [٣٦:١٩٣] «بلسان عربي مبين». فهو اذن معقول تماما الى سكان مكة، فاذا استمروا في كفرهم، فذلك لعمامهم أمام الآيات السماوية [٢٣:٦٨]، وبتكبرهم وطيشهم [١٧: ١٤، ٣٣: ١٦٨]. ومن جهة أخرى، فإن محمداً يعلم جيداً إن محناً مماثلة قد تحملها الرسل المبعوثون قبله من الله : ابراهيم، موسى نوح، داوود يوحنا، يسوع. [٢١:٦٦].

إن الصعود للسماء ـ المعراج ـ هو ايضا رد على الكافرين. (سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذي باركنا من حوله لنريه من آياتنا» [١٧-١]. ان السنة تحدد السفرة الليليلية حوالي سنة ٦١٧ أو ٦١٩ ؛ ممتطيا الفرس المجنح البراق، زار محمد اورشليم الأرضية ووصل حتى السماء. وقد وثقت تفاصيل هذه الرحلة الوجدية على شكل موسع في النصوص المتأخرة. ويختلف السيناريو في رواياته. فحسب رواية بعضهم، ان الرسول، على فرسه المجنح. تأمل الجحيم والجنة، وقرب من عرش الله. وان الرحلة لم تدم سوى لحظة : فالجرة التي قلبها محمد عند سفره لم تفرغ بعد محتواها عندما عاد لمنزله. وحسب رواية أخرى يبرز على مسرح الحدث السلم الذي تسلقه محمد حتى ابواب السماوات يقوده جبرائيل. ولقد وصل إلى امام الله وتلقى من فمه ذاتــه أنـه اختير قبل كل الانبياء الآخرين وانه هو «محمد حبيبه» وقد أسر الله إليه بالقرآن وبعض العلم الباطني الذي يجب على محمد أن لا يعلـم به المؤمنين[٢٠].

إن هذه السفرة الوجدية ستلعب دوراً مركزيا في التصوف واللاهوت الاسلاميين فيما بعد، وانها تبرز خطاً مميزاً لعبقرية محمد والاسلام، وهذا الخط يظهر في الارادة بتمثل وادخال تركيب ديني جديد للمارسات. وافكار وسيناريوهات اسطورية ـ طقوسية تقليدية. وسنرى فيما بعد ان النتائج للمواجهات مع اليهودية ومع تقاليد دينية اخرى، وحتى تقليد (وثني) وقديم، ومثل ذلك الكعبة.

أخذ وضع محمد والمؤمنين معه يتفاقم باستمرار . وقرر أعيان مكة تجريدهم من حقوقهم القبلية . رفي الواقع ، كانت الحماية الوحيدة للعربي انتماؤه إلى قبيلة . ومع ذلك فقد دافع عمه ابو طالب عنه مع انه لم يعتنق الاسلام ابداً . وبعد وفاة ابو طالب ، نجح اخوه ابو لهب في تجريد الرسول من حقوقه . وكانت المسألة المطروحة بهذه المقاومة الاكثر عنفا من قبل القريشيين قد حلت على المستوى اللاهوتي : ان الله ذاته هو الذي آراده . والارتباط الأعمى بتعدد الآلهة (الشرك) كان مقرراً ، بكل ازليته ، من قبل الله [١٦ : ٣٩ : ١٠ : ٧٥ : ٦ : ٣٩] . «والذين كذبوا بآياتنا صم بكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» . والقطيعة مع الكافرين كانت محتومة «لا اعبد ما تعبدون ولا تعبدون ما اعبد» [١٠٩ : ١-٢] .

وحوالي ٦١٥ ، ولكي يضعهم في ملجأ من الاضطهاد ، ولأنه خشي ايضا بعض الانشقاق(٢١) . شجع محمد مجموعة من ٧٠-٨٠ مسلماً للهجرة إلى بلد مسيحي ، الحبشة ، والنبي الذي كان يعتبر في البداية مبعوثا وحيداً لهدي القرشيين ، يتقرب الآن من البدو الرحل وسكان المدينتين الواحتين الطايف ويثرب . ولم ينجح بالنسبة للرحل وبدو الطائف ، ولكن اللقاءات مع يثرب (مستقبلا المدينة) كانت مشجعة .

لقد اختار محمد الهجرة إلى يثرب ، لأن الدين التقليدي لم يكن ممتهنا بالمصالح الاقتصادية والسياسية : وحيث كان يوجد كثير من اليهود ، اذن الموحدون . واضافة إلى ذلك ، فإن هذه المدينة الواحة ، كانت قد تعبت في حرب طويلة داخلية .

وقد قدر بعض القبائل ان رسولاً بنيت سلطته على الدين وليس على القرابة الدموية ، يستطيع غض النظر عن العلاقات القبلية ويقوم بدور الحكم . وكانت واحدة من القبيلتين الرئيسيتين قد اعتنقت الاسلام ، مؤمنة ان الله قد ارسل محمداً برسالة موجهة إلى كل العرب .

وفي ٦٢٢ ، وبمناسبة الحج إلى مكة التقت بعثة مؤلفة من ٧٥ رجلاً وامرأتين من يثرب الرسول سراً وتعاهدت معه بيمين رسمي للقتال في سبيله . وبدأ المؤمنون عندئذ مغادرة مكة جماعات نحو يثرب . ودام اجتياز الصحراء (اكثر من ٣٠٠ ك م) تسعة أيام . وكان محمد آخر الذاهبين مصحوبا بحموه ابو بكر . وفي ٢٤ أيلول وصلوا الى القوبة Qoba ، مزرعة بالقرب من المدينة . لقد تمت الهجرة بنجاح . ويعد بعض من الوقت ، دخل الرسول إلى المدينة تاركا لناقته اختيار المكان المقبل لمقره . والبيت ، الذي كان يستخدم مكانا لتجمع المؤمنين من أجل الصلاة جماعة ، لم يجهز الا بعد سنة ، لأنه وجب ايضا بناء الأحياء لأزواج النبي .

لقد تميَّز النشاط الديني والسياسي لمحمد في المدينة بجلاء عن نشاطه في الفترة المكية . وهذا التغيير بارز في السور المنزلة بعد الهجرة : انها تتعلق بصورة خاصة بتنظيم جماعة المؤمنين (الأمة)[٢٢] . ومؤسساتها الاجتماعية والدينية . وان النية اللاهوتية للاسلام قد استكملت في الفترة التي ترك فيها محمد مكة ، ولكنه في المدينة أثبت قواعد العبادة (الصلوات ، الصيام ، الزكات ، الحج) . ومنذ البدء ، اثبت محمد ذكاء سياسيا خارقا ، فقد حقق دمج المسلمين الآتين من مكة (المهاجرين) مع المعتنقين للدين في المدينة (الانصار) ؛ وذلك بإعلانه انه رئيسهم الأوحد ، وان العصبية القبلية قد الغيت اذن . ومنذئذ لم يعد يوجد سوى جماعة المسلمين ، المنظمة بصفتها جمعية ثيوقراطية . وفي الدستور المعلن ، على الارجح سنة ٦٢٣ ، قرر محمد ان المهاجرين والانصار (أي الأمة) يشكلان شعباً واحداً متميزا عن الآخرين كلهم ؛ لقد أكد مع ذلك على الحقوق والواجبات للقبائل الأخرى وايضاً لقبائل اليهود الثلاثة . وبلا ريب ، ان كل السكان في المدينة كانوا غير راضين عن مبادرات محمد ، ولكن ، اعتباره السياسي كان ينمو بمقدار وتبعالنجاحاتهالحربية . غير ان الوحي الجديد الموحى إليه من قبل الملاك جبرائيل هو الذي ضمن له نجاح مقرراته[٢٣] .

وكان الازعاج الاكبر لمحمد في المدينة انتقاض القبائل اليهودية الثلاث . فقبـل هجرته ، اختار محمد القدس كقبلة للتوجه في الصلوات ، حسب الممارسة اليهودية ، وما أن استقر في المدينة ، حتى استعار طقوساً اسرائيلية اخرى ، وتشهد السور المنزلة

في السنوات الأولى من الهجرة بجهوده لأجل اقناع اليهود بالايمان «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير» [٥-٢١] . وقد اجاز محمد لليهود الحفاظ على تقاليدهم الطقوسية اذا اعترفوا به كنبي(٢٢) . ولكن اليهود بدوا دائما الاكثر عداوة . وزعموا وجود خطأ في القرآن ، مؤكدين على ان محمد لم يعرف العهد القديم .

وتمت القطيعة في ١١ شباط ٦٢٤ ، عندما تلقى الرسول وحيا جديداً محدداً للمسلمين ان يتوجهوا ، من أجل الصلاة ليس باتجاه القدس وانما باتجاه مكة [٢ : ١٣٦] . وقد أعلن محمد بحدسه العبقري ان الكعبة بنيت من قبل ابراهيم وابنه اسماعيل [٢ : ١٢٧] . وان سبب وجود المعبد الآن تحت رقابة عبدة الأوثان انما هو فقط بسبب ذنوب الاجداد . ومنذئذ «للعالم العربي معبده ، وهو اكثر قدما من معبد اورشليم . وان لهذا العالم وحدانيته الحنيفية [. . .] وبهذه الاشارة ، فإن الاسلام الذي كان انحرف فترة قصيرة عن اصوله ، رجع إليها ابدياً»(٢٥) . ان النتائج الدينية والسياسية لهذا القرار بارزة جدا : فمن جهة ، ان مستقبل وحدة العرب سيكون مضموناً ، ومن جهة اخرى ، فإن التفكرات المتأخرة حول الكعبة ستصل إلى لاهوت المعبد تحت دلالة الأقدمين ، اذن «حقائق» ، توحيدية . والآن فقد انفصل محمد عن اليهودية كما انفصل عن المسيحية : هاتان (الديانتان الكتابيتان) اللتان لم تعرفا كيف تحافظان على نقائهما الأصلي . ولأجل هذا فإن الله أرسل آخر رسول ، والاسلام هو المقدر له الآن ان يخلف المسيحية كما خلفت هذه اليهودية .

٢٦٣ - من النفي إلى النصر

من أجل البقاء ، كان محمد و«المهاجرون» مكرهين لشن غزوات ضد قوافل المكيين . وأول ظفر لهم ، كان غزوة بدر ، في آذار ٦٢٧ [٣ : ١٢٣] ، وقد فقدوا ١٤ رجلاً ، وفقد المشركون ٧٠ قتيلاً و ٤٠ اسيراً . وكانت الغنيمة ، على جانب من الأهمية ، كذلك الأمر فدية الأسرى ، وقد وزعت من قبل محمد ، بحصص متساوية

على المحاربين . وبعد شهر ، أجبر محمد واحدة من القبائل اليهودية على مغادرة المدينة ، تاركة وراءها منازلها واموالها(*) .

وفي السنة التالية، غلب المسلمون في أحد من قبل جيش مكي يقدر بثلاثة آلاف رجل ، وقد جُرح محمد نفسه . غير ان الحدث الفاصل في هذه الغزوة الدينية تمثل بالمعركة المسماة معركة (الخندق) . لأنه بناء على آراء رجل فارسي ، حفرت خنادق أمام طرق الدخول إلى المدينة الواحة . وحسب النصوص ان ٤٠٠٠ مكي حاصروا المدينة عبثاً خلال اسبوعين ؛ ولكن اعصاراًشتتهم على غير هدى . واثناء الحصار لاحظ محمد التصرفات المشبوهة لبعض المسلمين المنافقين وقبيلة قريظة آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة . وبعد النصر ، اتهم اليهود بالخيانة فأمر باستئصالهم .

وفي نيسان/٦٢٨ ، أوحي إلى محمد مجدداً [٤٨ :٢٧] بالثقة في ان المؤمنين يستطيعون ممارسة الحج إلى الكعبة . ورغم تردد بعضهم ، فإن قافلة المؤمنين اقتربت من المدينة المقدسة . ولم ينجحوا في الدخول إلى مكة ، ولكن الرسول حول هذا الفشل أو نصفه إلى نصر : فقد طلب إلى المؤمنين اليمين على الايمان المطلق (٤٨ : ١٠) ، وبكونه ممثلاً مباشراً لله . ولقد كان بحاجة إلى مثل هذه اليمين لأنه بعد قليل من الزمن عقد مع المكيين هدنة يمكن لها أن تبدو مهينة ، ولكنها سمحت باجراء الحج في السنة القادمة ، وأكثر من هذا ، أن القرشيين ضمنوا للمسلمين سلاماً ، لمدة عشر سنوات .

وفي سنة ٦٢٣ ، دخل الرسول مصحوباً بالفي شحص من المؤمنين إلى المدينة المتروكة موقتا من المشركين ، واحتفل بشعائر الحج . وبدا نصر الاسلام قريبا ؛ اضافة إلى ذلك ، فإن عدداً من القبائل البدوية وحتى ممثلي الأوليغارشية القرشية بدؤوا في اعتناق الاسلام . وفي ذات السنة أرسل محمد بعثة إلى مؤتتة ، على حدود الامبراطورية البيزنطية ، ولم تنقص خيبة البعثة من تقديره . وقد كانت مؤتتة تدل على الاتجاه الرئيسي الذي يتوجب على الاسلام التبشير فيه ؛ وفهم خلفاء محمد هذا جيداً .

---

* خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ، أوصل رسالته الالهية الأولى فقط لزوجته خديجة ولبعض أصدقائه الخلص (ابن عمه علي ، وابنه بالتبني زيد) .

وفي كانون ثاني ٦٦٣ ومع الف شخص (حسب السنة) وبحجة ان المكيين قد ساندوا قبيلة معادية ، علّق محمد الهدنـة واحتل المدينة بدون مقاومة . ودمرت اصنام الكعبة ، والمعبد المطهر وازيلت كل امتيازات المشركين ، وما ان أصبح محمد سيد المدينة المقدسة حتى اظهر تسامحاً كبيراً ؛ وباستثناء ستة من اعتى خصومه الذين اعدموا منع الثأر ضد السكان . وموجهاً بغريزته السياسية التي تدعو إلى الاعجاب ، لم يقم محمد عاصمة دولته التيوقراطية في مكة فعاد بعد الحج إلى المدينة .

وفي السنة التالية في ٦٣١ ، لم يتم محمد الحج ، وانما ارسل ابو بكر ليمثله ، وبهذه المناسبة ، وبوحي جديد ، أعلن محمد الحرب الشاملة ضد المشركين ، «إن الله بريء من المشركين ، ورسوله [. . .] فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [. . .] فإن تابوا وأقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ، وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله . ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون [٩: ٣ـ٦][٢٧] .

وفي آذار ـ شباط من ٦٣٢ رجع محمد إلى مكة مدفوعاً بشعور خاص ، وكان هذا آخر حج له . وفي هذه المناسبة رسم بدقة كل تفاصيل شعائر الحج ، التي مازالت تتبع حتى يومنا هذا . وقد أوحى إليه الملاك بهذا الكلام : «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» [٥ : ٣] . وحسب السنة ، فإن محمد في نهاية هذا الحج بالوداع سيدعو ربه قائلاً اللهم هل بلغت : وردد الناس : «نعم لقد بلغت» .

وبالعودة إلى المدينة ، في الأيام الأ خيرة من ايار ٦٣٢ ، وقع محمد مريضاً ، ومات في حزيران في احضان زوجته المفضلة عائشة . وكان الذعر كبيراً . فبعضهم رفض قبول موت الرسول ؛ ، واعتقدوا انه كالمسيح ، صعد إلى السماء . ولم يدفن جسده في المقبرة وانما في زاوية من مسكن عائشة ، حيث يرتفع الآن أثر جنائزيّ شبه مقدس ايضا وهو بالنسبة للمسلمين كالكعبة . ولقد انتخب ابو بكر خليفة للرسول وقد خاطب المؤمنين بقوله : «اذا كان أحد يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، واذا كان أحد يعبد الله ، فإن محمد حي ولن يموت» .

إن تاريخ الاديان وتاريخ العالم لم يعرفا مثالاً يمكن مقارنته بمشروع محمد . فغزوة مكة وإقامة دولة تيوقراطية يثبتان ان العبقرية السياسية للرسول لم تكن بأقل من عبقريته الدينية صحيح ان الظروف ـ في الدرجة الأولى منها النزاعات الأوليغارشية المكية ـ كانت ملائمة للرسول . ولكنها لا تفسر لا اللاهوت . ولا النبؤة ، ولا نجاح محمد ولا خلود ابداعه : الاسلام والتيوقراطية المسلمة .

ومن غير المشكوك فيه ان الرسول عرف مباشرة أو بصورة غير مباشرة بعض المفاهيم والممارسات الدينية لليهود والمسيحيين ، ففيما يتعلق بالمسيحية كانت معلوماته ، على الاكثر ، تقريبية . لقد تكلم عن يسوع ومريم بلغة أكد أنهما ليسا من طبيعة الهية [٥ : ١٦-٢٠] لأنهما مخلوقان [٣ : ٥٩] . واشار في كثير من المناسبات إلى ولادة المسيح ، ولمعجزاته ولرسله (مساعديه ، وخلافاً لرأي اليهود ، وبالتوافق مع الغنوصيين فإن محمداً انكر الصلب وموت يسوع[٢٨] . مع ذلك ، انكر دوره كمخلص ، ورسالة العهد الجديد والاسرار والصوفية المسيحية .

ويذكر الرسول للتثليث المسيحي : الله ـ يسوع ـ مريم ؛ وعلى الأرجح عرف اعوانه الكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة في الحبشة ، حيث كانت العذراء تعبد بطريقة مبالغ فيها جداً[٢٩] . ومن جهة اخرى فقد عرفت بعض تأثيرات النسطورية ، وعلى سبيل المثال ، اعتقادها بأن الموت يجعل الروح غير مدركة تماماً ، وان شهداء العقيدة ينقلون فوراً إلى الجنة . كذلك المفهوم لسلسلة من هبوطات متتالية للوحي كانت موزعة بين عدد من المذاهب الغنوصية اليهودية ـ المسيحية .

ولكنه لم يتوصل أي تأثير خارجي لتفسير الوحي إلى محمد وإلى بنية نبوءته . وباعلان قرب الدينونة وبالتذكير ان الانسان سيكون وحده امام عرش الله ، أظهر محمد الفراغ الديني للعلاقات القبلية . ولكنه اعاد ادخال الأفراد في جماعة جديدة من طبيعة دينية (الأمة) . انه اذن أبدع القومية العربية ، تماما بسماحه بالتوسع الاسلامي وبأن

جماعة المؤمنين خارج الحدود الإتنية والعرقية . إن الطاقة التي كانت تصرف منذ وقت طويل في الحروب بين القبائل توجهت بقنوات إلى حروب خارجية ضد الوثنيين ، حروب مشرعة باسم الله ومن أجل النصر الشامل للتوحيد . ومع ذلك ، فإنه في حملاته ضد القبائل البدوية ، وبخاصة ضد المكيين ، ربح محمد بمفاوضات ذكية اكثر مما ربح بقوة السلاح . مقيماً هكذا نموذجاً مثالاً لخلفائه .

وأخيراً ، وباظهار القرآن لهم ، رفَّع مواطنيه على ذات صف الشعبين الآخرين «أهل الكتاب» وشرَّف اللغة العربية بصفتها لسانا طقوسيا والهياً ، بانتظار ان تصبح لغة ثقافة مسكونية .

ومن وجهة المورفولوجيا الدينية ، فإن رسالة محمد ، كما صيغت في القرآن ، تمثل التعبير الأكثر نقاء للتوحيد المطلق . فالله هو اله ، الاله الوحيد . انه تام الحرية المطلقة ، كلي العلم ، وكلي القدرة ؛ انه خالق الأرض والسماوات ، وخالق كل ما هو موجود ، و«يضيف إلى الخلق ما يريد» [٣٥ : ١] . وبفضل هذا الخلق المستمر تتلو الليالي الأيام . وينزل المطر من السماء و«الفلك تجرى في البحر» [٢ : ١٦٤] . وبعبارة اخرى ، ان الله لا يحكم الايقاعات الكونية فحسب ، وانما ايضا اعمال البشر . كل افعاله مع ذلك حرة ، وفي آخر المطاف تحكمية ، لأنها ترتبط بقراره فقط . والله حر بأن يغير قوله ؛ وهذا ما يثار في موضوع نسخ بعض السور .

والانسان ضعيف ، ليس على اثر الخطيئة الأصلية وانما لكونه ليس سوى مخلوق ؛ وعلاوة على ذلك . انه يوجد في عالم أعيدت له القداسة على اثر الوحي الموصول من قبل الله إلى آخر انبيائه . كل تصرف ـ فيزيولوجي ، نفسي ، اجتماعي تاريخي ـ بالعقل البسيط الذي ينجز بفضل الله ، يوجد تحت قضائه . لاشيء حر ، ومستقل عن الله في العالم ، ولكن الله رحيم ، وان نبيه أظهر دينا اكثر بساطة من الديانتين التوحيديتين السابقتين . والاسلام لم ينشيء كنيسة وليس عنده كهنوت ، والعبادة يمكن ان تتم في أي مكان ؛ وليس من الضروري ممارستها في معبد[٣٠] . والحياة الدينية منظمة بمؤسسات هي في ذات الحين معايير قانونية ، وبخاصة الأركان الخمسة للايمان . والركن الأهم هو (الصلاة) ، العبادة القانونية ، متضمنة «السجودات

الخمس اليومية ، والثاني هو الزكاة أو المساعدة القانونية ، والثالث ، صوم رمضان والرابع هو الحج ، والخامس يتضمن الأقرار بالايمان ، الشهادة أي ترداد الصيغة لا اله الا الله ومحمد رسول الله[٣١] .

ومع التسليم بقابلية خطأ الانسان ، فإن القرآن لم يشجع التنسك ولا الرهبنة . «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين» [٧-٣٠] . وعلى كل حال فإن القرآن لا يتوجه بالخطاب إلى القديسين والكاملين وانما لكل البشر . وقد حدد محمد عدد الزوجات الشرعيات باربعة [٤ : ٣] . ويدون ان يحدد عدد الإماء والعبيد[٣٢] . أما بالنسبة للفوارق الاجتماعية فهي مقبولة ولكن كل المؤمنين متساوون في الأمة . والرق لم يلغ ، مع ذلك ، فإن شرط العبودية كان افضل مما هو عليه في الامبراطورية الرومانية .

إن «سياسة» محمد تشبه السياسة البارزة في مختلف اسفار العهد القديم . انها مستوحاة مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الله . وان التاريخ العالمي هو الظهور الغير منقطع لله حتى انتصارات المؤمنين هي من ارادة الله فالحرب الشاملة والدائمة هي اذن لا مفر منها بهدف اهداء العالم باثره للتوحيد . وعلى كل حال ، فإن الحرب هي مفضلة على الردة وعلى الفوضى .

وحسب الظاهر ، فإن الحج والشعائر المكملة للكعبة ـ المعتبرة كبيت لله ـ تبدو مخالفة للتوحيد المطلق الذي بشر به محمد . ولكنه سبق ان اشرنا إلى ان الرسول اراد ادخال الاسلام في التقليد الابراهيمي وإلى جانب رموز أخرى وسيناريوهات ماثلة في القرآن ـ الكتاب المقدس ـ الصعود السماوي لمحمد ، دور الملاك جبرائيل ـ الخ . . والحج سيكون باستمرار معاد التفسير ومعاد التقييم من قبل اللاهوت والتصوف المتأخرين . ويجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان السنة الشفاهية المنقولة في الحديث والتي هي ايضاً ، ستضفي الشرعية لعدد من التفسيرات والتعليمات . فالله يحافظ على وضعه الها وحيداً مطلقاً ومحمد سيكون النبي المختار ، ولكن . وكما في اليهودية والمسيحية ، فإن الاسلام سينتهي إلى قبول عدد من الوسطاء والشفعاء .

تماما كما هو الأمر بالنسبة للعبرانيين والرومان ، فإن الاسلام ـ خاصة في مظهره الأول ـ رأى في الأحداث التاريخية مشاهد لتاريخ مقدس . انها الانتصارات العسكرية الاستعراضية المتحصلة من الخلفاء الأول الذين ضمنوا بدئياً استمرارية الحياة وبالتالي الانتصار للاسلام . وفي الواقع ، ان موت محمد فجر ازمة كان يمكن ان تكون محتومة للديانة الجديدة . وحسب سنة توصلت لتكون مقبولة من اكثرية المسلمين ، فإن محمداً لم يعين خليفة وقد اختير ابو بكر والد زوجته المفضلة عائشة، ليكون خليفة ، حتى قبل دفن الرسول . ومن جهة اخرى كان معروفاً إيثار محمد لعلي زوج ابنته فاطمة ووالد حفيديه اللذين كانا في حياته الحسن والحسين . وظهر من المحتمل اذن ان يكون محمد قد اختار عليا كخليفة . ولكن من أجل انقاذ وحدة الأمة ، قبل علي وانصاره اختيار ابو بكر . وكما ان هذا الأخير كان متقدما في السن ، فإن عليا لم يكن ليشك ابداً في انه سيخلفه سريعاً ، وما يهم هنا ، كان تجنب ازمة مصيرية للاسلام . وقد كان سبق ان بدأت قبائل البدو تتحلل ، مع ذلك فإن الحملات المشرعة فوراً من قبل أبي بكر نجحت في اخضاعها . وفوراً بعدذلك . نظم الخليفة غزوات ضد سورية الاقليم الغني الخاضع للسيادة البيزنطية .

ومات ابو بكر بعد سنتين في ٦٣٤ ، ولكنه كان قد اسمى كخليفة واحدا من قواده عمرو . وتتابعت اثناء خلافة هذا الاستراتيجي الكبير انتصارات المسلمين بايقاع مذهل . وبانتصارهم في معركة اليرموك غادر البيزنطيون سورية في ٦٣٦ . وسقطت انطاكية في ٦٣٧ وبذات السنة انهارت امبراطورية الساسانيين . وحصلت غزوة مصر في ٦٤٤ وقرطاجة في ٦٩٤ وقبل نهاية القرن السابع ساد الاسلام افريقيا الشمالية ، سورية فلسطين ، اسيا الوسطى ، ما بين النهرين والعراق ، وثبتت بيزنطة وحدها ولكن رقعتها تقلصت بشكل بارز .

مع ذلك ، ورغم هذه الانتصارات التي لا مثيل لها ، فإن وحدة الأمة كانت موضع شك بشكل جسيم . لقد عيّن عمر ستة من الصحابة لانتخاب خليفة عندما

جرح بجرحه القاتل من قبل عبد فارسي ، وقد تجاهل هؤلاء «عليا ، وشيعته واختاروا صهراً آخر للرسول عثمان (٦٤٤-٦٥٦) . وعثمان المنتمي للقبيلة الارستقراطية الامـويين، الخصوم القدامى لمحمد وزع المهمات الاساسية في الامبراطورية على أعيان مكة . وبعد اغتياله من قبل بدو الواحات المصريين والعراقيين ، اعلن علي خليفة من قبل المدينيين ، وبالنسبة للشيعة الذين لم يعترفوا بأية خليفة من خارج اسرة الرسول واحفاده ، كان علي الخليفة الحقيقي الأول .

ومع ذلك فإن عائشة وعدداً من رؤساء مكة اتهموا عليا بمؤامرته في اغتيال عثمان . وتقابل الحزبان في معركة سميت بمعركة الجمل لأنها دارت حول جمل عائشة . وأقام علي عاصمته في مدينة من العراق ، ولكن خلافته عورضت من قبل حاكم سورية معاوية «حمو الرسول ؟» وابن عم عثمان . وقد رفع جند معاوية القرآن على رؤوس رماحهم عندما عرفوا ان المعركة خاسرة بالنسبة لهم . فقبل علي تحكيم الكتاب ، ولكنه ، مدافع عنه بشكل سيء ، من قبل ممثله ، تنازل عن حقه . على اثر هذه الاشارة من الضعف تركه بعض المقاتلين الذين عرفوا منذئذ باسم الخوارج ، واغتيل علي في ٦٦١ ،واعلن اشياعه الغير كثيرين ، نجله البكر الحسن خليفة له . ثم ان معاوية الذي سبق اختياره خليفة من قبل السوريين في القدس نجح في اقناع الحسن بالتنازل عن الخلافة لمصلحته .

لقد كان معاوية رئيساً عسكريا جديراً وسياسياً موهوباً ، وقد اعاد تنظيم الامبراطورية وأسس الأسرة الملكية الأولى للخلفاء الامويين (٦٦١-٧٥٠) . ولكن الخط الأخير لتوحيد الأمة ضاع عندما ذبح الحسين النجل الثاني لعلي في ٦٨٠ في كربلاء ، في العراق مع كل افراد اسرته تقريباً . ولم يغفر الشيعة مطلقاً لقتلة هذا الشهيد ، فاثاروا خلال قرون ، ثورات وعصيانات كانت تقمع بوحشية من قبل الخلفاء الحاكمين . ولم يسمح للجماعات الشيعة بالاحتفال اثناء العشرة الأيام الأولى من شهر المحرم باقامة حفلات عامة إحياء لذكرى الموت المأساوي للإمام الحسين ، الا بدءاً من القرن العاشر[٣٤] .

وهكذا فإنه بعد ثلاثين سنة من موت الرسول ، وجدت الأمة مقسمة وبقيت

مقسمة حتى يومنا هذا ـ إلى ثلاثة احزاب : اكثرية المؤمنين ، السنيين أي انصار السنة (التطبيق والتقليد) تحت قيادة الخليفة الحاكم ، والشيعة المخلصين لنسب أول خليفة حقيقي علي والخوارج الذين اعتبروا أن الجماعة وحدها لها الحق باختيار رئيسها وعليها ايضا الواجب بعزله اذا كان مجرما بذنوب ثقيلة . وكما سنرى (فصل ٣٥) فإن كل واحد من هذه الاحزاب ساهم في مقياس قل أو كثر ، في تطور المؤسسات الدينية ، من اللاهوت والتصوف الاسلامي .

أما بالنسبة لتاريخ الامبراطورية المؤسسة من قبل الخلفاء الأول ، فإنه يكفينا ان نذكر الأحداث الاكثر أهمية . فقد استمر التوسع العسكري حتى ٧١٥ ، عندما أجبر الاتراك جيشا عربياً لترك اقليم اوكسس oxus . وفي ٧١٧ ، فشلت الحملة البحرية ضد بيزنطة بخسائر باهظة . وفي ٧٣٧ سحق شارل هارتل ملك فرنسا هجوم العرب قرب تور وأجبرهم على الانسحاب من الجانب الآخر من البيرينية . تلك هي نهاية السيادة البحرية للامبراطورية العربية . وستكون الفيضانات المقبلة وغزوات الاسلام من عمل مسلمين متحدرين من ارومات اتنية أخرى .

إن الاسلام ذاته بدأ يحور بعض بنياته الأصلية . ومنذ وقت سابق كان هدف الحرب المقدسة كما عرفها محمد ـ اعتناق غير المؤمنين للاسلام ـ وكان هذا الهدف يحترم اقل فأقل . وقد فضلت الجيوش العربية اخضاع المشركين بدون ان تهديهم للايمان ، بهدف ان تستطيع فرض ضريبة عليهم اكثر ثقلاً . وما هو اكثر من ذلك ، فإن المهتدين لم يكونوا يتمتعون بذات الحقوق التي للمسلمين . وبدءاً من ٧١٥فإن التوتر بين العرب ومعتنقي الاسلام الجديد أخذ يتفاقم باستمرار ، فهؤلاء الاخيرون كانوا على اهبة دعم كل عصيان يعدهم بالمساواة مع العرب . وبعد بضع سنوات من الفوضى والصراعات المسلحة ، انهارت الاسرة الملكية الأموية ، في ٧٥٠ ، وحل محلها اسرة ملكية هامة العباسيون . وقد خرج الخليفة الجديد منتصراً بفضل مساعدة الشيعة خاصة . ولكن وضع المخلصين لعلي لم يتغير أبداً ، وقد خنق الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٥٤ـ٧٧٥) بالدم عصيانا شيعياً . وعلى العكس فإن الفروق بين العرب والمؤمنين الجدد امحى نهائياً تحت حكم العباسيين .

ان الخلفاء الاربعة الأولى حافظوا على مركز الخلافة في المدينة ولكن معاوية اقام عاصمته امبراطوريته في دمشق . ومنذئذ تنامت التأثيرات الهيلنستية والفارسية والمسيحية تباعاً اثناء حكم الأمويين . وهي تتبدى بصورة خاصة في التزيينات الدينية والدنيوية . وقد استعارت الجوامع الكبرى الأولى في سورية القبة من الكنائس المسيحية[٣٥] . وان القصور والفيلات والحدائق ، والتزيينات الجدارية والموازييك احتذت نماذج الشرق الادنى الهللنستية[٣٦] .

إن العباسيين مدوا وطوروا هذه العملية من التمثل للتراث الثقافي الشرقي وللبحر المتوسط . وأخذ الاسلام يقيم حضارة مدينية ، مؤسسة على البيروقراطية والتجارة . وأخذ الخلفاء يتراجعون عن وظيفتهم الدينية : واصبحوا يعيشون منعزلين في قصورهم ، منيطين بالعلماء اللاهوتيين وفقهاء القانون ـ العناية بمعالجة المسائل اليومية للمؤمنين .

وان تأسيس مدينة عاصمة جديدة ، بغداد في ٧٦٢ متميز نهاية الاسلام بغيض عربي ، فالمدينة على شكل دائرة مقسمة بصليب هو صورة عالمية imagomondi ، مركز الامبراطورية : الأبواب الاربعة تمثل الاتجاهات الاربعة للفضاء . النجم الاكثر حظاً جو بيتر يرأس «ولادة» بغداد ، لأن الأعمال بدأت في اليوم المحدد من قبل منجم فارسي[٣٧] .

وقد استقر المنصور وخلفاءه بكل ابهة الاباطرة الساسانيين ، وقد اعتمد العباسيون بخاصة على البيروقراطية ، الفارسية في اكثريتها وعلى الجيش الملكي المبني على الارستقراطية العسكرية الايرانية . وان الايرانيين وقد اعتنقوا الاسلام بالجملة رجعوا الى النماذج السياسية والادارية والسلوكية الساسانية ، وان الطراز الساساني والبيزنطي قد ساد في الهندسة .

وقد كان هذا ايضا عصر الترجمات ، بواسطة التراجمة السورية syriaque ، لمؤلفات الفلاسفة ، والاطباء والكيميائين الاغريق ، وتحت حكم هارون الرشيد (٧٨٨-٨٠٩) وخلفائه ، عرفت حضارة البحر المتوسط للعصور القديمة المتأخرة نهضة أولى بتعبير

عربي ، ولقد اكملت ، واحيانا مع معارضتها ، عملية التمثل للقيم الايرانية[٣٨] ، التي شجعها العباسيون . وسنرى فيما بعد (الفصل ٢٥) النتائج لهذه الاكتشافات وهذه المواجهات على تطور الروحية الاسلامية .

حواشي الفصل الثالث والثلاثون

١ ـ المصادر الاكثر أهمية هي القرآن ، والتعليمات الشفهية المنقولة بواسطة السنة ـ الحديث ويضاف مع ذلك بأن القيمة التاريخية لهذه المصادر ليست مؤكدة دوماً .

٢ ـ ولادة وطفولة الرسول تحولتا بسرعة بما يتوافق مع السيناريو الاسطوري للمنقذين المثاليين . فاثناء الحمل سمعت امه صوتاً معلنا ان ابنها سيكون السيد والنبي لشعبه . واثناء ولادته اضاء نور باهر العالم بكامله (ولادة زرادشت ـ ماهافيرا ، بوذا (101ـ 147 152ع) . لقد ولد نقيا كحمل ، مختونا ، والحبل السري قطع مسبقاً . ومنذ ان ولد أخذ قبضة من التراب وتطلع صوب السماء . ان يهوديا من المدينة عرف ان البار قليط كان جاء للعالم . وأوصل هذا لاتباعه . في السنة الرابعة من عمره ، وألقى ملاكان محمد ارضاً وفتحا بطنه واخذ قطرة من دم اسود من قلبه وغسلا الجروح بمياه الثلج المذاب الذي كان حملا في اناء من ذهب (القرآن سورة 194 «ألم نفتح قلبك» الخ) هذه الشعيرة المسارية تميز المسارات الشامانية . في سن 12 من عمره صحب ابي طالب مع قافلة سورية . وفي بصرى تعرف على كتف محمد الاشارة النبوية ، الدلالات الخفية عليها ، العلامة الدينية (المصادر المذكورة)

٣ ـ هذا التطور ـ من جهة اخرى عام

٤ ـ هينيخز ـ اعياد الربيع

٥ ـ أ ـ مانسين ـ الديانة اليهودية ـ الأرامية لا يلفانتين باريز ١٩٣٧

٦ ـ في بداية نبوته ، اتهم محمد بمس بالجنون .

٧ ـ ثور ـ اندريه ـ أصول الاسلام والمسيحية ـ الاتجاه التوحيدي للدين العربي القديم كان منذ زمن قديم قد اوضح من قبل فلهوزن .

٨ ـ الاعتماد على ترجمة القرآن من قبل د. ماسون

٩ ـ السيرة النبوية ـ ابن اسحاق ـ ترجمة نور اندرية ـ وترجمة اخرى البلاشير

١٠ ـ بعض المؤرخين المحدثين يقدران المظهرين ـ الرؤية المتعلقة بالحلم في الغار ورؤية الملاك جبرائيل المطروحة بالافق الأعلى لا تنتمقيان لذات التجربة .

١١ ـ لا تحرك لسانك ـ كما لو كنت تريد تعجل الكشف . انه يعود لنا (القرآن ، جمعه وقراءته ـ اتبع قراءته ـ عندما نقرأ ـ عليك . وبعبارة اخرى . كل مبادرة شخصية أو ارتجال كان ممنوعاً .) «لا تحرك به لسانك لتعمل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه» [١٧ـ ١٨ـ ١٥]

١٢ ـ انظر Bell ـ القرآن ـ في البدء كانت السور تنقل من الذاكرة ولكنه بدى بتأكيدها بالكتابة عندما قويت مقاومة الشرك (ر . بلاشير ـ مسألة محمد) .

١٣ـ يلاحظ من ذلك انها أقل موهبة من بعض الأوصاف البوذية أو المسيحية . ويقتضي التأكد بأن الأخروية الاسلامية عامة تحتوي عدداً من الاسباب الغائبة في القرآن مثلاً (العقاب في القبر والحسر فوق جهنم ، بحيرة النار الخ)

١٤ ـ سيكون المبشرون مهيأين للحلف بأنهم لم يبقوا في قبورهم سوى ليلة او ساعة واحدة [١٠ـ ٤٦ـ ٣١]

١٥ ـ من الراجح جداً ان محمدا كان يعتبر الربات الثلاثة كملائكة شنيعة ، وفي الواقع ان الاعتقاد بالملائكة كان مقبولاً بالاسلام ، وفيما بعد فإن علم الملائكة لعب دوراً هاما في التشيع (ت 281ع) ولكن الرجوع الى الخطر الذي تمثله شفاعة الربات = الملائكة . بالنسبة للاهوت التوحيدي حصراً ، ألغى محمد الآيتين .

١٦ ـ «ما ان ننسخ من آية أو ننسى حتى نأتي بديلاً عنها وبأحسن منها ألا تعلم ان الله قادر على كل شيء ؟ [2 : 106]

١٧ ـ كان محمد قد أكد على قيمة نهاية العالم ، وهو لم يحدد بدقة متى سيأتي الحدث ، مع ان بعض السور تشير انه سيحصل خلال حياته

١٨ ـ المرجع التالي . . (الكتب المقدسة)

١٩ ـ ر . ويدنفرين . . الكتب المقدسة ـ وهذا يتعلق بصيغة مستعملة على نطاق واسع في الشرق الأوسط القديم والتي أعيد اخذها من قبل الائمة الشيعة (ذات المرجع)

٢٠ ـ ر. التصوص مترجمة ومشروحة من قبل ويدنقرين وتوجدنصوص مستخرجة من البغوي والسيوطي في كتاب ارثر جيفري الاسلام ص ٣٥ـ٤٦ وبعض العلماء رأى تفضيل ، الترجمة اللاتينية للنص العربي حول المعراج وان دانتي استعمل عدداً من التفصيلات في كتابه الكوميديا الالهية انظر ـ بلاسيوز (المعراج المسلم والكوميديا الالهية)

٢١ـ٢٢ اسماء المراجع .

٢٣ ـ عندما خرج المدينيون بالتحريم بمناسبة اول غزوة للمهاجرين لأنهم خرقوا الهدنة في الشهر

المحرم (رجب) تلقى محمد هذه الرسالة الالهية : «القتال في هذا الشهر اثم كبير ولكن ابعاد الناس عن طريق الله هو كفر نحوه ونحو الكعبة المقدسة وطرد سكانها كال هذا هو اكثر اثماً تجاه الله) [٢ : ١٧]

٢٤ـ ٢٦ـ المراجع المعتمدة . (وات ـ بلاشير ـ كوربان)

٢٧ ـ (اما بالنسبة للموحدين (أهل الكتاب) فإن محمداً يذكرهم بمناسبة اخرى ، انه يجب عليهم «ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتنعة وكثير منهم ساء ما يعملون . . ان الذين آمنو والذي هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاًفلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٥: ٦٨ـ٧٢]

28 ـ «وما قتلوه وما صلبوه وانما شبه لهم [. .] ولكن الله رفعه إليه» [4 : 151]

٢٩ ـ ثور ـ اندريه ـ يجب كذلك الأخذ في الحسبان واقعة ان الحكمة التي تعني الروح هي في اللغات السامية من نوع مؤنث .

٣٠ ـ مع ذلك من المأمور به ان يجتمع المؤمنون يوم الجمعة في مكان عام (صلاة الجمعة) [٩ : ٦٢]

٣١ ـ هذه الصيغة لم تؤكد لغة في القرآن ولكن معناها كلي الحضور فيه .

٣٢ ـ على الناقدين الأوروبيين يرد بعض المستشرقين ان هذا كان تقدما بالنسبة للفوضى الجنسية للبشريين فيما قبل الاسلام . وهذا البشري للاسلام الصحيح على المقوى الاجتماعي والاخلاقي ، هو عبث الامل مدنس في منظور الثيولوجيا القرآنية . فأية تفصيلات عن الوحي ليس بحاجة للتبرير .

٣٣ ـ صحيح لقد وصف هذا الفيضان المنهل للعرب وكأنه آخر موجة للغزوات البربرية التي حطمت الامبراطورية الرومانية في الغرب . مع ذلك وخلافاً للبرابرة فإن العرب استقروا في مدن جديدةاقيمت على اطراف الصحراء. بدفعهم لبعض الضريبةفان السكان الذين رفضواكانوا يستطيعون الحفاظ على دينهم وعاداتهم . ولكن الحالة ستغير بشكل ملحوظ عندما اعتنق قسم كبير من السكان المدنيين وبخاصة المزطفون والمثقفون .

٣٤ ـ ٣٧ ـ اسماء المراجع .

٣٨ ـ انه يتعلق بابداعات التوفيقات ايرانية لا تنضب . (ف ١٢٠ع٢)

الفصل الرابع والثلاثون

الكاثوليكية الغربية من شارلمان حتى جواشيم دي فلور

٢٦٦ ـ المسيحية خلال القرون الوسطى العليا .

في عام ٤٧٤ زيح عن العرش آخر امبراطور روماني في الغرب رومولوس اوغستيلوس ، من قبل زعيم البربر اودواكر Odoacre ، وقد كان المؤرخون ، خلال زمن طويل ، اعتبروا سنة ٤٧٤ كتاريخ متفق عليه لنهاية العصور الوسطى القديمة وبداية العصور الوسطى . غير ان صدور كتاب مطبوع بعد وفاة مؤلفه لهنري بيرين Henri Pirenne في سنة ٩٣٧ المسمى محمد وشارلمان وضع المسألة في منظور آخر . فقد لفت هذا المؤرخ البلجيكي الكبير الانتباه إلى بعض الوقائع التي لها دلالتها . فمن جهة ان البنى الاجتماعية للامبراطورية استمرت ايضاً أثناء قرنين من الزمن . ومن جهة أخرى فإن الملوك البرابرة للقرنين السادس والسابع استعملوا طرائق رومانية وتعلقوا بالألقاب الموروثة من الامبراطورية . وما هو اكثر من ذلك : استمرت

الاتصالات التجارية مع بيزنطة وآسيا . وقد حصلت القطيعة بين الغرب والشرق ، كما يقول بيرين . في القرن الثامن . وكانت هجمة الاسلام هي السبب . إن الغرب وقد عزل عن مراكز ثقافة البحر المتوسط ودمر بالغزوات المستمرة وبالحروب الداخلية غرق في بربرية . وكان المجتمع الجديد الذي انبثق من الخرائب يقوم في اساسه على الاستقلال الزراعي ؛ وسيكون التعبير عنه ، الاقطاعية . وهذا العالم الجديد ـ العصور الوسطى ـ هو الذي نجح شارلمان في تنظيمه .

لقد لاقت نظرية (بيرين) هذه معارضات جمة[١] . وحتى يومنا لم تقبل سوى جزئياً . الا أنها قد تمتعت بميزة ، هي الزام العلماء لعادة تفحص العملية التاريخية المعقدة التي ستصل لبلورة القرون الوسطى الغربية . ولم يأخذ (بيرين) في الحسبان التغيرات العميقة الحاصلة في الغرب بواسطة المسيحية . وعليه وكما برهن على ذلك و . بارك we. Bark فإن تاريخ اوروبا الغربية بين ٣٠٠ـ و ٦٠٠ تقريباً ، هو النتيجة المتحصلة من عاملين : ١) المسيحية و٢) الصدمات والصدمات المضادة للأحداث : التدهور التدريجي للاقتصاد والحكومة الرومانية المحلية ، الفوضى الناشئة عن الغزوات المتكررة ، والحركة الكافية المتنامية لمجتمع ذي نظام زراعي .

وفي الواقع ، اذا كان الغرب لم ينقسم ، فقيراً ومحكوماً بشكل سيء ، فإن تأثير الكنيسة لن يمكن له ان يكون ايضا ذي أهمية[٢] .

ان المجتمع القروسطي ، في بدايته ، كان جماعة من الرواد ، وكان النموذج له إلى حد ما مؤسسا بواسطة الرهبانيات البيندكتية . وان بطريرك الرهبانية الغربية القديس بينوا Benoit (٤٨٠ـ٥٤٠) نظم سلسلة من الجماعات الصغيرة المستقلة تماما ، من وجهة نظر اقتصادية . ولم يؤد خراب واحدة أو عدة رهبانيات الى خراب المؤسسة . وقد انهكت غزوات البرابرة الرحل ، المتبوعة باجتياحات الفيكونج المدن ، ومنها آخر مراكز الثقافة . ان بقايا التراث الثقافي الكلاسيكي استمر في الحياة في الرهبانيات[٣] . ولكن القليل من الرهبان كان عندهم الفراغ لتكريس نفسه للدراسة . فقد كان واجبهم الاساسي التبشير بالمسيحية ومساعدة الفقراء . وكانوا اضافة الى ذلك بنائين ، واطباء ،

وصائغين للمعادن ، وبصورة خاصة مزارعين . والرهبان هم الذين عدَّلوا بشكل ملحوظ الادوات والطرائق لاستثمار الأرض[٤] .

لقد قورنت سلسلة الأديرة المتمتعة باكتفاء اقتصادي تام بالمنظومة الاقطاعية للملكية ، أي بالاراضي المقطعة من قبل السيد لاتباعه كمكافأة او عطاءٍ متقدم من أجل الخدمات الحربية ، وان هاتين البذرتين المؤهلتين لاستمرارية الحياة في الكوارث التاريخية ، شكلتا الاساسات لمجتمع وثقافة جديدتين . وقد جعل شارل مارتل كثيراً من الملكيات العائدة للكنيسة ملكية دينوية . وذلك بتوزيعها على اتباعه . وكانت تلك الطريقة الوحيدة لانشاء جيش قوي ومتفانٍ ، في ذلك العصر الذي لم يكن لأي ملك الوسائل لتأليف جيوشه .

وكما سنرى في عرض الفروسية (ف ٢٦٧ع) ، ان النظام الاقطاعي وفكرته هما من أصل جرمني[٦] . فبفضل هذه المؤسسة ، استطاع الغرب تجاوز نتائج مالا يحصى من الأزمات والكوارث التي تتابعت بدءاً من القرن الخامس . وان تتويج شارلمان في روما من قبل البابا ، في سنة ٨٠٠ كاأمبراطور «للامبراطورية المقدسة» لم يكن من الممكن تصوره قبل نصف قرن . ومع التسليم بالتوتر الحادبين الاباطرة والبابوات ، وحسد بعض الملوك والامراء اثناء القرون التالية ، فإن دور وأهمية الامبراطورية الرومانية كانا عابرين ومحدودين بصورة عامة . ولا يهمنا هنا تلخيص التاريخ السياسي والعسكري للقرون الوسطى العليا . الا انه من المجدي الاشارة من الآن الى ان كل المؤسسات الاقطاعية ، الفروسية ، الامبراطورية ـ اثارت جميعها ابداعات دينية جديدة . غير معلومة ، أو في كل الأحوال قائمة على نطاق ضيق جداً في العالم البيزنطي .

ومع معطيات قيمة هذا الواقع نستطيع إهمال التجديدات اللاهوتية والتقديسية[٧] والعناصر الدينية لما أسمي النهضة الكارولنجية للقرن التاسع[٨] . ومع ذلك تجدد الملاحظة ، أن الكنيسة الغربيةولمدى خمسة قرون ستعرف بالتناوب فترات من الاصلاح والانحدار ، ومن الانتصار والفشل ، ومن الابداعية والهرم ، ومن الانفتاح والتعصب . ولنذكر مثالاً واحداً : فبعد «النهضة الكارولنجية» الكنيسة في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ، أخذت مجدداً في التراجع ، إلا أنها دخلت في فترة من

الظفر والقوة مع «الاصلاح الفريغوري» المدشن من قبل غريغوار السابع المنتخب بابا في ١٠٧٣ . ومن غير المناسب هنا ابراز الاسباب العميقة لهذا التناوب . وتكفي الملاحظة بأن عصور الصعود . وكذلك عصور الانحطاط ، هي على علاقة مع الوفاء للسنة الرسولية من جهة ، ومع الأمال الأخروية والحنين لتجربة اكثر رسمية واكثر عمقاً من جهة اخرى .

فمنذ بداياتها ، تطورت المسيحية تحت علامة الرؤوية . وباستثناء القديس اوغسطين فإن اللاهوتيين والرائيين اطنبوا في الكلام حول التناذر syndrome لنهاية العالم وكانوا يحسبون تارخ مجيئه . وان اساطير المسيح الدجال و«امبراطور الأيام الأخيرة» كانت تشغف رجال الدين وكذلك جماهير المؤمنين لفجر السنة ألف ، وأصبح السناريو القديم لنهاية العالم قائماً بشكل مأساوي . وقد أضيف أنئذ إلى الأهوال من النوع الأخروي ، كل انواع المصائب ، الأوبئة المرضية ، والمجاعة ، ودلائل الكوارث (مذنبات خسوفات الخ) . وأصبح حضور الشيطان مشعوراً به في كل مكان . وقد فسر المسيحيون هذه المصائب بسبب ذنوبهم . وكان الدفاع الوحيد هو التوبة والرجوع إلى القديسين ورفاتهم . والتوبات هي تلك التي تغرض على المحتضرين[١٠] . ومن جهة أخرى فإن الاساقفة والآباء انهمكوا في تجميع الشعب حول الرفات «من أجل اعادة بناء السلام ومن أجل مؤسسة العقيدة المقدسة» ، كما كتب الراهب راوول جليبر . وكان الفرسان يحلفون يمين السلام، ويدهم على الرفات : «لن اجتاح كنيسة بأية طريقة [...] لن أهاجم رجل الدين أو الراهب [...] لن آخذ الثور ، والبقرة ، والخنزير والخروف [....] لن احتجز الفلاح او الفلاحة [....] الخ ...» . «فهدنة الرب» فرضت تعليق المعارك اثناء الفترات الاكثر قداسة للتقويم اللاهوتي .

وأخذ الحج الجماعي ـ للقدس ، ولروما والقديس جاك ـ فورة عجيبة . وقد فسر (راوول جلابير) «السفر المقدس» صوب أورشليم كتحضير للموت والوعد بالخلاص ؛ وقد أعلن العدد الكبير من الحجاج قرب مجيء الدجال و«قرب نهاية العالم»[١٢] .

غير انه بمرور سنة ١٠٣٣ ، الألف منذ صلب المسيح شعر المسيحيون بأن التوبات

والتطهيرات ادركت هدفها . ويثير راوول جلابير الأمارات والبركات الالهية فيقول : «بدأت السماء تضحك ، وتنار وتنتعش بالرياح الطيبة [...] وكل وجه الأرض تغطي بخضرة محِببة ووفرة الثمار ابعدت المجاعة بشكل تام [...] ومالا يحصى من المرضى استعادوا صحتهم في هذه الاجتماعات حيث استحضر عدد من القديسين ... [...] . ومد الحضور جميعهم ايديهم نحو الله متضرعين بصوت واحد : السلام ، السلام السلام»[١٣] . وبالمقابل فقد بذلت الجهود لإعادة تجديد الكنيسة ، وبخاصة دير البنديكتيين في غلوني Gluny . وفي كل مكان في الغرب أعيد بناء المعابد ، وأعيد تجديد الكاتدرائيات ، واكتشفت الرفاتات . إلا أنه مما له دلالته أيضاً التغييرات التي ، في جزء منها . أخذت مكانها في ممارسة الكنيسة ، تحت ضغط التدين الشعبي ، فقد اكتسب الاحتفال بسر القربان المقدس أهمية استثنائية ، وأثير الرهبان ليصبحوا بذاتهم قساوسة ، بهدف المساهمة في «اكمال جسد ودم المسيح» وإنما «في العالم المرئي الجزء من المقدس» . وتنامت عبادة الصليب ، لأنها العلامة بامتياز لانسانية المسيح . وهذا التجسيد ، لأله مجسد[١٥] سيكتمل عاجلاً بالايمان بالعذراء .

ان العقدة الدينية المتبلورة حول الأهوال والآمال لسنة الألف تتقدم بنوع ما الأزمات والابداعات التي تميز القرون الخمسة التالية .

٢٦٧ ـ تمثل واعادة تفسير التقاليد الماقبل المسيحية : ملكية مقدسة ، فروسية .

بالنسبة لأكثرية القبائل الجرمنية ، كان للملكية أصل وخاصية مقدستين : المؤسسون للأسر الملكية هم احفاد الآلهة ،و وبخاصة من ودان Wdan[١٦] . «حظ» الملك كان الدليل الممتاز لطبيعته المقدسة . والملك كان يحتفل بذاته بالاضاحي لأجل المحاصيل ولنجاح الحروب ؛ وكان الوسيط للهبات اللدهنية charismatique بين الشعب

والآلهة . ومفارقة «الحظ» له ، أو بعبارة أخرى تخلي الآلهة عنه يمكن أن يؤدي لازاحة الملك عن عرشه أو حتى لموته ، كما حصل في السويد مع دومالدر Domaldr على إثر سلسلة من محاصيل جدباء محزنة(١٧) . وحتى بعد اعتناق المسيحية ، فإن شجرة نسب الملوك ـ أي انتماءهم بتحدر النسب من ودان ـ استمرت محتفظة بأهمية حاسمة(١٨) .

وكما في أي مكان آخر ، عمدت التراتبية الكنسية لادخال هذه المعتقدات في التاريخ المقدس للمسيحية . وهكذا فإن بعض شجرات النسب الملكية أعلنت ، أن وودن ابن نوح ، المتولد في السفينة ، أو المنحدر من ابنة عم العذراء(١٩) . ان الملوك الذين يسقطون في ساح المعركة ـ حتى الوثنيين منهم ـ كانوا متشبهين بالقديسين الشهداء . وقد حافظ الأقيال المسيحيون ، أقله جزئياً ، على الاحترام السحر ـ ديني لأجدادهم : كانوا يلمسون بذور المحاصيل المقبلة ، وكذلك المرضى والأطفال(٢٠) . وبهدف تشجيع تمجيد الأضرحة الملكية ، كان يجري دفن الملوك في الكنائس .

غير أن التقييم الأكثر أصوليةللتراث الوثني كان الملك بصفته ممسوحاًسيداً christus Domini . وهكذا يصبح الملك مصونا محصنا ، وتعتبر كل مؤامرة ضد شخصه عملاً تدنيسياً . ومنذئذ لم يتفرع الاحترام الديني للملك من أصله الالهي ، وانما من قداسته ، التي تعلنه ممسوح الله(٢١) . «الملك المسيحي هو مبعوث المسيح لشعبه» كما أكد على هذا مؤلف من القرن الحادي عشر . «فبحكمة الملك ، يصبح الشعب سعيداً ، وغنيا ومنتصراً»(٢٢) . تمجيد ممسوح الاله الذي نتعرف فيه على العقيدة الوثنية القديمة . ومع ذلك ، فإن الملك ليس هو أكثر من الحامي المكرس للشعب والكنيسة ؛ ووظيفته كوسيط بين البشر والالهة هي منذئذٍ تمارس بواسطة التراتبية الكنسية .

وتلاحظ عملية مشابهة من تأثير وتركيب لما يتعلق بالفروسية . فقد وصف /تاسيت/ باختصار التكريس العسكري لدى الجرمن القدامى : في وسط جمعية المحاربين في السلاح . يلقي أحد الرؤساء ، أو الأب بالترس والسيف إلى الشاب . فمنذ المراهقة ، كان يدرب مع رفاقه من قبل رئيس ، ولكنه على اثر هذه الحفلة فقط كان يعترف بالشاب كمحارب وعضوافي القبيلة . ويضيف (تاسيت) أنه كان من المخجل

بالنسبة لرئيس ، ان يفوقه أحد بالشجاعة ـ على ساح المعركة ـ وبالنسبة لرفاقه ان يكونوا أقل شجاعة منه . والذي يستمر في الحياة رئيساً منسحباً من المعركة يكون في حالة بائسة جداً في حياته . وان الدفاع عن الرئيس هو واجب مقدس على كل الرفاق . «الرؤساء يحاربون من أجل النصر ؛ والرفاق من أجل الرئيس» . وفي العودة يُعالون من قبل الرئيس ويتلقون التجهيز العسكري وجزءاً من الغنيمة(٢٣) .

ولقد تم الحفاظ على هذه المؤسسة بعد اعتناق القبائل الجرمنية للمسيحية : وهي توجد في اساس الاقطاعية(٢٤) والفروسية . وفي سنة ٧٩١ تلقى لويس الابن البكر لشارلمان والذي لم يكن له من العمر سوى ٣ (سنة) تلقى من والده رمح المحارب . وبعد سبع واربعين سنة أهدى لويس ابنه البالغ من العمر ١٥ سنة (اسلحة رجولية ، الرمح) . وقد كان هذا هو أصل حفلة التدريع للفارس Adoubement التي تشكل شعيرة احتفالية مميزة للفروسية .

ومن غير السهل التحديد بدقة لبداية هذه المؤسسة التي لعبت دوراً بارزا في التاريخ العسكري ، والاجتماعي والديني والثقافي في الغرب ، وعلى كل حال ، فإن الفروسية لم تحصل على شكلها (الكلاسيكي) الا بعد ادخالها في فرنسا ، في القرن التاسع . أفراساً قوية وكبيرة قادرة لأن تحمل الفرسان المدرعين . ومع ان الفضيلة الرئيسة للفارس كانت منذ البداية الطاعة الشاملة لسيده(٢٥) . فقد كان على كل فارس واجب الدفاع عن الفقراء وبخاصة عن الكنيسة . وقد كانت حفلة التدريع تقتضي تبريك السلاح (فالرمح كان يوضع على المذبح الخ) . غير ان هذا كان ـ كما سنرى ـ بدءاً من القرن السابع ، خاصة ، لأن تأثير الكنيسة أصبح هاماً .

بعد فترة من التدريب تطول أو تقصر . وبعد امتحانات مختلفة ، كانت تتم حفلة التدريع ضمن حفلة عامة . فكان السيد يقدم طقوسيا السلاح إلى الفارس : رمح . سيف ، مهاميز ، زرد ، وترس . وكان الفارس ينتصب أمام عرّابه ويداه مضمومتان ، واحيانا راكعا مطأطيء الرأس . وفي النهاية كان السيد يضرب بقوة ، بقبضة يده أو براحته ، على عنقه . وما زال أصل ودلالة هذا الطقس موضع خلاف .

لقد ادركت الفروسية . تعبيرها التام في القرن الحادي عشر وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر . ويدأ الانحدار اعتباراً من القرن الثالث عشر ، ويعد القرن الخامس عشر لم تعد الفروسية سوى احتفالية ولقب شرف . وبشكل متناقض ، وبخاصة اثناء الانحدار ومرحلة الانحطاط ، أصبحت الفروسية الموضوع لعدد من الابداعات الثقافية التي يمكن بسهولة اكتشاف مصدرها ودلالتها الدينية [٢١٠ع] .

لقد كانت المؤسسة الموصوفة باختصار من قبل (تاسيت) هي بالتأكيد ذات بعد ديني : ترقية الشاب كانت تعبر عن إكماله لتلقينه العسكري ؛ والأمانة المطلقة تجاه الرئيس كانت تشكل في الواقع ، معطى دينيا . وقد افسح اعتناق المسيحية المجال إلى العديد من اعادات التفسير وإعادات التقييم للتقاليد السلفية ، ولكنه لم ينجح مطلقاً بمحو التراث الوثني . وقد اضطلعت الكنيسة خلال ثلاثة قرون بدور اكثر تواضعاً في تكريس الفروسية . الا انه بدءاً من القرن الثاني عشر ، كانت الحفلة تجرى ، أقله في الظاهر ، تحت رقابة كنسية . فبعد اعترافه ، كان الفارس يمضي الليل في الصلاة في كنيسة . وكان يتناول القربان في الصباح تحت اشكاله المقدسة ، وكان الشاب عندما يتلقى اسلحة يقسم اليمين ليس باحترام قانون الفروسية فحسب وانما الصلاة ايضا .

وبعد الحرب الصليبية الأولى ، تشكل نظامان عسكريان في الأرض المقدسة لأجل الدفاع عن الحج ومساعدة المرضى : جماعة المعبد وجماعة المشافي . ومنذئذ اضاف بعض الرهبان تعليما عسكريا من نوع فروسي إلى تعليمهم الديني . ويمكن ايجاد السوابق للأنظمة الدينية العسكرية في «الحرب المقدسة» ، الجهاد بالنسبة للمسلمين (ف ٢٦٥ع) ، وفي المسارة في اسرار ميترا (ف ٢١٧ع) وفي لغة المجازات للنساك المسيحيين الذين كانوا يعتبرون كجنود للميليشيا المقدسة ، الا انه يجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان الدلالة الدينية للحرب لدى قدامى الجرمن (ف ١٧٥ ع)[٢٧] .

٢٦٨ ـ الصليبيون : أخروية وسياسة .

إن مؤرخي وفلاسفة عصر الانوار من جيبون ووليام روبرتسون إلى هيوم وفولتير ـ قد وصفوا الصليبيين كانفجار معقد من التعصب والجنون . وهذا الحكم ، مع كثرة

تفرقه ، يشارك به ايضاً عدد من الكتاب المعاصرين . وعلى كل حال ، فإن الصليبيين يشكلون واقعاً مركزياً في التاريخ المتوسطي (القرون الوسطى) . «قبل بدايتهم ، كان مركز حضارتنا يوجد في بيزنطة ، وفي بلدان الخلافة العربية . وقبل كل الصليبيين الأخيرين ، كانت هيمنة الحضارة قد انتقلت إلى اوروبا الغربية . وقد ولد التاريخ الحديث من هذا التحول»(٢٥) . ولكن الثمن ، المرتفع جداً ، لهذه الهيمنة لأوروبا الغربية قد دُفع بخاصة من قبل بيزنطة وشعوب اوروبا الشرقية .

إن الدلالات الدينية للصليبيين هي التي تستوقفنا . فمصدرها وبنيتها الأخروية توضحا بشكل ملائم من قبل بولس الفندري Paul Alphandéry والفونس ديبرون Alphonse Dupron . «في المركز من ضمير الصليبية ، كان يوجد عند رجال الدين كما عند غيرهم ، واجب تحرير اورشليم [. . .] . وهذا ما يوضح الجانب الأكثر قوة في الصليبية، إنه الكمال المزدوج لاتمام الازمنة ولاتمام الفراغ البشري . وفي هذا المعنى ، بالنسبة للفراغ ، فإن علامة تمام الازمنة هي تجمع القوميات حول المدينة المقدسة ، أم العالم ، اورشليم»(٢٩) .

إن الخاصية الأخروية تتناغم بالتتابع مع أنصاف ـ الانكسارات والعقابيل ، التي تحملها صليبيو البارونات والامبراطور . إن الحملة الصليبية الأولى ، والأكثر استعراضية ، والمطلوبة من قبل الامبراطور البيزنطي الكسي ومن قبل البابا أوربان الأول ، كان قد بشر بها في سنة ١٠٩٥ من قبل بطرس الراهب . فبعد العديد من المغامرات (مذبحة اليهود في مدن الرين والدانوب وتجمع الجيوش الفرنجية الثلاثة في القسطنطينية) ، اجتاز الصليبيون آسيا الوسطى ، وبالرغم من حسد ومؤامرات الرؤساء إحتلت انطاكية ، وطرابلس وأوديسا واخيراً ، القدس . ومع ذلك ، ضاعت هذه الانتصارات بعد جيل من حصولها . وبشر القديس برنارد بالحملة الصليبية الثانية في فيسلاي سنة ١١٤٥ . ووصل جيش كبير يقوده ملكا فرنسا والمانيا إلى القسطنطينيّة ، ولكنه بعد فترة قليلة من الزمن أبيد هذا الجيش في ايقونيوم وفي دمشق .

أما الحملة الصليبية الثالثة ، المعلنة من قبل الامبراطور فريدريك بارباروس في مايانس سنة ١١٨٨ ، فهي مسيحية وامبريالية . وقد استجاب للنداء ملك فرنسا فيليب

اوغسطس ، وملك انكلترة ، ريشارد قلب الأسد ، ولكن استجابتها كانت دون حماس واندفاع باربروس(٣٠) . وقد وصل الصليبيون إلى القدس التي دافع عنها صلاح الدين ، السلطان الاسطوري لمصر وسورية . وقد انتهى الصليبيون هذه المرة بكارثة . لقد فقد الأمبراطور حياته في نهر من ارمينيا ، وعاد فيليب اوغسطس إلى فرنسا بهدف تقويض حليفه ، ملك انكلترة . وببقائه وحيداً أمام القدس ، حصل ريشارد قلب الأسد من صلاح الدين على ترخيص بأن يُقدم جنوده تضرعاتهم على القبر المقدس .

لقد فسر بعض المعاصرين عدم قدرة الأمراء على تحرير القدس بعدم جدارة الكبار والاغنياء . فهؤلاء الأمراء والاغنياء الغير قابلين للغفران لن يحصلوا على مملكة الله ، وكذلك لن يحصلوا على الأرض المقدسة . وهذا يعود للفقراء ، المختارين من الصليبية . «افلاس المحاولات الامبريالية ، المضمونة مع ذلك بالاسطورة المسيحانية ، كان يؤكد على ان عملية التحرير لا يمكن لها ان تنتمي لأقوياء الأرض»(٣١) . وعندما أعلن انوسنت الثالث الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤) كتب شخصيا إلى فولكس النوييللي Foulques de Neuilly ، رسول الفقراء ، «واحد من اكثر الوجوه المميزة لتاريخ الحروب الصليبية» كما يؤكد بول الفندري . وقد انتقد (فولكس) بعنف الأغنياء والأمراء ، ووعظ بالتوبة والاصلاح الخلقي كشرط أساسي للصليبية . ولكنه مات في ١٢٠٢ ، في حين كان الصليبيون قد ارتبطوا بالمغامرة التي جعلت من الصليبية الرابعة واحدة من اكثر المشاهد تعقيداً في التاريخ الأوروبي .

وفي الواقع ، ان الصليبيين المشبعين بالأطماع المادية والمسعورين بالمؤامرات ، بدلاً من أن يتجهوا نحو الأرض المقدسة ، احتلوا القسطنطينية ، وذبحوا جزءاً من السكان ونهبوا كنوز المدينة . وقد أعلن الملك بودوان ملك الفلاندر امبراطوراً لاتينيا لبيزنطة كما أعلن توماس موردزيني بطريركا للقسطنطينية .

ومن غير المجدي التوقف على نصف الانتصارات والعديد من كوارث الحروب الصليبية الأخيرة . ويكفي التذكير ، انه بالرغم من حرمان البابا ، وصل حفيد باربروس الامبراطور فريدريك الثاني الى الأرض المقدسة في ١٢٢٥ ، وحصل من

السلطان على حيازة القدس حيث توج ملكا وحيث استمر خمس سنوات . ومع ذلك سقطت القدس في عام ١٢٤٤ بيد المماليك ، ولم يمكن بعدئذٍ احتلالها ، وقد حصلت عدة حملات قبل نهاية القرن ولكنها كانت جميعها دون أية نتيجة .

من المؤكد ان الحملات الصليبية فتحت اوروبا الغربية نحو الشرق وسمحت بالاحتكاك مع الاسلام . ولكن التفاعلات الثقافية كان يمكن لها أن تحصل بدون هذه الحملات الدموية . ولقد دعمت الحملات الصليبية احترام البابوية واسهمت في تقدم الملكيات في اوروبا الغربية . ولكنها أضعفت بيزنطة نتيجة تقدم الاتراك بعمق في شبه جزيرة البلقان ، ولكنها أفسدت العلاقات مع الكنيسة الشرقية . واضافة إلى ذلك ؛ فإن سلوك الصليبية الوحشي قد وجه المسلمين ضد كل المسيحيين ، وان عدداً من الكنائس التي كانت استمرت بالحياة لستة قرون من السيادة الاسلامية تخربت عندئذ . وعلى كل حال ، ورغم تهذب الصليبيين ، فإن هذه الحركة الجماعية قد حافظت على بنية اخروية . ويوجد الدليل على ذلك بين غيره ، في صليبيات الأولاد التي انبثقت فجأة ، في ١٢١٢ في فرنسا الشمالية والمانيا إن عفوية هذه الحركات تبدو أنها ليست موضع شك «لم يحرضهم أحد ، لامن الأجنبي ، ولا من البلاد» ذلك ما اكده شاهد معاصر(٣٢) . أولاد ، «مميزون بالايمان ـ تلك هي الملامح الخارقة ـ وبفتوتهم البالغة وبفقرهم ، بخاصة رعاة صغار»(٣٣) ،
بدؤا المسيرة وانضم اليهم الفقراء . ربما كانوا ٣٠٠٠٠ تقدموا بموكب وهم يغنون .

وعندما طلب إليهم إلى أين هم ذاهبون أجابوا : إلى الله . وحسب قول مؤرخ معاصر «كانت نيتهم اجتياز البحر ، وبما لم ينجح فيه الأقوياء والملوك ، استعادة قبر المسيح»(٣٤) . لقد كان الاكليروس معارضاً لتجنيد الأطفال . وانتهت الصليبية الفرنسية بكارثة : بوصولهم إلى مرسيليا ، نزلوا في سبعة سفن كبيرة ، ولكن اثنتين من هذه السفن غرقت على اثر عاصفة في البحر قرب سردينيا وغرق معها كافة ركابها . أما بالنسبة للخمسة سفن الأخرى فإن مالكيها الخائنين قادوهم للاسكندرية ، حيث باعوا الأولاد لرؤساء المسلمين وتجار العبيد .

وان الصليبية (الالمانية) مثلت ذات القماشة . فيذكر مؤرخ معاصر إنه في سنة ١٢١٢ «ظهر طفل باسم نيكولاس ، جمع حوله العديد من الاولاد والنساء . واكد انه

بناء على أمر ملاك ، توجب عليه الذهاب معهم إلى أورشليم لتحريرصليب الله وان البحر كما حصل سابقاً للشعب الاسرائيلي سيقدم لهم ممراً على اليابسة»[٣٥]

من جهة أخرى ، لم يكونوا مسلحين ، وقد انطلقوا من إقليم كولونيا ونزلوا إلى الرين ، واجتازوا الألب ووصلوا إلى ايتاليا في الشمال . ووصل بعضهم إلى جنوا وبيزا ، ولكنهم طردوا . ومن نجح منهم بالوصول إلى روما أجبر على الاعتراف بأنه لا توجد سلطة تدعمهم . ولم يقر البابا مشروعهم ، فاستمر الاطفال الصليبيون بالعودة القهقرى . وكما يقول المؤرخ الاخباري «عادوا جائعين واحداً واحداً ويصمت» لم يساعدهم أحد . ويكتب شاهد آخر : «قسم كبير منهم انبطحوا موتى من الجوع في القرى على الساحات العامة ولم يكفنهم أحد»[٣٦] .

صحيح ان ب. الفاندري وأ - ديرون لم تعرفا بحق في هذه الحركات اختيار الولد في الورع الشعبي . وتلك هي في آن واحد اسطورة الابرياء ، وتمجيد الطفل بيسوع وردة الفعل الشعبية ضد صليبية البارونات ، وهي ذات الردة للفعل التي ظهرت في الاساطير المتبلورة حول التافورات «Tafurs» des للصليبيين الأوائل . «احتلال الأماكن المقدسة لا يمكن ان يتم إلا بمعجزة - وان المعجزة لا يمكن لها ان تحصل إلا بفضل الطاهرين ، اطفالاً وفقراء»[٣٨] .

إن فشل الصليبية لم يلغ الآمال الأخروية . فقد توسل توماسو كامبا نيلاً في كتابه مونارشيا هيسبانيكا (١٦٠٠) إلى ملك اسبانيالتحويلحملة صليبية جديدة ضد امبراطورية الترك وتأسيس ، الدولة العالمية ، بعد النصر . وبعد ثمانية وثلاثين سنة يتنبأ كامبانيلا في الايكلوجاالمقدمة إلى لويس الثالث عشر وحنة النمسوية بمناسبة الاحتفال بالولادة المقبلة للويس الرابع عشر ، باستعادة الأراضي المقدسة وتجديد المملكة في آن واحد . فسينتقم الملك الشاب على كل الأرض في ألف يوم ، مجندلاً الغيلان ، أي مخضعاً عروش الكفرة ومحرراً اليونان . وسيلفظ محمد خارج اوروبا ، وستعود مصر واثيوبيا مسيحيتين ، وسيهتدي جميع التاتار والفرس والصين والمشرق بكامله إلى الايمان المسيحي . وكل الشعوب ستشكل مسيحية واحدة ، وهذا العالم المتخلف سيكون له مركز واحد ، القدس . ويكتب كامبانيلا بأن «الكنيسة بدأت في القدس وإلى القدس ستعود بعد ان

دارت حول العالم»[٣٩] . وفي رسالته الأولى والثانية عن البعث لا يعتبر كامبانيلا ، شأنه في ذلك شأن القديس برنارد - أن فتح أورشليم كمرحلة نحو أورشليم السماوية ، وانما كبعث للملك المسيحاني[٤٠] .

٢٦٩ - دلالة دينية للفن الروائي والحب الغزلي

إن عصر الصليبيين هو كذلك عصر الابداعات الروحية الكبرى . انه عصر أوج الفن الروائي ونهوض الفن القوطي ، وتفتح الشعر الجنسي والديني ، وروايات الدور الأرثري وتريستان وايزولده ، انه عصر انتصار السكولاستيك والتصوف ، وبناء اعظم الجامعات ، والانظمة الرهبانية والتبشير المتجول . ولكنه ايضاً عصر توالد استثنائي لحركات تنسكية واخروية ، اكثرها على هامش الارثوذكسية ، او هرطقة - ارثوذكسية واضحة .

ولا يجدى التوقف ، بعناية عند كل هذه الابداعات . ويكفي هنا ، التذكير بأن اكبر اللاهوتيين والمتصوفين (منذ سانت برنارد ١٠٩٠-١١٥٣ ، إلى المعلم ايكار ١٢٦٠-١٣٢٧) ، كذلك اكبر الفلاسفة تأثيراً (منذ أنسلم دي كانتربوري ١٠٣٣-١١٠٩ حتى توما الاكويني ١٢٢٣-١٢٧٤) ؛ قد اكملوا عملهم في هذا العصر المخترق بازمات ، وتحولات ضخمة غيرت جذرياً المظهر الجانبي للغرب . ونعيد إلى الذاكرة ايضاً تأسيس نظام الاديرة في سنة ١٠٨٤ و ١٠٩٨ وفي سيتو قرب ديجون ، نظام السيسترسيان Cistercien متبوعاً بالكهانة القانونية المقامة سنة ١١٢٠ في بريمونتريه . وستلعب هذه التنظيمات الرهبانية مع الأنظمة المؤسسة من قبل القديس دومينيك (١١٧٠-١٢٢٧) والقديس فرنسوا الاسيذي (١١٨٢-١٢٢١) دوراً حاسماً في الحياة الدينية والعقلية لأربعة قرون تالية .

ولنحاول باختصار اعادة تخطيط بعض البنى للعالم الرمزي المألوف لمجتمع القرون الوسطى بعد ازمة سنة الألف . ولنحدد بدقة بدئياً ، انه ، مع بداية القرن الحادي

عشر ، اتجه مخطط جديد للمجتمع لأن يفرض وجوده . فالأسقف آدالبير دي لاون يخاطب مليكه في سنة ١٠٢٧ مذكراً اياه بأن «مجتمع المؤمنين لا يشكل سوى جسد واحد ، ولكن الدولة تضم ثلاثة [. . . . .] . بيت الله ، الذي يعتقد بأنه واحد ، قد قسم اذن إلى ثلاثة : البعض يصلي ، والبعض يقاتل والآخر في النهاية يعمل . وهذه الأقسام الثلاثة التي تتواجد لا تعاني من كونها منقسمة [. . . .] . وهكذا ، فهذا التجمع الثلاثي ليس على الأقل واحداً ، وهكذا امكن للقانون أن ينتصر وللعالم أن يتمتع بالسلام»[٤١] .

وهذا المخطط يذكر بالتقسيم الثلاثي للمجتمعات الهندو ـ اوروبية التي درست بوضوح من قبل جورج ديميتريل (ف. ٦٣ع) . وما يهمنا بدئيا ، هو الرمزية الدينية الاكثر مسيحية بكل دقة ، والتي هي مكلفة بهذا التصنيف الاجتماعي . ان الحقائق المدنسة تساهم في الواقع في المقدس . وهذا المفهومُ يميز كل الثقافات التقليدية . ولكي نذكر بمثال مألوف ، فإن هذا المفهوم ينبيء عن الزخرفة الدينية منذ بداياتها ويعاود وجوده في انشاء البازيليكات المسيحية (مثلاً ، رمزية الكنيسة البيزنطية) . وان الفن الروائي يساهم في هذه الرمزية ويطورها . فالكاتدرائية هي صورة كونية imagomundi . والرمزية (الكونية)الكوزمولوجية تنظم وتقدس في ان واحد العالم . «ان الكون هو منظور إليه في منظور مقدس ، الذي يتعلق بالحجر أو النبات ، بالحيوان أو الانسان»[٤٢] .

وفي الواقع ، كل نماذج الوجود ، توجد في الكوزموس ، وكل مظاهر الحياة وعمل الانسان ، وكذلك الأمر الشخصيات واحداث التاريخ المقدس ، والملائكة والغيلان والشياطين . ان تزيينات الكاتدرائيات تشكل مرجعاً لا ينضب للرموز الكونية (الشمس، الابراج؛ الحصان شجرة الحياة الخ . . .) إلى جانب النغمات التوراتية والاسطورية (الشيطان ، الحيتان ، العنقاء ، السنتورات الخ) أو التعليمية (الأشغال المنجزة كل شهر . . . الخ)[٤٣] . ويمكن تمييز عالمين متعارضين : فمن جهة كائنات قبيحة ، مشوهة ، غيلانية ، شيطانية[٤٤] ـ ومن جهة اخرى المسيح والملك في مجده ، والكنيسة (مصورة كامرأة) والعذراء التي تكسب في القرن الثاني عشر ، مكانا مرموقاً في الورع الشعبي . ان هذا التعارض واقعي ، وهدفه واضح . ولكن عبقرية الفن الروائي تتركب فعلاً في الخيال المتقد وفي الارادة في الجمع ، في مجموع واحد ، لكل

نماذج الوجود في العوالم المقدسة والمدنسة والخيالية .

وما يعنينا هنا ليس أهمية هذا العمل الإيقوني في التثقيف الديني للشعب فحسب ، وانما ايضا دوره في اليقظة وانطلاق الخيال ، وبالتالي ، الفكر الرمزي . وان تأمل مثل هذا العمل الايقوني الخرافي يؤالف المسيحي مع عدد من رموز دينية عالمية ، وما قبل دينية . ويدخل المؤمنين تباعاً في عالم من قيم ودلالات تنتهي بالنسبة لبعضهم إلى ان تصبح اكثر (حقيقة) واكثر قيمة من عالم التجربة اليومي .

إن فضيلة الصور والاشارات والمعطيات الاحتفالية ، والقصص الملحمية ، والشعر الغنائي والموسيقى هي في إدخالها الموضوع في عالم مواز وأن تسمح له بتجارب نفسية واستنارات روحية غير مقبولة بطريقة اخرى . وقد تشكلت بالبعد الديني ، أو ما قبل الديني ، في المجتمعات التقليدية ، ابداعات ادبية وفنية[٤٥] . ولا يعنينا هنا ابراز ابداعات التروبادور ومذهبهم بالحب الغزلي . ويلاحظ مع ذلك أن التجديدات الجذرية التي لاءمتها ، وبدئيا تمجيد السيدة والحب خارج الزواج لا تعني تاريخ الثقافة فقط . ولا يجوز ان تنسى الوضع الدوني للمرأة في الارستقراطية القروسطية والفوائد التحويلية أو السياسية التي كانت تقرر الزيجات ، والسلوك الهمجي أو اللامبالي للأزواج . ان «الحب الحقيقي» المكشوف والممجد في القرن الثاني عشر يدخل ثقافة أعلى ومعقدة ، لا بل صوفية وتنسكا ، لم يعرف تلقينها الا قرب نساء ناعمات مثقفات .

وقد صودف أمثال هؤلاء المثقفات ، خاصة في بواتيه ، في قصر اليانور الاكيتانية الشهيرة حفيدة أول شاعر تروبادوري معروف غليوم دي بواتيه (١٠٧١-١١٢٧) وملكة فرنسا وانكلترا على التتابع . ان المئات من الامراء والبارونات والفرسان ، وكذلك العديد من الدوقات والكونتيسات ، تثقفوا جميعاً في هذا الوسط الثقافي المتميز ، والذي كانت ترأسه ابنة اليانور ، ماري دي شامبانيا . حتى انه أقيمت محكمة للحب ، وهي محكمة من نوع فريد يعرف قانونها وعدد من الأحكام الصادرة عنها[٤٦] . لقد شعرت النساء باستطاعتهن تثقيف الرجال ، «بممارسة قوتهن بطريقة جديدة ومحببة توجب على الرجال ان يكونوا أسرى ، مقادين متعلمين . وقد أشارت اليانور إلى الطريق صوب بياتريس»[٤٧] .

لقد كانت نغمة القصائد دوما ، الحب ، ولكنه المعلن تحت شكل اتفاقي ، ممجداً وملغزاً في آن واحد . فالسيدة كانت متزوجة ، واعية لقيمتها ومشغولة بشهرتها . وتلك هي الحجة التي من أجلها لعب السر دوراً حاسماً . والعاشق كان انفصل عن سيدته بواسطة عدد من الطلاسم الاجتماعية والمثيرة . بتمجيد صفات هذه السيدة ، كان على الشاعر اثارة وحدته الخاصة وآلامه ، ولكن ايضا آماله : لرؤيتها ، حتى عن بعد ، للمس ثيابها ، للحصول على قبلة الخ . . .

إن هذه المرحلة الطويلة من المسارة الغرامية تشكل في آن واحد ، تنسكاً وتأدبا وجملة تجارب روحية . ان اكتشاف المرأة بصفتها نموذجاً ، وتمجيد جمالها الطبيعي وفضائلها الروحية ، كان يلقي العشيق في عالم مواز من الصور والرموز حيث كان شرطه الجسدي يتحول تباعاً . ومثل هذا التحول كان موجوداً حتى ولو أن الشاعر تلقى في بعض الحالات العطاء الكامل من سيدته(٤٨) . لأن هذا الأستحواذ كان تتويجاً لتقاليد معقدة ومحكومة معا بالتنسك ، والرفعة الاخلاقية والعشق .

ان الخاصية الطقوسية لهذا السيناريو الايروسي لا شك فيها . ويمكن تقريبها ، من جهة ، مع التقنيات الجنسية التانترية التي تسمح بأن تكون مفهومة ايضاً بدقة عما في مضمون الفيزيولوجيا المهذبة ، أو على مستوى روحي صرف ؛ ومن جهة اخرى ، يمكن مقارنتها بورع بعض المدارس الفيشنوية ، حيث أن التجربة الصوفية موضحة جداً بحب امرأة متزوجة ، رادها Radha ، بالنسبة للاله الشاب كريشنا . وهذا المثال الأخير هو بخاصة المثال الأخير ذي الدلالة . فبدئيا هو يؤكد الرسمية والقيمة الصوفية (للحب ـ العشق) وهو يساعد ، اضافة إلى ذلك بتمييز الاتحاد الصوفي التقليد المسيحي (مستعملاً الصيغة الزوجية ، أي زواج الروح مع المسيح ، عن الاتحاد المميز للتقليد الهندوسي الذي ، فعلا من أجل الاشارة للمطلق المقام بالتجربة الصوفية وعدم التضامن الكلي للمجتمع وقيمه الاخلاقية ، يستعمل ليس صور مؤسسة محترمة بامتياز ، الزواج ، وانما صور مضاد الزواج الزنى .

٢٧٠ ـ الباطنية وابداعات ادبية ! التروبادور ـ الوفاء في الحب دورة عزال

في الحب الغزلي ، مُجدّت لأول مرة منذ غنوصي القرنين الثاني والثالث ،

الفضيلة الروحية والقيمة الدينية للمرأة . , وحسب العديد من العلماء ، استلهم شعراء التروبادور في البروفانس بنموذج من الشعر العربي في اسبانيا ، الذي كان يمجد المرأة والحب الروحي الذي توقظه ، الا انه يجب ايضاً الأخذ في الحسبان عناصر سلتية ، وغنوصية وشرقية ، أعيد اكتشافها أو أعيد تحيينها في القرن الثاني عشر . من جهة أخرى ، فإن الورع تجاه العذراء ـ الذي ساد في ذات العصر ـ قد قدس المرأة بصورة غير مباشرة . وقد ذهب دانتي بعد قرن من الزمن (١٢٦٥-١٣٢١) بعيداً ايضاً: فبياتريس ـ التي كان عرفها كمراهقة ووجدت كزوجة لأمير فلورنسي ـ قد تألهت . لقد أعليت أعلى من الملائكة والقديسين ، محصنة من الاثم ، وشبه مماثلة للعذراء . لقد اصبحت وسيطة جديدة بين البشرية (الممثلة بدانتي) والاله . وعندما كانت بياتريس على وشك الظهور في الجنة الارضية ، صرخ احدهم : «تعالي يا عروس من لبنان» «veni sponsa del Libano» (المطهر ٣٠-٢) وهذا التعبيرمقتبس من الكتاب المقدس [نشيد الانشاد ٤-٨] الذي تبنته الكنيسة ، ولكنه كان ينشد لأجل العذراء فقط أو لأجل الكنيسة ذاتها[٥١] . ولم تكن تعرف أمثلة أخرى اكثر بريقها من تأليه امرأة .وبوضوح كانت باتريس تمثل التيولوجيا ، اذن سر الخلاص . لقد كتب دانتي الكوميديا الالهية لانقاذ الإنسان ، موصلاً تحوله لا بمعونة النظريات ، وانمابارعاب واذهال القارىء مع رؤى الجحيم والفردوس . ومع انه لم يكن الوحيد ، فإن دانتي يوضح بطريقة مثالية المفهوم التقليدي ، الذي بحسبه يكون الفن ، وبخاصة الشعر هو وسيلة متميزة لا لإيصال الميتافيزيك أو المثيولوجيا فحسب ، وانما ايضا لايقاظ وانقاذ الانسان .

إن الوظيفة الانقاذية للحب وللمرأة قد اعلنت بكل وضوح بحركة أخرى . في مظهر أدبي اساساً ، ولكنها تطلبت عرفانا(غنوصا) سرياً ، وعلى الأرجح تنظيماً تلقينيا سرياً . انه يتعلق بالاخلاص للحب[٥٢] الذي تأكد وجود ممثليه بدءاً من القرن الثاني عشر في بروفانس وايتاليا كذلك في فرنسا وبلجيكا . وقد شكل الأوفياء للحب les fedli d'Amore ميليشيا سرية وروحية ، هدفها تعبد «المرأة الوحيدة» والتلقين في سر «الحب» . وكان الجميع يستعمل «لغة غامضة» (Purlar cruz) وذلك من أجل ان يكون مبدأهم غير قابل للفهم من قبل «العامة» كما قال واحد من اكبر المشاهير بين الأوفياء للحب فرانسيسكو دي باربارينو (١٢٦٤-١٣٤٨) . وقد أمر مخلص للحب آخر المدعو

جاك ديماسيزيو في قصيدته (هذا هو الاخلاص للحب C'est des fiez d'amours) «لا يسوغ مطلقاً كشف مجالس الحب ، دائما يجب اخفاؤها بعناية»(٥٣) . وأما ان المسارة بالحب كانت نظاما روحياً ، فقد اكد عليه جاك دي بيزيو نفسه ، مفسراً دلالة كلمة «حب» بقوله :

«A تعني في أحد معانيها ، بدون = Sans
و mar تعني موت
وعليه فإن جمعها يعني «خلود» Sansmort(٥٤)

إن «المرأة» ترمز للعقل المتصاعد ، والحكمة . وحب امرأة يوقظ المريد من السبات (البلادة) léthargie التي تردى فيه العالم المسيحي بسبب الميوعة الروحية للبابا . وعليه يصادف في نصوص الأوفياء للحب تورية إلى (ارملة ليست ارملة» : إنها السيدة المدركة la madonna intelligenza ، التي بقيت «ارملة» لأن زوجها ، البابا ، مات في حياته الروحية مكرساً نفسه حصراً للأعمال الزمنية .

انه لا يتعلق بحركة هرطقية بمعنى الكلمة ، وانما بجمع لم يعترف للبابوات بمزية الرؤساء الروحيين للمسيحية . لا نعرف شيئاً عن طقوسهم المسارية ، ولكنه توجب وجودها ، لأن الأوفياء للحب شكلوا ميليشيا وعقدوا اجتماعات سرية .

زد على ذلك ، فإنه منذ القرن الثاني عشر فرضت الأسرار وفن اخفائهما في أوساط مختلفة . «المحبون كالمذاهب الدينية لهم لغتهم السرية ، وقد تعارف اعضاء الدوائر الباطنية باشارات ورموز وبألوان وكلمات سر»(٥٥) . و«اللغات السرية» كتعدد الشخصيات الخرافية والملغزة اعجازية كلهاتشكل في ذاتهامظاهر ماقبل دينية . ويوجد الدليل في روايات (الطاولة المستديرة) المقامة في القرن الثاني عشر ، حول الملك أرثر .

ان الأجيال الجديدة التي تربت ـ مباشرة أو بصورة غير مباشرة ـ من قبل الينيور الاكيتانية Aliènor d'Aquitine وماري دي شامبانيا لم تتفحص اناشيد الاشارة القديمة .

فمكان شارلمان كان مشغولاً الآن من قبل الملك الخرافي آرثر . وان المادة البريتانية la matière de Bretagne وضعت تحت تصرف الشعراء مجموعة معتبرة من شخصيات واساطير هي في جزء كبير منها من أصل سلتي(٥٦) ، ولكنها قابلة لأن تتمثل عناصر متنافرة ـ مسيحية ، وغنوصية ، واسلامية .

والذي أثار الولوع العام بالنسبة للدورالارثوري هو شاعر مسيحي من تروي Troys كانت ماري دي شامباني قد اسبغت حمايتها عليه . واذا كان لا يعرف شيء عن حياته ، الا انه من المعلوم قد بدأ يكتب حوالي سنة ١١٧٠ وانه ألف خمس روايات طوال شعراً ، ومن اشهرها لا نسيلو Lancelot وايريك وبرسڤال. وفي موضوعنا يمكن القول ان روايات الطاولة المستديرة أقامت ميتولوجيا جديدة ، في المعنى الذي كشفته هذه الروايات ، بالنسبة لاجتماعهم ، و«لتاريخهم المقدس» وللنماذج المثالية التي يجب ان تقود سلوك الفرسان والعشاق . يضاف إلى ذلك بأن ميتولوجيا الفروسية كان لها تأثيرها الثقافي الأكثر أهمية من تاريخها بمعنى الكلمة .

ويدئيا يلاحظ عدد وأهمية العناصر القديمة ، وبتحديد أكثر البواعث التلقينية . وكان هنالك دوما مسألة «بحث» طويل ومتحرك لموضوعات مدهشة تقتضي ، مع غيرها ، تدخل البطل في العالم الآخر . ويمكن الاكتشاف في قواعد الانتماء إلى مجموعة الفرسان بعض تجارب الدخول في جمعية اخوية سرية من نوع ما نربون Mannerbund فعلى برسڤال تمضية الليل في كنيسة حيث يرقد فارس ميت ؛ وعندما يزمجر الرعد ، يرى يداً سوداء تطفيء الشمعة الوحيدة المضاءة(٥٧) . وذلك هو النوع ذاته للسهاد الليلي المساري . وان التجارب التي توجه إلى البطل عديدة جداً : فعليه اجتياز جسر ؛ مغمور تحت الماء ، أومصنوع من سيف قاطع ، أو أنه محروس من قبل أسود أو غيلان . واضافة إلى ذلك ، يسهر على مدخل القصر حراس آليون ، جنيات أو شياطين . . . وكل هذه السيناريوهات تذكر بالعبور إلى الآخرة ، وبالهبوطات الخطيرة الى الجحيم ، وعندما تجري مثل هذه السفرات من قبل كائنات حية ، فإنها تشكل دوماً جزءاً من مسارة . وباقتحام مخاطر من مثل هذه الهبوطات إلى الجحيم ، يتابع البطل معركة الخلود أو أي هدف خارق للطبيعة . ان التجارب الكثيرة التي تتحملها شخصيات الدور الارثوري تصنف في ذات المنظومة : في نهاية سعيهم ،

يشفي الأبطال المرض الغامض للملك ، وما ان يتم هذا حتىٰ يعاودوا حكم بلاد الغاست ، أو حتىٰ انهم ذاتهم يقتربون من السيادة العظمىٰ .

ويوجد هنالك بعض العناصر المسيحية ، ولكنها ليست دائما في نص أصلي . وبخاصة يوجد ميتولوجيا الشرف الفروسي وتمجيد المرأة الذي يصل أحيانا لأعلى برحائه[٥٨] . وكل هذا الأدب الممتلىء ببواعث وسيناريوهات مسارية هام بالنسبة لبحثنا ، ولن يكون سوى سبب للتقدم العام . وفي الواقع ، انه كان بالاصغاء بلذة للقصص الروائية التي كانت تعود فيها النماذج التلقينية حتى الاشباع ، يبدو أن مثل هذه المغامرات كانت تلبي حاجة عميقة لانسان القرون الوسطى .

غير انه يجب كذلك أن يؤخذ في الحسبان نية الكتّاب بأن ينقلوا ، بواسطة مؤلفاتهم ، بعض تقليد باطني ، كما فعل ذلك المؤمنون بالحب les Fedli d'amore ، أو رسالة هادفة «لإيقاظ» القارىء ، حسب النموذج المثبت فيما بعد من قبل دانتي . وتلك هي حالةالرمزية وسيناريو الغرال du Graal ، نغم مجهول من قبل الروايات الأولى ، ذات المصدر البريتوني للعصر الارثوري . ولم يظهر الغرال الا حوالي سنة ١١٨٠ لدى كريتيان دي تروي chrétien de Troyes . وكما كتب عنه . فندريس y.Vendryès «لا يوجد في أي أدب سلتي ، مهما كان غنياً، أيةقصةامكن استخدامها نموذجاًللتأليفات المتنافرة مما استخرجه ادبنا القروسطي من هذا الموضوع» (أي الغرال)[٥٩] .

مع ذلك ، فليس كريتيان دي تروي هو الذي قدم القصة الأكثر كمالاً والميتولوجيا الاكثر تماسكا للغرال ، وانما هو فارس الماني ولغرام فون ايزنباخ ففي (البرسيفال) الذي ألفه ما بين سنة ١٢٠٠ و ١٢١٠ قبل ولغرام ما اتبعته تعاليم أحد كيوت البروفنسال Kyatle Provencol. إن بنية التأليف متعددة العناصر : الكتب ٣-١٢ وجزء من ١٣ مؤسسة حول كريتيان ، ولكن في الـ ١٤ ينتقد ولغرام سلفه الشهير ، على الأرجح لأنه كان قد فشل بالطريقة التي عالج فيها كريتيان الغرال . ومما يدعو إلى الدهشة في رواية ولغرام ، عدد وأهمية العناصر الشرقية[٦٠] . فأب بارسيفال ، كاموريه ، كان قد استخدم في جيش خليفة بغداد . وعمه ، الراهب تريفريزنت Trevrizent ، كان قد سافر في شبابه إلى آسيا

وافريقيا . وسيصبح ابن أخت برسيفال الكاهن يوحنا ، الملك الكاهن الشهير والغامض الذي حكم في «الهند» . والأول الذي كتب تاريخ الغرال والذي كان أوصله الى كيوت Kyot هو الحكيم «الوثني» (مسلم - يهودي) فليجيتانيس Flégétanis .

ومن المقبول اليوم ان لغرام فون ايزنباغ كان يملك استعلامات دقيقة وعلى درجة من الاتساع من الحقائق الشرقية ، من سورية ومن بلاد فارس ، حتى الهند وحتى الصين .

وقد حصل عليها على ما يرجح، من الصليبيين والتجار الطليان العائدين من الشرق[٦١] . وما هو ذي قيمة بالنسبة لموضوعنا ، هي الأساطير والمعتقدات والطقوس ذات العلاقة مع الغرال ، المثارة فقط من قبل ولغرام[٦٢] . وعلى العكس من كريتيان ، فإن ولغرام يمجد فضيلة ودور امفورتاس Amfortas الملك الصيّاد . وهذا هو الرئيس لنظام فروسية المعبد المسمى Templeisen الذين نذروا الطهارة تماما كالمعبديين . فهم قد اختيروا من قبل الله وتسنموا مهمات خطيرة . ان خمسة وعشرين سيدة من الأشراف قد خدمت الغرال le Graal .

ومنذ عهد قريب أرجع اثنان من الباحثين الأميركان ، اشتقاق العبارة غرال (كأس ، اناء ، حوض ، للكلمة الإغريقية كراتر Krater[٦٣]) . ولهذا الاشتقاق ميزة تفسير الوظيفة الانقاذية للغرال . وفي الواقع ، وحسب الرسالة الرابعة من المدونة الهرمسية Carpusi Hermetieum «ان الله أملأ جرة Crater ، كبيرة من العقل وأرسلها إلى الأرض ، واعتمد بشيراً un herant ، مع الأمر بأن يعلن لأعمال الناس هذه الكلمات : أغطس - انت ، انت الذي تستطيعه ، في هذه الجرة التي تراها ، انت الذي يعتقد بأنك ستصعد صوب الذي أرسل الجرة على الأرض ، انت الذي يعرف لماذا أتيت لتكون . وكل اولئك الذين اصغوا اسماعهم اذن للاعلان والذين عملوا بهذا التعميد من العقل، هؤلاء هم لهم نصيب من العرفان (غنوص) ، وقد اصبحوا بشراً كاملين ، لأنهم تلقوا العقل»[٦٤] ان التأثير الهرمسي على البرسيقال يبدو مقبولاً ، لأنه في القرن السابع ، وعلى اثر الترجمات الكثيفة للمؤلفات العربية ، بدأت الهرمسية تصبح معروفة في اوروبا[٦٥] . أما بالنسبة للوظيفة المسارية للعرفان (غنوص) المكتشفة في النصوص

الهرمسية فقد تفحصناها في فصل آخر من هذا الكتاب (ف ٢١٠ع) وسيكون هنالك فرصة اخرى للعودة إليها .

ومن جهة أخرى ، فقد جاء في كتاب نشر عام ١٩٣٩ ؛ ان العالم الفارسي السيد جاهانجير س . كواياجيه لاحظ التشابه بين الغرال والمجد Gloria الملكي الايراني هفارينا Hvarena ، والمشابهات بين اساطير ارثر والملك الاسطوري كاي خسرو[٦٦] . وقد قارن هنري كوربان من جانبه وبذكاء لماح الاثنين كليهما - الايراني والغربي - السيناريوهات ، والمؤسسات الفروسية والحكايات المسارية ،متجنبا مع ذلك فرضيات الاحتكاكات التاريخية المعروضة من قبل كواياجيه[٦٧] . ومن بين المتشابهات العديدة ، نشير إلى بنية الفروسيتين الروحيتين واحتجاب كاي خسرو والملك أرثر[٦٨] . يضاف إلى ذلك انه في دائرة التآليف السابقة على ولغرام فون ايزنباخ ، أن لوهنجرين Lohengrin ، ابن بارسيفال ، مصحوبا بكل الفروسية ، يعاود نقل الغرال في الهند .

ومهما كان التفسير المعطى لمؤلفات ولغرام وإلى من اكمل خطاه ، فإن رمزية الغرال والسيناريوهات التي تحكمها جميعاً تمثل جميعها بوضوح توليفاً روحياً جديداً يمكن ان يتماهى فيه معطيات تقاليد مختلفة . فخلف الفائدة المشوقة بالنسبة للشرق تكتشف الخيبة العميقة المثارة بواسطة الصليبيين ، واستلهام التسامح الديني الذي شجع على التقارب مع الاسلام ، والحنين إلى «فروسية روحية» حسب نموذج فرسان المعابد الحقيقيين (les Templeisen de Wolfram)[٦٩] . أما أن يتعلق هذا كله بتركيب ، فإن إدخال الرموز المسيحية (سر القربان ، المقدس ، والرمح) وحضور عناصر من أصل هرمسي ، يثبت ذلك . وحتى مع الاستقلال عن صحة الاشتقاق المعروض من قبل هـ . ور. كاهان (غرال = كراتر - جرة) ، فإن معاودة اكتشاف الهرمسية عبر الترجمات العربية يبدو غير موضع شك . وعليه ، فإن الهرمسية الاسكندرانية كانت سمحت بالأمل بمسارة بواسطة العرفان (غنوص) ، أي الحكمة الموغلة في قدمها والعالمية (أمل عرف أوجه اثناء النهضة الايطالية ، ر.ف. ٣١٠ع) .

وكما هو الشأن بالنسبة لكل الادب الارتري ، فإنه من غير الممكن معرفة ما اذا كانت التجارب التلقينية المتحملة من قبل الفرسان قد ناسبت الطقوس بمعنى الكلمة أم لا .

كذلك الأمر ، فإنه سيكون من العبث الاعتقاد بالقدرة ، بمساعدة الوثائق ، على تأكيد نقل الغرال إلى الهند ، أو إلى اي مكان آخر في الشرق ، وتماما كجزيرة آفالون التي اعتزل فيها أرثر ، أو بلاد العجائب سبها مبالا من التقليد التيبيتي ، فإن الشرق حيث انتقل إليه الغرال ينتمي للجغرافيا الاسطورية . والذي يهم هنا ، هو رمزية اختفاء الغرال ، انه يعبر عن عدم امكانية ادراك تقليد سري بدءاً من مرحلة تاريخية معينة .

ان الرسالة الروحية للسيناريو القائم حول الغرال تستمر باثارة خيال وتفكير معاصرينا . وبصورة عامة فإن ميثولوجيا الغرال تشكل جزءا من التاريخ الديني للغرب ، حتى ولو أنها ـ كما يحصل احيانا ، تتطابق مع قصة اليوتوبيا .

٢٧١ ـ جواشيم دي فلور : تيولوجيا جديدة للتاريخ .

إن جواشيم دي فلور Yoachim de Flore المتولد في كالابر Calabre سنة ١١٣٥ كرس خياته لله بعد سفره للأرض المقدسة . وقد دخل في الدير البنيدكتي دي كورازو ، حيث أصبح كاهاناً . وخلال وقت طويل ، أجهد نفسه ليلحق منزله بنظام السيسترسيين des Cisterciens ، الا انه ، عندما قبل ، في سنة ١١٨٨ ، فإن جواشيم وعصبته من المؤمنين انفصلوا عن كورازو . وفي ١١٩٢ ، أسس ارسالية جديدة فرسان جوفاني دي فيور .

لقد كان جواشيم على علاقة مع الأكابر : كانت له مداخلات مع ثلاثة بابوات (الذين شجعوه جميعاً لكتابة «نبؤاته») ، وقد التقى بريشار قلب الأسد (الذي بشر بين أشياء أخرى ، بولادة الدجال) . وفي فترة موته ، ٣٠ آذار ١٢٠٢ ، كان الأباتي دي فلور واحداً من الوجوه المعروفة اكثر والمحترمة اكثر في العالم المسيحي . الا انه كان يوجد له ايضا خصوم أقوياء ، والذين نجحوا ، كما سنرى ، في الغض من شأنه ، ويتضمن عمله الغزيز ، ولكن الصعب ، سلسلة من رسائل التفسير الهادفة إلى شرح جديد للكتب المقدسة[٧٠] . ولكنه ، بسبب الاسطورة المبتدعة حول نبؤات جواشيم دي فلور ، فإن عدداً من النصوص المزورة بدأت تنتشر تحت اسمه .

ومع ذلك فإن جواشيم تنكر للقب نبي ، واعترف فقط بامتلاكه الموهبة لحل رموز الآيات الموضوعة من قبل الله في التاريخ والمحفوظة في الكتب . وقد كشف بذاته مصدر فهمه للتاريخ المقدس : بعض لحظات الاستنارة التي منحه الله اياها (مرة صباح عيد الفصح ، ومرة اخرى في عيد العنصرة)[٧١] . وحسب رأي جواشيم ان عددين - ٢ و ٣ - يسودان ويميزان عصور التاريخ العالمي[٧٢] : العهدان ، الشعبان المختاران من قبل الله (اليهود والوثنيون) والأشخاص الثلاثة للتثليث . والعصر الأول (يستعمل عبارة نظام status) ، هو عصر العهد القديم ، وقد حكم من قبل الاله الآب وتتميز ديانته بالخوف التي توحي به السلطة المطلقة للشريعة . والعصر الثاني ، ترأسه الابن وهو عصر العهد الجديد والكنيسة المقدسة بالنعمة الالهية ، والعلامة المميزة لديه هو الايمان la foi . وهذا العصر سيدوم ٤٢ جيلاً ، حوالي ٣٠ سنة لكل منها (تماما حسبما جاء في انجيل متى - ١ : ١ - ١٧ - اثنين وأربعين جيلاً مرا بين ابراهيم ويسوع) . وبموجب حسابات جواشيم ، فإن العصر الثاني سينتهي في ١٢٦٠ ، وفي فجر العصر الثالث - وهو المحكوم بروح القدس - عندما ستعرف الحياة الدينية طوبى (نعمة) المحبة ، والسرور والحرية الروحية . ولكن ، قبل بعث النظام الثالث ، فإن الدجال سيحكم خلال ثلاث سنوات ونصف ، سيواجه المؤمنون آخر واعتى تجاربهم (محنهم)[٧٣] . إن بابا قديس حداً والرهبان les visis spirituales - الجماعتين من المتدينين ، جماعة المبشرين. وجماعة المتوحدين المتأملين - سيصمدون في مقاومتهم للهجمة . لقد كان العصر الأول محكوما بالرجال المتزوجين ، والثاني برجال الاكليروس وسيكون الثالث مقاداً بالرهبان الروحانيين . وفي العصر الأول كانت الأولوية للعمل ، وفي الثاني للعلم والتهذيب ، وفي الثالث ستكون القيمة الكبرى للتأمل .

وبالتأكيد ان هذا المخطط المثلث التركيب للتاريخ العالمي وعلاقاته مع التثليث هو اكثر تعقيداً ، لأن جواشيم يأخذ في الحسبان ايضاً سلاسل ثنائية «على سبيل المثال ، الأحداث الهامة في تاريخ المسيحية التي سبق تصويرها في العهد القديم» . غير ان أصولية تفسيره لا شك فيها . فبدئياً ، وضد رأي القديس أوغسطين ، يقدر الأباتي ان التاريخ بعد عدد من المحن سيعرف عصراً من النعيم والحرية الروحية . وبالنتيجة فإن الكمال المسيحي هو أمامنا ، في المستقبل التاريخي (فكرة لم يستطع أي لاهوتي

اورثوذكسي قبولها) . انه يتعلق في الواقع بتاريخ وليس بأخروية ، كما يثبته ، بين غيره ، واقع أن العصر الثالث سيعرف ، هو ايضاً ، الانحطاط وسيكتمل بالمصيبة والخراب ـ لأن الكمال الوحيد الغير قابل للفساد سيكشف عنه بعد الدينونة الأخيرة .

وكما توجب الانتظار ، فإن الخاصية المادية ، التاريخية ، بخاصة ، للعصر الثالث ، هي التي اثارت في آن واحد مقاومة الكنيسة ، وحماس المتدينين والحمية الشعبية . ان جواشيم يشكل جزءاً من حركة كبرى لاصلاح الكنيسة ، الناشطة منذ القرن الحادي عشر . لقد انتظر اصلاحاً حقيقياً ـ اصلاح عالمي seformatio mundi مفهوم كانقطاع جديد للألوهية في التاريخ ـ وليس العودة إلى الماضي(٧٤) . انه لم يطرح المؤسسات التقليدية ـ البابوية ، الشعائر المقدسة ، الكهنة ـ ولكنه اعطاها دوراً اكثر تواضعاً . ان وظيفة وقوة البابوات تلوثت جذريا(٧٥) . وان الشعائر المقدسة لم تعد تظهر وانه لابد منها في كنيسة المستقبل المسودة بالروح القدس(٧٦) . أما بالنسبة للقساوسة ، فلن ينتهوا ، ولكن توجيه الكنيسة سيعود للرهبان les virs spirituales ، توجيه هو من جهة أخرى ، روحي صرف ، وليس سيادة على المؤسسات الخارجية للكنيسة(٧٧) .

ولقد اعتبر الأباتي جواشيم ان عمل المسيح اثناء العصر الثالث سيكون مكملاً تحت قيادة الروح القدس . ولكن مثل هذا المفهوم أَلَمْ يلغِ الدور المركزي للمسيح في تاريخ الخلاص ؟؟ على كل حال ، ان الأهمية المعطاة من قبل جواشيم للسيادة ، في كنيسة المستقبل ، للروح على المؤسسات كانت بصفاء معارضة للقوى التي انتصرت في القرن الثالث عشر . ومن هذه الوجهة النظر ، فإن مفهوم جواشيم شكل نقداً جذرياً للكنيسة في عصره(٧٨) . أن اباتي فلور كان أعلن البناء المستقبلي لنظامين جديدين ، وان ما أنشىء من قبل فرانسوا الاسيزي يعكس على الأرجح الأفكار الجواشمية . وفي الواقع فإن الفرانسيسكان قد اعتقدوا أن القديس فرانسوا ـ بوجوده المثالي (فقر ، تواضع ، حب لكل مخلوق حي) ـ حقق في حياته حتى «مقدما» جديداً للمسيح . وقد تفجرت فضيحة كبرى في باريز سنة ١٢٥٤ ، عندما نشر الفرنسيسكاني جيرارد دي بورزو سان دمينو تحت عنوان (مدخل للانجيل الخالد) ثلاثة نصوص للآباتي الكالابري ، مضيفاً إليها مقدمات وشروحاً . لقد أعلن أن سلطة الكنيسة الجديدة الروحية ، هي كنيسة الروح القدس . وقد افاد لاهوتيو جامعة باريس من هذه الفرصة

الغير مأمولة لأعلان الهرطقة وخطر الأنظمة المتسولة . ومن جهة اخرى ، ومنذ بعض الوقت ، فيما سبق لم يعد جواشيم هو الشخص المفضل لدى البابا . وفي ١٢١٥ أدينت نظريته عن التثليت . وبعد فضيحة «الانجيل الخالد» ادان البابا الكسندر الرابع في ١٢٦٣ الافكار الاساسية للآباتي .

مع ذلك ، فانه ما زال يحافظ على معجبين ، مثل دانتي الذي وضعه في الجنة . وقد تعددت مخطوطات أعماله وانتشرت في كل مكان من اوروبا الغربية . ومباشرة أو بصورة غير مباشرة ، فإن الجواشمية قد اثرت على الفراتيسللي les Fraticlli والبيجهار les Beghards والبيغونيين les Bégunines ، ويوجد المخطط الجواشيمي في أعمال ارنولد دي فيلانوفا وتلامذته[٧٩] .

وفيما بعد ، حوالي القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ، اكتشفت الأجيال الأولى من اليسوعيين أهمية المفهوم الجواشيمي للنظام الثالث . وفي الواقع ، شعروا بمأساة زمنهم ، بقرب المعركة الحاسمة ضد الشر متماهياً بمارتن لوثر[٨٠] . وتكتشف بعض التمديدات الغير منتظرة لأفكار النبي الكالاباري عند ليسينغ : في تربية الجنس البشري ، يطور الفيلسوف أطروحة الكشف المتمادي والمتنامي مكتملاً في عصر ثالث[٨١] .

وقد كان صدى افكار ليسينغ بارزاً ، وقد أثر ، على الأرجح ، عبر افكار السان سيمونيين على اوغست كومت ونظريته للدول الثلاثة . وان فيخته ، وهيجل وسيتلنغ قد دفعوا ، حتى ولو من أجل اسباب مختلفة ، بالفكر الجواشيمي للعصر الثالث الوشيك الوقوع الذي سيجدد وسيكمل التاريخ .

حواشي الفصل الرابع والثلاثون

١-٢- وليم بارك - القرون الوسطى . . .

٣ - حوالي ٧٠٠ لجأت الثقافة الغرية لاديرة ايرلندا ونورثمبري . وهناك بعد مائة سنة ، نشأ المثقفون واللاهوتيون والفنانون .

٤ - وليم بارك ص ٨٠٠ المرجع السابق

٥- ٦- المراجع المعتمدة من المؤلف .

٧ - على سبيل المثال ، تسليم خاتم الزواج ، أهمية الصلاة ، التي يمكن الاحتفال بها من أجل الاحياء والموتى - كتاب القداس حيث تتجمع الصلوات . . الخ

٨ - ان تكوينا اكثر ملاءمة لرجال الدين ، والدراسة المعمقة للغة اللاتينية الصحيحة ، مختلف الاصلاحات للرهبنة تبعاً للنموذج البينديكتي . الخ .

٩ - ر. النصوص المذكورة من قبل جورج دوبي - سنة الألف ص ١٠٥

١٠ - «بالتأكيد في سنة الألف ان الكنيسة الغربية تلقت اخيراً المعتقدات القديمة جداً في حضور الموتى ، في استمرار حياتهم الغير مرئية ، ولكن مع ذلك مختلفة قليلاً عن الوجود الجسدي»

١١ - ١٥ - المرجع السابق - دوبي -

١٦ - اكثرية ملوك الانكلوساكسون يرجعون أصولهم إلى ودن . . . الوثائق المذكورة من قبل وليم . . .والملوك الاسكنديناف يتحدرون من الاله ينجري ، الممثل لغري وهيمدال (أوريغ) سيكون جد كل الملوك - انظر حول ملكية قدامى الجرمن - تاريخ المانيا جزء ٢ ص ٤٤٦ .

١٧ - انظر ينغلينغازغا - فصل ١٦ . تاريخ آخر طرح ينغلينج المضحى به إلى اوزين بسبب المحاصيل السيئة

١٨ - من ثمانية شجرات نسب للبيوت المالكة الانكليزية ، سبعة ترتقي إلى اودن .

١٩ - ٢٠ - اسماء المراجع .

٢١ ـ الأمر الذي يقتضي طاعة الملك للاسقف .
٢٢ ـ مبادىء نظام سياسي مسيحي ـ رسالة منسوبة للاسقف ويلفوستون (مات في ١٠٢٣)
٢٣ ـ جرمانيا ١٣ـ١٤ حول التكريسات العسكرية للجرمن القدامى (ف ١٧٥ ع)
٢٤ ـ يمكن تعريف الاقطاعية كاتحاد المقاطعة مع السيد (أي محصول الارض التي يديرها الاقطاعي باسم سيده)
٢٥ ـ رولاند كان معتبراً كبطل ممتاز لأنه احترم بدون شرط ، ويثمن حياته ، قوانين الاقطاع .
٢٦ ـ كان القانون يتضمن حسب بعض المصادر اربعة قوانين : صلاة يومية ، تضحيةظرفية بحياته من أجل العقيدة المقدسة ، حماية الكنيسة ، الدفاع عن الارامل ، واليتامى والفقراء .وتضيف بعض النصوص ان الفارس يجب عليه مساعدة السيدات والفتيات اللواتي هن بحاجة اليه ويكرم النساء ويدافع عن حقوقهن .
٢٧ ـ ويضاف إلى ذلك ان مؤسسة الفروسية الدينية تطورت كذلك في الاسلام (هنري كوربان)
٢٨ ـ رونسمان ـ تاريخ الحروب الصليبية .
٢٩ ـ صليبية واخروية ـ ديبرون
٣٠ ـ ٣٤ ـ بولس الفندري . . . وديبرون (المسيحية والفكرة الصليبية) «انه ليس لشروط نجاح الحملة ان فيليب اغسطس ارتبط بها ، وانما العرش الذي سيتركه وراءه» ذات المرجع .
٣٥ ـ ٣٨ ـ ذات المرجع ـ بولس الفاندري ـ ويذكر انهم كانوا مشردين فقراء سلموا بالسكاكين والفؤوس . . الخ
٣٩ ـ ٤٠ ـ اسماء المراجع .
٤١ ـ انظر النص في دوبي وسنة الألف ص ٧١ـ٧٥ في القرن الثاني ، وهذا المخطط يترجم اعادة قولبة المجتمع : كهنوت محكوم بالنموذج الرهباني وارستقراطية عسكرية ، ونخبة اقتصادية للفلاحين ومستغلي الأراضي الذي يكسبون بالعمل الحق بارتقاء فكري .ـ جاك لوكوف في تاريخ الاديان . . . الخ .
٤٢ ـ ٤٣ ـ اسم المرجع .
٤٤ ـ وهذا ما اغضب القديس برنارد «ماذا تعني في اروقتنا هذه الغيلان القبيحة ، وهذه المحاسن المرعبة وهذه الأهوال الجميلة» ابولوجيا . ١٢ ـ داني .
٤٥ ـ كما أظهرته بسيكولوجيا الأعماق . فإن ذات العملية مع أنها افتقرت وانحطت ، تأكدت في المجتمعات المعاصرة المدنسة
٤٦ ـ محتفظ بافي في De aste amendi ـ وهذه الرسالة الصغيرة ترجمت وشرحت من قبل لافييت حوران (التروبادور ومحكمة الحب) ص ٤٣ـ٦٥
٤٨ ـ انظر . . . التوثيق والتحليل النقدي لموشيه لافرار (حب غزلي وغاية الفن في القرن الثاني

عشر . ومن جهة اخرى ان ماري دي شامبانيا اكدت دون مواربة الفرق بين القران الزوجي ولقاء المحبين المحبات يتوافقان بالتناوب تماما وبدون مقابل . . . الازواج ، هما ، ملزمين بواجب التحمل بالتوالي ارادتهما وان لايرفضا ابداً) .

٤٩ـ العديد من النصوص الغونصية تمجد الأم الالهية مثل (الصمت الصوفي) الروح القدس، الحكمة «انني الفكرة التي تسكن في النور تلك التي كانت وجدت قبل كل شيء . انني فاعلة في كل خلق (. . .) انني غير مرئية واحد من الكل . .) . وفي قصيدة غنوصية ، الرعد الروح الكاملة ، قوة نسوية تعلن : «انني الأولى والاخيرة [. . .] انني الزوجة والعذراء [. . .] انني الأم والابنة» الخ .

٥٠ ـ انظر ـ الشعر العربي والشعر الأوروبي ـ غارسيا غومير . والمراجع المذكورة .

٥١ ـ من جهة اخرى تطبق بياتريس نفس كلام المسيح (بعد قليل لن تراني ومن ثم ايضا بعد قليل تراني) (يوحنا ٦٦:١٦)

٥٢ـ ٥٣ ـ المراجع . . «والحب لا يجوز كشفه وانما اخفاؤه تماما» .

٥٤ ـ ٥٥ ـ عالم القرون الوسطى ـ ف. اير . . ص ١٥٧ .

٥٦ ـ آرثر ـ الملك الصياد ، بيرسفال لانسلو ، ، الموضوعات المذهلة للعالم الآخر . . . الخ .

٥٧ ـ ر. الخرافة الارثرية ـ جان مارش .

٥٨ ـ على سبيل المثال في لانسيلو كريستيان دي تروى ـ أما بالنسبة لتاريخ القصة الجميلة والمأساوية تريستيعان واوز بلده فانها تشكل (القصة الاكثر شعبية والمدنسة للقرون الوسطى) .

٥٩ ـ ٦٠ ـ فندريس ـ الغزال في الدور البريتوني . و٦٠ لان النص مسرحه الشرق

٦١ ـ جونة ـ الديوان الشرقي ـ وحب هذا الكاتب . . ان القصة تقتضي معلومات جديدة وهامة بالنسبة لتاريخ الفن على سبيل المثال ان ما قرره ولغرام حول طريق الحرير نحو الصين (قرن قبل ماركوبولو) على قصور الخلفاء المتأخرين في بغداد .

٦٢ ـ ٦٨ ـ اسماء المصادر والمراجع المعتمدة .

٦٩ ـ فراسان المعبد اصبحوا رجال البنوك الرئيسيين في عصر الصليبيين وجمعوا ثروات كبيرة وتمتعوا اضافة لذلك باحترام سياسي ، وبهدف تجريدهم من كنوزهم رفع فيليب الرابع عام ١٣٢٠ دعوى شاكتة ضدهم ، متهما اياهم باللاأخلاقية والهرطقة وبعد سنتين الغى البابا كليمنت الخامس نظام فرسان المعبد نهائيا .

٧٠ ـ اكثرها اهمية اذيع في فينيسيا ، في بداية القرن السادس عشر .

٧١ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ اسماء مصادر ومراجع معتمدة

٨١ ـ لقد فهم ليسينع هذا العصر الثالث . بأنه انتصار للعقل بواسطة العلم . ولكن هذا لم يكن

أقله هنا في رأيه . اتمام الكشف المسيحي . انه يرجع بلطف وتقدير (البعض المتحمسين من القرنين ١٣- و ١٤ الذين كانت قضيتهم الوحيدة اعلان الانجيل الجديد الخالد بصورة عاجلة (كارل لويس) معنى التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون

علوم دينية وروحانية اسلامية

٢٧٢ ـ اساسات اللاهوت الأغلبي

كما رأينا سابقاً ، ان وحدة الجماعة الاسلامية (الأمة) فقدت على اثر الانفصال بين السنية (المؤسسة على السنة ، والتطبيق التقليدي) والشيعة ، التي كانت تدعي بأن الخليفة الحقيقي الأول هو علي . واضافة لذلك «فمنذ وقت مبكر توزع الاسلام إلى مذاهب متعددة جداً أو إلى مدارس غالبا ما كانت تتصارع وحتى انها تدين بعضها بالتناوب ، وكل واحد منها يدعي أنه المالك المتميز للحقيقة العليا ؛ وقد زال كثير منها عبر التاريخ ، وبقي ممكنا زوال غيرها ، ولكن كثيراً آخر «وغالباً الأكثر قدما» قد استمر حتى ايامنا بحيوية بارزة مصمماً بجد على الاستمرارية وعلى متابعة الاغتناء بمعطيات جديدة ، وبكمية من المعتقدات والأفكار الموهوبة من قبل الأجداد».

إن الجماعة السنية مثلث ومازلت تمثل غالبية الاسلام . وهي تتميز بدئياً بالأهمية المعطاة للتفسير الحرفي للقرآن والسنة ، وبالدور الرئيسي للشريعة . ولكن نطاق الشريعة

اكثر اتساعاً من الأنظمة القانونية من النموذج الغربي . فمن جهة هي تنظم ليس علاقات المؤمن مع الجماعة والدولة فحسب ، وانما ايضاً مع الله وضميره الخاص . ومن جهةأخرى فإن الشريعةتمثل التعبير عن الارادة الإلهية، كما أوحي بها لمحمد، وفي الواقع ، وبالنسبة للسنية ، فإن الشريعة والفقه متضامنان . ومصدرهما هو : تفسير القرآن : والسنة المؤسسة على نشاط وكلمات الرسول ، والاجماع أو اتفاق شهادات صحابة محمد يضيف من بين مصادر الشريعة القياس ويعتبر الاجتهاد كالطريقة التي يتوصل بها لهذا القياس .

ومن غير المجدي هنا دراسة مدارس الاجتهاد الأربعة المعروفة بأنها هي كمدارس قانونية من قبل الجماعة السنية[٢] . وكل المدارس استعملت الطريقة العقلية المعروفة تحت اسم (الكلام) وهو مصطلح عربي يعني .. تكلم ، حديث ، ولكنه انتهى إلى تعريف اللاهوت .

إن أكثر اللاهوتيين قدماً هم المعتزلة ، وهم جماعة من المفكرين انتظموا منذ النصف الأول للقرن الثاني للهجرة ، في البصرة . وقد استقر مذهبهم بسرعة ، وحتى انه أصبح لبعض الوقت ، اللاهوت الرسمي للاسلام السني . ومن بين اطروحات خمسة اساسية للمعتزلة ، تبدو الاثنتان الأوليتان هما الهامتان : ١) التوحيد : «الله واحد ، لا شبيه له ، ليس جسماً ، ولا فرداً ، ولا مادة ولا حادثا . انه خارج الزمن . لا يقيم في مكان أو كائن ، ليس موضوعاً لأية صفات أو نعوت من نعوت الخلائق . انه غير مشروط ولا محدد ولا مولود ولا يولد [. . . .] ، لقد خلق العالم بدون سبق مثال مقام وبدون مساعد»[٤] . وكنتيجة لازمة ، فقد نفى المعتزلة الصفات الإلهية واعتمدوا فكرة ان القرآن مخلوق . ٢) العدالة الالهية المتضمنة حرية التحكم التي تجعل الانسان مسؤولاً عن أفعاله .

إن الاطروحات الثلاثة الاخيرة ترجع بصورة خاصة إلى مسائل الأخلاق الفردية والتنظيم السياسي للجماعة .

ولبعض فترة من الزمن ، وبعد مجيء الخليفة المأمون ، الذي اعتنق الاعتزال تماما

وأعلنه مذهبا للدولة ـ عرفت الجماعة السنية ازمة جسيمة بصورة خاصة . ثم انقذت وحدتها بواسطة الاشعري (٢٦٠/٨٧٣ ـ ٣٢٤/٩٣٥/٥٠. ومع انه اتبع اللاهوت الاعتزالي حتى سن الاربعين من عمره ، فقد تركه الاشعري علنا في المسجد الكبير في البصرة وكرس بقية حياته لتوفيق الاتجاهات المختلفة التي واجهته في داخل السنية .

فضد الحرفيين اعتمد الأشعري قيمة البرهان العقلي ، ولكنه انتقد السيادة المطلقة للعقل كما تبناها المعتزلة . وحسب القرآن ، ان الايمان بالغيب (الغير مرئي ، والمافوق المحسوس والخفي) لابد منه في الحياة الدينية . وعليه فإن الغيب يتجاوز البرهان العقلي . ودائما ضد المعتزلة ، اعتبر الأشعري ، ان الله يحوز الصفات والاسماء المذكورة في القرآن ، ولكن بدون السؤال «كيف» ، لقد ترك «الايمان والعقل وجها لوجه دون وسيط» ، كذلك الأمر فإن القرآن هو غير مخلوق ، بصفته كلاما الهيا خالداً . وليس (كاكلام البشري ، الظاهر في الزمان)[٦] .

ومع ان المدرسة الأشعرية لم تسلم من الانتقادات ، المصاغة وبخاصة من قبل المعتزلة والحرفيين ، فإن هذه المدرسة سادت خلال قرون ، كل الاسلام السني تقريباً ومن بين مداخلاته الأكثر أهمية ، التحليل المعمق للعلاقات بين العقل والايمان ، وهو يستحق تقديراً خاصا . فكذلك ان حقيقة روحية يمكن لها ان تدرك بالايمان كما هو بالعقل ، «انه يتعلق مع ذلك في كل حالة بطريقة من الادراك الحسي التي تختلف شروطها والتي لن يعرف لا دمجها مع بعض ، ولا باستعاضة الواحد منها بالآخر ولا المرور من الواحد لكي لا يرى سوى الآخر»[٧] . ومع ذلك فقد استنتج (كوربان) «بمواجهة متوازية للمعتزلة والحرفيين ، أن الاشعريين يبقون في الواقع على أرضيتهم الخاصة»[٨] وعلى هذه الأرضية سيكون من الصعب تطوير التفسير الروحي للنبؤة ، بالمرور من المعنى الظاهري إلى المعنى الباطني .

٢٧٣ ـ الشيعية والتأويل الباطني :

إن الاسلام هو كالمسيحية واليهودية ، (دين كتاب) . فالله تكشف في القرآن عبر

رسوله ، الملاك ، الذي أوحى للنبي كلام الله . ومن وجهة نظر شرعية واجتماعية ، فإن أعمدة الايمان الخمسة تشكل المهم في الحياة الدينية . مع ذلك ، فإن المثل الأعلى للمسلم هو فهم المعنى (الحقيقي) للقرآن ، حقيقة النظام الانطولوجي (المعبر عنه بالمصطلح حقيقة) . فالانبياء ، وبخاصة آخرهم ، محمد ، أعلنوا في نصوصهم الموحى بها القانون الالهي (الشريعة) . غير ان النصوص قابلة لتفسيرات شتى ، مبتدئة بالأكثر وضوحاً ، التفسير الحرفي . وحسب قول صهر محمد ، علي ، الامام الأول «لا يوجد آية قرآنية إلا ولها أربع معان : الظاهر ، والباطن ، والحد ، و(المشروع الالهي) والمصطلح . فالظاهر هو من أجل التلاوة الشفهية ، والباطن هو من أجل العلم الداخلي ، والحد ، هو التلاوة المقيمة للحلال والحرام ، والمصطلح (المشروع الالهي) هو ما قصد الله تحقيقه في الانسان بواسطة كل آية»[٩] . وهذا المفهوم هو خاص بالشيعة ، ولكنه موزع بين عدد من المتصوفين والاشراقيين المسلمين . وكما كتب فيلسوف ايراني كبير ، ناصر خسرو (القرن ٥/٩) : «الدين الايجابي [الشريعة] هي المظهر الخارجي للفكرة (الحقيقية) والفكرة هي المظهر الباطني للدين الايجابي . . والدين الايجابي هو الرمز (مثال) ، والفكرة هي المرموزة «الممثول»[١٠] .

إن الفكرة ، الحقيقية . تتطلب معلمين ملقنين لتجعلها مقبولة من المؤمنين . وبالنسبة للشيعة . فإن المعلمين الملقنين ، والأدلاء الروحانيين بامتياز ، هم الأئمة[١١] . وفي الواقع ، ان واحداً من اكثر التفاسير الروحية قدماً للقرآن يوجد في التعليم الباطني المعطى من قبل الائمة لتلامذتهم . وهذا التعليم قد نقل بأمانة ويشكل مدونة ضخمة (خمسة وعشرين جزءاً بحجم نصف طلحية ورق في طباعة المجلسي) . والتفسير المقدم من الأئمة والكتاب الشيعة مؤسس على تكاملية مصطلحين جوهريين : التنزيل والتأويل . فالأول يدل على الدين الايجابي ، حرفية الوحي المتنزل من الملأ الأعلى بناء على إملاء الملاك . وعلى العكس فإن التأويل يرجع للأصل ، أي للمعنى الحقيقي والأصلي للنص المقدس . وحسب كتاب اسماعيل (ف ٢٧٤ع) «ارجاع الشيء لأصله ، فالذي يمارس التأويل هو اذن أحدهم الذي يقلب المنطوق عن مظهره الخارجي (ظاهرة) واعادته إلى حقيقته[١٢] .

وخلافاً لآراء الأصوليين (الارثوذكس) فإن الشيعة يقدرون انه بعد محمد بدأ دور

جديد هو دور الولاية «محبة ، حماية» . ان «محبة» الله تكشف للأنبياء والأئمة الدلالات السرية للكتاب والسنة ، ومن هنا ، تجعلهم قادرين لتلقين المؤمنين في الاسرار الألهية ، «تحت هذا المظهر ، فإن الشيعية هي عرفان (غنوص) الاسلام . ان دورة الولاية هي اذن دور الامام الوارث للرسول ، اي الباطن التابع للظاهر ، الحقيقة التابعة للشريعة» [كوربان ص ٤٦] . وفي الواقع ، ان الائمة الأوائل ارادوا الحفاظ على التوازن بين الدين الايجابي و«الفكرة» دون حل الباطن عن الظاهر . ولكن الظروف قد حالت دون الحفاظ على هذا التوازن ، وبالنتيجة الوحدة للشيعة .

ونشير باختصار إلى التاريخ المأساوي لهذه الحركة . فزيادة عن الاضطهاد السياسي للخلفاء الأمويين وخصومة فقهاء الشريعة ، فإن الشيعية تحملت كثيراً من انقساماتها الداخلية الخاصة . مثيرة العديد من الشيع والمذاهب . فبما ان الرئيس الديني كان الامام ، أي منحدر مباشرة من علي ، فإن ازمة انفجرت عند موت الامام الرابع جعفر الصادق (١٤٨/٧٦٥) . فابنه اسماعيل الذي سبق وقلد من قبل والده ، مات قبل الأوان . وتجمع قسم من المؤمنين حول ابن هذا الأخير محمد ابن اسماعيل الذي اعتبروه كامام سابع ، وهؤلاء هم الاسماعيليون أو الشيعة السبعية . ومؤمنون آخرون اعترفوا بموسى الكاظم كإمام سابع وهو شقيق اسماعيل ، وهو ايضاً قد قلد من قبل جعفر .

واستمرت سلسلة نسبه حتى الامام الثاني عشر محمد المهدي ، المختفي سراً في ٢٦٠/٨٧٤ وعمره خمس سنوات ، في اليوم نفسه الذي مات فيه والده الشاب الامام قبل الأخير(١٣)

ومن وجهة نظر شرعية ، ان الفوارق الأكثر أهمية مع الأصولية السنية هي التالية : ١) المتعة و ٢) الاذن بالتقية ، أي اخفاء الاراء الدينية تجنباً في عصور الاضطهادات .

إن التجديدات للفرعين من الشيعة بارزة وبخاصة حول المخطط اللاهوتي . فقد شوهدت الأهمية للباطنية والغنوص . وحسب بعض علماء الدين السنة والكتاب الغربيين ، انه فعلاً بفضل التعليم السري للأئمة دخل العديد من المفاهيم الغريبة (خاصة ، الغنوصية والايرانية) الاسلام الشيعي ، وعلى سبيل المثال ، فكرة الصدور أو الانبثاق الالهي ، في مراحل متتابعة ، واندماج الأئمة في هذه العملية ، والتقمص ،

وبعض النظريات الكونية والاناسية . الخ . . . ويذكر مع ذلك ان ظواهر مشابهة تصادف في الصوفية (ف ٢٧٥ع) والقبالة (ف ٢٨٩ع) وفي تاريخ المسيحية . وان ما يجب ابرازه في كل هذه الحالات ليس هو الفعل في ذاته ، بخاصة الاستعارة من الأفكار والطرائق الروحية الأجنبية ، وإنما إعادة تفسيرها وإعادة تركيبها بواسطة الأنظمة التي تمثلوها .

وإضافة إلى ذلك ، فإن وضعية الامام أثارت انتقاد الأغلبية الأرثوذكسية ! وبخاصة ان بعض الشيعة قد قارنوا معلمهم بالرسول ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة المؤسطرة التي لا مفر منها برسم الصورة الذاتية لمحمد . ويمكن بسهولة ايراد العديد منها وهكذا : شع نور من رأس والد محمد «اشارة لفور المجد المحمدي» ، وكان محمد الرجل الكامل ، وأصبح الوسيط أو الشفيع بين الله والبشرية . وهنالك حديث يقرر ان الله قال له : «لو لم توجد لما كنت خلقت الأفلاك» . . ويضاف انه ، بالنسبة إلى العديد من الجماعات الأخوانية الصوفية ، كان الهدف الغائي للمريد ، الاقتران مع النبي .

إلا انه بالنسبة للسنة ، فإن الامام لم يكن يستطيع أن يوضع بالقرب من محمد . انهم كذلك يعترفون بنبل علي ، ولكنهم يرفضون الفكرة بأنه لا يوجد خلفاء شرعيون غيره وغير المنحدرين من أسرته . والسنيون ينكرون بخاصة العقيدة بأن الإمام ملهمٌ من قبل الله بله انه ظهور لله[١٥] . وفي الواقع ، ان الشيعة يعترفون بعلي وعترته بأنهم قبس (جزئي particule) من النور الإلهي ـ أو حسب رأي بعض هم جوهر إلهي ؛ ولكنهم بدون تطبيق لهذه الفكرة بالتجسيد . واكثر من هذا صحة ، ما يمكن قوله ان الامام هو تجلي إلهي ، أو كشف الهي ، (يوجد معتقد مماثل ، ولكن دون ان يكون مقرراً للامام لدى بعض الصوفيين) . وبالنتيجة ، فإن الامام ، بالنسبة للشيعة الاثني عشرية ، كما هو الأمر بالنسبة للاسماعيليين ، يصبح الوسيط بين الله والمؤمنين . انه لا يقوم مقام النبي ، ولكنه يكمل عمله ويشاطر احترامه . وهذا مفهوم جريء وأصلي ، لأنه يترك مستقبل التجربة الدينية مفتوحاً . فبفضل الولاية «محبة الله» يستطيع الامام الكشف والبيان للمؤمنين ابعاداً مازالت غير مشكوك فيها من الاسلام الروحاني .

بدىء بمعرفة الاسماعيلية تقريباً ، نتيجة أعمال وو ـ ايفانوف W.Ivanow ولم يبق من العصر الأول سوى القليل من النصوص . فبعد موت الامام اسماعيل ، اعتبر التقليد وجود ثلاث ائمة مستورين ، وفي ١٠٩٤/١٨٧ انقسمت الجماعة الاسماعيلية إلى فرعين : الشرقيون (أي الفرس) الذين كان مركزهم القيادي قلعة ألموت (حصن في الجبال من الجنوب الغربي من بحر قزوين) والغربيون ، أي سكان مصر واليمن . وان بحثنا المختصر في هذا الكتاب لا يسمح بتحليل حتى ولو بشكل موجز للمجموعة المعقدة من علم الكون ، والاناسة والآخروية الاسماعيلية[١٦] . ونوضح انه ، حسب المؤلفين الاسماعيليين ، فإن جسد الامام ليس جسداً من لحم ، كما هو جسد زار ادشت (ف ١٠١ع) ، انه نتيجة ندى من أصل سماوي ممتص بواسطة آبائه . ان الغنوص الاسماعيلي يفهم بالهية الإمام (ولادته الروحية) التي حولته لدعم (معبد النور) معبد روحي صرف . (امامته) هي ذلك المجموع الصوفي المشكل من كل اشكال النور من مريديه .

واكثر جرأة ، هي نظرية الاسماعيلية المعدلة في (ألموت)[١٧] . ففي ١٧ رمضان ٥٥٩ (٨ نيسان سنة ١١٦٢) أعلن الإمام أمام المؤمنين القيامة الكبرىٰ . «ان ما انطوى عليه الإعلان ، لم يكن شيئاً بأقل من مقدمة لاسلام نقي روحي ، محرر من كل ذهنية شرعية ، ومن كل عبودية للشريعة ، دين شخصي ، لأنه كشف وعاش المعنىٰ الروحي لكشوفات نبوية» . ان محاصرة وتخريب قلعة ألموت من قبل المونغول في (١٢٥١/٦٥٤) لم يضع نهاية للحركة ، فالاسلام الروحي استمر مغلفاً في الجمعيات الأخوية الصوفية .

وحسب الاسماعيلية المعدلة ، فإن شخص الامام له حق التقدم على شخص النبي . «إن ما فكرت فيه الشيعة الاثني عشرية ، كما لو أنه مصطلح لمنظور اخروي ، أكملته اسماعيلية ألموت في الحاضر ، بتقدم الأخروية التي هي بعث للروح ضد كل انواع العبوديات (كوربان ص ١٤) . فالإمام بصفته الانسان الكامل أو «وجه الله» فإن معرفة الامام «هي معرفة الله الوحيدة الممكنة للانسان» وحسب قول كوربان في

المقتطفات التالية ان الامام الخالد هو الذي يتكلم : «الانبياء يعبرون ويتغيرون . ونحن ، نحن الرجال الخالدون» رجال الله ليسوا الله ذاته ، مع ذلك انهم غير مفارقين لله» [ص ١٤٤] وبالنتيجة فإن «الامام الخالد كمظهر إلهي يجعل ممكنا علم الكائن (الانطولوجيا) فقط : اذ نظراً لأنه الموحي فهو عين الوجود ، انه الشخص المطلق ، والوجه الالهي الباقي والصفة الالهية العظمى ، التي هي الاسم الأعظم لله . وهو بصورته الأرضية تجلي ، أو مظهر الكلام الأعظم (مظهر كله أعلى) ،

باب الحقيقة لكل زمان ، مظهر الانسان الباقي الذي يظهر وجه الله» [ذات المرجع ١٤٤ـ١٤٥] كذلك مما له دلالته الاعتقاد بأن لدى الانسان ، تفترض معرفة النفس معرفة الامام «ومعلوم انه يتعلق بمعرفة روحية للقاء في عوالم خيالية مع الامام المستور الغير مرأي ، الغير ممكن ادراكه بالحواس» . ان نصاً اسماعيلياً يؤكد : «من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» . وبحق رأى كوربان في السطور التالية الرسالة العليا للفلسفة الاسماعيلية : «لقد قال الامام : انني مع محبي حيثما بحثوا عني ، على الجبل ، في السهل ، في الصحراء . إن من كشفت له جوهري أي المعرفة الصوفية لذاتي ، فليس بحاجة لقربى طبيعية مني وتلك هي القيامة الكبرى» .

إن الإمام الخفي لعب دوراً حاسماً في التجربة الصوفية للاسماعيلية والفروع الشيعية الأخرى . ويضاف إلى ذلك ان مفاهيم مشابهة تتعلق بالقداسة ، لا بل (الألوهية) للمُعلمين الروحيين ، تصادف كذلك في تقاليد دينية أخرى (الهند ، المسيحية في القرون الوسطى ، الها سيد يسم) .

وتحسن الاشارة إلى ان الصورة الخرافية للأمام المستور قد اتصلت مراراً باسطورة أخروية للمهدي ، لغة القائد أو الدليل (أي الذي اهدي من قبل الله) . وهذا التعبير لا يوجد في القرآن ، وقد طبقه العديد من المؤلفين السنة على شخصيات تاريخية[١٨] . ومع ذلك ، فإن تقديره الأخروي هو الذي أثار الخيال . فبالنسبة لبعضهم ، ان المهدي كان يسوع (عيسى) ولكن اكثرية رجال الدين جعلوه منحدراً من اسرة النبي . وبالنسبة للسنيين ، فإن المهدي ، مع انه يطلق التجديد العالمي ، فهو ليس القائد الذي لا يقهر كما أعلنه الشيعة ، وهؤلاء الأخيرون وحدوا المهدي مع الامام[١٢] .

إن اختفاء ومعاودة ظهور المهدي في نهاية الزمان لعب دوراً بارزا في التدين الشعبي وفي الأزمات الألفية . فعند بعض المذاهب (الكيسانية) سيكون محمد ابن الحنفية ، ابن علي من زوجه غير فاطمة . مع انه دائماً في الحياة . يرقد في قبره على قمة رضوى حيث ينتظر المؤمنون عودته . وكما في التقاليد ، فإن قرب نهاية الزمان يتميز بانحطاط جذري للبشر وبعلامات مميزة : فالكعبة ستزول ، واجزاء القرآن ستصبح صفحات بيضاء ومن سيلفظ اسم الله يقتل الخ . . . وإن ظهور المهدي سيدشن ، بالنسبة للمسلمين ، عصراً من العدالة والرخاء لا مثيل له حتى ذلك الحين على الأرض . وسيدوم حكم المهدي خمس أو سبع أو تسع سنوات ، وبوضوح فإن انتظار ظهوره يبلغ حدته اثناء عصور من الكوارث . وقد جرب العديد من الرؤساء السياسيين الحصول على السلطة (وحصلوا عليها في كثير من المرات) باعلانهم انفسهم أنهم المهدي[١٩] .

٢٧٥ ـ صوفية ، وباطنية وتجارب صوفية .

إن الصوفية تمثل البعد الصوفي للاسلام الأكثر بروزاً وهي واحدة من اكثر التقالد أهمية للباطنية الاسلامية . إن الاشتقاق اللغوي للإسم العربي (صوفي) يبدو مشتقاً من الصوف ، اشارة لرداء الصوف الذي يرتديه المتصوفون . وقد انتشر هذا المصطلح بدءاً من القرن (٩/٣) . وحسب التقليد ، فإن الأسلاف الروحانيين للصوفية كانوا من صحابة محمد ، وعلى سبيل المثال سلمان الفارسي ، الحلاق الفارسي الذي سكن منزل الرسول وأصبح نموذج التبني الروحي والمسارة الصوفية . و(وايس الكاراني) الذي اثنى محمد على ورعه[٢٠] .

ولا يعرف سوى القليل عن الاتجاهات التنسكية[٢١] . ولكنها تتحقق على الأرجح تحت حكم أسرة الأمويين . ففي الواقع ان عدداً كبيراً من المؤمنين خاب أملهم بعدم المبالاة الدينية من الخلفاء الذين شغلهم التوسع المستمر لامبراطوريتهم فقط[٢٢] .

وأول صوفي متنسك هو الحسن البصري (م. ١١٠/٧٢٨) المشهور بتقواه ويحزنه العميق ، لأنه كان يعتقد دائماً بيوم الدينونة . وهنالك حالم آخر ، ابراهيم بن أدهم المشهور بتعريفه لمظاهر الزهد الثلاثة : ١) التنازل عن الدنيا . ٢) عن سعادة معرفة ترك الدنيا ، ٣) التحقيق بالتمام لترك أهمية العالم الذي لن ينظر اليه[٢٣] .

ورابعة (م ١٨٥/٨٠١) وهي أمة أعتقت من قبل سيدها ، وأدخلت في الصوفية الحب المطلق لله وبدون مقابل . فالحبيب لا يجوز ان يفكر لا في الجنة ولا في النار ، ورابعة هي الأولى بين الصوفيات التي تكلمت عن غيرة الله . «يا أملي ، يا راحتي يا سعادتي ، ان القلب لا يستطيع حب واحد آخر غيرك»[٢٤] . وقد أصبحت الصلاة بالنسبة لرابعة محادثة حب طويلة مع الله[٢٥] . مع ذلك وكما اشار إليه الباحثون المحدثون[٢٦] . فإن جعفر الصادق رابع امام (١٤٥/٧٦٥) وواحد من كبار معلمي الصوفية القديمة ، كان قد عرّف التجربة الصوفية بعبارات حب الهي «نار إلهية تفترس الانسان تماماً» الأمر الذي يبرهن على التضامن بين الشيعة وأول مظهر للصوفية .

وفي الواقع ، ان البعد الباطني الاسلامي ، للمميز للشيعة ، كان بدئياً متماهيا في السنة مع الصوفية . وحسب رأي ابن خلدون «ان الصوفيين اعتمدوا النظريات الشيعية» . كذلك فإن الشيعة اعتبروا نظرياتهم كمصدر الهام للصوفية[٢٧] .

وعلى كل حال فإن التجارب الصوفية والغنوصيات التيوصوفية تسربت بصعوبة في الاسلام الأصولي ، فالمسلم لم يجرؤ على ادراك علاقة صميمية ، واقعة حب روحي مع الله . فقد كان يكفيه التسليم لله ، واطاعة الشريعة ، واتمام تعليمات القرآن بواسطة السنة . وإن العلماء الأقوياء بثقافتهم الدينية ومهارتهم بالاجتهاد ، كانوا يعتبرون وكأنهم الرؤساء الدينيون الوحيدون للجماعة . وعليه فإن الصوفيين كانوا بعناد كبير ضد العقلانيين ، وبالنسبة لهم ، ان المعرفة الحقيقية الدينية قد تم الحصول عليها بتجربة شخصية ، موصلة لاتحاد موقت مع الله . إن نتائج التجربة الصوفية في نظر العلماء ، والتفسيرات المقدمة من الصوفية ، كانت تهدد حتى اسس الفقه الأصولي .

ومن جهة اخرى ، فإن طريق الصوفية يقتضي بالضرورة (تلامذة) ، مع لزوم تكريسهم وطول تدريبهم من قبل معلم . وان هذه العلاقة الاستثنائية بين المعلم

وتلامذته وصلت سريعاً لتمجيد الشيخ وعبادة القديسين . وكما يكتب الهجويري «إعلم ان مبدأ وأساس الصوفية ، ومعرفة الله ، تعتمد على القداسة»[٢٨] .

ان هذا التجديد أقلق العلماء ، ولم يكن هذا فقط لأنهم رأوا سلطتهم مهددة أو متجاهلة . وبالنسبة للفقهاء الأصوليين ، فإن الصوفيين كانوا متهمين بالهرطقة . وعليه، وكما سنرى يمكن الكشف في الصوفيةالتأثيرات المعتبرةكأنها نجسةومدنسة ـ من الافلاطونية المحدثة ، والغنوصية والمانوية . وباتهامهم بالهرطقة ، فإن بعض الصوفيين ـ مثل المصري (ذي النون) (م ٢٤٥/٨٥٩) والنوري م ٢٩٥/٩٠٧ ـ قد أتهموا أمام الخليفة . وان المعلمين الكبار ، الحلاج والسهر وردي انتهيا باضطهادها ويقتلها (ف ٢٧٧ و٢٨٠ع)، الأمر الذي اكره الصوفيين لإيصال تجاربهم ومفاهيمهم لتلامذة موثوقين فقط وضمن نطاق ضيق من المريدين .

ومع ان الحركة استمرت بالتصاعد ، لأنها استجابت لارضاء «الغرائز الدينية للشعب ، غرائز هي في قسم منها مجمدة بالتعليمات المجردة وغير الشخصية للأصوليين ، والذين وجدوا عزاء لهم في التقريب الديني الاكثر شخصانية والهيجاني للصوفيين»[٢٩] . وفي الواقع . وخارج التعليم التلقيني المساري المحتفظ به للتلامذة ، فإن معلمي الصوفية شجعوا (الانغام الروحانية) العامة . فالاناشيد الدينية ، والموسيقى الآلاتية (ناي القصب صنوج ، طبول) والرقص المقدس ، والترديد المستمر لاسم الله (ذكر) كانت تؤثر في الشعب اكثر من النخبة الروحية . وسنؤكد فيها بعد على رمزية ووظيفة الموسيقى والرقص المقدس (ف ٢٨٢ع) . وإن الذكر يشابه صلاة المسيحيين الشرقيين التي تحددت بترداد مستمر لاسم الله أو يسوع[٣٠] .

وكما سنرى (ف ٢٨٣ع) فإن تقنية الذكر (كما هو في تطبيقات الهيزيشاست hesychaste تقدم منذ بداية القرن الثاني عشر عملية مورفولوجية معقدة جداً ومدخلة (فيزيولوجيا صوفية) وطريقة من نموذج يوجي (أوضاع جسدية مميزة ، وممارسة للشهيق . ومظاهر صبغية ، لونية وسمعية . الخ . . الأمر الذي يجعل من المسلم به وجود التأثيرات الهندية .

وخلال مجرى الزمن ، ومع بعض الاستثناءات ، فإن الضغط الممارس من قبل العلماء قد زال نهائياً . وحتى الاكثر عداوة بين المضطهدين انتهوا إلى الاعتراف بالمساهمة الاستثنائية للصوفيين في الانتشار وفي التجديد الروحي للاسلام .

٢٧٦ - بعض اعلام الصوفية ، من ذي النون حتى الترمذي

إن ذا النون المصري /م ٢٤٥ - ٨٥٩/ سبق ان أخفى تجاربه الصوفية «يا الهي ! علنا أدعوك «سيدي» . ولكن عندما أكون لوحدي ادعوك «يا حبي» ! وحسب التقليد فإن ذا النون كان أول من صاغ التعارض بين المعرفة الحدسية (التجربة) intuitive لله والعلم الاستدلالي (غير حدسي) discursive . «مع كل ساعة تمضي يصبح العارف (الغنوصي) أكثر تواضعاً ، لأن كل ساعة تقربه ايضاً اكثر ، من الله [. . . .] ان العارفين ليسوا ذاتهم ، وإنما في المقياس الذي يوجدون في الله . إن حركاتهم مثارة من قبل الله . وكلامهم هو الكلمات التي نطقها الله بلسانهم»(٣١) .

وتقتضي الاشارة هنا إلى عبقرية ذي النون . حيث ان تراتيله الممجدة لعظمة الرب افتتحت التقييم الصوفي للشعر .

والفارسي ابو يزيد البسطامي (م ٤٦/ ٨٧٤) هو واحد من الصوفية الذين كثر معارضوهم ومنتقدوهم في الاسلام . وهو لم يكتب كتابا ولكن تلامذته نقلوا ما هو اساسي في تعاليمه تحت شكل قصص صغيرة وحكم . وبتنسكه القاسي بخاصة ، وتأمله المركز على جوهر الله ، حصل البسطامي على (الفناء) ، انعدام الذات الذي كان أول من صاغه ، تماماً كما كان أول من وصف تجاربه الصوفية في عبارات من المعراج «الصعود الليلي لمحمد (ف ٢٦١ع) . ولقد حقق «التوحد» أقله موقتا ، كما أعتقد ،

الوحدة المطلقة بين المحبوب والمحب والحب . وفي انتشاء تلفظ البسطامي بـ «تعابير طوباوية locutions théopathiques» ومتكلما كما لو أنه إله . «كيف وصلت إلى هنا ؟- انني متجرد من ذاتي ، كحية تسلخ جلدها . ثم تأملت

جوهري . وكنت انا ، هو !» أو ايضاً : «ان الله راقب كل الضمائر في العالم . ورأى أنها فارغة منه ، ما عدا ضميري حيث يرى نفسه في طوبى»[٣٢] .

لقد فسر المستشرق زهبر Zehner ، بعد مستشرقين آخرين ، تجربة البسطامي الصوفية كمحصلة لتأثير هندي ، وبصورة دقيقة تأثير الفيد انتاشاتكريان[٣٣] . ومع رؤية الأهمية المعطاة للتنسك ولتقنيات التأمل ، يرد التفكير في اليوغا . ومهما يكن من أمر ، فإن بعض معلمي الصوفية شككوا في أن البسطاني حقق الاتحاد مع الله . وحب الجنيد «لقد بقي في البدء ، إنه لم يدرك حالة التمام او المطلق والنهاية» . والحلاج اعتقد بوصوله إليها «الوصول لعتبة الصيغة الالهية» وظن انه «من الله اتته هذه الكلمات» ؛ ولكن الطريق كان مرصوفاً بالعقبات من (أناه) son moi . «مسكين ابو يزيد» لقد قال ، إنه لا يعلم التعرف أين وكيف يجب توحيد الروح مع الله[٣٤] .

وابو القاسم الجنيد (من ٢٩ / ٩١٠) كان المعلم الحقيقي لصوفية بغداد . وقد ترك العديد من الرسائل في اللاهوت والتصوف ، والثمينة بخاصة من أجل تحليل التجارب الروحية المتوجبة لامتصاص الروح في الله . ويشير الجنيد في تعليمه لأهمية القناعة التي يضعها في مقابل السكر الروحي المطبق من قبل البسطامي . ويعد التجربة الوجدية التي تعدم الفرد ، يقتضي الحصول على (الزهد الثاني) عندما يرجع الانسان واعيا لذاته وتعاد اليه صفاته . متحولاً الى روح في حضرة الاله . والهدف الغائي للتصرف ليس هو «الفناء» وانما حياة جديدة في الله (البقاء) «هو الذي يبقى» .

وان الجنيد وهو مقتنع بأن التجربة الصوفية لا يمكن صياغتها في لغة عقلية ، حظر على تلامذته الكلام أمام غير المسارين (وهذا من أجل حصول الموافقة على هذه القاعدة التي رفعها الحلاج) . إن رسائله ومحرراته دونت في نوع من (اللغة السرية) غير مفهومة للقاريء الغير متآلف مع تعليمه[٣٥] .

وهنالك معلم ايراني آخر ، حسين الترمزي (م ٢٨٥/ ٨٩٨) لقب بالحكيم (الفيلسوف) لأنه ، الأول بين الصوفيين ، استعمل الفلسفة الهيللنسية . انه مؤلف غزير الانتاج (نحواً من تسعين كتيب) . وقد عرف الترمزي بصورة خاصة في «خاتم الولاية»[٣٦] . وقد طوَّر فيه لغة الصوفية كما استعملت منذئذ . ان زعيم التراتبية

الصوفية هو «القطب» أو «الغوث». ولاتشكل درجات القداسة التي وصفها (تراتبية للحب)، انها ترجع للعرفان واشراقات القديس . ومع الترمذي ، يصبح التأكيد على العرفان اكثر وضوحاً مهيئاً هكذا الطريق إلى تعليمات دينية صوفية متأخرة[٣٧] .

لقد أكد الترمزي بملاءمة على معنى الولاية «الحب الالهي» مسارة روحية . وميَّز فيها بين درجتين : ولاية عامة معطاة لكل المؤمنين ، وولاية خاصة ، محفوظة لنخبة روحية «خلَّص لله ، يتعاملون ويتواصلون ، معه ، لأنهم معه في حالة اتحاد فعَّال ومتصاعد» . وعليه يلاحظ هنري كوربان «أن المعنى للولاية المزدوجة هو في المحل الأول قد وضع وأقيم بواسطة النظرية الشيعية»[٣٨] . وبتحليل علاقات الولاية والنبوة يستخلص الترمزي سيادة الأولى ، لأنها دائمة وليست مرتبطة بلحظة تاريخية كالنبوة . وفي الواقع ، فإن دورة النبوة تكتمل مع محمد ، بينما دورة الولاية تتمدد لآخر الزمان[٣٩] .

٢٧٧ - الحلاج ، الصوفي والشهيد

ولد الحلاج في ٢٤٤/٨٥٧ في الجنوب الغربي من ايران (حسين بن منصور) وتلقى تعليمه من معلمين روحيين قبل ان يلتقي في بغداد ، مع الشيخ الشهير الجنيد ويصبح تلميذه (في ٢٧٤/٨٧٧) . وحج الحلاج إلى مكة حيث مارس الصوم والصمت وعرف انتشاءاته الصوفية الأولى . «مزجت روحى بروحه مثل مزج المسك بالعنبر والخمر مع الماء الزلال»[٤٠] . وبعودته من الحج ، أبعد من قبل الجنيد ، وقطع العلاقات مع غالبية الصوفيين في بغداد ، وترك المدينة خلال سنة . وعندما بدأ أول تبشيره السياسي فيما بعد ، لم يثر التقليديين فحسب ، وانما الصوفيين ايضاً الذين اتهموه بكشف (الاسرار) ، لغير المتلقين . وقد اتهم كذلك «بصنع معجزات» (كالانبياء) لمعارضة شيوخ آخرين لم يظهروا قدرتهم إلا للمتلقين . وعندئذ طرح الحلاج ثياب التصوف ، لكي يختلط بحرية مع الشعب[٤١] .

وقد اكمل الحلاج حجه الثاني مصحوبا بـ ٤٠٠ من تلامذته في ٢٩١/٩٠٠ . وذهب بعدئذ في سفرة طويلة إلى الهند والتركستان وحتى حدود الصين . وبعد الحج

الثالث لمكة ، حيث بقي سنتين ، استقر الحلاج نهائياً في بغداد (٩٠٥/٢٩٤) ونذر نفسه للتبشير العلني [ماسينيون - عشق الحلاج] لقد أعلن ان الهدف الكامل لكل كائن بشري هو الاتحاد الصوفي مع الله ، المنجز بالحب (عشق) وفي هذا الاتحاد تقديس وتؤله أفعال المؤمنين . وفي حالة وجد تلفظ بالكلمات الشهيرة - «أنا الحقيقة = (الله) - والتي سببت له الادانة . وهذه المرة ، أثار الحلاج فقهاء الشريعة ووحدهم ضده (الذين اتهموه بالالحاد) واثار السياسيين (الذين اتهموه باثارة الاضطراب في المجتمع) ، واثار الصوفيين ايضاً . وما يدعو إلىٰ الدهشة ، هو رغبة الحلاج بأن يموت ملعوناً anath ème . «مريداً تحريض المؤمنين لانهاء هذه الفضيحة لانسان يتجاسر بالقول انه توحد مع الألوهية ، لتقتله ، وهتف فيهم ، في الجامع المنصور «إن الله أحل لكم دمي : فاقتلوني . . . لا يوجد واجب في الكون بالنسبة للمسلمين اكثر من إماتي[٤٢]» .

إن هذا التصرف الغريب من الحلاج يذكربالملاماتية*. وهمجماعة من الحالمين الذين من أجل عشقهم لله ، بحثوا عن الملامة من رفاقهم . انهم لم يرتدوا التصوف ، وتعلموا اخفاء تجاربهم الصوفية ، وما هو اكثر من ذلك ، حرضوا المؤمنين ، بسلوكهم المنحرف والكافر بشكل واضح[٤٣] . وهذه الظاهرة كانت من جهة اخرى معروفة عند بعض الرهبان المسيحيين في الشرق بدءاً من القرن السادس ولها ميثيلاتها في الهند الشمالية .

وقد اوقف الحلاج في ٩١٥/٣٠١ وأودع في السجن لمدة تسعة أعوام[٤٤] ثم اعدم في ٩٢٢/٣٠٩ وقد روى بعض الشهود أنهم سمعوا هذه الكلمات الأخيرة من هذا المعذب «إن هذا يكفي للوجد ، عندما وحدانيته فيه هي الوحيدة لتشهد لنفسها» (كلمة فكلمة : «أن ما يحسب ، بالنسبة للانتشائي هو أن الواحد يرجعه للوحدة»)[٤٥] .

إن عمله المكتوب حفظ في قسم منه فقط ؛ مقاطع من تفسير القرآن ، وبعض الرسائل ، وعدد من الحكم والقصائد . وكتاب صغير (كتاب الطواسين) يعالج فيه الحلاج الوحدة الألهية وعلم النبوة[٤٦] . والقصائد مشبعة بحنين حاد للاتحاد الكامل

*- الملامتية : هم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بطونهم أثر البتة . . الخ .

بالله . وتصادف أحيانا عبارات مستعارة من العمل الكيميائي أو رجوع للمعنى السري للأحرف الهجائية العربية .

ومن كل هذه النصوص ومن بعض الشهادات ، التي احصاها ونشرها وحللها بطريقة وافية لويس ماسينيون ، يستخلص سلامة ايمان الحلاج وتمجيده للرسول . فطريقة الحلاج لا ترمي لتحطيم الشخصية البشرية ، الا انه بحث عن المعاناة بهدف معرفة «الحب المشبوب العاطفة» (العشق) واذن جوهر الله وسر الخليقة . ان العبارة «أنا الحقيقة» لاتقتضي الالحاد ، مطلقاً ، (كما اتهمه بعضهم بذلك) ، لأن الحلاج أشار دوما لتصاعد الله . وانه في تجارب وجدية نادرة فقط ، تستطيع روح المخلوق ان تكون موحدة مع الله[٤٧] .

إن مفهوم (الاتحاد المتحول) المعلن من قبل الحلاج جرى تلخيصه بدقة من قبل لاهوتي خصم رغم تقديمه له بنية سيئة . فبحسب قول هذا اللاهوتي ، إن «الحلاج قال : إن الذي يروض جسده باطاعة الشعائر . يشغل قلبه بأعمال فارغة ، ويعاني من الحرمان من اللذات ويمتلك روحه بالامتناع عن الرغبات ـ سيرتفع بنفسه هكذا حتى محطة «أولئك المقربين» من الله) . وتبعاً لهذا ، لا يتوقف عن هبوط درجات المسافات ، حتى تصبح طبيعته مطهرة من كل ما هو جسدي . ومن ثم [. . .] تنزل به هذه الروح من الله ، التي منها ولد يسوع ، ابن مريم . وعندئذ يصبح «ذلك الذي يطيعه كل شيء (مطاع)» ، انه لا يريد شيئاً سوى ما يضعه أمر الله موضع التنفيذ ، فكل تصرف منه منذئذ هو تصرف الله ، وكل أمر منه هو أمر الله»[٤٨] .

وبعد استشهاد الحلاج ،لم تكف قداسته عن التنامي في كل مكان من العالم الاسلامي[٤٩] . كذلك فإنه كان من المهم جداً تأثيره بعد الوفاة ، على الصوفيين وعلى بعض العلوم الدينية الصوفية .

٢٧٨ ـ الغزالي والتوفيق بين علم الكلام والصوفية

إن مقتل الحلاج ، كان له بين نتائج اخرى ، نتيجة الزمت الصوفيين على البرهان ، في مظاهرهم العامة انهم لا يناقضون ابداً التعاليم الأصولية ، وقد موّه

بعضهم تجاربه الصوفية وأفكاره اللاهوتية في سلوك شاذ . وتلك كانت حالة الشبلي (٢٤٧/٨٦١ ـ ٣٣٤/٩٤٥) مثلاً . الصديق الذي سأل الحلاج المعلق على المشنقة حول معنى الوحدة الصوفية . والذي عاش بعده ٢٣ سنة ، وليبدو مضحكاً قارن الشبلي نفسه بعلجوم .

وبتناقضاته وبوحه بعواطفه الشاعرية ، وفر لنفسه «إمتياز حصانة» (ماسينيون) . وقد قال : «من يحب الله من أجل افعاله من النعمة فهو مشرك» . وطلب الشبلي مرة من تلامذته ، ان يتركوه ، لأنهم اينما وجدوا ، سيكون معهم وسيحميهم(٥٠) .

وهنالك صوفي آخر ، العراقي (النفري) (م ٣٥٤/٨٦٥) الذي استعمل كذلك التناقض وانما متجنباً حذلقة الشبلي . وعلى الارجح ، كان أول من أعلن ان الصلاة هي عطاء إلهي . «إنني أنا الذي أعطي ، اذا لم أجب على صلاتك ، فلن أحضك للبحث عنها»(٥١) .

وفي القرن التالي بعد مقتل الحلاج ، أظهر عدد من المؤلفين المذهب والممارسات الصوفية . ولنأخذ النظرية ، التي أصبحت تقليدية ، للمقامات والأحوال والطريقة . ويميز هنالك ثلاث مراحل اساسية : مرحلة المريد (المبتديء) ومرحلة المتقدم (الصالح) ومرحلة (الكامل) . فبناء على نصيحة شيخه يجب على المبتديء تطبيق تمارين تقشفية عديدة ، مبتدئاً مع التوبة ، ومنتهيا بالقبول الصادق لكل ما يحصل له . ويشكل التنسك والتعليم معركة داخلية مراقبة بعناية من قبل المعلم . وفي حين ان المقامات (محطات) هي النتيجة لجهد شخصي فإن (الأحوال) هي منحة مجانية من الله(٥٢) .

ويقتضي التذكير بأنه في القرن ٣/٩ ، كان الصوفي المسلم يعرف ثلاث نظريات عن الاتحاد الالهي . «الاتحاد مفهوم : أ(كاتصال أو وصال يستبعد فكرة وحدة الروح والله ؛ أو ب) كاتحاد الذي يكشف بذاته معنيين مختلفين : احدهما ، مرادف للسابق ، والثاني مثير لاتحاد في الطبيعة ؛ أو ح) كحلول : روح الله تسكن بدون اختلاط الطبيعة الروح المطهرة للصوفي . ولم يقبل فقهاء الاسلام الرسمي سوى الاتحاد بمعنى الاتصال (أو مماثلة المعنى الأول للاتحاد) ، ولكنهم رفضوا بحماس ، كل فكرة للحلول»(٥٣) .

وبحق فإن اللاهوتي الشهير الغزالي، هوالذي بفضل احترامه، نجح في ان يجعل الصوفية مقبولة من الأصوليين (الارثوذكس) . لقد ولد في فارس الشرقية (١٠٥٩/٤٥١) ودرس (ابو حامد الغزالي) علم الكلام وأصبح مدرساً في بغداد . واتقن فيما بعد طرائق الفارابي وابن سينا المستوحاة من الفلسفة اليونانية . وذلك كي يستطيع نقدها ولطرحها في رفضه للفلسفات[٥٤] . وعلى اثر ازمة دينية . ترك الغزالي التعليم في ١٠٧٥ وسافر إلى سورية ، وزار القدس وجزءاً من مصر . ودرس اليهودية والمسيحية ، وقد تعرف الباحثون في فكره الديني على بعض التأثيرات المسيحية . وخلال سنتين من وجوده في سورية ، اتبع طريق الصوفية ، وبعد غياب عشر سنوات رجع الغزالي إلى بغداد واستعاد ، التعليم ، لوقت قصير . الا أنه انتهى بالانسحاب مع تلامذته إلى مسقط رأسه حيث أسس مدرسة وديراً للصوفيين . وقد جعلته مؤلفاته الكثيرة مشهوراً منذ زمن طويل ، ولكنه استمر في الكتابة . وكان موضع احترام مجمع عليه ومات في ١١١١/٥٠٥ .

من غير المعروف من هوالذي كان الدليل الروحي للغزالي، وماهو النموذج للتلقين الذي تلقاه . ولكن مما لا شك فيه انهَ علىٰ أثر تجربة صوفية اكتشف عدم كفاية اللاهوت الرسمي (علم الكلام) . وكما كتب بدعابة : «اولئك الذين هم علماء باحثون في بعض اشكال نادرة من الطلاق ، لا يستطيعون ان يقولوا لك شيئاً في موضوع الاشياء الأكثر بساطة للحياة الروحية مثل معنى الاخلاص تجاه الله أو الثقة به»[٥٥] . وبعد اعتناقه للصوفية وتكريسه متصوفاً ، عرف الغزالي ان تعليم الصوفيين لا يجب ان يبقى سراً ، محصوراً بنخبة روحية ، ولكن ان يصبح مقبولاً من كل المؤمنين .

إن رسمية ونشاط تجربته الصوفية[٥٦] أقرتا في كتابه الأكثر أهمية (احياء علوم الدين) . انه يتعلق بمجموع من اربعين فصلاً ، درس فيها الغزالي تباعاً المسائل الشعائرية ، والعادات ورسالة النبي «الأشياء التي تقود للهلاك» والاشياء التي تقود للخلاص . وفي هذا القسم الأخير نوقشت بعض مظاهر الحياة الصوفية . ومع ذلك ، جهد الغزالي للحفاظ دائما على الوسط الصحيح مكملاً الشريعة والسنة بتعليم الصوفية ، ولكن بدون ان يعطى الأفضلية للتجربة الصوفية . وبفضل هذه الوضعية تبنى علماء اللاهوت الأصوليون احياء علوم الدين فحصل على سلطة لا مثيل لها .

إن الغزالي كمؤلف موسوعي غزير المادة ، كان ايضاً مجادلاً كبيراً . وقد هاجم الاسماعيلية بدون انقطاع كما هاجم الاتجاهات الغنوصية ، ومع ذلك فإنه في البعض من كتاباته ، يستوحى تعاليمه الصوفية حول النور بنية غنوصية .

وحسب رأي عدد من العلماء ، فإن الغزالي قد خاب في قد لده (اعادة احياء) الفكر الديني للاسلام . «مهما كان متألقاً ، فإن تقدمته لم تفلح ابداً بمنع تصلب المفاصل الذي سيجمد إلى قرنين أو ثلاثة تالية الفكر الديني الاسلامي»[٥٧] .

٢٧٩ - الميتافيزيقيون الأوائل ، ابن سينا ، والفلسفة في اسبانيا المسلمة .

إن ترجمات المؤلفات الاغريقية للفلسفة وللعلوم ، هي التي اثارت ودعمت التفكير الفلسفي في الاسلام . فحول أواسط القرن ٩/٣ بدأت الكتابات المتعلقة مباشرةبافلاطون وأريسطو(المعروفةمن جهةأخرى عبر تفسيرات افلاطونيةمحدثة(بدأت تطرح نفسها ، إلى جانب الخصومات اللاهوتية . إن الفيلسوف الأول الذي استمرت مؤلفاته بالحياة جزئياً هو أبو يوسف الكندي[٥٨] (١٨٥/٧٩٦- ٢٦٠/٨٧٣) تقريبا . وهو قد درس لا الفلسفة الاغريقية فحسب ، وانما العلوم الطبيعية والرياضيات . وقد اهتم الكندي باثبات الامكانية والصحة لمعرفة بشرية صرفة . وبالتأكيد ، قبل معرفة نظام ما فوق الطبيعة . الموحى به من قبل الله لأنبيائه : ولكن الفكر البشري ، أقله من حيث المبدأ ، قادر على اكتشاف الحقائق المظهرة بوسائله الخاصة .

إن التفكير حول هذين النموذجين من المعرفة - بشرية (بخاصة تلك المطبقة من قبل القدماء) وموحى بها (بالقرآن ، بامتياز) - قد طرح على الكندي سلسلة من المسائل التي ستصبح اساسية في الفلسفة الاسلامية . ولنأخذ من بين أهمها : امكانية تفسير ميتافيزيقي (أي عقلي) للقرآن والسنة ؛ وتماهي الاله مع الكائن في ذاته والسبب الأول : والخلق المفهوم وكأنه نوع من سبب مفارق لاسباب طبيعية ، كذلك الأمر الصدور للأفلاطونيين المحدثين ، واخيراً خلود الروح الفردية .

وقد نوقش بعض هذه المسائل ووضع له حل بطريقة جريئة من قبل فيلسوف متعمق ، مزدوج بصوفي ، الفارابي (٢٥٠/٨٧٢ـ ٣٧٩/٩٥٠) . فقد كان هو أول من جرّب تقريب التأمل الفلسفي والاسلام . وهو قد كان درس ايضا العلوم الطبيعية (كما قدمها اريسطو) ، والمنطق والتيولوجيا السياسية . وألف مشروع (المدينة الفاضلة) المستوحاة من افلاطون ووصف «الأمير» (النموذجي) جامعاً كل الفضائل البشرية والفلسفية ، «كإفلاطونٍ مرتدياً عباءة الرسول محمد»(٥٩) . ويمكن القول انه بواسطة اللاهوت السياسي ، اظهر الفارابي لخلفائه كيف يجب ان تعالج العلاقات بين الفلسفة والدين . إن ما ورائيته sa métaphysique مؤسسة على الفرق بين الجوهر والوجود للكائنات المخلوقة ، فالوجود هو محمول predicat* ، وهو عرض للجوهر . وبحق يذكر كوربان ان هذه الاطروحة كانت نقطة تحول في تاريخ الفلسفة الماورائية ، كذلك فإن هنالك نظرية أصولية اخرى تميزت بها فلسفة الفارابي وهي نظرية العقل وفيض العقول المتوجبة وقوله «عن الواحد لا يصدر الا الواحد» . ولكن الفارابي اهتم بشغف بالصوفية ، وهو يستعمل في كتاباته كلمة الصوفية .

وكما يعترف ابن سينا ذاته ، فإنه بفضل كتاب الفارابي نجح في فهم ميتافيزيك اريسطو . وقد أصبح ابن سينا المولود في بخارى ٣٧٠/٩٨٠ مشهوراً في الغرب تحت اسم أفيسين Avicenne عندما ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر . وان نضجه وثقافته الشاملة لا مثيل لهما . إن قانونه الكبير قد ساد خلال قرون ميدان الطب في أوروبا ومازال له مكانه في الشرق . انه عامل لا يكـل (تشير سيرته الذاتية إلى ان مؤلفاته بلغت ٢٩٢ عنوانا) ، وقد ألف ابن سينا ، من بين ما ألف شروحاً حول اريسطو ، ومدونه كتاب الشفاء ، وقد عالج الميتافيزيك ، والمنطق ، والفيزياء ، ويدون التكلم عن موسوعة ضخمة من عشرين جزءاً ، التي ، فقدت ، باستثناء بعض مقاطع منها ، عندما فتح محمود الغزنوي اصفهان . لقد كان ابوه واخوه اسماعيليين، أما ابن

---

* محمول Prédicat : «محكوم بأنه موجود أو ليس بموجود لشيء آخر ويقابله موضوع» [ابن سينا] والمحمول عند المنطقيين هو المحكوم به في القضية الحملية دون الشرطية ، أما في الشرطية فيسمى تاليا ، ففي قولنا : زيد كريم ، زيد هو الموضوع ، وكريم هو المجمول . والموضوع والمحمول عند المنطقيين بمنزلة المسند والمسند إليه عند النحاه «قاموس الفلسفة . . صليبا جزء ٢ ص ٣٥٧»

سينا نفسه ، فكان ينتمي حسب ، رأي كوربان ، على الأرجح ، للشيعة الأثني عشرية . وقد مات عن ٥٧ سنة في (٦٣٧/٤٢٨) بالقرب من (حمادا) حيث كان يصاحب أميره .

لقد تبنى ابن سينا وأطال في ميتافيزيك الجوهر التي اعتمدها الفارابي . فالوجود عنده هو نتيجة الخلق أي «العقل الأول ـ الالهي ـ يتأمل مبدأه ، ويتأمل ذاته بأنه واجب الوجود بغيره ، ويتأمل ذاته بأنه ممكن محض بذاته ، تلك الذات التي تظهر ، وهما ، كأنها خارجة عن نطاق المبدأ الأول . فيفيض بذلك عن تأمله الأول العقل الثاني . ويفيض عن تأمله الثاني النفس المحركة للفلك الأقصى . . . الخ [كوربان] .

فتعددية الكائن تجري بسلسلة من الصدورات المتتالية ، من هذا العقل الأول . . فالنتيجة هي العقول العشرة وتراتبها (القروبين) وتراتب الانفس السماوية ، التي ليس لها صفات وملكات حسية ، ولكنها تملك قوة المخيلة الصرف . ان لدى العقل العاشر الطاقة لكي يولد ، بدوره عقلاً ونفساً واحدة ، وانطلاقاً منه يتفجر الغيض في كثرة الأنفس البشرية ، في حين تصدر المادة عن البعد الظلي ، تلك المادة التي تؤلف فلك ما دون القمر . هذا العقل العاشر هو العقل الفعال وهو الذي تصدر عنه النفوس البشرية[٦٢] وهو الذي يعكس باشراق منه ، الافكار وصور المعرفة على الأنفس التي قيض لها ان تكتسب القدرة على مواجهته والإلتفات اليه . وبما أن الروح جوهر غير قابل للانقسام ، وغير مادي وغير قابل للفساد فإنها تستمر في العيش بعد موت الجسم .

وقد كان ابن سينا فخوراً لاستطاعته البرهان ، بأدلة فلسفية ، على خلود الأرواح الفردية ، مع انها مخلوقة . وبالنسبة له ، ان الوظيفة الاساسية للدين كانت ضمان سعادة كل كائن بشري . ولكن الفيلسوف الحق هو صوفي كذلك ، لأنه يكرس نفسه لحب الله ، ويفتش عن الحقائق الداخلية للدين . ويذكر ابن سينا في كثير من المرات عن مؤلفه حول (الفلسفة المشرقية) الذي لم يبق منه سوى مراجع موجزة ، وكلها تتعلق تقريبا بالوجود بعد الموت . وهذه التجارب الرؤوية تشكل المادة لثلاثة قصص صوفية تتعلق بسفر وجدي نحو مشرق صوفي ، منجز تحت توجيه الملاك الاشراقي وتلك نغمة سيأخذ بها السهر وردي (ف ٢٨١ ع) .

إن قيمة هذا المؤلف تجبرنا للمرور بسرعة على فلاسفة وصوفية الأندلس . ونذكر منهم ابن ما صارا (٢٦٩/٨٨٣ ـ ٣١٩/٩٣١) ، الذي في سفره إلى الشرق ، كانت له اتصالات مع الأوساط الباطنية وعلى اثر ذلك ، انسحب مع بعض التلامذة في تنسكية بالقربة من قرطبة . وان ابن ما صار هو الذي نظم أول جمعية اخوية صوفية (وسرية) في اسبانيا المسلمة . وقد أمكن اعادة تكوين الخطوط الكبرى لمذهبه ـ الغنوصي والافلاطوني المحدث ، معاً ، وذلك بفضل المحاضر الطويلة التي عملها ابن عربي .

ودائما في قرطبة حيث ولد ابن حزم (٤٠٣/١٠١٣ـ ٤٥٤/١٠٦٣) وهو قانوني مفكر ، وشاعر ومؤلف تاريخ نقدي للأديان والأنظمة الفلسفية . وكتابه الشعري المشهور ، طوق الحمامة ، مستلهم من الأسطورة الافلاطونية المأدبة ، وقد لوحظت المشابهة بين نظريته عن الحب مع (العلم المفرح) لأول ثروبادور غليوم التاسع الاكيتاني(٦٥) . واكثر أهمية هي الرسالة حول الأديان والفلسفات . فقد وصف ابن حزم مختلف اشكال الشاكين والمؤمنين ، مؤكدا على الشعوب المالكة لكتاب موحى به ، وبخاصة حول اولئك الذين حافظوا بشكل جيد على مفهوم التوحيد الالهي والنص الأصلي للوحي .

والمفكر ابن باجة الذي عَاش في القرن ١٢/٥ هو بصورة خاصة هام بالتأثير الذي مارسه علي ابن رشد والبير الكبير . وقد شرح عدة رسائل لأرسطو ، ولكن مؤلفاته الماورائية الاساسية بقيت دون اكمال . وتشير مع ذلك الى ان «المصطلحات التي لها ايثار ابن باجة ، تلك هي ، المتفرد ، والغريب ، ليست سوى كلمات نموذجية للغنوص الصوفي في الاسلام(٦٦) . أما بالنسبة لابن طفيل القرطبي في القرن ١٢/٥ فقد طوَّع ذات الثقافة الموسوعية المطروحة في ذلك العصر ، ومع ذلك ، تعود شهرته إلى (قصة فلسفية مشهورة ، حي بن يقظان المترجمة للعبرية في القرن الثاني عشر ، ولكنها بقيت مجهولة من قبل المدرسيين (السكولاستياك) اللاتين . وكمعاصر للسهر وردي (ف ٢٨١ع) يرجع ابن الطفيل «للفلسفة الشرقية» وإلى الحكايات التلقينية لابن سيناء ويورد عمل روايته تباعاً في جزيرتين . الأولى مسكونة بجماعة تمارس ديناً خارجيا تماما ، محكوما بقانون صارم . ويقرر الحالم أبسال الهجرة لجزيرة مقابلة . فيصادف الساكن الوحيد حي بن يقظان ، وقد تلقى هذا الفيلسوف لوحده القوانين من

الحياة وخفايا النفس . ويعود حي وأبسال للجزيرة الأولى آملين ايصال الحقيقة الالهية للبشر ، ولكنهما يعرفان بسرعة ان المجتمع البشري غير قابل للشفاء فيعاودان تنسكهما . «ان الرجوع لجزيرتهما هل يعني أن الصراع بين الفلسفة والدين في الاسلام ميؤوس منه وليس له مخرج أو نهاية ؟»(٦٧) .

٢٨٠ ـ آخر واكبر مفكري الاندلس : ابن رشد وابن عربي

إن ابن رشد المعتبر كأكبر فيلسوف مسلم تمتع في الغرب بشهرة استثنائية . وفي الواقع ان عمله محترم جداً . فهو قد شرح بذكاء حاد معظم مؤلفات أريسطو . ولا موجب هنا لتقديم الخطوط الكبرى لمنهجه . ويكفي ان نذكر بأن ابن رشد عرف الشريعة بشكل جيد ، واعتبر ان كل مؤمن ملزم بتطبيق المبادىء الأساسية للدين ، كما هي موجودة في القرآن والحديث والاجماع Consensus . ولكن أولئك الموهوبون بقدرات عقلية خارقة ، كان عليهم التزام باتباع علم أعلى ، أي دراسة الفلسفة . وليس للاهوتين حق بالتدخل في هذا النشاط ولا تقييم نتائجه . ان اللاهوت (التيولوجيا) ضروري كمهنة وسيطة ، ولكنه يجب عليه دوماً ان يبقى تحت رقابة الفلسفة . ومع ذلك ، فلا الفلاسفة ، ولا اللاهوتيون يجب عليهم كشف التفسيرات للآيات الغامضة من القرآن إلى الشعب . «الأمر الذي لا يستدعي البتة (الحقيقة المزدوجة) كما فسرها بعض اللاهوتيين الغربيين» .

إن ابن رشد المتمكن من هذا المبدأ ، انتقد بعنف وبدعابة كتاب (تهافت الفلاسفة للغزالي) (ف ٢٧٨ع) . وذلك بكتابه الشهير تهافت التهافت (réfutation de la réfutation) والمترجم إلى اللاتينية تحت عنوان (Destructio destructionis) . وقد برهن فيه على ان الغزالي لم يفهم المناهج الفلسفية وان استدلالته تفضح عدم كفاءته . وقد أظهر إضافة إلى ذلك التناقضات بين هذا العمل وبين كتابات اخرى لصاحب المصنفات الشهير .

كذلك فإن ابن رشد انتقد الفارابي وابن سينا ، متهما اياهما بتركهما سنة الفلاسفة القدامى بهدف ارضاء الفقهاء . ولكنه وهو راغب باحياء كوزمولوجيا ارسططالية صرفة ، رفض ابن رشد علم الملائكية angealogie السينوي ، أي تراتب الملائكة أو الأنفس السماوية Anima caelestes (عالم الملكوت) وانطلاقاً ، عالم الصور المفارقة التي تدركها ، على نحو خاص ، المخيلة النشيطة أو الخلاقة (ف ٢٧٩ع) . إن الصور غير مخلوقة بالعقل الفعال ، كما يؤكد ابن سينا ، وهي غير مفارقة لمادتها وليس العقل الفعال هو من يحلها في المادة ، بل ان المادة في ذاتها تحتوي بالقوة على كلية هذه الصور التي لا يحصرها عد وهذه الصور حالة بها كامنة فيها ، ولكن بما ان المادة هي المبدأ للتفرد ، فإن الفردي يتماهى بالقابل للفساد ، وبالنتيجة فإن الخلود لا يمكن ان يكون سوى غير شخصي (أي لا يمكن ان يكون الا في نفس الجنس) . وهذه الاطروحة الأخيرة تثير انعكاسات لدى اللاهوتيين المسلمين كذلك اللاهوتيون الفلاسفة .

وقد رغب ابن رشد في التعرف على متصوف شاب ، ابن عربي ، وحسب شهادة هذا الأخير ، إنه خجل بتصوره لعدم كفاية منهجه الخاص . وابن عربي هو واحد من العبقريات الأكثر عمقاً بين الصوفيين وواحد بين الوجوه الأكثر تفرداً في التصوف العالمي . لقد ولد في ١١٦٥/٥٦٠ في مورسي ، ودرس كافة العلوم وسافر باستمرار من مراكش حتى العراق بحثا عن الشيوخ والرفاق . وكانت له ، في وقت مبكر ، بعض التجارب الماورائية للطبيعة وبعض الكشوفات . وكان معلموه الأولون من النساء : شمس ، التي كان لها في ذلك الوقت ٩٥ سنة من العمر ، وفاطمة القرطبية[٧٠] . وفيما بعد ، وبتواجده في مكة ، صادف حفيدة شيخ . الفتاة الجميلة جداً ، فألف القصائد التي جمعت تحت عنوان (تفسير الرغبات) المستوحاة بحب صوفي متقد ، وقد اعتبرت القصائد كما لو أنها جنسية ، بكل بساطة ، مع انها تذكر فيما بعد بعلاقات دانتي وبياتريس .

ومتأملاً ، بالقرب من الكعبة ، عرف ابن عربي عدداً من الرؤى الوجدية (من بينها رؤية ، «الفتوة الأبدية» والتي اقنع انها كانت «خاتم القداسة المحمدية» .

إن أحد كتاباته الأكثر أهمية ، هو كتاب صوفي من اثني عشر جزءاً سمي من جهة أخرى «الفتوحات المكية» . وفي ١٢٠٥ ، في الموصل كشفت له اسرار لثالث مرة . ولكنه بعد وقت قصير ، في القاهرة سنة ١٢٠٦ حصلت له مصاعب مع السلطات الدينية فعاود سفره مسرعاً لمكة . وبعد اسفار أخرى لم تضعف البتة ابداعيته العجيبة ومات ابن عربي في دمشق سنة ١٢٤٠/٦٣٨ عن خمسه وثمانين عاما .

رغم وضع ابن عربي الاستثنائي في تاريخ التصوف والماورائية الاسلامية ، (يشير اليه الصوفيون وكأنه «الشيخ الأكبر») ، ومازال فكر ابن عربي مفهوماً بشكل سيء[٧٢] . صحيح إنه كان يكتب بسرعة بالغة ، كما لو أنه مأخوذ بإلهام مما وراء الطبيعة ـ وان واحداً من أبرز مؤلفاته (فصوص الحكمة) ترجم منذ زمن قريب للانكليزية ، وهو غني بملاحظات مبهرة ، الا أنه ينقصه بالكلية المخطط والدقة . وهذا التأليف السريع هو على الغالب ما يسمح لنا بتفهم أصولية فكره وعظمة لاهوتيته الصوفية .

إن ابن عربي يعترف بأن «معرفة الأحوال الصوفية يمكن الحصول عليها بالتجربة فقط ، فالعقل البشري لا يستطيع تعريفها ، ولا الوصول إليها بالاستنتاج»[٧٣] . ومن هنا كانت الضرورة للباطنية : «هذا النوع من المعرفة للروحية يجب ان يستر عن اكثرية الناس بسبب سموها . لأن اعماقها صعبة الادراك والأخطار كبيرة»[٧٤] .

إن المفهوم الأساسي لماورائية ولصوفية ابن عربي هي وحدة الكائن ، وبدقة أكثر ، وفي آن واحد ، وحدة الكائن والادراك الحسي . وبعبارات أخرى ، ان الحقيقة الكلية غير مختلفة وتشكل طريقة التكوين الأولى للألوهية . وهذه الحقيقة الالهية المفعمة بالحب والراغبة بمعرفة ذاتها تنشق إلى : ذات «الذي يعرف» وموضوع «المعروف» . وعندما يتكلم ابن عربي عن الحقيقة في تعارض الوحدة والكائن ، يستعمل مصطلح «الحق» (بمعنى الحقيقي ، الصدق) . وعندما يتكلم عن الحقيقة المنقسمة إلى قطب روحي أو عقلي ، وقطب كوني أو وجودي يشير إلى الأول كاالله أو الخالق والقطب الثاني كخلق أو كون . Cosmos[٧٥] .

ولايضاح عملية الخلق هذه يستعمل ابن عربي بتفضيل فكرات من التخيل الخلاق والحب . فبفضل التخيل الخلاّق ، تطرح الصور الخفية التي توجد في الواقع على الرداء الوهمي من الغيرية لدرجة ان الله يمكن ان يرى ذاته كموضوع(٧٦) . وبالنتيجة فإن التخيل الخلاّق يشكل خط الوصل بين الواقع بصفته ذاتها والواقع كموضوع للمعرفة . وبين الخالق والمخلوق . وان الموضوعات المدعوة للوجود بالتخيل الخلاّق تعرف بواسطة الذات الالهية وان النغمة الثانية المستعملة لايضاح عملية الخلق هي قاعدة الحب ، أي الحنين لله ليكون معروفاً من قبل المخلوق . ويضيف ابن عربي بدئياً عمل الولادة المكتملة بالحقيقة المتجبة . وكل الحب هو دائماً الذي يجمع الخلائق . وهكذا ، فإن انفصال الواقع إلى ذات الهية وموضوع مخلوق يقود إلى اعادة التكامل في الوحدة البدئية المغتنية في هذه المرة بتجربة معرفة الذات(٧٧) .

كل انسان بصفته مخلوقاً ، لا يمكن أن يكون ، في جوهره الخفي ، شيئاً آخر سوى الله ، وبصفته موضوعاً لعلم الله ، يساهم الانسان فيما يُعرف الله ذاته ، وبحصول هذا ، يساهم في الحرية الالهية(٧٨) . والانسان الكامل يشكل «البرزخ isthme» بين قطبي الحقيقة . انه في آن واحد ذكر mâle ، أي ممثل للسماء ولكلام الله ، وامرأة ، بصفتها ممثلة للأرض أو الكون Cosmos . وبجمعه في ذاته للسماء والأرض ، يحصل الانسان الكامل في ذات الوقت وحدة الكائن(٧٩) . إن القديس يتقاسم مع الله القدرة للخلق (همه) ، أي انه يستطيع تحقيق صوره الداخلية الخاصة موضوعيا اذا لم يكن ذلك لأجل محدد(٨١) . ويضاف إلى ذلك بالنسبة لابن عربي ان الاسلام هو اساساً التجربة والحقيقة المعلومتين من قبل القديس الذي تكون وظائفه الأكثر اهمية هي وظائف النبي والرسول .

وابن عربي شأنه شأن اوريجين وجواشيم دي فلور وميتر ايكارت ، مع انه كان له تلامذة مؤمنون وقد يرون ، وكان محترماً من قبل الصوفية ، فهو لم ينجح في تخصيب وتجديد اللاهوت الرسمي . وخلافاً للمعلمين الثلاثة الكبار المسيحيين ، فإن عبقرية ابن عربي دعمت التقليد الباطني الاسلامي .

٢٨١ - السهر وردي وصوفية النور

ولد شهاب الدين يحيى السهر وردي في ٥٤٩/١١٥٥ في سهر ورد مدينة في الشمال الغربي من ايران ، ودرس في اذربيجان واصفهان ، وأقام ببضع سنوات في الأناضول ورجع بعدئذ لسورية ، وهنالك أدين بدعوى رفعت ضده من قبل فقهاء الشريعة وقتل في ٥٨٧/١١٩٠ عن ستة وثلاثين عاما . وقد عرف من قبل المؤرخين باسم الشيخ (المقتول) وعرف من قبل تلامذته بالشيخ الشهيد .

ان عنوان مؤلفه الرئيس (حكمة الاشراق) ، يعرِّف المشروع الطموح للسهر وردي . وبخاصة اعادة تحيين الحكمة الايرانية القديمة والغنوصية الهرمسية . لقد كان ابن سينا تكلم عن حكمة او عن «فلسفة شرقية» (ف ٢٧٩ع) ، ولكن ابن سينا حسب رأيه لم يستطع تحقيق هذه (الفلسفة الشرقية) لأنه كان يجهل المبدأ (المصدر الشرقي ذاته) . «كان يوجد لدى قدامى الايرانيين - يقول السهر وردي - جماعة من الرجال الذين كانوا مهتدين بالله والذين مشوا هكذا في الطريق القويم ، طريق حكمة فلسفية ذكية ، بدون مشابهة مع المجوس . وان حكمتهم الثمينة للنور ، هي ذاتها التي شهدت التجربة الصوفية لإفلاطون ومن سبقه ، والتي أعدت احياءها في كتابي المعنون (بالحكمة الشرقية) ولا يوجد لدي رواد على الطريق لمثل هذا المشروع»[٨٢] .

إن عمل السهر وردي الواسع (٤٩ عنوانا) يستمد من تجربة شخصية ، «اهتداء متحصل في شبابه» . وفي رؤية وجودية ، اكتشفت كثرة من «الكائنات النورانية» التي كان يتأملها هرمس وافلاطون ، وهذه الاشعاعات السماوية منابع للنور (عظمة ، وسلطان النور التي اخبر عنها زرادشت ، وهي التي صوبها رفع افتتان روحي للملك المؤمن جدا والمبارك كاي خسرو»[٨٣] . إنها (كيان خرة Raywa Kharreh) = نور العزة»* . إن فكرة الاشراق (وهو اسم يعني السنى والبهاء واشراق الشمس عند

* . كيان خرة - يقول زرادشت : «خرة» نور يسطع من ذات الله تعالى وبه يرأس الخلق بعضهم على بعض ويتمكن كل واحد من عمل أو صناعة بمعونته ، ومن يتخصص بالملوك الافاضل فهم يسمى كيان خرة (الفلسفة الاسلامية - كوربان)

طلوعها) تبدو على نحو ثلاثي : ١) فنستطيع ان نفهم منها الحكمة أو الحكمة اللدنية التي يشكل الاشراق أصلها باعتبار انه يمثل ظهور واشراق الكائن معا ، وفعل الوجدان الذين يكشف هذا الكائن ، وعندما يكشفه يقوده إلى الظهور ويجعل منه ظاهرة ، كذلك فإنه يعني في سماء الروح (المثالية) ، لحظة تجلي المعرفة .

٢) ومن هنا ، إلى مبدأ مؤسس على ظهور الانوار المعقولة ، وانسكاب مطالعها على الأرواح لدى مفارقة هذه الأرواح للاجساد .

٣) ونستطيع ان نفهم بفلسفة الاشراق فلسفة تشير إلى حكمة الاشراقيين أو المشرقيين اللدنية ، أي حكمة حكماء فارس القديمة . هذا السناء (الفجري aurorale) هو نور العزة ، الكزافرناه في الابستاق (وفي الفارسية الخرة) وفي الفارسية القديمة فار ، فارّة . وقد وضعها السهروردي كاشعاع أبدي لنور الأنوار ، حيث يفيض أول رئيس للملائكة ، المعروف تحت الأسم الزارادشتي باهمان Bahman (فوهو ماناه)* . وهذه العلاقة الازلية بين نور الأنوار والفائض الأول هي العلاقة النموذجية الأصلية بين المعشوق الأول والعاشق الأول وتوجد على كل درجات الوجود فتنتظم الكائنات جميعها في ازواج وهكذا «توالد البعض من البعض الآخر باشعاعاتهم وأفكارهم ، فإن أقانيم النور تصل إلى مالا يعد ويحصىٰ. وثمة تنبؤ بأن هنالك عوالم لا تحصى وراء كرة الثوابت في علم الفلك (الهيئة) المشائى او البطليموسي ، وهي مشعور بها بما لا يحصى من عوالم عجيبة» .

إن عالم الأنوار هذا معقد جداً لتقديمه هنا[٨٤] . ونذكر فقط ان كل أنظمة الوجود الروحي وكل الحقائق الكونية مخلوقة وموجهة بانواع مختلفة من ملائكة صادرة عن نور الانوار . ان علم الأكوان (الكوزمولوجيا) السهروردية متضامنة مع علم الملائكة angealagie وهي تعيد إلى الذاكرة المفهوم المزدكي لصنفي الحقائق ـ مينوك (سماوي ـ ناعم) وجيتيك (ارضي ـ كثيف) ـ والثنائية المانوية (ف ٢١٥ـ ٢٣٣ـ ٢٣٢ع) . ومن الأربعة عوالم للكونية السهروردية نتناول الأهم من الملكوت (عالم الأرواح السماوية والأرواح البشرية) ومن العالم الخيالي «عالم البرزخ بين العالم المعقول لكائنات من النور

---

* ـ بهمن (نثبت ان اول حاصل بنور الانوار واحد ، وهو النور الاقرب والنور العظيم وربما سماه بعض الفهلوية (بهمن ، فالنور الاقرب فقير في نفسه غني بالأول) كوربان ـ ص ٣١٣ .

الصافي والعالم المحسوس ، والعضو الذي يتبصره بذاته هو الخيال الفعال»[٨٥] . وكما لاحظ هنري كوربان فإن «السهروردي هو الأول على ما يبدو الذي أقام انطولوجيا لهذه البرزخية ما بين العوالم ، وهذه الفكرة سيعاد أخذها وتوسيعها من قبل كل الغنوصيين والصوفيين المسلمين»[٨٦] .

إن قصص التلقين أو المسارة الروحية المؤلفة من قبل السهروردي ، يمكن حل رموزها في المنظور لهذا العالم الوسيط . فهو يتعلق باحداث روحية لها مكانها في الملكوت ، ولكنها تكشف عن الدلالة العميقة للمشاهد الخارجية الموازية . ان قصة المنفى الشرقي[٨٧] . يشكل مسارة تقود المريد لمشرقه ، وبعبارة أخرى ، ان هذه القصة الملغزة والموجزة تساعد المنفي (الغريب) ليعود إلىٰ وطنه . وبالنسبة للسهرودي و«أصحاب الحكمة» الشرقيين أو الآشراقيين ؛ فإن التفكير الفلسفي يمضي مصاحبا لتحققهم الروحاني ، فهم يجمعون طريقة الفلاسفة الباحثين عن المعرفة النقية وطريقة الصوفيين المتابعين للتطهير الداخلي[٨٨] .

وتشكل التجارب الروحية للانتظام في البرزخ (العالم الوسيط) كما رأينا ، سلسلة من تجارب مسارية مثارة بالخيال الخلاق . ومع انه موجود على صعيد آخر ، يمكن مقارنة الوظيفة لهذه القصص المسارية بقصص روايات الغرال (ف ٢٧٠ع) ونذكر كذلك القيمة السحر ـ دينية لكل الأمثلة (ر. الحصيدية) ؛ ولنضف إلى ذلك ، انه كانت لدى الفلاحين الرومان قصة شعائرية للحكايات (اثناء الليل) تحمي المنزل ضد الشيطان والأرواح الشريرة ، واكثر من هذا ايضا ،ان القصة توصل إلى حضور الله[٨٩] .

ان هذه الاشارات المقارنة تسمح لنا بأن نفهم بشكل جيد وبآن واحد اصولية السهروردي والتقليد القديم الذي امتد به . ان التصور الخلاق ، الذي يجعل ممكنا اكتشاف ما بين العالم ، متضامن مع الرؤية الوجدية للشامان والالهام للشعراء القدامى . فمعلوم ان الملحمة وبعض نماذج حكايات الجنيات تشتق من اسفار ومغامرات وجدية في السماء . وبخاصة في الجحيم[٩٠] . كل هذا يساعدنا على فهم دور الأدب القصصي من جهة في (التثقيف الروحاني) ومن جهة أخرى النتائج ، بالنسبة لعالم الغرب في القرن العشرين لاكتشاف اللاوعي وديالكتيك التخيل .

وبالنسبة للسهروردي ، فإن الحكيم الذي يمتاز أيضاً بالفلسفة وبالتأمل الصوفي هو الرئيس الروحي الحقيقي ، القطب «فبدون حضور القطب لا يستطيع العالم ان يستمر في الوجود ، مع انه لا يكون الا مجهولاً ، مجهولاً تماما من البشر» [كوربان - تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٠٠] . وعليه يلاحظ كوربان ، انه يتعرف هنا على واحدة من الأفكار الشيعية الرئيسية لأن «قطب الاقطاب» هو الامام . فوجود المجهول يقتضي المفاهيم الشيعية عن غيبة الامام ودورة الولاية . (النبوة الباطنية) الموروثة (لخاتم النبيين) . فيعرف اذن الاتفاق بين الحكماء الاشراقيين وبين الحكماء الشيعة .

«وهكذا - يقول كوربان ، ان فقهاء الشريعة في حلب ، لم يخطئوا ذلك أبداً ، فقد كان موضوع الدعوى التجريمية في محاكمة السهروردي الموضوع الذي انتهى إلى الاعدام ، هو انه كان ينادي بأن الله يستطيع ان يخلق نبياً في الحال لوأراد، أو في اي وقت يشاء ولكن المقصود هنا ليس النبي المشرع وانما النبوة الباطنية وهذا القول ينم عن فحوى شيعية . وهكذا فإن السهروردي عاش مـأساة (الغربة الغربية) حتى غايتها سواء في مماته أو في موته مستشهداً من أجل الفلسفة النبوية (كوربان - الفلسفة الاسلامية) . ومع ذلك فإن الخلف الروحي للسهروردي - الاشراقيون - مازالوا يعيشون ، أقله في ايران ، حتى يومنا هذا[٩١] .

٢٨٢ - جلال الدين الرومي : موسيقى ، شعر ، ورقصات مقدسة

ولد محمد جلال الدين الرومي ، المعروف خاصة باسم الرومي ، في ٣٠ ايلول/١٢٠٤ في بلخ ، مدينة من خوراستان . وقد كان والده اللاهوتي والمعلم الصوفي ترك المدينة في ١٢١٩ خوفاً من غزو المغول وذهب حاجاً إلى مكة ، واستقر أخيراً في قونية . وبعد موت والده ، وكان عمر جلال الدين آنئذ ٢٤ سنة ، درس في حلب ودمشق . وبعد سبع سنوات ، عاد إلى قونيةوفي ١٢٤٠-١٢٤٩ علم الاجتهاد والشريعة القانونية . ولكنه في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩ وصل إلى المدينة شمس الدين التبريزي درويشاً هائماً وكان في الستين من عمره . وتشير بضعة نصوص إلى لقائهما .

وكل واحدة من اللقاءات تروي بطريقة مأساوية ، قلت أو كثرت ، قصة اهتداء الرومي : وبذلك أصبح القانوني واللاهوتي الشهير واحداً من كبار الصوفيين وربما الشاعرالاكثر عبقريةفي الاسلام وقد سافر«شمس الدين المضطهدمن قبل تلامذة الرومي الذي حسدوه من هيمنته على معلمهم إلى دمشق . ورضي بالرجوع ، إلا انه في ٣ كانون اول ١٢٤٧ اختفى ، مغتالاً بشكل سري . وبقي الرومي لفترة طويلة حزينا . وقد ألف مجموعة من الأناشيد الصوفية التي تحمل اسم معلمه (ديوان شمس التبريزي) وهي «اناشيد جديرة بالتقدير والحب والأسى» ، وهي عمل نثر مكرس بكامله لهذا الحب ، الأرضي في ظاهره ، ولكنه في حقيقته اقنوم للحب الالهي»[٩٢] . واضافة إلى ذلك أن الرومي أسس النغم الروحي (الساما le Sama) على شرف شمس .

وحسب ولده (سلطان ولد) «ابدا ، لم ينقطع لحظة عن الاصغاء للموسيقى وعن الرقص ، وهو لم يسترح ليلاً ولا نهاراً ؛ لقد كان عالماً ؛ فأصبح شاعراً . وكان ناسكاً : فأصبح منتشياً بالحب ، ليس من خمرة العنب : الروح المستنيرة لا تشرب الا من خمرة النور»[٩٣] . وحوالي نهاية حياته ، اختار الرومي حسام الدين الشلبي لادارة تلامذته . وبفضل الشلبي ، إلى حد كبير ، ألف المعلم مؤلفه الاساسي «المثنوي» . وحتى موته في سنة ١٢٧٣ ، أملى عليه الرومي الثنائيات Distique (بيتان متكاملان في الشعر) ، أحيانا وهو ماشي في الشوارع ، أو حتى عندما يكون في حمامه . انها تتعلق بملحمة صوفية من خمسة وأربعين الف بيت تقريباً . محتذيا فيها نصوص القرآن والسنة النبوية ، وكذلك الأمر خرافات apologues وطرائفanecdaotes واساطير وجمل من الفولكلور الشرقي والمتوسطي .

ولقد أسس الرومي أخوية صوفية (كونفريرية) ، الطريقة المولوية ، لأنه كان يدعى من قبل تلامذته ورفاقه مولانا (بالتركية mevlana) . وعرفت الجماعة في الغرب تحت اسم «الدراويش الدوّارين tourneurs» لأنه اثناء حفلة الساما يدور الراقصون اكثر فأكثر سرعة على ذاتهم وحول القاعة . «في ايقاعات الموسيقى ، قال الرومي ، يختبيء سر ؛ اذا كشفته فسيقلب الدنيا» . وفي الواقع ، ان الموسيقى توقظ النفس جاعلة إياها تتذكر جزءها الحقيقي وتذكرهابنهايتهاالأخيرة[٩٤] . «كلنا نشكل جزءاً من جسد آدم ـ

يكتب الرومي . وأصغينا لهذه الأنغام في الجنة . ومع ان الطين والماء قد القيا الشك فينا ، فإننا لم نعد نتذكر سوى القليل»[٩٥] .

وكالموسيقى والشعر المقدسين ، فإن الرقص الوجدي كان مطبقاً منذ بدايات الصوفية[٩٦] وحسب بعض الصوفيين فإن رقصهم الوجدي كان يستنسخ رقص الملائكة . وفي الطريقة المجددة من قبل الرومي (ولكن المنظمة بصورة خاصة من قبل ابنه سلطان ولد) ، فإن للرقص صفة هي كونية ولاهوتية معا . ويلبس الدراويش الثياب البيضاء (مثل الكفن) مغطاة بمعطف اسود (رمز القبر) ومعممين بقبعة طويلة من اللباد (صورة الحجر القبرية)[٩٧] ويمثل الشيخ البرزخ (الوسيط بين السماء والأرض . الموسيقيون يعزفون على الناي من قصب ويقرعون الطبول والطبلات . وترمز الفرقة حيث يدور الدراويش إلى العالم ، والدراويش إلى الاجرام الدائرة حول الشمس وحول ذاتها . والطبول تذكر بالناقورات في الدينونة الأخيرة . ودائرة الراقصين مقسمة إلى نصف دائرة ، أحدها يمثل قوس الهبوط ، أو انغماس الأرواح في المادة ، والأخر قوس صعود الأرواح نحو الله»[٩٨] . وعندما يصبح الايقاع سريعاً جداً ، يدخل الشيخ في الرقص ويدور في وسط الحلقة لأنه يمثل الشمس . «وهذه في اللحظة العليا للاتحاد المحقق»[٩٩] . ويضاف إلى ذلك أن رقص الدراويش لا يصل الا فيما ندر إلى رعدات عصابية وهذه فقط في بعض الاجزاء الهامشية .

إن دور الرومي في تجديد الاسلام لا حد له . فمؤلفاته قرئت وترجمت وفسرت من طرف لآخر من العالم الاسلامي . وهذه الشعبية الفريدة تثبت أيضاً مرة أخرى الأهمية للابداعية الفنية ، وبخاصة الشعر ، في تعميق الحياة الدينية . وكما هو لدى كبار الصوفية ، وانما مع حمية مولهة وقوة شعرية لامثيل لها ، لم ينقطع الرومي عن تمجيد الحب الالهي . «بدون الحب سيصبح العالم بدون حياة» [المثنوي ٧ـ ٣٨] .

إن شعره الصوفي مغرق في رمزيات مستعارة من اجواء الرقص والموسيقى . وبالرغم من بعض التأثيرات الافلاطونية المحدثة ، فإن لاهوته معقد لحد كبير ، فهو في آن واحد شخص تقليدي ، وجريء . يصر الرومي على ضرورة الوصول أو ادراك

غير الكائن . لكي يستطاع الوصول والكينونة ، وهذا ما يحمل العديد من اشارات الحلاج(١٠٠) .

إن الوجود البشري يتطور تبعاً لارادة ومخطط الخالق . فالانسان كان مكلفا من قبل الله لأن يصبح الوسيط بينه وبين العالم . وليس من العبث ان الانسان قد «ذهب من البذرة حتى العقل» [مثنوى ٣-٩٧٥] «من اللحظة التي تأتي فيها إلى هذه الدنيا من الوجود ، هنالك سلم وضع امامك لكي يسمح لك بالهرب» . وفي الواقع إن الانسان كان في البدء معدنيا ، وبعد ذلك نباتياً ، ثم حيوانيا . «ثم تكونت انسانا موهوبا بالمعرفة ، والعقل والدين» وفي النهاية سيصبح الانسان ملاكا ، وستكون اقامته في السماء . ولكن ليست هذه هي المحطة النهائية . «تجاوز حتى الشرط الملائكي ، ادخل في هذا المحيط (الوحدة الالهية) من أجل ان تستطيع قطرتك من الماء ان تصبح بحراً»(١٠١) . وفي مقطع شهير من المثنوى [٢-٥٣] يوضح الرومي الطبيعة الأصلية التيومورفية théomorphique للانسان المخلوق على صورة الله : «صورتي تبقى في قلب المليك : قلب المليك سيكون مريضا بدون صورتي [. . . .] ، نور العقول يأتي من فكري ، والسماء خلقت بسبب طبيعتي الأصلية [. . . .] أملك العرش الروحي [. . .] لست أبداً المجانس Congénère للمليك [. . . .] ولكنني أتلقى منه نوره في ظهوره .

٢٨٣ - انتصار الصوفية وردة فعل اللاهوتيين ، الكيمياء

بعد أن حصلت الصوفية ، بفضل اللاهوتي الغزالي ، على رضى فقهاء الشريعة ، عرفت شعبية كبرى ، بدئياً في أقاليم آسيا الغربية وافريقيا الشمالية ، ثم في كل مكان دخل فيه الاسلام : في الهند ، واسيا الوسطى ، واندونيسيا ، وافريقيا الشرقية . ومع الزمن ، أصبحت الجماعات المحصورة من التلامذة العائشين حول شيوخهم منظمات حقيقية مع العديد من ابنائهم والمئات من الاعضاء . لقد كان الصوفيون افضل المبعوثين للاسلام . ويقدر جيب Gibb ان كسوف الشيعية كان نتيجة الشعبية والروح الارسالية للصوفيين(١٠٢) . ومثل هذا النجاح يفسر احترامهم وحمايتهم من قبل السلطات المدنية .

ان تسامح العلماء شجع استعارة مفاهيم غريبة واستعمال طرائق خارجية . وبعض التقنيات الصوفية تعمقت وتحورت باحتكاكها بالأوساط الدخيلة . ويكفي ان يقارن الذكر المطبق من قبل الصوفيين الأوائل (ف ٢٧٥ع) مع ذلك المحدث تحت التأثير الهندي بدءاً من القرن السابع ق,م . وحسب رأي أحد الموالفين «لقد بدئت التلاوة بدءاً من الجانب الايسر (من الصدر) الذي هو كالوكر المحتوى على مصباح القلب ، موقد الصفاء الروحي . وتتابع (التلاوة) تماما بالذهاب وبالانتقال من اسفل الصدر إلى الجانب الايمن ، وبالصعود إلى أعلى الصدر وتكمل بالعودة للوضعية الأساسية» .

وحسب قول مؤلف آخر ، ان الذكر يستوجب «الركـوع على الأرض مع تصالب الفخذين ، ويلقى الذراعان حول الجنبين ، والرأس مطأطأ بين الركبتين والعينان مغمضتان . ويرفع الرأس قائلاً لا اله اثناء الزمن الذي يمر بين وصول الرأس إلى علو القلب ووضعه على الكتف الأيمن [. . . .] وعندما يصل الفم لمستوى القلب ، يقال بحدة الدعاة الا [. . . . . .] ويقال ، الله في مواجهة القلب ، الطريقة أكثر حدة . . . .»[١٠٣] . ويتعرف بسهولة على المشابهات مع تقنيات اليوجا ـ التانتارية وبخاصة في الممارسات التي تثير ظواهر سمعية واستنارات مصاحبة معقدة جداً لا يمكن تقديمها هنا .

ان مثل هذه التأثيرات لا تغير ، أقله لدى الذاكرين الحقيقيين ، الخاصية الاسلامية للذكر . وربما كان العكس هو الذي يحصل . وكثيرة هي المعتقدات الدينية والطرائق التنسكية التي اغتنت باستعارات أو تأثيرات خارجية . وحتى يمكن القول بأنه ، تماماً كما في تاريخ المسيحية ، ساهمت هذه التأثيرات في (جعل الاسلام عالمياً) باعطائه بعداً مسكونياً . .

ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكد ان الصوفية اسهمت بقوة في تجديد التجربة الدينية الاسلامية . وفيما يتعلق بالمعطى الثقافي للصوفية فإنه كان ملحوظاً . وقد اعترف في كافة البلاد الاسلامية بتأثيرهم في الموسيقى والرقص وبخاصة في الشعر[١٠٤] .

غير ان هذه الحركة الظافرة ، التي حافظت على شعبيتها حتى يومنا هذا[١٠٥] كان لها ايضا نتائج معقدة في تاريخ الاسلام . فقد أصبحت خصومة العقلانيين لبعض

الصوفيين حادة أحيانا ، ومسبَّاتهم ضد الفلاسفة تقارب الغوغائية . ومن جهة أخرى ، فإن العصبية الحادة ، والرعدات والوجديات اثناء الاجتماعات العامة توسعت . وان غالبية المعلمين الصوفيين ناهضوا مثل هذه التمجيدات التي لا حد لها ، ولكنهم لم يستطيعوا تطويعها دائما . واضافة إلى ذلك ، فإن اعضاء بعض التنظيمات كتنظيم الدراويش المتجولين أو الفقراء تعلن عن قدرتهم على صنع المعجزات والعيش خارج القانون .

ومع ان العلماء قد اكرهوا على التسامح مع الصوفيين فإنهم استمروا بترصّد العناصر الدخيلة وبخاصة الايرانية والغنوصية ، والتي ، عبر تعليم بعض معلمي الصوفية ، هددت حسب رأي فقهاء الشريعة ، وحدة الاسلام (لقد كان ، آنئذ كما هو الآن ، من الصعب بالنسبة للاهوتيين ـ وليس اللاهوتيين المسلمين فحسب ـ الاعتراف بالمساهمة الواسعة للصوفيين بتعميق التجربة الدينية في الوسط الشعبي ، بالرغم من المخاطرة بالهرطقة ، مخاطرة كانت قد وجدت من جهة اخرى ، بالنسبة للاهوتيين على كافة مستويات المعرفة الدينية) . وقد كان جواب العلماء في تعدد المدارس ، ومعاهد التعليم الفقهي الحاصل على وضع رسمي ومدرسين مأجورين . وحوالي القرن ١٤/٨ ركزت مئات من المدارس رقابة التعليم العالي في أيدي الفقهاء[١٠٦] .

ومن المؤسف ان الصوفية الكلاسيكية لم تكن معروفة في الغرب خلال العصر الوسيط[١٠٧] . وان المعلومات الاحتمالية الغير مباشرة ، بترجمة الشعر الجنسي الصوفي في الاندلس ، لم تشكل لقاء صحيحاً بين التقليدين الصوفيين الكبيرين ، وكما هو معلوم فإن المعطى الأساسي للاسلام كان النقل ، بترجمة عربية ، لأعمال الفلاسفة والعلماء القدامى ، وفي المكان الأول أعمال اريسطو .

يضاف إلى ذلك ، على الغالب ، ان التنسك الصوفي اذا كان مجهولاً ، فإن الهرمسية والكيمياء دخلتا إلى الغرب بفضل الكتابات العربية ، التي يقدم عدد كبير منها اعمالاً أصلية . وحسب رأي ستابلتون Stapleton ، فإن الكيمياء الاسكندرانية في مصر تطورت بدئياً في حران وفي ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وهذه الفرضية وإن عورضت ، الا ان لها مزية تفسير أصل الكيمياء العربية . وعلى كل حال فإن واحداً من الأوائل

الاكثر شهرة من الكيميائيين في اللغة العربية هو جابر ابن حيَّان الشهير في اللاتينية باسم Geber . ويقدر هولميارد Holmyard بأنه عاش في القرن ١١/٨ وانه كان تلميذاً لجعفر الصادق سادس إمام . وحسب بول كراوس ، الذي كرس له صورة أثرية ، ان عدداً من المؤلفين (أحصِيَ له مجموعة الأعمال تحت ٣٠٠٠ عنوان تدور تحت اسمه) ؛ وجدت حوالي القرنين الثالث والرابع . وقد أبرز كوربان بشكل مناسب الوسط الشيعي والباطني الذي تطورت فيه كيمياء (جابر) . وفي الواقع ، إن النظرية الجابرية عن (الميزان) سمحت باكتشاف العلاقة القائمة في كل جسم من الأجسام بين ظاهره وباطنه(١٠٩). ويبدو مع ذلك ان الرسائل الاربعة لجابر المعروفة في ترجمتها اللاتينية ليست كل اعماله . وان الترجمات الأولى من العربية إلى اللاتينية انجزت في اسبانيا حوالي ١١٥٠ من قبل جيرارد دي كريمون ، وبعد قرن من الزمن ، عرفت الكيمياء بما فيه الكفاية ، لأنها كانت محصورة في آنسيكلو بيديا فانسان دي بوفيه .

ان واحدة من اكثر رسائله شهرة تابولا سماراغدينا Tabula Smaragdina كانت مستخلصة من مؤلف معروف تحت اسم كتاب (سر الخليقة)، وهي مشهورة كذلك باسم توربا فيلوز وفوروم Turba Philosohporum ، المترجمة من العربية ، وبيكاتريس Picatris المحررة باللغة العربية في القرن الثاني عشر . ومن غير المجدي التأكيد ان كل هذه الكتب ، رغم المواد والأدوات والعمليات المخبرية التي تصفها هي مشربة بالباطنية والغنوصية(١١٠) . وان العديد من المتصوفين ومعلمي الصوفية ، من بينهم الحلاج وبخاصة ابن سينا وابن عربي قدموا الكيمياء وكأنها تقنية روحية حقا . وقد أصبح معروفاً بما فيه الكفاية حول تطور الكيمياء في البلدان الاسلامية بعد القرن الرابع . وفي الغرب ، عرفت الهرمسية والكيمياء فترة مجدها قبيل النهضة الايطالية وقد بهر احترامها الصوفي نيوتن آنئذ (ف ١١٠٣ع) .

حواشي الفصل الخامس والثلاثين

١ - هنري لاوست - الشيعة في الاسلام ص ٧-٧١

٢ - يتعلق بمدارس الحنفية ، المالكية ، الشافعية ، الحنابلة . ان موجزاً عن هذه المذاهب ومؤسسيها قدمه توفيق فهد بكتابه الاسلام ومذاهبه .

٣ - انظر - بصورة خاصة - مؤلف - دهـ - أولفسن - فلسفة الكلام . . ونذكر بأن كلمة المتكلم أي الذي يتكلم أولدت مصطلح المتكلمون = الذي اهتموا بعلم الكلام (اللاهوتيون) . وبالنسبة لبعض الفلاسفة كالفارابي وابن رشد «ان المتكلمين هم بخاصة المنافحين عن الدين وقد اهتموا ليس بالحقيقة البرهانية أو الممكن البرهان عليها وانما لدعم أقوالهم وجد لهم اللاهوتي وعبارات اعتقاداتهم التقليدية» (كوربان)

٥ - لادست (مرجع سابق) .

٦ - ٨ - هـ. كوربان - الفلسفة الاسلامية وهو يقول : «اذا كان الاشعريون استمروا في العيش ضد انتقادات وهجمات عدة ، فإنه يجب القول بأن وعي الاسلام السني قد عرف بها» (ص ١٧٨)

٩ - ترجمت من قبل هنري كوربان في تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٣٠ . نظرية المعاني الاربعة في اللاهوت المسيحي للقرون الوسطى (المعنى الحرفي ، اللاهوتي ، الاخلاقي ، والمشابه)

١٠ - ترجمة كوربان - وحسب حديث معتبر يعود للرسول ذاته «القرآن له ظاهر خارجي وعمق مخبأ ، معنى ظاهري ومعنى باطني» .

١١ - لنذكر بأن المصطلح العربي إمام كان يعني أصوليا ذلك الذي كان يدير الصلاة العامة أي الخليفة وعند الشيعة الامام ، خارج دوره كرئيس روحي يمثل اكبر درجة من الاحترام السياسي - الديني .

١٢ - ١٣ - وحول اختفاء الامام الثاني عشر ونتائجه (بصورة خاصة النظام الروحي) . هنري كوربان . وهذه الغيبة تميز بداية «اختفاء القاصر ، الذي سيدوم عشر سنوات واثناءها يتصل الامام

المستور علة مرات مع بعض المبعوثين ، وكما انه لم يعين خليفة فقد بدأ التستر الكبير ، أو التاريخ السري للامام الثاني عشر .

١٤ ـ من المناسب ان نذكر فرعاً ثالثاً الزيديون الذين جرت تسميتهم تبعاً للامام الخامس زيد (م ٧٢٤) انهم قليلو العدد وقريبون جداً من السنيين ، وفي الواقع لا ينيطون بالامام فضائل مما فوق الطبيعة كما يفعل الاسماعيليون خاصة (ف ٢٧٤ع) .

١٥ ـ النصيريون في سورية فرع من الاسماعيلية ويمجدون علي . ولكن هذا المفهوم يختلف عن الشيعة .

١٦ ـ يجري الكلام حول مبدأ أو تنظيم أولي لسر الاسرار لانبثاق الكائن بدءاً من العقل الأول ومن آدم الروحي للمملكتين ـ السماوية والأرضية ـ التي حسب تعبير كوربان «ترمزان واحداً مع الآخر» الخ .

١٧ ـ قلعة الموت والاسماعيلية المعدلة اثارت في الغرب فولكلوراً حول (الحشاشين) مصطلح مشتق حسب سلفستروي ساسي من الحشيش لأنه افترض ان المؤمنين كانوا يتعاطون الحشيش . حول هذه الاساطير انظر د. اولشكي ـ ماركوبولو اسيا ص ٣٦٨ والكتب المشار اليها .

١٨ ـ انظر ـ قصة المهدي في مقدمة ابن خلدون .

١٩ ـ المثال على ذلك مهدي السودان الذي انتصر عليه اللورد كيتشنر سنة ١٨٩٥

٢٠ ـ ر. ماسينيون سلمان بك ومقدمات الاسلام الايراني .

٢١ ـ في القرن الثالث للهجرة ، كانت اغلبية الصوفيين متزوجين وبعد قرنين أصبح المتزوجون قلة

٢٢ ـ فيما بعد شبهه بعض الصوفيين الحكومة مع الش . . وفي هذا يجب ان يؤخذ في الحسبان تأثير الرهبنة المسيحية

٢٣ ـ ٢٦ ـ اسماء المراجع المعتملة . .

٢٧ ـ يكفي أن يؤخذ في الحسبان واقعة انه في القرون الأولى للاسلام كان من الصعب التدقيق فيما اذا كان الكاتب سنياً أو شيعياً . وحصل الانقطاع بين الشيعة والصوفية عندما ادخل بعض معلمي الصوفية تفسيراً جديد للتلقين الروحي والحب الالهي (س.هـ نصر الشيعة والصوفية)

٢٨ ـ كشف المحجوب ـ ترجمة نيكلسون ص ٣٦٣

٢٩ ـ هـ. جيب ـ المحمديون ص ١٣٩ ـ هذه الصلاة مذكورة علة قرون قبل الذكر من قبل عدد من الآباء (القديسون مثل كاسيان جان كليمات الخ)

٣١ ـ ٣٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٣٩ ـ كوربان ص ٢٧٥ يلاحظ تشابه هذه النظرية مع نظرية العلم النبوي الشيعية

٤٠ ـ ٤٢ ـ الديوان ـ ترجمة ماسينيون .

٤٣ ـ فيها بعض ، دفعت بعض مجموعات الملاماتية ازدراءهم للمعايير بتطبيق التهتك ـ النصوص المترجمة من قبل مولي ـ متصوفو الاسلام .

٤٤ ـ ٤٦ ـ ما سينيون . .

٤٧ ـ ٤٩ ـ تيولوجيا الحلاج حللت من قبل ماسينيون بتيولوجيا صوفية عقائدية . . الخ .

٥٠ ـ ٥١ ـ اسهازء المراجع المعتمدة

٥٢ ـ ٥٣ ـ ان عددها مختلف . مؤلف ، مذكور من قبل (انواتي) يذكر العشرات ، من بينها الحب ، الخوف الأمل الرغبة الهدوء في السلام ، التأمل ، اليقين (التصوف الاسلامي)

٥٤ ـ بدوره ، هذا التهافت الشهير ، رفض من قبل ابن رشد (ف. ٢٨٠ع)

٥٥ ـ ٥٦ ـ بعد اهتدائه ، كتب الغزالي سيرة ذاتية روحية (المنقذ من الضلال) ولكن بدون كشف تجارية الصحيحة ، ولقد الح بصورة خاصة على نقد الفلاسفة

٥٧ ـ المراجع ـ النقد العنيف للغزالي من قبل (زهبر) ولكن كوربان أظهر ان الابداعية الفلسفية لم تنقطع مع موت ابن رشد ١١٩٨ وقد استمرت الفلسفة بالتطور في الشرق ، بصورة خاصة في ايران في التقاليد لمختلف المدارس والسهروردي .

٥٨ ـ عرف في الغرب بواسطة بعض مؤلفاته المترجمة للاتينية في القرون الوسطى .

٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦١ ـ كوربان ـ الفلسفة الاسلامية

٦٣ ـ حسب رأي كوربان انه بسبب العقل الفعال الذي له صورة دور الملاك ، تداعت ما سميت بالابن سينية اللاتينية .

٦٤ ـ ترجمت وعلق عليها بذكاء من قبل هنري كوربان ـ ابن سينا والقصة الرؤية .

٦٥ ـ ٦٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٦٩ ـ المترجمات اللاتينية الأولى لابن رشد حول ارسطو انجزت حوالي ١٢١٠ـ١٢٣٥ ولكن (الابن رشدية اللاتينية) الهامة جداً في القرون الوسطى الغربية تمثل في الواقع شرفاً جديداً قائماً في منظور القديس اوغسطين .

٧٠ ـ د. كتاباتها الذاتية مترجمة من قبل (اوستين) تحت عنوان صوفية الاندلس .

٧٢ ـ كتبه ممنوعة في مصر ، والعمل الضخم والصعب ، لم ينشر بما فيه الكفاية ـ اما بالنسبة للمترجمات فقليلة

٧٣ ـ الفتوحات المكية

٧٤ ـ تصوف الحكمة . ابن عربي يؤكد ان كل قطب ـ روحي وكوني ـ يقتضي بطريقة احتوائية ومستترة القطب الآخر

٧٩ ـ كوربان ـ فصل ١٧ ـ نؤكد انه تبعاً لابن عربي ، فان الانسان الكامل يشكل نموذجاً مثاليا . من الصعوبة التعامل في وجوده البشري .

٨٠ ـ كوربان ـ واوستن ـ يذكر بالتأويل التيبتي الذي توصل لجعل الصور الداخلية مادية .

٨١ ـ نصوص الحكم ـ ابن عربي يؤكد من جهة اخرى على الاخطار الكبرى المواجهة من قبل حائز هذه السلطة .

٨٢ ـ كوربان ـ المرجع السابق .

٨٣ ـ «ومن لم يصدق بهذا (. . . .) فعليه بالرياضيات (. . .) فعسى يقع له خطفه من النور الساطع في عالم الجبروت ويرى الأدات الملكوتية والانوار التي شاهدها هرمس وافلاطون والانوار السينوية ، ينابيع (الخرة) والرأي الذي أخبر عنه ذرادشت ودفع الملك الصديق كيخسرو المبارك إليها فشاهدها» . كوربان .

٨٤ ـ ٨٥ ـ كوربان ـ مراجع سابقة .

٨٦ ـ اهمية هذا العالم كبيرة في الواقع فهو يأتي على الصعيد الأول من الوجهة التي تنفتح على مصير الكائن الانساني . أما وظيفته فمن نواح ثلاث ، اذ به تتم القيامة ، وذلك انه محل (للاجسام اللطيفة) وبه تتحقق صحة الرموز التي اشار إليها الانبياء كما تتحقق صحة جميع التعابير الناجمة عن الرؤى ، وبالتالي فيه يتم (التأويل) ذلك التفسير الذي يعود بمعطيات الوحي القرآني إلى حقيقتها الروحية الحرفية . وبدون هذا العالم لا يمكن القيام الا بتشبيهات ومجازات . كما انه بعالم المثال هذا تنحل الازمة القائمة بين الفلسفة واللاهوت ، بين المعرفة والايمان وبين الرمز والحكاية ، ولم يعد ثمة ضرورة للاختيار بين فضيلتين التأمل الفلسفي وافضلية اللاهوت ذلك أن طريقاً آخر يأخذ مجراه وهو بالتحديد طريق الحكمة المشرقية (كوربان)

٨٧ ـ ٨٨ ـ في علم الملائكة الروحي يمثل السهروردي الفلاسفة الاغريق القدامى كذلك حكمة الفرس وبعض كبار الصوفية (كوربان) .

٨٩ ـ انظر على سبيل المثال الأمثلة المذكورة من قبل اوفيدوس ـ الفلكلور الروماني

٩٠ ـ واحدة من التقديرات الكبرى لهنري كوربان وتلامذته الذي طعموا دراسة هذا التقليد الفلسفي الذي مازال مجهولاً في الغرب .

٩٢ ـ ٩٣ ـ الرومي والصوفية ـ ترجمة ايضا دي فتراي . . .

٩٤ ـ د. النصوص المترجمة من قبل مارجان موليه ـ الرقص الوجدي في الاسلام

٩٥ ـ المثنوي ـ ترجمة موليه ـ تذكر الاقامة في الجنة وانتظار النفير للدينونة الاخيرة هي من انغام مؤكدة في التقليد الصوفي الاكثر قدما .

٩٦ ـ ر. دراسة مولية ـ انتقادات اللاهوتين وحتى الكتاب الصوفيين ص ١٨ .

٩٧ ـ هذه الرمزية تمثل منذ البدايات للساما ، وقد حددت بالديوان للشاعر التركي الكبير محمد شلبي ، انظر النص المترجم من قبل موليه ص٢٤٨ـ٢٥١ حول الرقص المولوي الرومي وسلطان والد .

٩٨ ـ ١٠٠ ـ اسماء المراجع .

١٠١ - ١٠٢ اشعار صوفية ١١ - ديوان شمس الشيرازي .

١٠٤ - بفضل الشعر الصوفي وبدقة اكثر الصوفي ، الايروتي - فإن عدداً كبيراً من الانغام والبواعث الغير اسلامية حكمت مختلف الآداب الوطنية .

١٠٥ - ١٠٦ - انظر جيب - وملاحظاته حول النتائج الثقافية لهذه الرقابة على التعليم .

١٠٧ - كم هو مؤسف ان الاسلام عرف في اوروبا من الجنوب الشرقية تقريباً وحضرا بالامبراطورية العثمانية اي الاحتلال التركي

١٠٨ - من جهة اخرى ان احتكاكا بين بعض الجماعات الباطنية الاسلامية والمسيحية ليست مستثناة ولكنه لا يمكن قياس نتائجها في التاريخ الديني والثقافي للعصر الوسيط

١٠٩ - يذكر كوربان ان جابر يقول «العلقة الأولى هي العقل والعقل هو العلم والميزان هو العلم . فكل فلسفة وعلم فهو ميزان . فكأن الميزان جنس والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع» (كتاب الخواص الكبير - المقالة الثانية) ويقول في الكتاب نفسه - المقالة الأولى - «إن قواعد الفلسفة هي قواعد الميزان ، او بعض قواعد قواعد الميزان» اي ان عمل الفيلسوف إما ان يجيء متطابقاً مع العلم بالموازين تطابق المتساويين ، وإما ان يكون علم الموازين شاملاً للفلسفة بجانب منه دون جانب . من هنا . كان «الميزان» هو العلم والفلسفة ، لولا ان حكمة «ميزان» (عند جابر) أعم من حكمتي (علم وفلسفة ، فالميزان جنس والفلسفة فرع ينطوي تحته ، هي وكل ما يتصل بها من فروع .

١١٠ - انظر - م . ، الياد - حدادون وكيميائيون ص ١١٩

ومن اراء جابر بن حيان : ان ميزان الطبائع هو العلم الذي نعلم به كم من الطبع الفلاني (الحرارة ، البرودة ، اليبوسة ، الرطوبة) موجود في الكائن الفلاني . فاذا كانت الحرارة غالبة عليه عرفنا ان البرودة فيه مستكنة مستتبطنة ، وان كانت البرودة غالبة فيه عرفنا ان الحرارة فيه هي المستكنة المستبطنة وكذلك قل في صفتي اليبوسة والرطوبة . . .

واللغة في رأس جابر هي نتاج ظهر بالطبع لا بالاتفاق العرضي ولهذا فهي ذات دلالة أصيلة على حقائق سمياتها . والحروف تقابل الكيفيات الاربع في الطبيعة .

فالحرارة يقابلها : أ - هـ - ط - م - ف - ش - ذ .

والبرودة يقابلها : ب - و - ي - ث - ص - ت - ض -

واليبوسة يقابله : ج - ز - ك - س - ق - ث - ظ

والرطوبةيقابلها: د - ح - ل - ع - ر - خ - غ -

(تاريخ الفلسفة الاسلامية - كوربان الترجمة العربية ص ٢٠٥)

الفصل السادس والثلاثون

اليهودية منذ عصيان بركوخبا حتى الحصيدية

٢٨٤ ـ تجميع الميشنا .

بالتذكير بحرب اليهود الأولى ضد الرومان (٧٠ـ٧١) وتدمير المعبد من قبل طيطس ، أعدنا إلى الذاكرة مشهداً كانت له نتائجه البارزة بالنسبة لليهودية : الرابي جوكها فان بن زكاي الشهير أفرج عنه في تابوت اثناء حصار القدس ، وبعد فترة من الزمن ، حصل على ترخيص من (فيسباسيان) بإقامة مدرسة في قرية جابنة (في يهوده) وقد كان جوكها نان مقتنعاً بأنه ، طالما ان التوراة يدرس ، فإن شعب اسرائيل ، المسحوق حربيا ، لا يمكن ان يزول (ف. ٢٢٤ع)[١] وقد نظم جوكهانان فيما بعد تحت رئاسة (بطريرك) Nasi مجمعا (سنهدرين) من ٧١ عضوا ، كسلطة دينية لا تعارض ومحكمة عدل في آن واحد . وخلال ثلاثة قرون كانت مهمة البطريرك تنتقل ، باستثناء واحد منهم ، من الأب إلى الابن[٢] .

مع ذلك ، فإن الحرب الثانية مع الرومان المعلنة من قبل باركوهبا في ١٣٢ ، والمنتهيةبالكارثة لعام ١٣٥ ، وضعت مجدداً الوحدةالدينيةفي خطر، لابل استمرارية حياة الشعب اليهودية . وقد ألغى الامبراطور هادريان (السهندرين) ومنع تحت طائلة المعاقبة بالموت دراسة التوراة وممارسة الأعمال الطقوسية . ومات كثير من المعلمين اليهود ومن بينهم الشهير الرابي اكيبا تحت التعذيب . ولكن انطونين التقي الذي خلف هادريان ، أعاد سلطة السنهدرين ، بل انه عمليا زاد في سلطته . فمنذئذ ، أصبحت مقررات السنهدرين معروفة في كل مكان في الدياسبورا . واثناء هذه الفترة ـ التي تبدأ مع تلامذة جوكهانان بن زكاي وتنتهي حوالي ٢٠٠ ـ اقيمت البنى الأساسية لليهودية المعيارية . وقد كان التجديد الرئيسي ابدال الحج والأضاحي المنجزة في الهيكل ، بدراسة الشريعة ، والصلاة والتقوى ، وأعمال دينية يمكن ان توجد ، في الكنس ، وفي أي مكان في العالم . وقد كانت الاستمرارية مع الماضي مضمونة بدراسة التوراة وبالنصوص المتعلقة بالطهارة الشعائرية .

ولأجل التحديد بدقة ، والتوضيح والتوحيد للتقاليد الشفاهية التي لا تحصى والتي هي على علاقة بالممارسات التعبدية وتفسيرات الكتابة والمسائل الشرعية ، أجبر الرابي جودا (الأمير) بطريرك السنهدندرين ما بين ١٧٥ـ٢٢٠) لجمعها وتنظيمها في مجموعة من النصوص الشرعية . إن عملية التجميع هذه الواسعة والمسماة (المشنا) (اي ـ اعادة القول ، التكرار أو الحشو) تحتوي على مواد وجدت ما بين القرن الأول وقبل القرن الثاني بعد المسيح[٤] . ويتضمن الكتاب ستة أقسام : الزراعة ، الاعياد ، والحياة العائلية ، القانون المدني ، وانظمة الأضاحي ، والمتعلقة بالغذاء والطهارة الطقوسية .

ونجد عدداً من الاشارات إلى صوفية الميركابا (ف. ٢٨٨) . وعلى العكس ، لا يوجد أي صدى للآمال المسيحانية والتعاليم الرؤوية ، الشعبية جداً في ذلك العصر (الشهيرة ، على سبيل المثال ، في المؤلفات المنحولة الشهيرة باروخ الثاني وايسدرا الرابع) .

ويوجد انطباع بأن (الميشنا) تجهل التاريخ المعاصر أو انها تدير ظهرها إليه . (ويرد التساؤل مثلا ، عن عشور المحاصيل التي يجب أن تحمل لأورشليم ، فيؤكد على أي

نوع من قطع النقد يتوجب صرفها الخ . .)(٥) . إن الميشنا تثير حالة لا تاريخية نموذجية ، تمت فيها مختلف أعمال تقديس حياة الانسان حسب قوالب مقننة شرعاً . فالعمل الزراعي كرس بحضور الرب وبالعمل (المضفى عليه صفة الشعيرة) للانسان . «البلاد اسرائيل قدست بعلاقتها مع الرب ، وموسم الرب تقدس بالانسان العامل تحت أمر الرب ، وعبر الاشارات والفواصل الشفاهية لمختلف التقدمات»(٦) .

وبكل وضوح ، ففي «تقسيم الاعياد» نظمت ، وصنفت وسميت دورات الزمن المقدس ، المرتبط حميمياً ببنى المكان المقدس . ويوجد ذات الهدف في كل «التقسيمات» الأخرى . انه يتعلق دوما بتحديد ، الوسائل الطقوسية ، حتى أدنى تفصيل ، لتقديس العمل الكوني والحياة الاجتماعية ، والعائلية والفردية ، بل وايضا وسائل تجنب القذارة وجعلها غير مؤثرة بواسطة تطهيرات خاصة .

وهذا ما يغري بتقريب هذا المفهوم الديني من المعتقدات والممارسات المسيحية الريفية التي اسميناها «المسيحية الكونية» (ف ٢٣٧ع) . مع الفارق بأنه في الميشنا ، يتم عمل التقديس استثناء بفضل الرب وأعمال الانسان المنفذة لأوامر الرب . ومع ذلك فإن مما له دلالته ان الرب في الميشنا أو بشكل أوضح في تفسيراتها وشروحها التي سنشير إليها ـ حتى ذلك الحين ، بامتياز ، رب التاريخ ـ يبدو محايداً تجاه التاريخ المباشر لشعبه : وبالنسبة للخلاص من نوع مسيحاني في تلك الفترة فقد أبدل بتقديس الحياة في ظل توجيه الشريعة .

وفي الواقع ، فإن الميشنا تمدد وتكمل القانون الكهنوتي كما صيغ في تثنية الاشتراع lévetique وهذا ما يعيد إلى القول بأن المحافظين تصرفوا بنوع ما كالكهنة واللاويين ، لقد احترموا الأحكام ضد القذارة وتغذوا في مساكنهم كما كان العاملون في الهيكل يعملون ، والطهارة الشعائرية ، المحترمة خارج جدران الهيكل ، تفصل المؤمنين عن بقية الشعب وتضمن قداستهم ، واذا كان للشعب اليهودي ان يعيش ، فإنه يجب عليه ان يعيش كشعب مقدس ، في إقليم مقدس ومحتذيا قداسة الرب(٧) .

لقد تابعت الميشنا التوحيد وتقوية التعليمية ، وفي آخر مرحلة ، كان هدفها ضمان استمرار حياة اليهودية ، وبالنتيجة تكامل الشعب اليهودي حيثما وجد في شتاته .

وكما قال جاكوب نوستر فإن المسألة هي : ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ وتجيب الميشنا : (مثل الرب تماما ، يستطيع الانسان ان يضع العالم في حركة . اذا أراد الانسان ، فلا شيء مستحيل [....] . ان الميشنا تقوم شرط اسرائيل : مغلوب ودون سند ، ومع ذلك في بلده ، غير قادر ، ومع ذلك مقدس ، دون وطن ومع ذلك منفصل عن القوميات»[٨] .

٢٨٥ - التلمود - الردة ضد الرابانيين : الكارابيت .

إن تجميع الميشنا فتح الحقبة المسماة (المؤتمرين أو المفسرين) الأماريم des Amaraim . وان المجموعة المشكلة للميشنا والتعليقات عليها (غوعمارا) يشكل التلمود (لغويا : تعليمات) . إن أول تأليف كتب في فلسطين (٢٢٠- ٤٠٠ تقريبا) وعرف تحت اسم تلمود اورشليم ، هو اكثر اختصاراً وايجازا من تلمود بابل (٢٠٠-٦٥٠) ، ويضم هذا الأخير ٨٧٤٤ صفحة[٩] . وقد أكملت قوانين السلوك (هالاجا) ، المصنفة في الميشنا ، اكملت في التلمود بواسطة الأجادا ، وهي مجموعة تعليمات أخلاقية ودينية ، ويعض الارشادات الماورائية والصوفية وحتى بعض المواد الفولكلورية .

إن تلمود بابل شغل وظيفة حاسمة في تاريخ الشعب اليهودي : اظهر كيف انه يجب على اليهودية ان تتلاءم مع مختلف الأوساط الاجتماعية السياسية للدياسبورا . وقد سلف في القرن الثالث لمعلم من بابل أن أعلن هذا المبدأ الأساسي : تشريع الحكومة النظامي يشكل القانون الشرعي الوحيد ويجب احترامه من قبل اليهود . وهكذا فإن شرعية السلطات الحكومية تتلقى اجازة من النظام الديني . أما فيما يخص القانون المدني ، فإن اعضاء الجماعة مكلفون بعرض نزاعاتهم امام المحاكم اليهودية .

والتلمود محكوم عليه في جملته ، ومع اعتبارات محتواه وهدفه ، لا يبدو أنه قد أعطى أهمية للتعليم الفلسفي . ومع ذلك اوضح بعض الباحثين اللاهوتية ، البسيطة واللطيفة معا ، والمبادىء الباطنية كذلك ممارسات النظام التلقين المشار إليها جميعها في التلمود[١٠] .

وبالنسبة لموضوعنا هنا ، يكفي (المرور سريعاً بالقاء نظرة) لاستعراض الاحداث التي ساهمت بتثبيت تكوينات اليهودية المتوسطية (القرون الوسطى) . لقد كان البطريرك ، المعترف به رسميا كمماثلة الحاكم الروماني Prefet يرسل مبعوثين إلى الجماعات اليهودية لجمع الرسوم ويوصل إليهم تقويم الاعياد . وفي ٣٥٩ قرر البطريرك هيليل الثاني تثبيت التقويم بالكتابة ، بهدف ضمان تواقت الأعياد في كل مكان في فلسطين وفي الدياسبورا . وهذا الاجراء أظهر كل أهمية عندما الغيت بطريركية فلسطين من قبل الرومان في سنة ٤٢٩ . ومنذ عصر الساسانيين (٢٢٦-٦٣٧) ، وبفضل تسامحهم الديني ، أصبحت بابل المركز الأكثر أهمية للشتات (دياسبورا) . وقد استمر هذا الوضع المتميز بعد الفتح الاسلامي . وكل الجماعات اليهودية للدياسبورا الشرقية اعترفت بسيادة(الغادونduGaon) المعلم الروحي ، الحكيم والرئيس السياسي ممثلاً للشعب أمام الرب وامام السلطات . وان عصر الغاوونيم المبتديء حوالي ٦٤٠ انتهى في ١٠٣٨ ، عندما تحول مركز الروحانية اليهودية في اسبانيا ، الا أنه في هذا التاريخ ، كان قد اعترف بالتلمود البابلي عالميا كتعليم مرخص به من الربانية rabbanisme ، أي اليهودية التي اصبحت معيارية .

وكانت الربانية قد انتشرت بواسطة المدارس (من المدرسة الابتدائية حتى الاكاديمية Yeshiva) والكنيس Synagague والمحاكم . وكان الطقس الكنسي ، الذي حل محل الاضاحي في الهيكل ، يتضمن صلوات الصباح وبعد الظهر والجهر بالعقيدة الدينية («اصغ ، يا اسرائيل ، السيد ربنا هو اله واحد !» والثمانية عشر (ثم التسعة عشر) تبريكات ، وصلوات قصيرة معبرة عن آمال الجماعات والأفراد . وثلاث مرات في الاسبوع - الاثنين ، الخميس ، السبت - كان الكتاب يقرأ في الكنيس - وأيام السبت وأيام الاعياد كانت تجرى قراءة علنية لأسفار التوراة والانبياء ، يتبعها عظات أو خطب اخلاقية من الربانيين .

وفي القرن التاسع ألف أحد الغاونات أول مجموع للصلوات ، بهدف تثبيت النظام اللاهوتي . ومنذ القرن الثامن كان قد أحدث في فلسطين شعر كنسي جديد ، وقبل بسرعة . ثم فيما بعد وحتى القرن السادس عشر الفت قصائد دينية اخرى وادخلت في خدمة الكنيس .

مع ذلك فإن التقليدية المتعصبة والجذرية المفروضة من قبل الجاوونيم ، كانت تثير أحيانا ردات ضد الربانيين . وبعضها المستوحى بالمباديء المذهبية القديمة لفلسطين أو بالاسلام ، قد حذف بسرعة . غير ان حركة منشقة انبثقت في القرن التاسع ، موجهة من قبل آنان بن دافيد . اخذت بسرعة علاقات مهددة ، وهذه الحركة المعروفة باسم (كاراتيس Karaites) أي المعترفين بسلطة الكتاب فقط رفضوا الشريعة الشفاهية (التعليمية رابانية) واعتبروها مجرد عمل بسيط من البشر . وكان الكتبة كاراتيس اقترحوا التفحص الواعي والنقدي للكتاب المقدس من أجل استعادة العقيدة والتشريع الرسمي ، كما طالبوا إضافة إلى ذلك برجوع اليهود إلى فلسطين ، بهدف التعجيل لمجيء المسيح . وفي الواقع ، وتحت قيادة دانيال الكوميكي (حوالي ٨٥٠) استقر في فلسطين جماعة من الكارايت ونجحوا في نشر افكارهم حتى إلى افريقيا الشمالية الشرقية ، واسبانيا . وكانت ردة فعل الجاوونيم نشطة جداً فألفوا العديد من القوانين والموجزات المصدِّقة والمدعمة للربينية ، والمعتبرة ضد الهرطقة . وفقدت دعوة الكرايتيين اندفاعها ، غير أن المذهب استمر في الحياة في بعض الأوساط الهامشية . مع ذلك وكما سنرى ، فإن اكتشاف الفلسفة الاغريقية عبر الترجمات العربية ، مع أنها نشطت العبقرية الفلسفية اليهودية ، فقد شجعت أيضاً بعض النظريات الشاذة ، بل الفاضحة . ويكفي التذكير بأن هيوي ـ البالكي ، كاتب متشكك من القرن التاسع ، قد هاجم اخلاقية التوراة ونشر طبعة منقحة لأستعمالها في المدارس .

٢٨٦ ـ لاهوتيون وفلاسفة يهود في القرون الوسطى

لقد أجهد فيلون الاسكندري (٥٤-١٣ ق.م) نفسه لتوفيق الكشف التوراتي مع الفلسفة الاغريقية ، ولكنه كان مجهولاً من قبل المفكرين اليهود ولم يكن له تأثير سوى على لاهوت الآباء المسيحيين . وليس سوى في القرن التاسع والعاشر ، ان اليهود قد اكتشفوا الفكر الاغريقي بفضل الترجمات العربية ، وتلاقيا مع المنهج الاسلامي (الكلام) بتبرير الدين بالعقل . وكان أول فيلسوف يهودي هام ، هو الجاوون سعديا بن يوسف

(٨٨٢ ـ٩٤٢) المولود والمتعلم في مصر ، وقد أقام في بغداد ، حيث أدار أكاديميات تلمودية بابلية شهيرة . ومع انه لم يقم منهجاً ولم يبدع مدرسة ، فإن سعديا يشكل النموذج لفيلسوف يهودي[١٢] . وفي كتابه التبريري عن الدين (كتاب العقائد والآراء) المكتوب باللغة العربية ، عرض العلاقة بين الحقيقة الموحى بها والعقل . فالاثنتان تصدران عن الله ، ولن تكون التوراة هبة أو عطاء خاص للشعب اليهودي . هذا الشعب المحروم من دولة مستقلة ، فإن وحدته وكرامته تقومان حصراً بفضل طاعته للشريعة[١٣] .

وفي بداية القرن الحادي عشر ، تحول المركز الثقافي اليهودي نحو اسبانيا المسلمة . وقد عاش سلمون بن جابيرول في مالاقا ما بين ١٠٢١ـ١٠٥٨ . وأصبح شهيراً ، خاصة بسبب قصائده ، التي أدخل اكثر ما هو معروف منها في الطقس الديني ليوم الغفران (يوم كيبور) . وفي كتابه الذي لم يكتمل (منبع الحياة ـ ماجورهايينم) يستعير النشكونية الافلاطونية للصدورات ، إلا أنه بدلاً عن العقل الأعلى ، أدخل بن جابيرول مفهوم الارادة الالهية ، وبعبارة اخرى ، فإن يهوه هو دوما الذي خلق العالم . ويفسر ابن جابيرول المادة وكأنها واحدة من الصدورات ، مع ذلك فإن هذه المادة كانت من نظام روحي ، وجسمانيتها هي واحدة فقط من مزاياها . وقد ترجم كتاب الماجورهاييم المهمل من قبل اليهود تحت عنوان (فونس فيتاي) وقد قدرعاليا من قبل اللاهوتيين المسيحيين[١٥] .

ويكاد ان يكون مجهولاً كل شيء عن باهيا بن باكادا الذي عاش على الأرجح في القرن الحادي عشر في اسبانيا . وفي رسالته عن الأخلاق الروحية ، المؤلفة باللغة العربية «مدخل لواجبات القلوب» يصر ابن باكادا ، بخاصة ، على التقوى الداخلية . ان كتابه هو في ذات الوقت صورة روحية ذاتية «فمنذ الاستهلال ، يذكر هذا الفقيه اليهودي كم هو وحيد ، وكما هو يتألم من عزلته . وقد كتب كتابه كردة فعل ضد محيطه ، متمسك جداً بالشريعة على هواه ، وبهدف الاستشهاد بأن يهوديا ، على الأقل ، كافح ليعيش ، كما تريد رسمية التقليد اليهودي ، وفق القلب ، كما هو وفق الجسد [. . . .] . وفي الليل بخاصة ، يشعر باهيا بتفتح روحه . حينئذ في هذه الساعات الموقوفة للحب والتي يخلد فيها الزوج والزوجة في عناقهما يكون باهيا حبيب الله : جاثيا

على ركبتيه ، يمضي ساعات من الانتشاء في الصلاة الصامتة ، واصلاً هكذا إلى الذروة التي تقود نحوها الممارسات التنسكية اليومية ، الخشوع وامتحان الايمان ، والورع الدقيق»[١٦] .

وجودا هاليفي (١٠٨٠-١١٤٩) هو كابن جابريول شاعر ولاهوتي معا . وفي دفاعه عن الدين المزدري به، يقوم الحورات بين فقه مسلم ، ومسيحي ، وعالم يهودي وملك الخزر . وفي نهاية المحادثات ، يعتنق هذا الأخير اليهودية . وعلى شاكلة الغزالي يستعمل جودا هاليفي محاولة المسيرة الفلسفية لكي يعارض صحة الفلسفة . ان اليقين الديني لا يحصل عليه بواسطة العقل ، وانما بالوحي أو الكشف التوراتي ، كما أقره الشعب اليهودي . فاختيار اسرائيل أقر بواسطة الروح النبؤية ، وأي فيلسوف وثني لا يصلح نبياً . وان انطلاقة النبؤة متضامنة مع الطاعة لأوامر الشريعة والقيمة القدسية للأرض المقدسة (قلب القوميات) الحقيقي . وان التنسك لا يلعب أي دور في تجربة جوداها ليفي الصوفية .

٢٨٧ ـ الميمونية بين اريسطو والتوراة

ان موسى بن ميمون (المولود في قرطبة ـ ١١٣٠ والمتوفي في القاهرة سنة ١٢٠٤) هو رابان ـ معلم ، طبيب ، وفيلسوف ويمثل قمة الفكر اليهودي القروسطي . وقد تمتع ، ومازال يتمتع بتقدير استثنائي ، ولكن عبقريته المتعددة الخصائص والفقدان الظاهر لوحدة عمله افسحت المجال لمعارضات له لا حد لها[١٧] . ولقد الف ميمون عدداً من الكتب الهامة في التفسير (الاكثر شهرة منها ، تفسيرات الميشنا وتوراة الميشنا) ورسالة فلسفية شهيرة (دليل المحتارين) باللغة العربية في ١١٩٥ . وحتى يومنا هذا يقدر بعض المؤرخين والفلاسفة اليهود ان الفكر الميموني مميز بتفرعات ثنائية لا تغلب : فمن جهة ، المبادىء التي تستوحيها اعمالها بالتفسير والتشريعية (التي هي مبادي الحلقة halaka) ، ومن جهة أخرى ، الماورائية المصاغة في دليل المحتارين والتي يوجد مصدرها عند اريسطو[١٨] .

ونؤكد منذ البداية أن ميمون كان له اكبر احترام فدعي «امير الفلاسفة» و(«الممثل الأسمى للعقل البشري بعد انبياء اسرائيل») والذي لم يدخر وسعاً للتوفيق بين اليهودية التقليدية وفكر اريسطو[١٩] . ولكنه بدلاً عن البحث بمهارة عن التوافق بين التوراة والفلسفة الارسطالية ، بدأ ميمون بالفصل بينهما ، «محافظا هكذا على التجربة التوراتية ، بدون أن يحاول عزلها دائماً عن التجربة الفلسفية ومعارضتها معها جذرياً ، كما فعل الغزالي وجودا هاليفي . فالتوراة والفلسفة مرتبطتان عند ميمون ، هما يشتقان من ذات الجذور ، ويتجهان نحو ذات القمة . ولكن الفلسفة في هذه المسيرة المشتركة ، تلعب دور الطريق ، في حين ان التوراة توجه الانسان الذي يتقدم عليها»[٢٠] .

بالتأكيد ان الفلسفة ، تشكل ، بالنسبة لميمون نظاماً متيناً ، كما تشكل نظاما خطراً عندما تفهم بشكل سيء . ولا يباح التكريس لكمال العقل الا بعد ادراك الكمال الخلقي (بمراعاة الشريعة)[٢١] .

إن الدراسة الميتافيزيكية المعمقة ليست الزامية لكل اعضاء الجماعة ، ولكن على الجميع ، اتباع الشريعة وترافقها بالتأمل الفلسفي . إن التثقيف العقلي يشكل فضيلة أعلى من الفضائل الخلقية . وقد ركز ميمون في ١٣ أطروحة جوهر الميتافيزيك ، معتبرا أن هذا هو الحد الأدنى النظري هو ما يجب التأمل فيه وتمثله من كل واحد من المؤمنين لأنه لم يتردد عن التأكيد بأن المعرفة للنظام الفلسفي هي شرط ضروري لضمان استمرارية الحياة بعد الموت[٢٢] .

وتماما كغيلون وكسعديا عكف ميمون على ترجمة الأحداث التاريخية ولغة التوراة بلغة فلسفية . وبعد ان نقد وطرح الأفكار الهرمسية من نوع علم الكلام ، ابرز واستعمل مسيرة اريسطو . وبالتأكيد ، إن أي برهان لم يستطع توفيق ازلية العالم المؤكد عليها من قبل اريسطو والخلق من العدم exmihilo ، المعلنة في التوراة . غير ان هاتين الاطروحتان ، بالنسبة لميمون ، لهما مشترك وهو انهما لا تقدمان ادلة يتعذر دحضهما . وحسب رأي الفقيه اليهودي ان التكوين genèse لا يؤكد (الخلق من العدم كحقيقة : إنه يوحي به ، ولكن تفسيراً رمزياً يمكن له أن يفسر النص التوراتي في معنى الاطروحة الاغريقية . فلا يمكن للجدل اذن أن يحسم الا بفضل معيار خارج اليقين التوراتي : هذا المعيار هو سيادة الرب وتعاليمه بالنسبة للطبيعة[٢٣] .

ولكن ميمون ، رغم عبقريته لم ينجح ، أبداً بالبرهان على تماهي الاله ـ المحرك الخالـد عند اريسطو ، مع الاله ، الحر الكلي القدرة والخالق في التوراة . ومن جهة أخرى ، يؤكد ان الحقيقة ، يجب لها ، وهي تستطيع ، ان تكتشف خاصة ، بالعقل ، وبعبارة أخرى ، بفلسفة اريسطو ، وباستثناء موسى ، يرفض ميمون صحة الكشوفات النبوية ، ويعتبرها كعمل تخيل . إن التوراة التي تلقاها موسى هي أثر وحيد وصالح لكل الأزمنة وبالنسبة لأكثرية المؤمنين ، تكفي دراسة التوراة واحترام محرماتها .

والاخلاق عند ميمون هي تركيب بين التراث التوراتي والنموذج الارسطوطالي ، وفي الواقع ، انه يمجد الجهد العقلي والمعرفة الفلسفية . وان مسيحيته هي ارضية صرفة : «مدينة بشرية مؤسسة على اكتساب معرفة مثيرة لممارسة عفوية للفضيلة»(٢٤) . وبدلاً من قيامة الأجساد يعتقد ميمون بخلود متحصل بالمعرفة الميتافيزيكية . ومع ذلك ، فإن بعض المفسرين لفتوا الانتباه حول ما يمكن تسميته «اللاهوت السلبي» لميمون . «بين الرب والانسان ، يوجد العدم والهاوية [. . . .] ، كيف يمكن اجتياز هذه الهاوية ؟ بقبول العدم ، بدئيا . ان سلبية القرب الالهي ، وعدم امكانية ادراك الله في المنظور الفلسفي ليسا سوى صور من أجل هذا الترك للانسان إلى العدم : وانه بالتقدم عبر العدم يتقرب الانسان من الله [. . .] . في بعض الفصول البارزة من دليل المحتارين ، يظهر ميمون كيف ان كل صلاة يجب ان تكون صمتا وكيف ان كل متابعة يجب ان تهدف أو تتجه نحو شيء ما اكثر رفعة ألا وهو الحب . فبالحب ، يمكن ايجابياً اجتياز الهوة بين الله والانسان : بدون فقدان شيء من صرامته يقام اللقاء بين الله والانسان»(٢٥) .

وتقتضي الملاحظة من الآن ، ان الفكر الفلسفي اليهودي ، رغم التأثيرات ، التي هي من جهة اخرى كثيرة أو قليلة في سطحيتها ، لفلاسفة اغريق ، وهيللنستين ومسلمين أو مسيحيين ، لم يفقد قوته ولا أصوليته . وبأقل من التأثيرات ، يتعلق بالأولى بحوار مستمر بين المفكرين اليهود وممثلي مختلف النماذج الفلسفية للوثنية القديمة ، وللاسلام والمسيحية . هذا الحوار ترجم بالاغناء المتبادل للمتحاورين ويوجد وضع مشابه في تاريخ التصوف اليهودي (ف ٢٨٨ع) . وفي الواقع ، ان العبقرية الدينية اليهودية تتميز في آن واحد بالاخلاص للتقليد التوراتي ، وبالقدرة على تحمل عدد من

«التأثيرات» الخارجية ، بدون ان تحكم من قبلها مطلقاً .

٢٨٨ ـ التعابير الأولى للتصوف اليهودي

إن علم تشكل (مورفولوجيا) التجربة الصوفية اليهودي غني ومعقد . وقبل التحليلات التي سنوردها ، تحسن الاشارة لبعض الخطوط المميزة . فباستثناء الحركة المسيحانية المعلنة من قبل ساباتي زوي Sabbatai Zwi (ف ١٢٩١ع) ، لم تنفصل أية مدرسة أخرى عن اليهودية المعيارية رغم التوترات الظرفية ، قلت أو كثرت مدتها مع السنة التعليمية (رابانية) . أما بالنسبة للباطنية التي تميز التصوف اليهودي منذ البدء ، فقد شكلت لوقت طويل جزءاً من التراث الديني اليهودي (ان نظر ـ ما سبق بحثه جزء ٢ من هذا الكتاب) .

كذلك الأمر ، فإن العناصر الغنوصية ، المتكشفة قليلاً في كل مكان ، تشتق في آخر مطاف من غنوصية يهودية[٢٦] . ويضاف إلى ذلك بأن التجربة الصوفية العليا أي الاتحاد مع الله ، تبدو على الاكثر استثنائية . وبصورة عامة فإن بداية التصوف هي رؤية الله ، وتأمل عظمته وادراك اسرار الخلق .

ويتميز أول مظهر للتصوف اليهودي بالأهمية المعطاة للتصاعد الوجدي حتى العرش الالهي الميركبة la merkaba* . وهذا التقليد الباطني المتأكد سابقاً في القرن الأول قبل المسيح ، يتمدد حتى القرن العاشر[٢٧] . عالم العرش ، مكان ظهور العظمة الالهية يتناسب ، بالنسبة للتصوف اليهودي ، مع البليروم Plérome («الطوبى») للغنوصيين المسيحيين والهرمسيين . وان النصوص ، القصيرة والغامضة في اكثر الأحيان مشار اليها بـ «كتب الهيكهالوث livres des Hekhaloth» («قصور سماوية») . إنها تصف العزف والقصور التي يعبرها الرائي في سفره قبل الوصول إلى سابع وآخر قصر (hekal) هيكهال) ، حيث يوجد عرش الجلال ، وان السفر الوجدي ، المسمى في البدء

---

* المركبة عند المسلمين هي الرفرف الأعلى .

«صعـود نحو الميركابا» جرت الدلالة عليه ، حوالي ٥٠٠ ، لأسباب مجهولة ، «النزول نحو الميركابا» . وبالتناقض ، فإن أوصاف «النزول» تستعمل توريات تصاعدية .

ومنذ البداية ، يبدو ان المقصود هنا جماعات سرية منظمة بإحكام ، وكشفت مذهبها الباطني وطرقها للمتلقين فقط . ويتوجب على المبتدئين ان يمتلكوا باكثر من الصفات الخلقية ، بعض المزايا الهامة كالفراسة وقراءة الكف .

وقد كان يتم تحضير السفر الوجدي خلال اثني عشر يوماً أو اربعين يوماً من الممارسات التنسكية : صيام ، أغاني طقوسية ، ترداد الاسماء ، وضع خاص (الرأس بين الركبتين) .

ومن المعلوم ان صعود الروح عبر السماوات ، والاخطار التي تواجهها ، كانت نغمة عامة في الغنوصية والهرمسية للقرنين الثاني والثالث . وكما كتب جيرشوم شوليم ، فإن صوفية الميركابا تشكل واحدة من الفروع اليهودية للغنوص (العرفان)[٢٩] .

مع ذلك ، فإن محل الأرخونات Archontes ، الذين كانوا عند الغنوصيين يدافعون عن السماوات السبعة السيارة ، قد أخذ ، في هذه الغنوصية اليهودية ، من قبل «البوابين» القائمين على يمين ويسار مدخل القاعة السماوية . وفي الحالتين تحتاج الروح كلمة المرور : خاتماً سحرياً ، متضمناً اسما سريا ، يبعد الشياطين والملائكة المعادية . وبمقدار ما يتتابع السفر تصبح الاخطار اكثر عنفاً . وتظهر التجربة الأخيرة على جانب من الغموض وكلغز وفي فقرة محفوظة في التلمود ، يتوجه الرابي اكيبا للرابين الثلاثة حيث كانت نيته الدخول إلى «الفردوس» ويقول لهم : «عندما ستصلون أمام صفائح الرخام المتلألىء لا تقولوا ابداً : ماء ، ماء . لأنه كتب : «من يتلفظ بالأكاذيب لن يقيم بحضرتي» وفي الواقع ، إن البريق المبهر لصفائح الرخام التي بلط بها القصر ، كانت تعطي الانطباع عن امواج المياه[٣٠] .

واثناء السفر ، تتلقى الروح كشوفات متعلقة باسرار الخلق وتراتبية الملائكة وبممارسات السحر الابيض . وفي أعلى سماء ، واقفة أمام العرش «تتأمل (الروح) الوجه الروحي للألوهية في رمز «الوجه الذي له مظهر وجه انسان» والذي كان رخص للنبي

حزقيال برؤيته على عرش الميركابا . لقد كان كشف له هنالك «مقياس الجسد» . شيور كوما ، في العبرية ، اي تمثيل بشري للألوهية ، ظاهرة كالانسان الأول ، ولكن ايضاً كعاشق نشيد الانشاد . وفي ذات الوقت تتلقى (الروح) كشف الأسماء السرية لاعضائه»(٣١) .

ونواجه عرض الاله الغير مرئي لليهودية في صورة صوفية يتكشف فيها «الجلال الكبير» للرؤوية والأناجيل المزورة لليهودية . . غير ان هذا التمثيل المصور للخالق (من ردائه الكوني شعت النجوم والكواكب . . الخ) يتطور بدءاً «من مفهوم توحيدي مطلق ، تنقصه الخاصية الهرطقية والتناقضية التي كان قد اعتمدها عندما كان الاله الخالق مقابلاً للاله الحقيقي»(٣٢) .

وإلى جانب الكتابات المتعلقة بالميركابا ، يشاهد في القرون الوسطى انتشار نص أصبح مشهوراً في كل بلدان الشتات ، دياسبورا ، وهذا النص مؤلف من بضع صفحات (سفر ياتسيرا أي كتاب الخلق) . إن تاريخ ومصدر هذا الكتاب مجهولان ، ومن المرجح انه ألف في القرن الخامس والسادس) .وهو يتضمن عرضا موجزاً للنشكونية والكورمولوجيا . وقد جهد كاتبه لأن «يوفق افكاره المتأثرة ، تأكيداً ، بمصادر إغريقية ، مع الانظمة التلمودية المناسبة لمبدأ الخلق والميركابا ، وعبر هذا المشروع نصادف لديه ، لأول مرة ، تفسيرات معادة ذات اتجاه تلقيني لمفاهيم تمس الميركابا»(٣٣) .

ان القسم الأول يقدم الـ «٣٢ طريقة عجيبة للحكمة (لا هوكهما أو صوفيا) التي بها خلق الله العالم (ف ٢٠٠ع) : ال ٢٢ حرفاً من الاحرف الهجائية المقدسة والـ ١٠ اعداد الأولية (السيفيروس) . وأول سيفيرا هو الروح (رواه Ruah) الاله الحي . ومن الروح Suah خرج الهواء الأولي ، الذي منه تولد الماء والنار ، ثالث ورابع السيفيروس . ومن الهواء الأولي خلق الله الـ ٢٢ حرفاً . ومن الماء خلق المتاهة الكونية ، ونار عرش الجلال وتراتبيات الملائكة . والسيفيروس الستة الأخيرة تمثل الاتجاهات الستة للفضاء(٣٤) .

وان التعليم في موضوع السيفيروس المزركش بروحانية الحروف ، له على الأرجح أصل افلاطوني محدث ، غير ان فكرة «الحروف التي بواسطتها خلقت السماء والأرض» يمكن تجديد تفسيرها في اليهودية[٣٥] .

«ومن هذه النشكونية والكوزمولوجيا المؤسسة على روحانية اللغة ، التي تفضح بوضوح ايضاً العلاقة مع الافكار التنجيمية ، ولطرق توصل مباشرة وبكل وضوح إلى مفهوم سحري لقوة خلاقة وعجائبية للحروف والكلمات»[٣٦] . وقد استعمل سفر يتسيرا Supher Yetsira = كتاب الخلق لأغراض توما تورجية (صنع المعجزات) thaumatuegiques . وقد أصبح الرفيق الملازم Vade-mecun للسلفيين Kabbalintes وشرح من قبل كبار المفكرين اليهود في العصر الوسيط ، من سعديا وحتى الساباتي دونونو .

ان التقوية le piétisme اليهودية القروسطية هي من عمل «ثلاثة رجال اتقياء من المانيا» (حصيدي اشكيناز) : صموئيل ، وابنه جودا الحصيدي واليعازر دي وورم . وقد ظهرت الحركة في المانيا في بداية القرن الثاني عشر وغرقت عصرها من الابداعية ما بين ١١٥٠ و ١٢٥٠ . ومع انها تفرز جذورها في صوفية الميركابا وسفر يتسيرا ، فإن تقوية ربنان هي ابداع أصولي وجديد . ويمكن ان يلاحظ فيها العودة إلى بعض الميتولوجيا الشعبية ، غير ان الحصيديين يرفضون التعاليم الرؤوية والحسابات المتعلقة بمجيء المسيح . كذلك ، فإنه لا العلم الربانيين ولا اللاهوت التقليدي يعنيهما الأمر في شيء . انهما يتأملان بصورة خاصة سر الوحدانية الالهية ويجهدان لتطبيق مفهوم جديد للتقوى[٣٧] . وخلافاً للسلفين (القبالين) الاسبان (ف ٢٨٩ع) فإن المعلمين الحصيديين يتوجهون إلى الشعب .

وان المؤلف الرئيسي للحركة سفر الحصيدية sepher Hassidim ـ يستعمل بخاصة طرائف ونقائض وقصص تدعو إلى التقوى . وتتركز الحياة الدينية على التنسك ، والصلاة وحب الله . لأنها في مظهرها الأكثر سمواً ، تماهي الخوف من الله بالورع تجاهه وبحبه[٣٨] .

وقد أجهد الحصيديون انفسهم للحصول على نقاء كامل للروح : فقبلوا وهم رابطو الجأش ، الاهانات وتهديدات الاعضاء الآخرين من الجماعة[٣٩] .

انهم لا يسعون إلى السلطة ، ومع ذلك فإنهم يمتلكون طاقات سرية ـ سحرية[٤٠]

إن توبات الحصيديين تستعير بعض التأثيرات المسيحية ، ما عدا ما يتعلق بالجنس . اذ من المعلوم ان اليهودية لم تقبل مطلقاً هذا النوع من التنسك . ولوحظ من جهة اخرى ميل حلولي كبير . فالرب هو اكثر قرباً من العالم ومن الانسان من قرب الروح من الانسان[٤١] .

ولم ينشر حصيدو المانيا حكمة فلسفية نموذجية ، مع ذلك يمكن تمييز ثلاثة افكار مركزية ، مشتقة على الأغلب من منابع مختلفة ١) مفهوم (المجد الالهي) كابود Kabod ٢) فكرة الكروبي (قديس) Cherub القائم قرب العرش ، بامتياز* ٣) اسرار القداسة والعظمة الا لاهيتين واسرار الطبيعة البشرية وخط سيرها نحو الله[٤٢] .

٢٨٩ ـ القبالة المتوسطية .

إن (القبالا) كانت ابداعا استثنائياً للتصوف الباطني اليهودي ، وهو مصطلح يعني على وجه التقريب «سنة ، سلفية ، تقليد» (من الجذر قبل KBL (تلقى) . وكما سنرى ، فإن هذا الابداع الديني ، ببقائه أمينا على اليهودية ، اعاد تجميع إما التراث الغنوصي ، المشوب أحيانا بالهرطقة ، واما بني التدين الكوني[٤٣] (المشار إليه أحيانا بشكل غير دقيق بالحلولية) ؛ الأمر الذي أثار، لامحالة توترا صعباً بين المتبنين لاحدى القبالات والسلطة الربينية . يضاف إلى ذلك منذ الآن . ان القبالا ، رغم هذا التوتر ، ساهمت في تقوية ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، المقاومة الروحية للجماعات اليهودية في الشتات ، واضافة إلى ذلك فإن القبالا ، مع انها غير معروفة بما فيه الكفاية ومفهومة بشكل ضعيف جداً من قبل بعض الكتاب المسيحيين ، اثناء وبعد النهضة ، لعبت دوراً

* ـ في لسان العرب : الكروبيون سادة الملائكة ، منهم جبريل وميكابيل واسرافيل ، هم المقربون وفي شعر لأمية بن الصلت كروبية منهم ركوع وسجد . . (المعرب) .

في عملية «عدم ريفية» المسيحية الغربية ، وبعبارة أخرى شكلت قسماً من تاريخ الأفكار في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر .

إن أقدم اطروحة للقبالة بمعنى الكلمة توجد في الكتاب المسمى بهير Bahir ، والذي نقلت نصوصه في حالة ناقصة ومبعثرة ومؤلفة من علة أرومات ، وهو غامض اخرق . وقد قمّش البهيرفي بروفانس ، في القرن الثاني عشر ، بدءاً من مواد اكثر قدما ، ومن بينها راز رابا Raza Rabba («السر الأعظم») ، الذي رأى فيه بعض الكتاب الشرقيين كتابة باطنية هامة[٤٤] . إن الأصل الشرقي ، وبدقة اكثر الغنوصي ـ للمبادئ المنتظمة في البهير ليس موضع شك . ففيه توجد تعاليم الكتاب الغنوصيين القدامى المؤكدة في مختلف المصادر اليهودية : الأيونات les Eons المذكرة والمؤنثة ، و(الطوبي) بليروم ، وشجرة الأرواح ، والشيخينا la Shekhina أي (حضور الرب مع الشعب المختار اينما كان) موصوفة بعبارات مشابهة لتلك العبارات المستعملة بالنسبة للحكمة المزدوجة (ابنة وزوجة) الغنوصيين[٤٥] .

إن مسألة علاقة ممكنة «بين تبلور القبالا ، تحت شكل تحرير البهير ، والحركة المانوية بقيت مع ذلك غير دقيقة . وهذه العلاقة تنقصها الدلائل الدقيقة ، ولكنه لن يعرف استبعاد الامكانية . ففي تاريخ الفكر ، ان كتاب البهير يمثل التكرار ربما الواعي ، وانما المعزز تماماً بالواقع ، برمزية عتيقة ليس لها مثيل في اليهودية القروسطية ، ومع نشر كتاب البهير ، فإن شكلا يهوديا للفكر الاسطوري يدخل في مزاحمة ، ولا محال ، بتناقض مع الصيغ الربينية والفلسفية لهذه اليهودية»[٤٦] .

وفي الأساس طوّر قباليو البروفانس نظرياتهم حول قاعدة بهير . فقد اكملوا السنة الغنوصية القديمة ذات المصدر الشرقي بعناصر لعالم روحي آخر ، وبخاصة الافلاطونية المحدثة للقرون الوسطى . «وفي الشكل الذي ظهرت فيه القبالا للوجود ، اشتملت على هذين التقليدين ، والتشديد وضع حينا على احداهما ، وحينا على الأخرى . وانما تحت هذه الصورة ، أو الصورة المزدوجة ، قد غرست في اسبانيا»[٤٧] .

وبالرغم من احترامها للتقنية الصوفية ، فإن الوجد لم يلعب دوراً هاما ، وفي الأدب القبالي الضخم يوجد قليل من العودات إلى التجارب الوجدية الشخصية ، ونادراً

جداً إلى التوحد الصوفي . وقد اشير إلى الاتحاد مع الله بعبارة دفيكوس dvekuth[٤٨] و«اذعان» و«اتصال بالله» ، وهي حالة من النعمة تتجاوز الوجد . وهذا ما يفسر ان الكاتب الذي قيَّم الوجد كثيراً كان الأقل شعبية ، انه يتعلق بابراهيم ابولافيا المولود في سراغوسة سنة ١٢٤٠ والذي سافر كثيراً في الشرق الادنى ، واليونان وايطاليا . وقد انتشرت مؤلفاته العديدة عن طريق الربيين ، وبشكل اكثر دقة ، بسبب طبيعتها الشخصية جداً .

وطوَّر ابولافيا تقنية وسطية حول اسماء الله بتطبيقه العلم التركيبي للحروف الهجائية العبرية . ولكي يوضح العمل الروحي الذي يؤدي لتحرير الروح من قيود المادة ، استعمل صورة عقدة يجب فكها لا قطعها . وقد استحضر ابولافيا كذلك بعض ممارسات من نوع اليوجا : الايقاع التنفسي ، وضعيات خاصة للجسم ، انواع مختلفة من التلاوة الخ . . . .[٤٩] . وبواسطة اشراك وقلب الحروف ، ينجح المريد بالحصول على التأمل الروحاني والرؤية النبوية . ولكن وجده ليس رعشة ، لقد وصفه ابولافية وكأنه غفران متقدم . وعليه ، فإن المريد اثناء الوجد يمتلىء بنور مما وراء الطبيعة[٥٠] «ان ما اسماه ابولافيا وجداً ectuse هو الرؤية النبوية في المعنى الذي فهمه ميمون والمفكرون اليهود في القرون الوسطى ، والاتحاد العابر للعقل البشري مع الرب ، والسائل العصبي في الروح الشخصية للعقل الفعَّال للفلاسفة»[٥١] .

ومن الراجح جداً ، ان تأثير أبو لافيا واحترامه بعد وفاته كانا محدودين جذريا بظهور ، (كتاب العظمة) في اسبانيا بعد وقت قصير من ظهور (سفرهازدهار) بعد سنة ١٢٧٥ ، فقد لاقى هذا الكتاب الضخم (زهاء ١٠٠٠ صفحة) في طبيعته الآرامية ، نجاحاً منقطع النظير في تاريخ القبالا . والنص الوحيد الذي اعتبر ككتاب قانوني . وضع خلال قرون من الزمن إلى جانب التوراة والتلمود . ان كتاب الزوهار المكتوب تحت شكل Psemdépigraphique يقدم المناقشات اللاهوتية والتعليمية للرابي الشهير سيمون بار يوشاي (القرن الثاني) مع اصدقائه وتلامذته ، وخلال زمن طويل اعتبر العلماء (كتاب العظمة) كجمع لنصوص من أصول متنوعة ، يتضمن بعضها افكار ر. سيمون ، غير ان جيرشوم شوليم أظهر ان كاتب هذه «الرواية الصوفية» هو القبالي الاسباني موسى من ليون[٥٢] .

وحسب شوليم ، فإن الزوهار يمثل الحكمة اليهودية ، أي نظرية صوفية هدفها الأساسي معرفة ووصف أعمال الله الخفية . فالرب الخفي مجرد عن الصفات والنعوت ، ويسميه الزوهار والقباليون (اينسوف) أي اللانهائي . ولكن بما ان الرب الخفي فعال في أي مكان في الكون ، فإنه يظهر بعض النعوت ، التي تمثل بدورها بعض المظاهر للطبيعة الإلهية .

وحسب القبالين ، يوجد عشرة صفات اساسية للرب ، التي هي في ذات الوقت المستويات العشر التي تدور عبرها الحياة الالهية . إن اسماء هذه السفيروس Saphiroth العشرة تعكس الطرائق المختلفة للظهورات الالهية[٥٣] وهذه السفيروس مجتمعة تؤلف العالم الموحد لحياة الرب وهي متخيلة تحت شكل (الشجرة الصوفية للرب) أو شكل رجل (آدم كادمون ، الانسان الأول) . وإلى جانب هذا الرمز العضوى ، يستعمل الزوهار رمزية الكلام ، الاسماء التي اعطاها الرب إلى ذاته .

فالخلق وجد في الرب ؛ وتلك هي حركة الإبن - سوف = اللانهائي الخفي ، الذي يمر من الراحة إلى النشكونية إلى الكشف الذاتي . وهذا العمل يحول الاينسوف ، والنعيم الفائق الوصف ، إلى «عدم» صوفي تنبثق عنه السيفيروس . وفي الزوهار ان التحول من العدم لكائن عُبِّر عنه برمز نقطة البدء[٥٤] . ويؤكد مقطع (١-٢٤٠) ان الخلق جرى على مستويين «مستوى أعلى ومستوى ادنى» أي عالم السفيروس والعالم المرئي . وإن الكشف الذاتي للرب ونشره في حياة السفيروس يشكل مبحثاً لأصل الآلهة . «أصل الآلهة والنشكونية لا تمثلان عملين مختلفين من الخلق ، انما مظهران لذات العمل»[٥٥] . في الأصل كل الاشياء شكلت كلا كبيراً ، وحياة الخالق نبضت في حياة مخلوقاته . وانه بعد السقوط فقط أصبح الرب «متصاعداً»[٥٦] .

إن واحدة من التجديدات الأكثر دلالة للقبالين هي فكرة اتحاد الرب مع الشيخينا ، وهذا التزاوج hieros gamos يحقق الوحدانية للرب . وحسب الزوهار ، في البدء كان الاتحاد دائماً وغير متقطع ، ولكن خطيئة آدم أثارت توقف التزاوج وبطريق النتيجة «إبعاد الشيخينا» . وليس الا بعد بعث الانسجام الأصولي في عمل الغفران ان «الرب سيكون واحداً واسمه واحدٌ»[٥٧] .

وكما قلنا سابقاً ، فإن القبالة ادخلت في اليهودية مجدداً عدة أفكار واساطير ذات علاقة بالتدين من نوع كوني . ولتقديس الحياة بالعمل والشعائر المقررة بالتلمود ، يضيف القباليون التقييم الميتولوجي للطبيعة والانسان ، واهمية التجربة الصوفية ، وحتى بعض القواعد من أصل غنوصي . ويمكن ان يكتشف في هذه الظاهرة «للانفتاح» وهذا الجهد لاعادة التقييم ، الحنين لعالم ديني حيث يتواجد العهد القديم والتلمود مع التدين الكوني ، والغنوصية والتصوف . إن ظاهرة مشابهة تتبدى في المثالية «العالمية» لبعض الفلاسفة الهرمسيين في عصر النهضة الايطالية .

٢٩٠ ـ اسحاق لوريا والقبالة الجديدة

إن واحدة من نتائج طرد اليهود من اسبانيا ، في ١٤٩٢ ، كان تحول القبالة : من مذهب باطني ، وانتهت لتصبح مذهبا شعبيا . فحتى كارثة ١٤٩٢ كان القباليون قد ركزوا اهتمامهم على الخلق بدلاً من الغفران : إن من عرف تاريخ العالم والانسان استطاع حالاً العودة إلى الكمال الأصلي[٥٨] . غير انه على اثر الطرد ، اجتاح تفخيم الكلام المهيج للمسيحانية اجتاح القبالة الجديدة ، وأصبحت البداية والنهاية مرتبطتين سويا . واخذت الكارثة قيمة غفرانية : دلت على آلام الطفولة في العصر المسيحاني (ف ٢٠٣ع) . ومنذئذ ، فهمت الحياة كالوجود في النفي ، وفسرت آلام النفي ببعض النظريات الجريئة جول الرب والانسان .

وبالنسبة للقبالة الجديدة ، فإن الموت ، والتوبة . واعادة الولادة هي الاحداث الثلاثة القابلة لرفع الانسان نحو اتحاد طوباوي مع الرب . ان الانسانية مهددة ليس بفسادها الخاص فحسب ، وانما ايضا بفساد العالم ؛ وهذا مثار بالتصدع الأول في الخلق ، عندما انفصلت /الذات/ عن الموضوع . وبالاصرار على الموت والنشور (مفسرين كاعادة تجسيذ أو اعادة ولادة روحية متحصلة على اثر التوبة) حصلت دعاية القباليين على شعبية كبرى ، وعبر هذه الدعاية أجهدت المسيحانية الجديدة نفسها لتشق طريقاً لها[٥٩] .

وبعد حوالي اربعين سنة من الطرد من اسبانيا ، أصبحت صفد ، المدينة من جبال الجليل ، بؤرة القبالة الجديدة ، ولكن صفد فيما سبق هذا التاريخ كانت مشهورة كمركز روحي على نطاق واسع . ومن بين المعلمين الاكثر شهرة يتوجب ذكر اسم يوسف كارو (١٤٨٨-١٥٧٥) مؤلف أهم رسالة في الأصولية الربينية ، وأيضا جريدة غريبة ومؤثرة . وكان يسجل فيها تجاربه الوجدية المستوحاة من الملاك المجيد maggid المبعوث للقوى السماوية . ان المثال لكارو هو تثقيفي بصورة خاصة ، إنه يظهر امكانية تكامل الثقافة الربينية هالكها halakha والتجربة الصوفية من نوع قبالي ، وفي الواقع إن كارو وجد في القبالة الاساسات النظرية بأكثر مما وجد الطريقة العملية بهدف الحصول على الوجد وبالتالي حضور المجيد maggid[٦٠] .

أما بالنسبة للقبالة الجديدة التي انتصرت في صفد ، فإن معلميها المشهورين كانوا موسى بن يعقوب كوردوفيرو (١٥٢٢-١٥٧٠) واسحاق لوريا . فالأول ،مفكر نشيط ومنهجي ، أعد تفسيراً شخصياً للقبالة ، وبخاصة اكثر للزوهار . وان مؤلفه معتبر ، في حين ان لوريا ، المتوفي في ١٥٧٢ ، عن عمر ٣٨ سنة لم يترك أي مخطوط . وقد عرفت طريقته عبر ملاحظات ومراسلات لزملائه ، وبخاصة رسالة ضخمة إلى حاييم فيتال (١٥٤٣-١٦٢٠) . وحسب كل الشهادات ، فإن اسحق لوريا كان مبصراً (رائي) متمتعا بتجربة وجدية غنية جداً ومتنوعة بشكل متفرد. ان فقهه مبني على مبدأ الزمزمة (تسيميشوم) . وهذا المصطلح كان يعني أصوليا التركيز والانقباض ، ولكن القباليين استعملوه في معنى (الاعتكاف) . وحسب لوريا ، فإن وجود العالم جعل ممكنا بعملية من اندغام Contraction الرب . اذ هل يمكن ان يوجد عالم اذا كان الرب في كل مكان ؟ «كيف يستطيع الرب خلق العالم من العدم اذا لم يكن هنالك عدم ؟. . .» وعليه ، «كان الرب مكرما ليصنع محلا من أجل العالم بتركه ، ليقال هكذا ، منطقة داخل ذاته ، نوعاً من الحيِّز الروحاني انسحب منه ليعود في عمل الخلق والكشف»[٦١] . وبالنتيجة ، إن أول عمل للكائن اللامتناهي(ابن - سوف) لم يكن حركة في الخارج وانما عمل من الانكفاء لداخل ذاته . وكما يلاحظ جيرشوم شوليم ، فإن الزمزمة هي الرمز الاكثر عمقاً للنفي ، فيمكن لها أن تعتبر كنفي الآله في ذاته . وانه فقط في حركة ثانية أرسل الرب شعاعاً من نور وبدأ كشفه الخلاق[٦٢] .

وقبل الانكماش كان يوجد في الرب ، لاصفات الحب والرحمة فحسب ، وانما ايضا صفات الجبروت الالهي التي يدعوها القباليون دين Din (دينونة) مع ذلك ، فإن الدين يبدو بارزا وقابلاً للتماهي على اثر (الزمزمة) لأن هذه الأخيرة تعني ليس عملاً من النفي والتحديد فحسب وانما ايضاً (الدينونة) ويميز في عملية الخلق اتجاهان : مد وجذر («خروج» في اللغة القبالية) . وكالعضوية البشرية تماما تشكل عملية الخلق نظاما جباراً من الشهيق والزفير الالهي . وباتباع نص الزوهار التقليدي يعتبر لوريا العمل النشكوني كما لو ان له محلاً في الله ؛ وفي الواقع ، تبقى بقية أثر من النور الألهي في الفضاء البدئي المخلوق بالزمزمة Tsimtsum(٦٣) .

إن هذه النظرية قد اكملت بمفهومين عميقين وجريئين : «فتات الأواني» (شيمفيراس ـ هاركيليم) والتيكون Tikkun ، وهو مصطلح يعني ترميم خطيئة أو «اصلاح» . فقدكانت الانوارالتي صدرت تباعاًمن عيون اللامتناهي اين ـ سوف ، جمعت وحفظت في أواني متناسبة مع السفيروس . ولكن عندما يأتي الدور لهذه السيفيروس الستة ، فإن النور الالهي ينساب بضربة واحدة وتتفجر الآنية قطعا صغيرة . وهكذا يفسر لوريا ، من جهة ، خلط أضواء السيفيروس مع الأهداف أي قوى الشر التي كانت تستقر في «عمق الهوة الكبرى» ومن جهة أخرى ، الضرورة لتطهير عناصر السيفيروس ، بازالة «الاصداف» بهدف اعطاء هوية منفصلة للشر(٦٤) .

أما بالنسبة للتيكون ، «الترميم» للنظام المثالي ، والتكامل الكلي البدئي ، فهو الهدف السري للوجود البشري ، وبعبارة أخرى الخلاص . وكما يكتب شوليم «فإن هذه الأقسام من القبالة للوريا تمثل النصر الاعظم للفكر البشري الذي لم يسبق ان قدمه في تاريخ التصوف اليهودي» . وفي الواقع ، ان الإنسان مفهوم micro-cosme كجزئي ـ كوني والرب حي كأكبركوني macro-cosme . ويصل لوريا بنوع ما الى اسطورة للرب معطيا ولادة لذاته(٦٥) . واكثر من هذا ، فإن الانسان يلعب دوراً ما في عملية البعث النهائي ، وانه هو الذي يكمل تنصيب الرب في مملكته السماوية ، إن التيكون الممثل رمزيا وكأنه الانبثاق لشخصية الرب ، يناسب عملية من التاريخ . وظهور المسيح هو استهلاك للتيكون . والعنصر الصوفي والعنصر المسيحاني متلاحمان سوية .

إن إكمال رسالة الانسان وضعت من قبل لوريا وقبالي صفد ـ بخاصة حاييم فيقال ـ بعلاقة مع نظرية التقمص الجيلجول Gilgul . وهذا ما يشير إلى الأهمية المعطاة لدور الإنسان في العالم . فكل روح تحتفظ بفرديتها حتى لحظة بعثها الروحي . والأرواح التي اكملت الوصايا تنتظر كلٍ واحدة في مكانها المبارك تكاملها في آدم ، عندما سيحصل البعث الشامل . واجمالاً فإن التاريخ الحقيقي للعالم ، انما هو تاريخ انتقالات الارواح وتشابكاتها . فالتقمص (جيلجول) يشكل فترة من عملية البعث ومدة هذه العملية يمكن لها أن تختصر بواسطة بعض الأعمال الدينية (طقوس ، توبة ، تامل ، صلاة)[٦٦] . وتقتضي الاشارة الا انه بعد ١٥٥٠ ، أصبح مفهوم التقمص جزءاً لا يتجزأ من المعتقدات الشعبية والفولكلور الديني لليهود .

«في اليهودية ، كانت قبالة لوريا ، آخر حركة دينية أصبح تأثيرها منتشراً في كافة الأوساط اليهودية وفي كافة بلدان الدياسبورا بدون استثناء . لقد كانت هذه آخر حركة دينية في تاريخ اليهودية الربينية التي عبرت عن عالم من حقيقة دينية عامة لمجموع الشعب اليهودي . وبالنسبة لفيلسوف التاريخ اليهودي ، يمكن ان يبدو مدهشا ان النظرية التي حصلت على مثل هذه النتيجة كانت بعمق متمية للغنوصية ، ولكن تلك هي جدليات التاريخ»[٦٧] .

ومن المناسب ان نضيف ان النجاح الملحوظ للقبالة الجديدة يبرز مرة أخرى هذا الخيط المميز للعبقرية الدينية اليهودية : القدرة على التجدد بادخال العناصر من أصل اجنبي دون إضاعة البُنى الاساسية لليهودية الربينية مطلقاً . وما هو اكثر من ذلك في القبالة الجديدة ، ان عدداً من المفاهيم ذات النظام الباطني أصبح مقبولاً لغير المتلقين بالاسرار وأصبحت شعبية أحيانا (كما كانت حالة التقمص) .

٢٩١ ـ المخلص المارق

إن حركة مسيحانية ضخمة ، مع انها اجهضت بسرعة ، انبثقت في ايلول سنة ١٦٦٥ في ازمير : فأمام جمع مهتاج ، أعلن الساباتي ذوي (١٦٧٦-١٦٢٧) أنه مسيح

اسرائيل . وقد سبق ان اثيرت شائعات حول شخصه وحول مهمته الالهية ، ولكنه بفضل تلميذه فقط ناتان دي غاذا (١٦٤٤-١٦٨٠) اعترف بساباتي مسيحاً . وفي الواقع كان ساباتي قد عانى بشكل دوري من أزمات كآبة حادة ، يتلوها فرح كبير . وعندما علم بأن متنوراً ، ناتان دي غاذا «كان كشف لكل واحد خفايا نفسه» ذهب ساباتي إليه يأمل الاستشفاء . وعلى ما يبدو أن ناتان قد رآه في حالة وجد ، فإنه قد نجح في اقناعه بأنه كان فعلاً المسيح المنتظر . وهذا التلميذ الموهوب بشكل استثنائي هو الذي نظم لاهوت الحركة وضمن لها الانتشار ، اما بالنسبة لساباتي ، فإنه لم يكتب شيئاً ولم تسند إليه أية رسالة أصولية ، أو أي كلام يمكن تذكره .

وقد أثار خبر مجيء المسيح ، حماساً لا مثيل له ، في كل مكان من دنيا اليهود . وبعد ستة شهور من دعوته ، توجه ساباتي نحو القسطنطينية ، ربما بهدف إهداء المسلمين ولكنه أوقف وسجن من قبل مصطفى باشا (في ٦ شباط ١٦٦٦) . ولكي يتفادى القتل ، تراجع ساباتي ذوي عن اليهودية واعتنق الاسلام[٦٨] . غير انه لامروق (المسيح) ولا موته بعد احدى عشر سنة ، أوقف الحركة الدينية التي فجرها[٦٩] .

إن الساباتيانية تمثل الانحراف الأول الجاد في اليهودية منذ القرون الوسطى ، وأول الأفكار الصوفية الموصلة مباشرة لعدم تكامل الأصولية التقليدية . وفي آخر المطاف فإن هذه الهرطقة شجعت نوعاً من الفوضى الدينية . وقد استمرت الدعاية في البدء للمسيح المارق بشكل علني . وليس الا بعد وقت طويل ، وعندما انتظرت «العودة الظافرة للساباتي ذوي من محيطات القذارة» ان الدعاية قد أصبحت سرية .

إن تمجيد المخلِّص المرتد ، هو تدنيس بغيض بالنسبة للفكر اليهودي ، وقد فسر وأثار أعمق واكثر تناقض للأسرار . وقد سبق لناتان دي غازا أن اكد في ١٦٦٧ «أن الأعمال الغريبة للساباتي كانت تشكل دليلاً لرسمية رسالته المسيحانية» . ولأنه «اذا لم يكن المخلص ، فإن هذه الانعطافات لن تصل إليه مطلقاً» . إن الاعمال الحقيقية للغفران انما هي تلك التي تسبب اكبر فضيحة[٧٠] . وحسب رأي اللاهوتي الساباتياني كاردوزو (المتوفي ١٧٠٦) ، فإن روح المسيح وحدها هي على درجة من القوة لتحمل مثل هذه التضحية ، أي النزول إلى عمق الهاوية[٧١] . فبهدف اكمال رسالته (تخليص

الشرارات الالهية الاخيرة سجينة قوى الشر) ؛ يتوجب على المسيح ان يدين نفسه بذاته وبأفعاله الخاصة . وتلك هي الحجة التي من أجلها الغيت منذئذ القيم التقليدية للتوراة[٧٢] .

ويميز اتجاهان بين معتنقي الساباتيانية : المعتدلون والراديكاليون . الأولون لا يشكون أبداً برسمية المسيح ، لأن الرب لا يستطيع ان يخدع شعبه بمثل هذه القسوة ، ولكن المفارقة المتحققة من قبل المسيح المارق لم تشكل نموذجاً يجب اتباعه . وذكر الراديكاليون بشكل آخر : فعلى المؤمن ، كالمسيح تماما ، ان ينزل إلى الجحيم لأن الشر يجب ان يحارب بالشر . ويعلن بنوع ما القيمة التخليصية للشر . وحسب بعض الساباتيانيين ذوي الاتجاه الراديكالي ، فإن كل فعل ظاهر الدناسة والسوء يحقق التماس مع روح القداسة . وحسب رأي البعض الآخر ، فإن خطيئة آدم بوصفها قد نُسخت ، فإن الذي يصنع الشر هو فاضل بنظر الرب . وعلى مثال البذرة المدفونة في الأرض ، فعل التوراة ان تتعفن بهدف ان تعطي ثمرة ، وبخاصة المجد المسيحاني . فكل شيء مباح ، وكذلك اذن اللاأخلاقية الجنسية[٧٣] . وقد ادرك الساباتاتي الأكثر نحساً ، يعقوب فرانك (مات ١٧٩١) ما أشار إليه شوليم كصوفية العدمية ، وقدأظهر بعض عدميتهم في مختلف النشاطات السياسية من نوع ثوري .

ويلاحظ شوليم ، في تاريخ القبالة ، ان ظهور افكار وتفسيرات جديدة مترافق بالقناعة في أن التاريخ يقترب من نهايته ، وان الاسرار الاكثر عمقاً للألوهية ، والمظلمة اثناء فترة النفي ، ستكشف دلالتها الحقيقية على يقظة العصر الجديد[٧٤] .

٢٩٢ ـ الحصيدية

يمكن ان يبدو متناقضاً أن آخر حركة صوفية ، الحصيدية ، انبثقت في بودولي وفولهايني ، وهما الاقليمان اللذان مارس فيهما المسيح المارق تأثيره العميق . ومن المحتمل جداً ، أن مؤسس الحركة (الربي اسرائيل بعل شيم توف) = المعلم ذي اللقب

المختار ، والمختصر في كلمة (بشِت) Becht ، كان متآلفاً مع ساباتانية معتدلة[٧٥] . ولكنه جعل العناصر المسيحانية للساباتيانية حيادية ، وكذلك تراجععن خصوصية الجمعيات الأخوية somfrerie ذات التكريس السري التي ميزت القبالة التقليدية . وقد أجهد (البشت) (١٧٠٠-١٧٦٠) نفسه ليجعل كشوفات القبالين الروحية مقبولة من الجماهير . ومثل هذا التعميم للقبالا إلى أوساط الشعب - والمطعم سابقاً من قبل اسحاق لوريا - ضمن للصوفية وظيفة اجتماعية .

لقد كان نجاح المشروع عجيبا وثابتاً ، وتشكل الخمسون سنة الأولى التالية لموت (بعل شيم توف) (بشت) من /١٧٦٠-١٨١٠/ الفترة البطولية والخلاقة للحصيدية . وساهم عدد كبير من الصوفيين والقديسين في اعادة توليد القيم الدينية المختارة من اليهودية الشريعية[٧٦] . وفي الواقع ، ظهر نوع جديد كرئيس روحي : في مكان العالم التلمودي أو المتلقن بالقبالة التقليدية ، جرى ابداله ، «بالمتنور» ، النبي . فالصديق (تساديك) («المستقيم») ، أي المعلم الروحي ، أصبح النموذج المثالي الممتاز ، وقد اضاعت تفسير التوراة وباطنية القبالة اوليتها . وان فضائل وسلوك الصدِّيق هما اللذان يلهمان التلامذة والمؤمنين : وهذا ما يفسر الأهمية الاجتماعية للحركة . ويشكل وجود القديس ، بالنسبة إلى الجماعة بكاملها ، البرهان المحسوس الذي يمكن ان يحقق المثل الديني الأعلى لاسرائيل . وما يهم في الأمر هو شخصية المعلم وليس النظرية . وقد قال صدِّيق مشهور : «لم أذهب للمجيدي ميستيريت لأتعلم التوراة ، وانما لكي انظر إليه وهو يعقد اربطة احذيته»[٧٧] .

وبالرغم من بعض التجديدات ذات النظام الشعائري ، فإن هذه الحركة المتجددة دعمت دوماً في نطاق اليهودية التقليدية ، ولكن الصلاة العامة للحصيديين اثقلت بعناصر هيجانية : اغاني ، رقصات ، حماس ، انفجار من الفرح . وهذا التهيج غير المعتاد إضافة إلى سلوك منحرف احيانا من بعض المعلمين ، أثار خصوم الحصيدية ، وفجأة . بعد عام ١٨١٠ اضاع الافراط في النظام الهيجاني احترامه وشعبيته ، وبدأ الحصيديون بالاعتراف بأهمية التقليد الربيني .

والحصيدية ، كما ابرزها جيرشوم شوليم ، لم تقدم أية فكرة جديدة حتى في شكلها المتأخر والمبالغ فيه[٧٩] . وتتكون مساهمتها ذات الدلالة الكبرى في تاريخ

اليهودية ، في الوسائل البسيطة والجريئة معاً ، والتي نجح القديسون والمعلمون الحصيديون في جعلها شعبية ـ وجعل التجربة لتجديد داخلي مقبولة . وتمثل القصص الكلاسيكية التي أصبحت مشهورة بترجمة مارتن بوبر ، الابداع الأكثر أهمية للحركة . واكتسبت تلاوة الأعمال المنجزة والكلمات الملفوظة من القديسين قيمة شعائرية . واعادة القصة الوجود لوظيفتها البدئية ، وبخاصة تلك التي تعاود بناء الزمن الاسطوري وتجعل الشخصيات الخرافية والميتافيزيكية حاضرة . وعليه فإن السير الذاتية للقديسين والصديقين غمرت ايضا بمشاهد رائعة ، حيث تنعكس بعض الممارسات السحرية . وهذان الاتجاهان التصوف والسحر ـ يتقاربان ويتواجدان في نهاية تاريخ الصوفية اليهودية كما في البداية(٨٠) .

يضاف إلى ذلك أن الظواهر المشابهة تتلاقى كذلك في أي مكان آخر ، وعلى سبيل المثال ، في الهندوسية أو في الاسلام ، حيث ان تلاوة اساطير النساك واليوجيين المشهورين ، أو المشاهد لملاحم مختلفة ، يلعب دوراً رئيسياً في الدين الشعبي . هنا ايضا تعرف الوظيفة الدينية للأدب الشفهي ، وفي المكان للأول منه للقصة أي «التواريخ» الخرافية والنموذجية . ومن المثير الإشارة هنا إلى التشابه بين الصدِّيق والغورو guru ، المعلم الروحاني في الهندوسية (المقدس أو المؤله أحيانا من قبل المؤمنين به ، والصديقية تحت شكلها الأخير ، عرفت ببعض الحالات الشاذة ، عندما كان الصديق يسقط ضحية قوته . وذات الظاهرة تأكدت في الهند منذ العصر الڤيدي حتى العصر الحديث . ونعيد التذكير اخيراً بأن التواجد للاتجاهين ـ الصوفية والسحر ـ يميز كذلك التاريخ الديني للهند .

حواشي الفصل السادس والثلاثون

١ ـ في الواقع ، ان القسم الكهنوتي من الصدوقيين فقدوا المبرربأن يكونوا بعد خراب الهيكل القادة ، وعادت القيادة لفقهاء الشريعة أي الفريسين ولمن خلفهم (الرابان) اساتذة التعليم .

٢ ـ انظر هوغو مانتيل ، دراسة في تاريخ السهندرين ، وبخاصة ص ١٤٠

٣ ـ الفكرة عن ثورات شفهية معلمة من قبل موسى ليوشع والكهنة ترجع إلى تقليد قديم محترم

٤ ـ واحدة من مزايا الكتاب الراهنة لجاكوب فوستر ـ (اليهودية) هي لتوحيدة وتحليله لمواد ترجع إلى عصور سابقة اثناء وبعد الحربين مع روما

٥ ـ ٨ ـ اسماء المراجع .

٩ ـ بعض القوانين ذات العلاقة الزراعية بالطهارة والأضحية المطبقة في فلسطين ، فقدت عملها في تلمود بابل

١٠ ـ ر ـ الكتاب القديم ـ (انترآليا) ـ والذي مازالت له قيمة (سلياشيشتر) .

١١ ـ مثل الصدوقين في القرن الثاني

١٢ ـ بعض اعماله فقدت ، بين غيرها الترجمة العربية المفسرة للتوراة

١٣ ـ الأدلة المعتمدة من قبل (صاديا) للبرهنة على وجود الاله مستعارة من علم الكلام الاسلامي .

١٤ ـ اسم المرجع .

١٥ ـ عرف ابن غبريا تحت اسم آفيسيرون .

١٦ ـ اندريه نيشر «الفلسفة اليهودية في القرون الوسطى ص ١٠٢١ . ومن المحتمل جداً ان باهيا تأثر بالتعرف الاسلامي ولكن الصفة اليهودية الحيادية الروحية ولاهوتة غير موضوع شك . وكما يلاحظ بحق ان باهيا يعيد التقليد الحصيدي اليهودي المؤكد في التوراة ، في قمران وفي التلمود : (التنسك اليقظة ، السهر الليلية في الصلاة والتأمل) باختصار التقليدُ الذي «عرف ان يدفق التجربة الدينية الأكثر عالمية مع الخصوصية الدون اسرائيلية»

١٧ ـ وهذا ما قاله ايزاودر تويرسكي مستفيضا بالنسبة للبعض محرضاً بالنسبة للبعض الآخر ، ونادراً ما يثير حالة اللامبالاة أو الاهمال . لقد رؤي فيه شخصية متعددة المواهب والمتناسقة أو على العكس ، متوترة ومعقلة مقيلة بوعي أو بلا وعي بتناقضات ومضادات .

١٨ ـ انظر بعض الامثلة الحديثة وبخاصة أراء اسحاق هوزيك وليوشتراوس دافيدها يمكن . الميمونية ـ وعلى العكس ، يجهد هذا الكاتب الأخير للبرهان على وحدة الفكر الميموني .

١٩ ـ في هذا المشروع يوجد سابقاً ولكن بدون تباين

٢١ ـ في مدخل للدليل ، يعترف ميمون بأنه بين احتياطات اخرى ، ادخل قصداً تأكيدات متناقضة من اجل ان يدخل في الخطأ للقاريء الغير مجرب

٢٢ ـ ٢٥ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٢٦ ـ في بعض الحالات ، لا يستثنى من هذه العناصر الغنوصية التقليدية انه قد تم احياؤها على اثر مجابهات مباشرة أو غير مباشرة مع الحركات الهرطقية المسيحية في القرون الوسطى .

٢٧ ـ شوليم يميز ثلاثة مراحل : الجمعيات السرية المغفلة لقدامى المدافعين عن العقيدة . التعاليم حول العرش من بعض معلمي الميشنا . تصوف الميركابا في العصر التلمودي المتأخر . وما قبله

٢٨ ـ اسماء المراجع

٢٩ ـ اصول الكابال ـ يتكلم شوليم ايضاً عن الغنوصية الرابينية أي عن هذا الشكل من الغنوصية اليهودية التي اجهدت نفسها بالبقاء مخلصة للتقليد هاليكيهيك

٣٠ ـ ٣٤ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٣٥ ـ غاي غازاريل يؤكد على الموازي مع بعض الغنوصية المسيحية مثل غنوصية الهوميلي كليمنتين

٣٦ ـ ٣٨ ـ شوليم ـ اليهودية . .

٣٩ ـ يقارن شوليم صفاءهم بالأتراكسي الكلية والرواقية وكذلك سلوك الحلاج

٤٠ ـ فيب كتابات اليعاذر دي ورم نجد أول اشارة للفوليم ، القزم السحري ، المنعش اثناء الوجد .

٤١ ـ شوليم ـ يتعلق بتأثير افلاطوني محدث عبر (سكوت اوريجين)

٤٢ ـ من المؤكد إلى انه لا يوجد استمرارية بين هذه التقوى اليهودية للقرن الثالث عشر والحركة الحصيدية التي انبثقت في بولونيا واوكرانا في القرن ١٨

٤٣ ـ ٤٦ ـ شوليم ـ والمراجع المعتمدة

٤٧ ـ مجيرونا مدينة صغيرة كاتالانية واقعة بين مرشلونة وجبال البرينيه .

٤٨ ـ ٤٩ ـ اسماء المراجع ـ وبخاصة شوليم . . .

٥٠ ـ ترجم شوليم الوصف المجهز جداً مما مثل هذه التجربة المحور من أحد الزملاء المجهولين في فلسطين سنة ١٢٩٥

٥١ ـ غاي كازاريل ـ الربي سيمونيا ص ٧٢ «الأصولية الهرطقية تقريباً لأبولافيا هي لتمثيله الرؤية النبوية (التي حسب التقليد ترتبط دائماًبالله) والديفيكوس ، الخضوع للرب وبالارادة البشرية الوحيدة والحب البشري الوحيد . موكلة هكذا على ان الرؤية للنبي يمكن لها بحرية ان تجهز وتثار بواسطة كل صوفي تقي ومخلص) .

٥٢ ـ اسم المراجع .

٥٣ ـ حكمة الرب Hokma عقل الرب بينا Bina الحب أو الرحمة للرب هسيد Hessed الخ وثاني سفيرا هي الملكوت malkhuth (الملكوت : مملكة) الرب ، وضعت بصورة عامة في الزهاد ـ كنموذج هو في قديم لجماعة اسرائيل أو مثل (الشيخنا) (شوليم الخ)

٥٤ ـ متماحية (بالحكمة) للرب (السفيرا الثانية) في السفيرا الثالثة النقطة تصبح (قطراً) او (بناء) الأمر الذي يدل على خلق العالم (بينا) اسم هذه السيفيرا يدل ليس على الذكاء فحسب وانما ايضاً على المفارقة (ريشوليم) .

٥٥ ـ شوليم ص ٢٣٣ ـ هذه النظرية أعدت بخاصة من قبل موسى ديماليوت .

٥٦ ـ شوليم ـ تأكدت الفكرة سابقاً لدى البدائيين (الياد ـ احلام وغوامض) .

٥٧ ـ شوليم ذات المرجع ـ «ان القباليين حاولوا اكتشاف الجنس في الرب ذاته . أصولية اخرى للزوهار هي تفسير الشر كواحدة من الظهورات او سفيرات للرب ـ ويلاحظ التوازي مع مفهوم جاكوب بوهلر اما بالنسبة لفكرة التقمص فهي من أصل غنوصي وتأكدت لأول مرة في كتاب اليهيرو اصبحت شعبية مع نجاح القبالة الجديد في القرن ١٦ .

٥٨ ـ شوليم ـ بعض القباليين كان قد أعلن بدقة عن هذه السنة المأساوية لسنة الغفران وكشف الطرد من اسبانيا ان الغفران يعني التحرير والكارثة معا .

٥٩ ـ أهوال النفي اعيد تقييمها بمذهب التقمص ، المصير الأكثر مأساوية للروح كان ان تعتبر مرفوضة وعارية ، وهي حالة استبعدت اعادة التجسيد أو الخضوع في الجحيم (شوليم) .

٦٠ـ اسماءالمرجع . «وفودي ـ نظريةلوريا ان الحقق كان نتيجةتمدد وانكماش للقوى الالهيةيسميه الزمزمة . وجمعت قبالة لوريا بين النظرية والتطبيق فكانت فلسفة وطريقة في السلوك بالتركيز على الصلاة والشعائر كملهم باطن للوصول الى الله والعودة الى ممارسة السحر بتأثير الكلمة .

٦١ ـ ٦٢ ـ شوليم ـ حسب يعقوب يمدن ـ هذا التناقض للزمزمة هو التجربة الوحيدة الجادة لتوطيم فكرة الخلق من العدم ، واضافة إلى ذلك ، ان مفهوم الزمزمة اعطى وقفة عنيفة للاتجاهات الحلولية التي كانت بدأت بالتأثير على القبالة بصورة خاصة بدءاً من عصر النهضة .

٦٣ ـ فكرة تذكر بنظام بازيليد شوليم .

٦٤ ـ اشارة شوليم ـ للخاصية الغنوصية وبخاصة المانوية (اجزاء النور المبعثرة في العالم)
٦٥ ـ بالنسبة للوريا ، اللانهائي اين سوف له مصلحة دينية قليلة .
٦٤ ـ شوليم ـ الصلاة الصوفية تحقق ادات قوة للغفران ، النظرية والممارسة للصلاة الصوفية يشكلان الجانب الباطني من قبالة لوريا
٦٧ ـ ٧٠ ـ ذات المرجع
٧١ ـ شوليم ص ٣١٠ ـ ناتان الغزي يرى ان روح المسيح توجد ، منذ البدء اسيرة في الهاوية . الفكرة هي من بنية غنوصية مؤكد عليها بخاصة لدى les ophites ولكن البذرة مؤكد عليها في الزوهار والكتابات اللوريانية .
٧٢ ـ بالنسبة لابراهيم فايز ـ ان الذين يبقون مخلصين للشريعة هم مبشرون وذات المرجع
٧٣ ـ ممارسات تهتكية مشابهة لتهكات الكاربوكراتيين التي حصلت في سنوات ١٧٠٠ - ١٧٦٠ .
٧٤ ـ ذات المرجع ـ المردق الضروري للمسيح تعبير جديد للثنائية من نموذج غنوصي ، بخاصة المعارضة بين الآله الخفي المفارق وآله الخلق (ذات المرجع) .
٧٥ ـ ٧٦ ـ ر . الأدلة التي ساقها شوليم في المرجع المعتمد .
٧٧ ـ ذات المرجع ـ الاستلهام الأعلى للصديق ليس تفسير التوراة والاكثر تحديداً أن يصبح ذاته التوراة .
٧٨ ـ الأكثر شهرة كان الربي ايلي غران فيلنا ـ الذي ادار في ١٧٧٢ اضطهاداً نموذجياً ضد الحركة .
٧٩ ـ ذات المرجع ـ الاستثناء الوجه هو المدرسة المبنية من قبل روزعان في اوكرانيا والمسمى هاباد (مختصر هوشما ـ مينا ـ داس) الثلاث سيفورات الأولى .

الفصل السابع والثلاثون

حركات دينية في أوروبا : من أواخر العصر الوسيط حتى فجر الاصلاح

٢٩٣ ـ الهرطقة الثنائية في الامبراطورية البيزنطية : البوغميلية

منذ القرن العاشر ، لاحظ المراقبون العلمانيون والدينيون البيزنطيون انطلاق حركة مذهبية في بلغاريا ، البوغميلية bogomilisme . وكان مؤسس الحركة كاهن قرية ، وهو يدعى بوغوميل (المحبوب من الله) . ولا يعرف عنه شيء سوى اسمه . ويبدو أنه بالوعظ والتبشير بالفقر والتواضع والتوبة والصلاة ، حوالي سنة ٩٣٠ وحسب رأيه أن العالم هو عالم سيء وانه خلق من قبل ساثانايل satañael (أخ يسوع وابن الله)«الاله الشرير للعهد القديم»[1]. وفي رأيه أيضاً أن المقدسات والايقونات وحفلات الكنيسة الارثوذكس عبث كلها ، لكونها من عمل الشيطان . وان الصليب يجب أن يمقت ، لأنه جرى تعذيب المسيح واماتته على صليب . وان الصلاة الوحيدة الصحيحة كانت أبانا ، التي تتلى اربع مرات في النهار واربعة في الليل .

لم يكن البوغوميليون يأكلون اللحم ، ولا يشربون الخمر وقد نصحوا بالامتناع عن الزواج . ولم تعرف جماعتهم أية تسلسلية في السلطة . فالرجال كالنساء كانوا يعترفون ويتعاطون الغفران من بعضهم للبعض الآخر . وكانوا ينتقدون الاغنياء ، وقد أدانوا النبلاء وشجعوا الشعب بعدم الطاعة لاسياده ويتطبيق المقاومة السلبية . إن نجاح الحركة يفسر بالورع الشعبي المحرر من الوهم ، وبأبهات الكنيسة ، ودناءة الكهنة ، وايضاً بحقد الفلاحين البلغار الفقراء المتردين في العبودية ، ضد المالكين وبخاصة ضد العملاء البيزنطيين[٢] .

وبعد غزو باسيلوس الثاني لبغاريا (١٠١٨) ، استقر عدد كبير من نبلاء البلغار في القسطنطينية . وقد أخذت البوغومولية التي تبناها عدد من العائلات النبيلة المحلية وحتى الرهبان البيزنطيون ، تنظيم لاهوتها . ولكنه على ما يبدو مرجحا ان انشقاقاً قد قد حصل في المذهب على اثر خصومات تيولوجية . فقد تجمع في كنيسة دراغوفيستا (اسم قرية على الحدود بين تراقيا ومقدونيا ، اولئك الذين يرون استقلالية الشيطان ، مؤكدين على انه إله خالد وكلي القـدرة أما قدامى البوغوميل ، الذين كانوا يرون في الشيطان الابن المنحدر من الرب ، فقد حافظوا على الاسم القديم البلغار . ومع ان (الدراغوفيستين) نسبة لقرية دراغوفيستا ، جهروا بثنائية مطلقة ، والبلغار بثنائية معتدلة ، فإن الكنيستين تسامحتا مع بعضهما بالتناوب . وذلك لأن البوغوميلية عرفت في ذلك العصر انطلاقة جديدة . وانتظمت فيها جماعات في بيزنطة وآسيا الوسطى ودالماسيا ، وارتفعت اعداد المؤمنين بها . وميز عندئذ بين فئتين : الكهنة والمؤمنين . فتـدعمـت الصلاة والصيام ، وتكاثرت الحفلات وامتدت . «في نهاية القرن الثاني عشر ، اصبحت حركة الفلاحين في القرن العاشر مذهباً ذي شعائر رهبانية ، وتعليم تلقيني ، دخل فيه الخصام بين الثنائية والمسيحية وأصبح محسوساً اكثر فأكثر»[٣] .

وعندما تنظم القمع ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، انكفأ البوغوميليون إلى شمالي البلقان ، وتوجه مبعوثوتهم نحو دالماسيا وايطاليا وفرنسا . مع ذلك ، نجحت البوغومولية في فترات محدودة بفرض نفسها رسمياً ، على سبيل المثال في بلغاريا ، في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وأصبحت في البوسنة دينا للدولة تحت حكم بان كولان (١١٨٠-١٢١٥) غير ان المذهب فقد تأثيره في القرن الرابع عشر ، وبعد الفتح

العثماني لبغاريا والبوسنة (١٣٩٣) اعتنقت اكثرية البوغوميليين الاسلام[٤] .

وسنتبع خطى البوغوميلية في الغرب . مضيفين إلى ذلك ، ان بعض المفاهيم البوغومولية في اوروبا الجنوبية ـ الشرقية انتقلت بواسطة مزوري الكتب ومازالت تعيش في الفولكلور . وفي القرون الوسطى انتشر في اوروبا الشمالية عدد من الكتب المزورة تحت اسم كاهن بوغوميلي ، جيريمية[٥] . ومع ذلك فإن أي واحد من هذه النصوص ليس من تأليف جيريميه . وعلى سبيل المثال . فإن خشب الصليب ، الذي اشتهر موضوعه في كل اوروبا القروسطية ، مستقى من انجيل نيكوديم وهو مؤلف من أصل غنوصي . ونص مزور آخر (كيف أصبح المسيح كاهنا) ، كان معروفاً في اليونان منذ زمن طويل ، ولكن البوغوميليين أضافوا إلى هذه الخرافات القديمة عناصر ثنائية وان الترجمة السلافية لخشب الصليب تبدأ بهذه الجملة : «عندما خلق الله العالم ، وحده وساتانايل كانا موجودين»[٦] . وعليه فقد رأينا (ف ٢٥١ع) ان هذا الباعث ، النشكوني انتشر بشكل واسع ، ولكن النسخ المختلفة لجنوب ـ شرق اوروبا والسلافية تبرز دور الشيطان . وباتباع طريقة بعض المذاهب الغنوصية ، فإن البوغومولبين ربما دعموا الثنائية ، برفعهم لاحترام الشيطان .

كذلك الأمر في ، مزور آدم وحواء ، ادخل البوغوميل مشهداً «لعقد» موقع من قبل آدم والشيطان ، وحسب هذا العقد ، تعتبر الأرض خلقاً لهذا الأخير ، وآدم وذريته ينتميان إليه حتى مجيء المسيح . وهذه القصة توجد في الفولكلور البلقاني[٧] .

وقد توضحت طريقة تفسير المزورات بكتاب (الانتيروغاسيو ايوهانيس) . المؤلف البوغومولي الرسمي الوحيد ، المترجم إلى اللاتينية من قبل الباحثين من جنوبي فرنسا . انه يتعلق بحوار بين يوحنا الانجيلي والمسيح ، محمولاً على خلق العالم ، وسقوط الشيطان وصعود اينوش وخشب الصليب . وتوجد مقاطع مستعارة من اناجيل مزورة اخرى بترجمة مؤلف سلافي من القرن الثاني عشر ، مسائل يوحنا الانجيلي ، لا غير ان التيولوجيا هي بدقة بوغوميلية . فالشيطان قبل سقوطه ، كان الأول بعد الرب الآب [مع ذلك ، كان المسيح مقيما إلى جانب الرب الآب ، [. . . .] . الا انه لا يمكننا القول فيما اذا كان يتعلق بمؤلف بوغوميلي أصلي أو من ترجمة مؤلف يوناني . وللحكم عليه

مبدئياً ، هو يمثل على الأرجح تقميشا منسوبا لمؤلف بوغوميلي أو ميسالي ، ومن مواد مزورة اكثر قدماً»[٨] .

وما يعنينا هنا ، ان هذه المزورات ، وبخاصة انواعها الشفاهية المختلفة ، قد لعبت خلال عدة قرون دوراً في التدين الشعبي ، وكما سنرى (ف ٣٠٤ع) ، لم يكن ذلك المصادر الوحيدة للفولكلور الديني الأوروبي . غير ان استمرار نغمات الهرطقية الثنائية في العالم الخيالي لسواد الشعب لم تعدم دلالتها . وكمثال وحيد على ذلك : في اوروبا جنوب ـ شرق ، فإن اسطورة خلق العالم مع مساعدة من الشيطان «الذي غطس في عمق المحيط الأولي لكي يحضر الاناء» لها ما يتلوها : التعب ، الطبيعي والعقلي ، للرب . وفي بعض الروايات المختلفة ، نام الاله بعمق ؛ وفي بعضها الآخر ، لم يعرف كيف يحل مشكلة ما قبل النشكونية : فلم يتوصل لإدخال الأرض تحت القبة السماوية ، وان القنفذ هو الذي نصحه ان يضغط الأرض قليلاً ، مسببا بذلك ولادة الجبال والوديان[٩] .

إن تقدير الشيطان ، وسلبية الرب وعدم امكانية معرفة سقوطه يمكن لهما أن يعتبرا كتعبير شعبي للاله المحايد dem Otioms للديانات البدائية ، حيث ، انه بعد ان خلق العالم والبشر ، لم يعد الاله مبالي بمصير خليقته وانسحب الى السماء ، تاركاً اكمال عمله لكائن مما فوق الطبيعة أو إلى خالق كبير .

٢٩٤ ـ البوغو ميليون في الغرب : المانويون (الكاذار) .

في السنوات العشر الأولى من القرن الثاني عشر ، يشار في ايطاليا ، وفرنسا والمانيا الغربية ، لوجود مبعوثين بوغومول . وفي اورليان ، نجحوا باقناع النبلاء وحتى الكهنة ، ومن بينهم مستشار للملك روبير وناصح للملكة . وقد اعترف بما هو جوهري في الهرطقة : ان الله لم يخلق العالم المرئي ؛ والمادة غير طاهرة ، والزواج ، والعماد ، وسر القربان المقدس والاعتراف كلها غير مفيدة ؛ والروح القدس ، النازل على المؤمن بوضع الأيدي ، يطهره ويقدسه الخ . .

وقد كشف الملك المراطقة ، وحاكمهم وأدانهم وفي ٢٨ كانون اول ١٠٢٢ ، أمر بحرقهم ، وهؤلاء كانوا الهراطقة الأول في الغرب الذين ماتوا على المحرقة . ولكن الحركة استمرت في الانتشار . وترسل الكنيسة الكازارية (مانوية)[١٠] التي كانت أقيمت في ايطاليا مبعوثين إلى بروفانس ، وإلى لانغدوك ، وإلى الاقاليم الرينانية وحتى البيرنية ، وهم ، النساجون ، بخاصة ، الذين نشروا المذهب الجديد . وقد انتظمت جماعات البروفانس في اربع اسقفيات . ويبدو ان مجمعاً عقد في ١١٦٧ بالقرب من تولوز . وان الاسقف البوغومولي للقسطنطينية قد نجح بهذه المناسبة باقناع جماعات لومبارديا وجنوب فرنسا بالثنائية الراديكالية .

غير ان البوغومولية ، بتدخلها في الغرب ، تبنت بعض العناصر من التقليد المحلي المحتج ، وهذا ما جعل الوحدة المذهبية المفقودة اكثر تقعيداً ، ولم يقتنع الكازاريون لا بالجحيم ولا بالمطهر ، فميدان الشيطان كان الأرض ، وقد كان خلقها بهدف احتباس الروح في المادة . لقد كان الشيطان متماهيا بيهوه ، اله العهد القديم . والاله الحقيقي ، الخيِّر والمنير ، يوجد بعيداً عن هذا العالم . انه هو الذي ارسل المسيح لتعليم طريقة الخلاص . وبصفته روحا صرفة ، فإن جسد المسيح لم يكن سوى وهم[١٢] . إن كراهية الحياة تذكر ببعض المذاهب الغنوصية والمانوية (ف ٢٣٢ع) . ويمكن القول إن المثل الأعلى للكاذار كان فناء البشرية ، بالانتحار وبرفض الحصول على ابناء ؛ ولأن الكاذاريين كانوا يفضلون الفجور على الزواج .

إن حفلة الانتماء للمذهب كونفيزا (كونفينينسيا Convenientia) كان يحتفل بها فقط بعد طول تدريب للتلميذ . والشعيرة الثانية للمسارة كونسولا ميتوم (Consolamentum) التي بها يحصل على مرتبة «الكامل» كانت تنجز عادة قبل الموت أو ؛، اذا رغب بها التلميذ ، بوقت أبكر ؛ الا انه في هذه الحالة كانت الامتحانات قاسية جداً . كان الكونسولامينتوم يجري السيرفيتيوم le sersitium ويتكون في الاعتراف العام ، الجاري من قبل الجماعة ؛ واثناء هذا الوقت ، كان الرئيس يمسك أمامه نسخة مفتوحة من الاناجيل[٢٣] وبعدئذ كان مريد التنصر يتلقى شعائريا الباترنوستر le Puter Noster ، ويطلب من الرئيس وهو راكع أمامه ان يباركه ويدعو له الله ، داعيا «لعل الله يبارك ؛، كان يجيب الرئيس ، وليجعل منك مسيحياً خيراً ، وان يمنحك آخرة

حسنة !» . وبعد فترة من الحفلة ، كان الرئيس يطلب من مريد التنصر الانسحاب من كنيسة روما والصليب المرسوم على جبينه من قبل الكاهن الروماني منذ تعميده . معاودة السقوط في الخطيئة بعد تلقي الكونسولا منتوم كان يلغي الشعيرة . ومن أجل هذا طبق البعض من الكاملين الأندورا l'endura ، بتركهم لأنفسهم تموت بحرية من الجوع[١٤] . وكانت الحفلة تنتهي «بالسلام» ، وقبلة متبادلة بين كافة الحضور . لقد كان الكاملون ـ رجالاً ونساء ـ يتمتعون باحترام أسمى من الكهنة الكاثوليك . وكانوا يمارسون حياة اكثر تقشفاً من بقية المؤمنين ، ويطبقون ثلاث صيامات طويلة سنويا . ان تنظيم الكنيسة الكاذارية هو ليف غير معروف جيداً . ومن المعلوم ان كل اسقف كان يساعده فيلوس كبير وفيليوسن أصغر ، وعندما كان يموت الاسقف ، كان الفيليوس الاكبر يخلفه تلقائيا ، ان المماثلة مع الكهانة الرومانية غير متشابهة ، وهي تفسر بالتقليد الكهنوتي للكنيسة المسيحية القديمة من أصول القرن الخامس[١٥] .

ولفهم نجاح الدعاية للكاذار بشكل أفضل ، وبصورة عامة ، الحركات الماقبل الألفية Paramillénaristes التي غالبا ما أصبحت هرطقية ، يجب ان يؤخذ في الحسبان أزمة الكنيسة الرومانية ، وبدئياً سقوط التراتبية الكنسية . وبافتتاح رابع مجمع لاتران ، أثار أنوسنت الثالث الى أن الاساقفة المشغولين «بلذاتهم الجسدية» فقط ، دون ثقافة روحية ، والمجردين من الحماس الرعوي ، «غير قادرين لاعلان كلام الله وحكم الشعب» . ومن جهة أخرى ، فإن لا أخلاقية وحقارة رجال الدين ابعدت المؤمنين تباعاً . ولقد كان عدد من الكهنة متزوجين أو انهم كانوا يعيشون بشكل سافر ، مخادنين . وكان البعض منهم يدير خمارات ليستطيع إطعام زوجاتهم وابنائهم . وبما انه كان يتوجب عليهم مكافأة ارباب عملهم ، كان الكهنة يفرضون رسماً لكل خدمة دينية اضافية : زواج ، تعميد ، صلوات من أجل المرض والموتى . الخ . . . وان رفض ترجمة الكتاب المقدس (كما حصل في الشرق) جعل من غير الممكن كل تعليم ديني ، ولم تكن المسيحية مقبولة إلا عبر الكهنة والرهبان .

وفي العشرات الأولى من القرن الثاني عشر أجهد القديس دومينيك ـ (١١٧٠ـ١٢٢١) نفسه في محاربة الهرطقة ، ولكن بدون أي تقدم . وبناء على طلبة أسس انوسنت الثالث نظام الأخوة الواعظين . غير ان الدومينيكانيين كالقاصدين

الرسوليين les légats المرسلين سابقاً من قبل البابا ، لم ينجحوا مطلقاً في الحد من تقدم الحركة الكاذارية . ففي كار كاسونة سنة ١٢٠٤ حصل النزاع العلني الأخير بين اللاهوتيين الكاذار والكاثوليك . وفي كانون ثاني ١٢٠٥ أراد بطرس الكاستيلماري الذي كان انوسنت الثالث أو كل إليه مهمة استئصال الهرطقة في جنوب فرنسا ، التنازل عن مهمته واعتزل في دير رهبنة . ولكن البابا أجابه «ان العمل يثمن عاليا باكثر من التأمل» .

وأخيراً في نوفمبر ١٢٠٧ ، أعلن انوسنت الثالث الصليبية ضد الألبيجوا les Albigeois متوجها ، بخاصة إلى كبار أمراء الشمال ، دوق بورغونيا ، وكونتات البار Bar ونيغر ، وسامبانيا ، ويلوا . وقد خدعهم بوعد أن املاك النبلاء الالبيجوا ستعاد إليهم بعد النصر . وملك فرنسا من جانبه ، قد استميل وجذب بامكانية مد مملكته صوب الجنوب . ودامت الحرب الأولى من ١٢٠٨-١٢٠٩ غير انه توجب لها ان تعاد وتمدد ايضاً خلال سنوات طويلة ، ولم تنقطع كنيسة الكاذار عن الوجود إلا حوالي سنة ١٣٣٠ .

إن الصليبية المأساوية ضد الألبيجوا هي ذات دلالة لعدة اسباب . ومن سخرية التاريخ ، انها كانت الصليبية الوحيدة الظافرة ، وكانت نتائجها السياسية والثقافية والدينية بارزة . وكان من عملها توحيد ونمو المملكة الفرنسية ، كما كان من عملها ايضا تدمير الحضارة الجنوبية وتدمير عمل اليانور ومحاكمها للحب ، وتمجيدها للمرأة وشعر التروبادور ؛ (ف ٢٦٩ع) ، وفيما يخص نتائج النظام الديني ، فإن اكثرها فداحة كان القوة المتنامية ، والمهدئة دائما ، للتفتيش ، فقد أجبر التفتيش المقام في تولوز اثناء الحرب ، كل النساء البالغات من العمر اثنى عشر عاما وكل الرجال باكثر من اربعة عشر عاما ان يتبرؤوا من الهرطقة . وقد منع سيفودس تولوز في سنة ١٢٢٩ حيازة الكتاب المقدس في اللغة اللاتينية أو في لغة وطنية ، وكانت النصوص الوحيدة المسموح بها كتاب الصلوات اليومية le lerèviaise وكتاب المزامير le Psantier وكتاب ساعات العذراء وجميعها في اللاتينية . وقد انتهى الألبيجيون العديدون الذين التجأوا إلى ايطاليا باكتشافهم من قبل عملاء التفتيش ، لأنه مع الزمن ، نجح هؤلاء الأخيرون في الإقامة في مختلف البلدان تقريباً من اوروبا الغربية والوسطى . ومع ذلك يضاف إلى هذا ان

الحرب ضد الهراطقة دفعت الكنيسة لاجراء اصلاحات عاجلة وشجعت الارساليات الدومينكانية والفرنسيسكان .

إن الطريقة التي أنهى بها الالبيجوا تشكل واحدة من الصفحات الاكثر سواداً في تاريخ الكنيسة الرومانية ، ولكن ردة الفعل الكاثوليكية كانت قد بررت . إن الحقد ضد الحياة والجسد «مثلا ـ تحريم الزواج ، انكار القيامة الخ . .» والثنائية المطلقة شقت الكاثوليكية عن التقليد والمسيحية معا . وفي الواقع ، كان الالبيجوا يبشرون بدين فريد من نوعه ، وذي بنية وأصل شرقيين .

إن النجاح المنقطع النظير للمبعوثين الكاذار يمثل أول اختراق كثيف للأفكار الدينية الشرقية ، في الاوساط الريفية كما في الأوساط الصناعية ، ورجال الدين والأشراف . ويجب الانتظار حتى القرن العشرين لمشاهدة ظاهرة مماثلة ، وبخاصة التقبل الحماسي تقريباً في كل مكان من أوروبا الغربية ، لألفية من أصل شرقي ، الماركسية ـ اللينينية . .

٢٩٥ ـ القديس فرنسوا الاسيزي

إن القرنين ١٢ و١٣ عرفا تقييما دينياً جديد للفقر . وقد وجدت حركات هرطقية ، مثل : الهوميلياتيس ، والفودوا ، والكاذار ، وكذلك البيغوين ، والبيغارد ، وجدت في الفقر الوسيلة الأكثر فعالية لتحقيق المثل الأعلى المعلن من قبل يسوع والرسل . ولكي يتم توجيه هذه الحركات ، اعترف البابا ، في بداية القرن الثالث عشر ، بنظامي الرهبان المستعطين الدومينيكان والفرنسيسكان . ولكنه ، وكما سنرى ، فإن صوفية الفقر اثارت ، لدى الفرنسيسكان ، ازمات هددت وجود النظام . وذلك لأن المؤسس نفسه الذي مجد الفقر المطلق ، أصبح هذا الفقر بالنسبة له (السيدة الفقر) la madonapoverta .

إن فرنسوا المتولد في ١١٨٢ إبناً لتاجر غني من اسير . Assire قام بأول حج لروما في سنة ١٢٠٥ ، واتخذ ، ليوم واحد ، مكان شحاذ أمام القديس بطرس . وفي مناسبة ثانية عانق ابرصاً وبرجوعه إلى أسيز عاش خلال سنتين في رهبنة بالقرب

من كنيسة . وقد ادرك فرنسوا ارشاده الحقيقي بسماعه في ١٢٠٩ المقطع الشهير من انجيل متى «أشفوا المرضى ، وأقيموا الموتى ، وابرئوا البرص ، واطردوا الشياطين ، أخذتم مجانا فمجانا اعطوا . لا تقتنوا نقوداً من ذهب ولا فضة ولا من نحاس في زنانيركم ولا مزوداً للطريق ولا قميصين ولا حذاء ولا عصا لأن العامل يستحق طعامه . . » [متى ١٠-٧-١٢][١٧] . ومنذئذ ، اتبع حرفياً هذه الكلمات الموجهة من قبل يسوع إلى الرسل ، وقد انضم إليه بعض التلامذة ، وحرر فرنسوا قاعدة قصيرة وموجزة . وفي سنة ١٢١٠ ، ذهب مجدداً إلى روما ، ليطلب اجازته من انوسنت الثالث . وقبل البابا شريطة ان يصبح فرنسوا مدير نظام صغير (من هنا كان الاسم الاخوة الصغار ، المعطى للفرنسيسكان) . وكان الرهبان يفترقون ويبشرون عبر ايطاليا ، ويجتمعون مرة في السنة ، في البانتكوت ، Pentec°te . وفي سنة ١٢١٧ تعرف فرنسوا في فلورانسا على الكاردينال اوغولينو ، المعجب كثيراً برسالته ، وأصبح الكاردينال صديقه وحامي نظامه . وفي السنة التالية ، التقى بدومينيك ، الذي عرض عليه توحيد النظامين ، غير ان فرنسوا رفض ذلك .

وفي اجتماع ١٩١٩ طلب أوغلينو بناء على اقتراح بعض الرهبان الأكثر ثقافة تغيير القاعدة ، ولكن دون جدوى . وخلال ذلك الوقت بدأ مبعوثوا الفرنسيسكان يتسربون في البلاد الاجنبية ، ونزل فرنسوا مصحوباً باثني عشر من اخوانه في الأرض المقدسة ، عازما على التبشير امام السلطان ، وقد مر في مخيم للمسلمين ، واستقبل بشكل حسن . وبعد قليل من الزمن ، أعلم بأن المندوبين اللذين كان قد عينهما ، غيراالقاعدة la règle وحصلا على امتيازات من البابا ، فرجع فرنسوا إلى ايطاليا . وعلم ان بعض الاخوان الصغار اتهموا بالهرطقة في فرنسا والمانيا وهنغاريا ، وهذا ما جعله يقرر القبول برئاسة البابا .

ومنذئذ أصبحت جماعة الرهبان ، تنظيما شرعيا ، تحت ظل السلطة القضائية القانونية . واجيزت قاعدة جديدة من قبل هونوريوس الثالث في سنة ١٢٢٣ ، فرضخ فرنسوا لتوجيه النظام . وفي السنة التالية انسحب إلى فيرونا . وفي هذا الدير تلقى عقابيل المرض . ورغم شدة مرضه ، وفقده البصر تقريبا نجح بتأليف بعض الكتب والنصائح لاخوانه وعهده لهم .

وفي النص الأخير (عهده) أجهد فرنسوا نفسه به لآخر مرة للدفاع عن الارشاد الحقيقي لنظامه . واظهر حبه للعمل اليدوي وطلب من الأخوة ان يعملوا ، وعندما لا يقبضون أجوراً ، أن يرجعوا «لمائدة الله ، طالبين المعونة من باب لباب» .

وقد دعا الأخوان أن لا يقبلو «تحت اية حجة ، لا كنائس ولا مساكن ولا كل ما يبنى من أجلهم ، اذا لم يكن ذلك متوافقاً مع الفقر المقدس الذي اوردناه في القاعدة la Regle ، إن يقيموا فيها دائماً كضيوف كغرباء وكحجاج . انني أحرم رسميا بطاعة على كل الأخوة ، في أي مكان يكونون فيه ، ان يتجاسروا على طلب أي سند في محكمة روما ، بالذات أو بواسطة أي شخص وسيط ، من أجل كنيسة أو من أجل أي مكان تحت حجة وعظ أو بسبب من أي تعذيب جسدي : : :»(١٨)

لقد مات فرنسوا في سنة ١٢٢٦ ، وبعد أقل من سنتين قُنِّن من قبل صديقه الكاردينال اوغولينو ، الذي أصبح البابا غريغوار التاسع . لقد كان هذا ، بالتأكيد ، الحل الأمثل لربط النظام الفرنسيسكاني بالكنيسة . ولكن الصعوبات لم تخذف . فمثلت السير الذاتية الأولى القديس فرانسوا وكأنه المرسل من قبل الله لاحياء اصلاحات الكنيسة . وقد كان بعض الاخوان الصغار اعترفوا بمعلمهم الممثل للعصر الثالث المعلن عنه من قبل جواشيم دي فلور(١٩) . (ف ٢٧١ع) . إن التواريخ الشعبية المجمعة

والمنشورة من قبل الفرنسيسكان في القرن الثالث عشر والمنشورة في القرن الرابع عشر تحت عنوان فيورتي Fioretti قارنت فرنسوا وتلامذته بالمسيح وحوارييه . ومع ان غريغوار التاسع اعجب باخلاص بفرنسوا ، فإنه لم يقبل العهد واقر القاعدة لعام ١٢٢٣ . وقد أتت المعارضة خاصة من «الرهبان المحافظين» وفيما بعد ان الروحيين ، الذين أصروا على ضرورة الفقر المطلق . وفي سلسلة من البراءات البابوية bulles ، بذل غريغوار التاسع وخلفاءه كل جهد للبرهان على عدم تعلقه ابداً «بتملك» ؛ وانما «باستعمال» بيوت وأموال أخرى. وقد حاول جان دي بارم قائد النظام من ١٢٤٧ إلى ١٢٥٧ ، المحافظة على تراث القديس فرانسوا ، متحاشياً النزاع المكشوف مع البابا ، ولكن خصومة الرومانيين جعلت هذه الجهود عبثاً ، ولحسن الحظ فإن جان دي بارم قد أبدل بـ بونا فينتوراً Bonaveture الذي

يعتبر بحق كمؤسس ثاني للنظام . غير ان الجدل حول الفقر المطلق استمر خلال حياة بونيفانتور وبعد موته (١٢٧٤ واخيراً اغلق النزاع نهائيا بعد سنة ١٣٢٠ .

ومن المؤكد ، ان انتصار الكنيسة أنقص الحمية الأصلية للنظام وأحبط الأمل باصلاح بواسطة العودة إلى تقشف الرسل . ولكن النظام الفرنسيسكاني بفضل هذه التسويات نجح في استمرارية حياته . صحيح ان النموذج المثالي الوحيد كان قد انشيء بواسطة حياة كل أيام المسيح ، وحوارييه ، والقديس فرانسوا ، أي بالفقر ، والاحسان والعمل اليدوي . ومع ذلك ، فإن الطاعة ، بالنسبة للرهبان ، للسلطة العقائدية الأعلى بقيت الواجب الأول والاكثر صعوبة .

٢٩٦ ـ القديس بونيقانتور واللاهوت الصوفي .

إن بونافانتور المتولد سنة ١٢١٧ بالقرب من اورفييتو Orviéto ، قد درس اللاهوت في باريس ، حيث علم بدءاً من ١٢٥٣ . وقد اختير وزيراً عاما في فترة من الفترات الأكثر حرجاً للنظام الفرنسيسكاني سنة ١٢٥٧ . وقد جهد بونافانتور للتوفيق بين الوضعين المتعارضين تماماً ، معترفاً ، إلى جانب الفقر والعمل اليدوي ، بضرورة الدراسة والتأمل . وقد ألف كذلك سيرة ذاتية متواضعة جداً للقديس فرانسوا (Legenda maior) ١٢٦٣ ؛ وبعد ثلاث سنوات ، أعلنت رسميا أنها السيرة الذاتية الوحيدة المرخص بها .

واثناء تعليمه في باريس ، حرر بونيفانتور شرحا لأمثال (بيير لومبارد) ، البريفيلوكيوم le Breviloqium والمسائل المتنازع فيها . ولكنه بعد عزلة قصيرة في فيرنا سنة ١٢٥٩ حرر كتابه الرئيسي ، خط السير للروح في الله l'itinéraire de l'espriten Dieu[٢٠] . وقبل سنة من موته ، الحاصل في ١٢٧٤ ، أصبح بونيفانتور كاردينالاً اسقفا لألبانو . وثبت رسميا من قبل سيكت Sixte الرابع في سنة ١٤٨٢ وسمي (دكتور اساورفيم) Doctor serphicus للكنيسة من قبل سيكست الخامس في سنة ١٥٨٨ .

لقد بدىء بالاعتراف ان التركيب اللاهوتي لبونافانتور هو الأكثر كمالاً في القرون الوسطى فقد أجهد نفسه لاستعمال افلاطون واريسطو وأوغسطين والآباء الاغريق ، بزيلدو ـ دينيس وفرانسوا الاسيزي[٢١] . وفي حين ان توما الاكويني أقام منهجه حول ارسطو ، فإن بونافانتور حافظ على التقليد الأوغسطيني للافلاطونية المحدثة القروسطية . ولكن الدلالة العميقة للاهوته كشفت خلال القرون الوسطى ، على اثر نجاح التركيب التوماسي ـ الارسطوطالي تماما كما حصل في العصور الحديثة ، بالانبثاق الظافر للتوماسية الجديدة) .

ان باحثا معاصراً ايورت هـ . كوزان Ewerth. Gousin ، يضاهي مفهوم توافق الاضداد Coincidentia oppositarum بمفتاح القبة للفكر البونافانتوري[٢٢] . وبوضوح ، انه يتعلق بمفهوم مؤكد عليه تحت شكل ظاهر قل أو كثر في كل تاريخ الاديان . فمن الواضح في التوحيد التوراتي : ان الله لا متناهي ، وشخصي ، متعالي ، وفعّال في التاريخ ، وابدي وحاضر في الزمان الخ . . . وهذه الاضداد هي ايضا اخاذة اكثر في شخصية المسيح . ولكن بونافانتور يجهز وينظم طريقة توافق الاضداد بأخذه التثليث كنموذج ، حيث ان الشخص الثالث هو المبدأ الوسيط والموحد .

إن العمل الرئيسي لبونافانتور هو بلا ريب (خط السير للـروح في الله l'itinerarium Mentis in Deum وفي هذه المرة ايضا ، يستعمل المؤلف رمزا عالميا مذاعاً ، والذي نصادفه منذ بدايات اللاهوت الصوفي المسيحي ، وبخاصة صورة السلم[٢٣] . «إن العالم هو سلم نصعد عليه نحو الله ، هذا ما كتبه بينافانتير) نجد بعض بقايا الأثر من الله . بعضها هو مادي ، وبعضها روحاني ، وبعضها موقت وبعضها خالد ، وبعضها خارج عنا ، وبعضها في داخلنا . وللوصول لمعرفة المبدأ الأول ، الله ، الأكثر روحانية والخالد ومن فوقنا ، يجب علينا التجول عبر بقايا آثار الله التي هي مادية وموقتة وخارجة عنّا . وهكذا ندخل في طريق يوصل لله . ويجب علينا بالتالي في روحنا الخاصة ، حيث الصورة الخالدة والروحية لله هي حاضرة في داخلنا ، هنا ، ندخل في حقيقة الله . واخيراً ، يجب علينا ان نمر في ما هو خالد ، والاكثر روحانية وما هو فوقنا»[٢٤] . عندئذ يوجد الله بصفته كوحدة (أي واحد هو خارج الزمن) والتثليث المقدس .

وفي الفصول الاربعة الأولى من (خط السير) ظهرت التأملات حول انعكاس الله في العالم المادي وفي الروح ، وحول قرب الله . والفصلان التاليان مكرسان لتأمل الله بصفته كائنا (فصل ٥) وبصفته خيراً (فصل ٦) . واخيراً في سابع وآخر فصل ، الروح مأخوذة بوجد صوفي و ، مع المسيح المصلوب ، تمر من الموت إلى الحياة . ويشار إلى اعادة التقييم الجريء للوجد . فخلافاً للتجربة الصوفية لبرناردوي كليرفو ، المحكومة برمزية الحب الزواجي ، فإنها الوحدة الصوفية بالنسبة لبينافانتور هي موت مع المسيح ، وبالاجتماع معه ، اعادة الاتحاد مع الله الآب .

ومن جهة اخرى ، فإن بونافينتورا كفرنسيسكاني جيد يشجع المعرفة الدقيقة والمحكمة للطبيعة . ان حكمة الله تتكشف في الحقائق الكونية ، وبمقدار ما ندرس شيئاً أكثر ، بمقدار ما ندخل اكثر في فرديته ، ونفهمه افضل بصفته الكائن النموذجي المقيم في روح الله [خط السير فصل ٢ قسم ٤] . ولقد رأى بعض المؤلفين في فائدة الفرنسيسكانيين بالنسبة للطبيعة أحد مصادر انطلاق العلوم التجريبية ، وعلى سبيل المثال اكتشافات روجيه باكون (حوالي ١٢١٤-١٢٩٢) وتلامذة اوكهام . ويمكن مقارنة هذا التضامن المدافع عنه من قبل بونيفانتور ، بين التجربة الصوفية ودراسة الطبيعة ، مع الدور الحاسم للتاوية في تقدم العلوم التجريبية في الصين (ف ١٣٤ ع).

٢٩٧ - القديس تومالاكويني والسكولاستيك

بصورة عامة يقصد بالسكولاستيك ، مختلف الأنظمة اللاهوتية الرامية للتوفيق بين الوحي والعقل ، والدين والفهم العقلي ، وقد استعاد أنسلم دي كانتربوري (١٠٣٣-١١٠٩) صيغة القديس اوغسطين : «أعتقد بقصد أن أقدر على الفهم» . وبعبارات اخرى ، يبدأ العقل مهمته بدءاً من حروف الايمان . ولكن بيير لومبارد (١١٠٠-١١٦٠) هو الذي أعد ، في كتابه (الأسفار الاربعة للحكمة Les qutreslivresde Sententiae) البنيان الخاص للاهوت السكولاستيكي . فتحت شكل اسئلة ، وتحليل وأجوبة ، على اللاهوتي السكولاستيكي ان يقدم ويناقش المسائل التالية : الله ، الخلق ، التجسيد ، العرفان التقديسات .

وفي القرن الثاني عشر أصبحت مؤلفات اريسطو وكبار الفلاسفة العرب واليهود وبخاصة (ابن رشد وابن سينا ويعمون) مقبولة جزئياً بترجمات لاتينية . وقد طرحت هذه الاكتشافات في منظور جديد العلاقات بين الله والايمان . فحسب اريسطو ، ان ميدان العقل مستقل تماما . وان البير الكبير (البير دي بولستار ١٢٠٧-١٢٨٠) واحد من العقول الاكثر شمولية في العصر الوسيط ، قد قبل بحماس اعادة الفتح ، «بالنسبة للعقل ، فإن القوانين تركها من ذاته تسقط بعدم الاستعمال»[٢٥] . وعليه فإن مثل هذه النظرية لا يمكن لها إلا أن تسخط اللاهوتيين التقليديين : فقد اتهموا السكولاستيكيين بتضحية الدين للفلسفة والمسيح لأرسطو .

إن فكر البير الكبير عمّق ونهج من قبل تلميذه توماس الاكويني (١٢٢٤-١٢٧٤)[٢٦] . وقد كان توماس لاهوتيا وفيلسوفاً معاً ؛ ولكن المسألة المركزية بالنسبة له هي ذاتها : الكائن ، أي الله . ويميز توماس جذريا بين الطبيعة والنعمة ، وميدان العقل والايمان ، ومع ذلك فإن هذا التمييز يقتضي توافقهما . إن وجود الله يصبح واضحاً منذ ان يعرف الانسان جهده للتفكير في العالم كما يعرفه . وعلى سبيل المثال : بطريقة أو أخرى ، هذا العالم هو في حركة ؛ وكل حركة يجب ان يكون لها محرك ، وهذا المحرك أو السبب هو النتيجة لسبب آخر ؛ مع ذلك لا يمكن للسلسلة ان تنتهي . ويجب القبول بتدخل محرك أول ، الذي ليس هو سوى الله . وهذه الحجة هي الأولى من مجموعة خمسة ، مشار إليها من قبل توماس «بالطرق الخمسة» . والحل العقلي هو دائماً ذاته : بالانطلاق من حقيقة واضحة ، نصل للاله . «كل سبب فعّال يفترض سببا آخر ويتصاعد السلسلة نصل للأول الله ، الخ . . .»

ويكونه لا محدوداً وبسيطاً ، فإن الله المكتشف هكذا بالعقل هو خارج اللغة البشرية . فالله هو العمل الصافي للوجود ، وعليه فهو لا متناهي ، وازلي غير متحول . وبالبرهان على وجوده بواسطة مبدأ السببية ، نصل في ذات الوقت إلى نتيجة ان الله هو خالق العالم . خلق الكل بحرية ، وبدون أية ضرورة . ولكن العقل البشري ، بالنسبة لتوماس ، لا يستطيع البرهان فيما اذا كان العالم قد وجد دائما ، أو على العكس ، اذا كان الخلق حصل في الزمان . إن الايمان المبني على موحيات الله يتطلب منا الايمان بأن العالم بدأ في الزمان . انه يتعلق بحقيقة موحى بها ، كبقية مواد الايمان الاخرى (الخطيئة

ان كل معرفة تقتضي المفهوم المركزي للكائن ، وبعبارة أخرى الحيازة أو الحضور للحقيقة التي تراد معرفتها . إن الانسان قد خلق ليتمتع بالمعرفة التامة لله ، ولكنه على اثر الخطيئة الأصلية ، لم يعد مؤهلاً لادراكها بدون مساعدة العناية الالهية . والايمان يسمح للمؤمن ، المساعد بالعناية لقبول معرفة الله كما كشفها له اثناء التاريخ المقدس .

«بالرغم من المقاومات التي صادفتهـا ، فإن نظرية القديس توماس قد كسبت بسرعة عديداً من التلامذة ، ليس من داخل الدومينيكان فحسب ، وانما ايضاً في أوساط مدرسية ودينية اخرى [. . . .] . وقد عيّن الاصلاح التوماسي الميدان الكامل للفلسفة واللاهوت ، فليس هو اذن مسألة وحيدة بارزة من هذه الميادين التي لا يستطيع ذكر تأثيرها واتباع اثرها ، ولكنها تبدو بأنها قد اثرت بصورة خاصة على المسائل الأساسية للانطولوجيا التي قاد حلها إلى حل كل المسائل الأخرى»[٢٧] . وقد رأي جيلسون Gilson ، ان أكبر ميزة لسانت توماس ، هي تجنبه للاهوتية ـ التي قبلت كفاية الايمان ـ كما تجنب العقلانية . وحسب ، رأي هذا المؤلف ذاته ، فإن انحدار السكولاستيك بدء مع إدانات بعض اطروحات اريسطو (وبخاصة من شراحة العرب) من قبل اسقف باريز اتيين تمبير Etienne Tenpire ، في ١٢٧٠ و ١٢٧٧[٢٨] . فمنذئذ أصبح التضامن البنيوي بين اللاهوت والفلسفة متهماً بعنف . وان انتقادات دونس سكوت Duns Scot (حوالي ١٢٦٠ـ١٣٠٨) وغليوم اوكهام (حوالي ١٢٨٥ـ١٣٤٧) أسهمت في تقويض التركيب التوماسي . وفي آخر المطاف ، فإن المسافة التي تتفاقم بشكل دائم بين اللاهوت والفلسفة تسبق الانفصال وهي واضحة في المجتمعات الحديثة بين الدنيوي والمقدس[٢٩] .)

يضاف إلى ذلك ان تفسير جيلسون لم يقبل مطلقاً في مجمله . وان توماس الاكويني لم يكن العبقري السكولاستيكي الوحيد في القرون الوسطى . وقد تمتع في القرنين ١٣ و ١٤ باحترام متساوٍ مفكرون آخرون ـ وفي مقدمتهم سكوت وأوكهام ـ ولكن أهمية التوماسية تتأتى من واقعة أنها أعلنت ، في القرن التاسع عشر ، لاهوتا رسميا للكنيسة الرومانية . واكثر من ذلك ، ان ولادة التوماسية الجديدة ، في الربع الأول من القرن العشرين ، يشكل فترة لها دلالتها في تاريخ الثقافة الغربية .

الأصلية ، التثليث المقدس ، تجسد الله في يسوع - المسيح الخ) وهذا هو اذن موضوع تقصي لاهوتي وليس فلسفياً .

إن دونزسكوت الملقب (الفقيه البديل) قد انتقد منهج توماس ، وهاجمه في الأساس ، أي بانكار الأهمية المعطاة للعقل . فبالنسبة ،لدونز سكوت ،كل معرفة دينية معطاة بالإيمان باستثناء هوية الله مع العلة الأولى ، فهي تكتشف بالمنطق العقلي .

وذهب اوكهام أبعد من ذلك في انتقاده للتيولوجيات العقلانية . بما ان الانسان لا يستطيع معرفة سوى الوقائع الخاصة التي يراقبها ، فإن قوانين المنطق والكشف الالهي ، وكل ميتافيزيك هو محال . إن اوكهام ينكر صراحة وجود «العوالم» : انه يتعلق بإنشاءات عقلية دون حقيقة مستقلة . فبما ان الله لا يمكن معرفته بالحدس وان العقل غير قادر ليبرهن على وجوده ، فعلى الانسان أن يكتفي بما يعلمه الدين وبما يعلمه الوحي[٣٠] .

إن أصولية وعمق الفكر الديني لأوكهام يمكن فهمه بخاصة في مفهومه لله . فبما ان الله حر ، مطلق ، كلي القدرة ، يستطيع ان يفعل كل شيء ، وحتى انه يستطيع ان يتناقض ؛ إنه يستطيع ؛ مثلاً ، ان ينقذ مجرماً ، وان يدين قديساً . فلا يسوغ حصر الحرية لله حسب حدود العقل ، أو الخيال أو اللغة البشرية . ان حرفاً من الايمان يعلمنا ان الله قد سما فوق الطبيعة البشرية ، ولكنه يستطيع ان يظهر تحت شكل (أي أن له طبيعة) الحمار ،! الحجر أو الخشب[٣١] .

هذه المختارات المتناقضة من الحرية الالهية لم تخف التصور اللاهوتي للقرون المتأخرة مع ذلك وبدءاً من القرن الثامن عشر - أي بعد اكتشاف البدائية - فإن لاهوت أوكهام كان له ان يسمح بمعرفة اكثر توافقاً لما أسمي «صنمية المتوحشين» . لأن المقدس يظهر تحت أي شكل ، حتى الأكثر ضلالا . وفي المنظور المفتوح من قبل أوكهام ، كان للفكر اللاهوتي أن يبرر les hiérophanies ، تجليات المقدسات المؤكدة في كل مكان من الديانات العتيقة والتقليدية ، وفي الواقع ، يعرف الآن ، ان الموضوعات الطبيعية (حجارة ، اشجار ، ينابيع الخ) . لا تعبد ، وانما تعبد القوى الماوراء طبيعية التي «جسدتها» هذه الموضوعات .

٢٩٨ ـ المعلم إيكهارت : من الله إلى الآلهة الاسطورية

إن ايكهارت Echart المتولد سنة ١٢٦٠ درس لدى دومينيكان كولونيا وفي باريز . ومارس وظائف مدرس ، وواعظ واداري في باريس ١٣١١ـ١٣١٣ ، واستراسبورغ ١٣١٣ـ٢٣ وكولونيا ١٣٢٣ـ١٣٢٧ . وفي هاتين المدينتين الأخيرتين وعظ وقاد المتدينين كما وعظ وقاد المترهبات béguines . ومن بين أعماله العديدة ،وأكثرها أهمية التعليق على الحكم والأمثال لبير لومبارد والأبيوس تريبارتيتم l'opus tripartium ، وهي مجموعة لاهوتية معتبرة ، ومع الأسف ضاع القسم الأكبر منها . وعلى العكس ، فقط حفظ عدد من كتاباته من المواعظ ، غير ان رسمية بعض المواعظ غير مؤكدة .

والمعلم ايكهارت مؤلف أصلي ، عميق وصعب[٣٢] . وهو معتبر ، بحق ، وكأنه اللاهوتي الأكثر أهمية في التصوف الغربي . ومع أنه ملدالتقليد،وشن عهداً جديداً في تاريخ التصوف المسيحي ، ونعيد إلى الذاكرة انه ، منذ القرن الرابع وحتى الثاني عشر ، اقتضت الممارسة التأملية ترك العالم ، أي اتباع الحياة الرهبانية . وكان هذا يتم في صحراء أو في عزلة دير حيث كان الراهب يأمل في هذا التقرب من الله ، والتمتع بالحضرة الربانية . وهذه الصداقة الصميمية مع الله كانت تعادل العودة إلى الجنة ؛ وكان المتأمل يجد بنوع ما شرط آدم قبل السقوط .

وفيما يستطاع اعتباره كمثل أول للتجربة الصوفية المسيحية ، كان القديس بولس اشار ، إلى صعوده الوجدي للسماء الثالثة : «وان كان لابد من الافتخار ـ مع انه لا خير فيه ـ فإنني انتقل إلى رؤى الرب ومكاشفاته ، اعرف رجلاً مؤمنا بالمسيح اختطف إلى السماء الثالثة منـذ أربععشرة سنة . أبجسده ؟ لا أعلم . أم بغير جسده ؟ لا أعلم . الله أعلم . وانما أعلم أن هذا الرجل اختطف إلى الفردوس . أبجسده لا أعلم . ابغير جسده؟ لا أعلم الله أعلم وسمع كلمات لا تلفظ ولا يحل لإنسان ان يذكرها» [رسالةالقديس بولس الثانيةإلى أهل قورنتس ١٢ : ١ـ٤] . إن الحنين إلى الفردوس يشعر به هكذا منذ بدايات المسيحية . واثناء الصلاة ، كان يتوجه نحو الشرق ، هناك حيث كانت توجد الجنة الأرضية . إن رمزية الفردوسية كان قد اعترف

بها في الكنائس وحدائق الاديرة . وكان قدماء الآباء للرهبنة . (أمثال ، فيما بعد ، القديس فرنسوا الاسيزي) مُطاعين من الوحوش الكاسرة ، وعليه ، فإن أول تنازر Syndrome لاحيــأ الحياة الفردوسية هو بحق السيادة المستردة على الحيوانات[٣٣] .

وفي اللاهوت الصوفي لإيفاجر الكاهن Ekager le Pontique (القرن الرابع) كان الراهب هو المسيحي الكامل ؛ وكان يشكل النموذج للانسان الذي استرد أصوله ، وكان الهدف الغائي للتأمل المنعزل الاتحاد مع الله . مع ذلك ، وكما يؤكد عليه بين امور أخرى ، القديس برنارد ، «ان الله والانسان منفصلان أحدهما عن الآخر . كل منهما يتمتع بارادته الخاصة ومادته الخاصة . ومثل هذا الاتحاد هو بالنسبة لهما مشاركة بالارادات واتفاق بحب»[٣٤] .

هذا التقييم الشبه زواجي للاتحاد الصوفي l'uniomystica تأكد على نطاق واسع في تاريخ التصوف ، وليس في تاريخ التصوف المسيحي فقط . ولنقل مباشرة انه غريب بكامله عن المعلم ايكهارت . والواقع هو ذو دلالة ، اكثر وذلك لأن الدومينيكاني يتوجه في مواعظه ليس إلى الرهبان والمتدينين فحسب ، وانما ايضا إلى جمهور المؤمنين . وفي القرن الثامن ، لم يكن الكمال الروحي مطلوبا في الأديرة فقط . فقد حصل الكلام عن جعل التجربة الصوفية «ديموقراطية» و«دينوية» وتلك هي ظواهر ميزت الفترة من ١٢٠٠-١٦٠٠ . وكان المعلم ايكهارت اللاهوتي بامتياز لهذه المرحلة الجديدة في تاريخ التصوف المسيحي ، وقد أعلن ويرر لاهوتيا ، إمكانية معاودة الهوية الانطولوجية مع الله تماما مع البقاء في هذا العالم[٣٥] . وبالنسبة له ايضاً ، فإن التجربة الصوفية تقتضي (العودة للأصل) ؛ ولكنه الأصل الذي يسبق آدم وخلق العالم .

ويقيم المعلم ايكهارت هذا اللاهوت الجريء بالاستعانة بتمييز أدخله في الكينونة الالهية ذاتها . فبالكلمة إله يدل على الاله الخالق ، في حين انه يستعمل الألوهية للدلالة على الجوهر الالهي . والألوهية هي المبدأ وقالب «الاله» . وبالتأكيد ، إنه لا يتعلق أبداً بأسبقية أو تغيير انطولوجي الذي سيكون له محل في الزمان ، على اثر الخليقة . ولكن مثل هذا التمييز ، بسبب من الالتباس وحدود اللغة البشرية ، يمكن له أن يفسح المجال لسوء فهم كريه . ويؤكد ايكهارت في إحدى مواعظه : «ان الله والألوهية الاسطورية

déité مختلفان أحدهما عن الآخر اختلاف السماء عن الارض [. . .] فالله يصنع ، والألوهية لا تصنع ، إنها لم تصنع شيئاً [. . .] فالله والألوهية يفترقان بالعمل وعدم العمل»[٣٦] . وقد كان دينيز عالم المجمع (ف ٢٧٧ع) عرَّف الله «كنفي محض» . ويمدد ايكهارت ويوسع هذا اللاهوت السلبي : «الله بدون اسم ، لأنه لا يمكن لشخص أن يقول أو يفهم شيئاً عنه [. . . .] . اذن ، اذا قلت : ان الله طيِّب ، فهذا غير صحيح ، أنا طيب ، ولكن الله ليس طيبا [. . . .] . واذا قلت اضافة لذلك : الله حكيم ، فذلك غير صحيح ؛ أنا اكثر حكمة منه . واذا قلت ايضاً : الله كائن ، فذلك غير صحيح ؛ إنه كائن فوق الكينونة ونفي فوق المحسوس»[٣٧] .

ومن جهة أخرى يصر ايكهارت على واقعة ان الانسان هو من «عرق وقرابة الله» ، وهو يحس المؤمن لادراك المبدأ الإلهي ، خارجاً عن الله الثالوثي ، لأن ألوهية الروح ، بطبيعتها ذاتها ، لا تتلقى شيئاً آخر سوى الكائن الالهي ، مباشرة وبدون وسيط . وانه في كليته ، يدخل الله الروح البشرية . ولا يرى ايكهارت في التجربة الصوفية ، الاتحاد الصوفي الممجد من قبل سانت برنارد ومؤلفين آخرين مشهورين ، وانماالعودة للألوهـةالغير ظاهرة ، وحينئذ يكتشف المؤمن هويته الانطولوجية مع المبدأ الالهي . «عندما كنت لأول مرة ، لم يكن عندي الله وكنت ببساطة ذاتي [. . . .] . كنت كائنا صافيا وكنت اعرف نفسي بالحقيقة الالهية [. . . .] . كنت علتي الأولى كما أنا كائني الأزلي مما أنا كائني الموقت [. . . .] . وبسبب ولادتي الأزلية لن أموت مطلقاً [. . . .] . لقد كنت علة ذاتي وعلة كل الاشياء الأخرى»[٣٨] .

وبالنسبة لايكهارت ، ستكون هذه الحالة البدئية مما قبل الخلق ، حالة النهاية ايضا ؛ فالتجربة الصوفية تسبق إعادة تكامل الروح في الألوهة اللامبالية . مع ذلك فإن هذا لا يتعلق بحلولية ولا بأحدية من نوع فيدانتي . فإيكهارت يقارن الاتحاد مع الله بقطرة الماء ، التي بسقوطها في المحيط ، تتوحد معه ؛ ولكن المحيط لا يتطابق بقطرة الماء . «كذلك الأمر ، تصبح الروح الهية ، ولكن الله لا يصبح الروح» . مع ذلك ، في الاتحاد الصوفي «ان الروح في الله كما ان الله هو في ذاته»[٣٩] .

ومع الأخذ في الحسبان للفارق بين الروح والله ، فإن لايكهارت المزية الكبرى للبرهان على ان هذا الفارق ليس نهائيا . فبالنسبة له ، ان الالهام المقدر سلفاً للانسان هو

ان يكون في الله ، لا ان يعيش في العالم بصفته مخلوقاً من الله ، ذلك لأن الانسان الحقيقي ـ أي الروح ـ هو خالد ؛ وخلاص الانسان يبدأ مع انسحابه من الزمن(٤١) . ولا يتوقف ايكهارت عن إطراء «الانفصال» ، ممارسة دينية ضرورية قطعا من أجل معاودة ايجاد الله(٤١) . إن الخلاص هو عملية انطولوجية تصبح ممكنة بالمعرفة الحقيقية . وينقذ الانسان في المعيار الذي يكتشف فيه كينونته الخاصة ، غير انه لا يستطيع ادراك كينونته قبل معرفة الله ، مصدر كل كائن(٤٢) . وتتكون التجربة الدينية الاساسية التي تضمن الخلاص في ولادة اللوغوس في روح المؤمن
. وبما ان الآب يوجد الابن في الأبدية وبما ان مبدأ الألوهية للآب هو ذات الوهية الروح ، فإن الله يحدث الابن في مبدأ الروح . واكثر من هذا ايضاً : «انه يحدثني أنا ابنه [الذي هو] ذات الابن» «انه يحدثني ليس أنا فقط ، ابنه وانما يحدثني كذاته [أي الآب] وهو ذاته مثلي»(٤٣) .

لا شيء أثار خصوم ايكهارت كأطروحته عن ولادة الابن في روح المؤمن ، نظرية مدخلة لهوية المسيحي «الطيب والعادل» مع المسيح . صحيح ان المشابهات المطروحة من قبل الدومينيكان لم تكن دائماً موفقة . ويتحدث ايكهارت في آخر الموعظة رقم (٦) عن الانسان المتحول بتمامه في المسيح ، تماماً كالخبز المقدس الذي أصبح جسد السيد . «لقد تبدلت تماما فيه الـذي أظهر كينونته في ، ذات الكائن وليس بعضاً مشابهاً»(٤٤) . ولكن ايكهارت يؤكد في دفاعه ، بأنه يتكلم «بصفته» أي بالمعنى الكلي والمجرد(٤٥) .

ان الأهمية الحاسمة المعطاة من قبل ايكهارت إلى الانفصال عن كل ما ليس هو الله (أي مبدأ الألوهية) ، وباختصار ، تهربه تجاه الأعمال الزمنية ، انقص ، في نظر بعضهم ، عملية وتأثير لاهوته الصوفي . وقد اتهم خطأ ، بفقدان المنفعة بالنسبة لحياة القداسة للكنيسة وبالنسبة لأحداث تاريخ الخلاص . صحيح ان الدومينيكاني لم يصر على دور الله في التاريخ ولا على تجسد المسيح في الزمان . ولكنه مدح الذي قطع تأمله ليعطي القليل من الحساء إلى مريض ، وردد بإمكانية ملاقاة الله في الشارع تماما كما في الكنيسة . ومن جهة أخرى ، فإن الهدف النهائي للتأمل حسب ايكهارت ، أي للعودة للألوهة الغير مبالية ، لا يمكن له اقناع المؤمنين الباحثين عن التجارب الدينية المهيجة .

وبالنسبة له ، ان حقيقة الغبطة لم تكن ابداً في الانقطاع ، وانما في الاتحاد العقلي مع الله المتحصل بالتأمل .

وفي سنة ١٣٢١ اتهم المعلم ايكهارت بالهرطقة وخلال سنوات حياته الأخيرة كان من المتوجب عليه الدفاع عن اطروحته . وفي ١٣٢٩ (بعد سنة أو سنتين من وفاته) أدان الباب يوحنا العشرين ، ثمانية وعشرين مادة ، معلنا ان سبعة عشر مادة منها هرطقية وان الأخرى «مخالفة للاخلاق ، وفظة جداً وهي مشبوهة بالهرطقة»[٤٦] . ومن الراجح أن تعقيد لغته وحسد بعض اللاهوتيين أسهم في ادانته . ومهما يكن من أمر ، فإن النتائج كانت بارزة . وبالرغم من جهود تلامذته هنريش سوزو وجوان تولر (ف ٣٠٠٠ع) واخلاص العديد من الدومينيكان ، فإن عمل المعلم ايكهلرت بقي خلال قرون ، مستبعداً . ولم يستفد اللاهوت والميتافيزيك للغرب المسيحي من استنتاجاته وتفسيراته العبقرية . وقد تحدد تأثيرها في البلاد الجرمنية . وشجع الانتشار السري لهذه الكتابات على اعداد نصوص محرفة . ومع ذلك ، فإن الفكر الجريء للمعلم ايكهارت ، قد استمر في تخصيب بعض الافكار المبدعة ؛ من بين اكبرها نيقولا دي كوس Nicolas de Cues (ف ٣٠١٠ع) .

٢٩٩ ـ التدين الشعبي واخطار الورع

منذ نهاية القرن الثاني عشر ، لم يكن الكمال الروحي موضع بحث عنه بخاصة في الاديرة . وكان عدد متنامي من العلمانيين اختار احتذاء حياة الرسل والقديسين ، مع البقاء بالكلية في العالم . وهكذا فعل فودوا سبي ليون les Vaudois de Lyon وهم تلامذة لتاجر غني ، بيير فالديس الذي كان عمد لتوزيع امواله على الفقراء في عام ١١٧٣ وبشر بالفقر الاختياري ، أو المساكين Humiliatis ، في ايطاليا الشمالية[٤٧] . وبقيت الأكثرية مخلصة إلى الكنيسة . وبعضهم ممجدين تجربتهم المباشرة لله ، تحللوا من الشعائر وحتى من التقديسات .

وفي اقاليم الشمال ـ الفلاندر ، والبلاد الواطئة ، والمانيا ـ تنظمت جماعات صغيرة علمانية من النساء ، عرفت تحت اسم بيغوين Béguines[٤٨] ،وقد توزعن

حياتهن بين العمل ، والصلاة والتبشير . وكن قليلات العدد ، ولكنهن مكرسات انفسهن للطهارة المسيحية والفقر ، وكانت توجد جماعات من الرجال ، البيغاردس Bégards[٤٩] .

هذه الحركة من التدين الشعبي ، مثارة بالحنين لحياة رسولية Vita apostolica . تذكر بالمثل الأعلى الديني للفودوا des Vaudois . وقد أثاروا في آن واحد ، احتقار العالم وعدم الرضى تجاه رجال الدين . ومن الراجح ان بعض البغوين كان يفضل العيش في الاديرة ، أو على الأقل ، الافادة من التوجيه الروحي للدومينيكان ، وتلك كانت حالة ميشتيلد دي ماجد يبورغ (١٢٠٧-١٢٨٢) ، أول صوفية كتبت في اللغة الالمانية . لقد اسمت القديس دومينيك «أبي الحبيب» . وفي كتابها ، نور الألوهة ، استعملت ميتشيلد لغة صوفية ، جنسيةعن القران بين الزوج والزوجة . «أنت في ، وانا فيك!»[٥٠] .

إن الاتحاد مع الله يعتق الانسان من الذنب ، كما كانت قد كتبت ميتشيلد دي ماجد يبورغ . وبالنسبة للنفوس المتنورة والشريفة ، لم يكن هذا التأكيد ، يتضمن في ذاته ، رأياً هرطقيا . زد على ذلك ، فإن بعض البابوات وعدداً من اللاهوتيين شهدوا لمصلحة أصولية ومزايا البيغويين[٥١] . إلا انه ، وبخاصة ، بدأ من القرن الرابع عشر فإن بابوات ولاهوتيين آخرين اتهموا البغويين والبيغارد بالهرطقة[٥٢] . وبالتهتك المكتمل تحت ايحاء الشيطان . حسب الكليشيهات التقليدية . وقد كان السبب الحقيقي للاضطهاد حسد رجال الدين والرهبان . ولم يكونوا يرون في الحياة الرسولية للبيغوين والبيغارد الا فساد طوية ، واتهموهم بحماس متمرد[٥٣] .

ومع ذلك ، يضاف إلى هذا ان التقوى قادت مراراً كثيرة إلى البدعة ، وحتى إلى الهرطقة في نظر السلطات الكنسية . ومن جهة أخرى وفي القرنين ١٣ و ١٤ كانت الحدود بين الأصولية والبدعة عائمة على الأغلب . ومن جهة أخرى ايضاً ، فإن بعض الجماعات من العلمانيين كان طالب بطهارة دينية خارج الطاقات البشرية . ولم تستطع الكنيسة مسامحةخطر مثل هذه المثالية ، فعاودت العمل بنشاط . وهكذا اضاعت الفرصة لاشباع الحاجة إلى روحانية مسيحية اكثر رسمية واكثر عمقاً[٥٤] .

وفي سنة ١٣١٠ احرقت في باريز ، مارغريت بوريه ، أول شخصية عرِّفت كمنتمية إلى حركة الاخوة والاخوات للروح الحرة . (رغم مشابهات ذات دلالة ، يقتضي تمييز هذه الحركة عن جماعات البيغوين والبيغارد) . لقد حطم انصار الروح الحرة[٥٥] كل علاقة مع الكنيسة . ومارسوا صوفية راديكالية باحثين عن الاتحاد مع الله . وحسب اقوال متهميهم ، فإن اخوان واخوات النفس الحرة كانوا يرون بأن الانسان ، في وجوده الارضي يستطيع إدراك ، درجة من الكمال بحيث لا يمكن بعدها ان يخطيء . وقد تحلل هؤلاء الهراطقة من توسط الكنيسة ، «لأن الرب هو الروح ، وحيث يكون روح الرب تكون الحرية» [كورنتية ١١-٣:١٧] .

ومع ذلك ، فلا يوجد ما يثبت أنهم شجعوا التناقضية ؛ بل على العكس ، انهم بالتقشف والتنسُّك جهزوا الاتحاد الصوفي . واخيراً ، فهم لم يشعروا بانفصالهم عن الله والمسيح . وكان بعضهم قد اكدَّ : «أنا المسيح ، وانا ايضا اكثر . . .»[٥٦] .

ومع ان مرغريت بوريه احرقت كهرطقية ، فإن كتابها «مرآة الارواح البسيطة» نسخ على فترات وترجم الى عدة لغات . صحيح انه لم يكن معروفا بأنها مؤلفته (تمت المطابقة بعام ١٩٤٦) ، ولكن هذا يثبت ان الهرطقة لم تكن واضحة . إن كتابها «المرآة» يتضمن حواراً بين حب وعقل متعلقان بتوجيه روح . ويصف المؤلف سبق «حالات للنعمة» التي تقود للاتحاد مع الله . وفي الخامسة والسادسة من «الحالات» ، تكون الروح «متلاشية» أو «منعتقة» وتصبح مشابهة للملائكة . ولكن سابع حالة ، لا يكتمل الاتحاد الا بعد الموت ، في الفردوس[٥٧] .

وقد انتشرت كتب اخرى لمؤلفين منتمين لحركة «النفس الحرة» ، تحت اسم المعلم ايكهارت . والاكثر شهرة منها هو «المواعظ المنحولة رقم ١٧ - ١٨ و ٣٧ ٥٨» . وتقص رسالة (شويتز ، كاتري) قصة العلاقات بين واحدة من البغوين مع معلمها ، المعلم ايكهارت . وفي النهاية ، توجه الاخت كاترين هذا الاقرار : «سيدي ، هل تتمتع معي : لقد اصبحت الها» فيأمرها المعلم بأن تعيش ، خلال ثلاثة أيام ، متوحدة في الكنيسة . وتماما كما في المرآة ، اتحاد الروح مع الله ليس له نتائج فوضوية . ان التجديد الكبير المقدم بحركة «الروح الحرة» هو اليقين بأن الاتحاد الصوفي يمكن الحصول عليه هنا على الأرض[٥٩] .

اضافة إلى الأزمات التي هزت الكنيسة الغربية[٦٠] . فإن القرن الرابع عشر يتميز بسلسلة من الكوارث والمصائب الكونية : مذنب ، خسوف الشمس ، طوافانات . وبخاصة بدءاً من ١٣٤٧ الجائحة الرهيبة من الطاعون (الموت الأسود) . ولهذا ، ومن أجل تخفيف عقاب الله أو ثنيه كثرت طوافات السائطين flagellany[٦١] . والمقصود بذلك حركة شعبية تتبع مسيرة متميزة من التقوى إلى البدعة . وفي الواقع ، إن المتسوطين الفخورون بتعذيبهم لأنفسهم ، ورغم جهالتهم في اللاهوت ، كانوا يعتقدون بإمكانية الحلول محل القوى اللدنية والتوماتيرجية للكنيسة . وذلك هو السبب الذي من أجله منعوا من قبل كليمنت السادس .

بهدف التحرر من ذنوبهم وبخاصة ذنوب العالم ، كانت جماعات متنقلة من غير المتدينين (لاييك) تجتاز البلاد تحت قيادة معلم . وبوصولهم إلى إحدى المدن ، كان الموكب (الذي يصل أحيانا عدد افراده عدة ألوف من الاشخاص) يتوجه نحو الكاتدرائية . منشداً الأناشيد ، ومشكلا عدة حلقات . وبكل انتحاب وبكاء . كان التائبون يدعون الله ، والمسيح والعذراء ويبدأون بضرب انفسهم بالسياط بعنف حتى تصبح اجسادهم كتلة متورمة من لحم متزرق اللون[٦٢] .

من جهة أخرى ، يبدو ان كل العصر مهووس بالموت والآلام التي تنتظر الميت في الآخرة . وكان الموت يطبع التخيل بأكثر قوة من الأمل في البعث[٦٣] . وكانت الأعمال الفنية (آثار جنائزية ، تماثيل ، وبخاصة التصوير) تمثل بدقة مرضية مختلف مظاهر تحلل أو فساد الجسد[٦٤] . «إن الجثة هي الآن في كل مكان ، حتى على القبر»[٦٥] . وكان الرقص المأتمي ، الذي كان الراقص فيه يمثل الموت ذاته ، جاذبا للرجال والنساء من مختلف الأعمار ومن كل الطبقات (ملوك ، متسولون ، اساقفة ، بورجوازيون الخ) قد أصبح موضوعاً مفضلاً في التصوير والأدب[٦٦] .

انه أيضاً عصر الذبائح الدموية ، والموجزات حول l'ars moriendi الفن الموريندي وانطلاق نغمة الورع ، والأهمية المناطة بالتطهير . ومع ان التعريف الكهنوتي للتطهير

يعود إلى سنة ١٢٥٩[٦٧]، فإن شعبيته تطورت فيما بعد بفضل الاحترام، خاصة، للصلوات من أجل الموتى[٦٨].

وفي هذه الأوقات من الأزمات والقنوط، تنامت وامتدت الرغبة بحياة دينية اكثر رسمية، وأصبح البحث عن التجربة الصوفية ملحاً. وقد تجمع المتحمسون، في بافاريا، وفي الالزاس، وسويسرا مشيرين لأنفسهم بأنهم «احباب الله». وسيشعر بوجود تأثيرهم في مختلف الاوساط غير المتدينة، ولكن في بعض الاديرة ايضا وقد أجهد كل من تولر وسيزو، تلميذي المعلم ايكهارت، نفسهما لنقل مذهبه، ولكن تحت شكل مختصر، وذلك بغاية ان يجعلاه مقبولاً ولوضعه بمنجاة من الاتهامات.

ويعرف القليل عن حياة جوهان تولر (المتولد حوالي ١٣٠٠ والمتوفى في ١٣٦١)، كما ان النصوص المنسوبة إليه غير صادرة عنه[٦٩]
فتولر هذا يصر على تولد الله في روح المؤمن: يجب اعدام «كل ارادة، وكل رغبة، وكل عمل خاص؛ يجب ان لا يترك شيء يستمر سوى الانتباه النقي والبسيط لله». إن الروح مقادة في «الظلمة الخفية لله دون مثال، واخيراً في الوحدة البسيطة ودون مثال، حيث تفقد كل تميز، وحيث هي بدون موضوع ولا مشاعر». غير ان تولر لم يشجع ابداً البحث عن النعم المصاحبة في التجربة الصوفية.

اما حول اعمال هينريش سوزو (١٢٩٦-١٣٦٦) فتوجد معلومات كاملة. فقد دخل وهو حدث جداً إلى دير دومينكاني في كونستان، وفي حوالي الثامنة عشرة من عمره، عرف الوجد الأول وخلافا للمعلم ايكهارت (الذي أرسل اليه في سنة ١٣٢٠) فإن سوزو يتكلم عن تجاربه الوجدية[٧٠] وهو يلخص هكذا المراحل للطريقة الصوفية: «ان الذي يرجع إلى ذاته يجب عليه ان ينفصل عن الأشكال المخلوقة، مكوناً مع المسيح ومحولا في الألوهة».

وربما على اثر كتابة (سفر الحقيقة) الذي دافع فيه عن تعليم المعلم ايكهارت توجب على سوزو التخلي عن وضعه كقاريء. فسافر إلى سويسرا والالزاس وجهات أخرى والتقى تولر كذلك عدداً من «احباب الله». وكما ان تبشيره جعله شعبياً، سواء

في الأوساط العلمانية أو الرهبانية ، فإن سوزو أثار الاحساد ووشى به بكراهية . ولكن كتبه بعد موته تمتعت بانتشار واسع .

ومع أنه انتقد بعنف (البيغوين) واتباع (النفس الحرة) فإن الصوفي الفلامندي الكبير (روس برويك ١٢٩٣-١٣٨١ Ruys Broeche) ، لم ينج هو ايضاً من الارتيابات في العقيدة[٧١] . ان اكثرية كتاباته الاحدى عشرة الثابتة تتعلق بالتوجيه الروحي . ويؤكد رويس برديك باصرار على خطأ الهرطقة والصوفية الكذبة الذين يخلطون الفراغ الروحي مع الاتحاد في الله : لا يمكن معرفة التأمل الحقيقي دون الممارسة المسيحية والطاعة الكنسية ، والاتحاد الصوفي لا يتم ابدا (طبيعياً) وانما هو منحة من النعمة الالهية .

ولم يكن رويس بروك يجهل الخطر بأن يحكم عليه بشكل سيء ، ولأجل هذا لم يشجع ابداً انتشار بعض مؤلفاته التي الفها خصيصاً لقراء على جانب متقدم في ممارسة التأمل وعلى كل حال فقد فهم بشكل سيء ، وهو جم من قبل (جان جيرسون) رئيس جامعة باريز . حتى ان المعجب والمخلص له كثيراً جيرهارت كروت ، اعترف بأن فكر روسي برويك يمكن ان يفسح المجال لكثير من التشويش . وفي الواقع ، ومع الاشارة تماما لضرورة الممارسة ، فإن روسي برويك يؤكد على ان التجربة للتأمل تكتمل على مستوى أعلى . وهو يؤكد بدقة على انه حتى خلال هذه التجربة «المتفردة» «لا يمكن ان نصبح إليها واضاعة قالبنا لكائن مخلوق» [الحجر المتوهج][٧٢] . وعلى كل حال ، فإن هذه التجربة تحقق «توحداً في الوحدانية الاساسية لله» ، وروح المتأمل «بكونها محتضنة في التثليث المقدس» . ولكن رويس برويك يذكر بأن الله خلق الانسان على صورته ، «كمرآة حية طبع فيها صورة طبيعية» . ويضيف انه ، لأجل فهم هذه الحقيقة العميقة والخفية ، فإن على الانسان «ان يموت لذاته ويعيش في الله» .

وفي آخر المطاف ، فإن خطر الرقابة الكنسية قد عنى المتأملين المثقفين في اللاهوت كما عنى المتحمسين من كل نوع ، للبحث عن التجارب الصوفية» . هذا وان بعض الروحانيين فهم بشكل جيد عدم جدوى مثل هذه المخاطرة فجيرهارت غروت (١٣٤٠-١٣٨٤) الملقن لحركة تنسكية جديدة اخوان الحياة العامة ، لم يهتم مطلقاً بالتعاليم والتجارب الصوفية .

وان اعضاء الجماعات طبقوا ما أسميناه الورع الحديث de votio moderna ، مسيحية بسيطة ، كريمة ومتسامحة ، وغير مبتعدة عن الأصولية . فكان المؤمن مدعواً للتأمل حول سحر التجسيد ، كما يرتبه سر القربان المقدس ، بدلاً من الانسياق للارشادات الصوفية . وفي نهاية القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر جذبت حركة اخوان الحياة العامة عدداً كبيراً من اللاييك . إن الحاجة العامة والعميقة لورع مقبول من كل واحد تفسر دوما النجاح المتفرد لحركة (احتذاء يسوع المسيح) المؤلفة من قبل توماس في كمبين (١٣٨٠-١٤٧١) .

وما زال الجدل قائماً حول دلالة وأهمية هذه الحركة التقوية . فبعض الكتاب اعتبرها كواحدة من ينابيع الاصلاحات ، سواء أكانت انسانية ، كاثوليكية أو بروتستنتية[٧٤] . ومع الاعتراف التام ، بأن الورع الحديث ، في معنى ما ، قد سبق ورافق حركات الاصلاح في القرن السادس عشر ، ويلاحظ ستيفن اوزمنت بحق ان «تحققها الاساسي هو اعادة تجديد المانوية التقليدية عشية الاصلاح . فالورع الحديث برهن على ان الرغبة في العيش حياة مشاعية بسيطة ، من تضحية الذات abnégation ، وباحتذاء المسيح والرسل ، كان ما يزال نشطا في نهاية العصر الوسيط عما كان عليه في الكنيسة البدائية»[٧٥] .

٣٠١ - نيقولاس دي كوز وغروب القرون الوسطى

ولد نيقولا كريبس في كوزا سنة ١٤٠١ ، وهو كذلك بدأ دراسته في مدرسة داخلية يديرها اخوان الحياة المشتركة . وقد تعرف بعض المؤلفين على معالم هذه التجربة الأولى في التطور الروحي للكاردينال المقبل[٧٦] . لقد اكتشف نيقولا دي كوز باكرا مؤلفات المعلم ايكهارت وبزيدوه آريوباجيت ، وان هذين اللاهوتيين الصوفيين هما اللذان وجها وغذيًا فكره . ولكن ثقافته الشمولية (اتقن الرياضيات ، الحقوق ، التاريخ ، اللاهوت ، الفلسفة) وأصوليته العمنيقة لماروائيته ، ومجرى حياته الكنسية الاستثنائية ، كل ذلك جعل من نيقولا دي كوز واحداً من الوجوه الاكثر تعقيداً والاكثر التصاقا بتاريخ المسيحية[٧٧] .

وسيكون من العبث مشيئة اعطاء تقديم مركز عن منهجه ، وما يهم هنا ، يقوم بخاصة على اظهار المنظور الشمولي لماورائيته الدينية كما ظهرت في أول كتاب له (التوافق الكاثوليكي Concordantia Catholica) (١٤٣٣) وفي (De Docta ignorantia علامة الجهل) ١٤٤٠ وفي (سلام الايمان De pacr fidei) (١٤٥٣) . لقد كان نيكولا دي كوز أول من يعترف بالتوافق Concordantia كقاعدة شاملة ، حاضرة ايضا في حياة الكنيسة ، وفي تطور التاريخ وبنية العالم ، كما في طبيعة الله(٧٨) . وبالنسبة له : ان التوافق يمكن ان يكتمل ليس بين البابا والمجمع وكنائس الغرب وكنائس الشرق فحسب ، وانما ايضاً بين المسيحية والاديان التاريخية . وقد وصل لهذه النتيجة الجريئة بمساعدة اللاهوت السلبي لبزيدو- اريوباجيت . ودوما باستعمال الحياة السلبية vianegativa بنى مؤلفه الرئيسي حول (علامة الجهل) .

وقد كان نيقولا دي كوز بنى استقراءه بكتاب (علامة الجهل) عندما اجتاز البحر المتوسط (نوفمبر ١٤٣٧) متجها نحو القسطنطينية . وبما أن الأمر يتعلق بكتاب يصعب تلخيصه ، فإننا نذكر بعض اطروحاته المركزية فقط . ان دي كوز يعيد إلى الذاكرة بأن المعرفة (التي هي نسبية ، معقدة ومحدودة) غير مؤهلة للامساك بالحقيقة (التي هي بسيطة وغير محدودة) . فكل علم بصفته ظنياً ، لا يمكن للانسان معرفة الله [١، ١-٣] . ان الحقيقة - الحكمة المطلقة - هي خارج العقل ، لأن العقل غير قادر على حل التناقضات [١-٤] . فيجب اذن تصاعد العقل الاستدلالي والتخيل وادراك المبدأ الأساسي بالحدس . وفي الواقع ، فإنه يمكن للعقل ان يرتفع لما وراء المفارقات والاختلافات بحدس بسيط [١-١٠] . ولكن ، وبما ان العقل لا يمكنه التعبير عن ذاته في لغة عقلية ، فإن دي كوز يرجع إلى الرموز وبدئيا إلى الصور الهندسية [١، ١-١٢] . ففي الله ، يتوافق الأكبر الغير محدود مع الأصغر الغير محدود [١-٤] وتتوافق ، امكانية الفعل مع الفعل(٧٩) .

ان الله ليس واحداً ولا ثلاثة . ولكنه الوحدانية التي تتطابق مع التثليث [١-١٩] . والله في بساطته اللامتناهية يغلف كل الأشياء ، الا انه في الوقت نفسه هو كل الاشياء ؛ وبعبارة أخرى ، ان التعقيد يتطابق مع التبسيط [١١-٣] . وبمعرفتنا لمبدأ التوافق المتعارض ، تصبح «جهالتنا» «تبحراً في العلم» . ولكن التوافق بين الاضداد لا

يمكن له ان يفسر كتركيب متحصل بالعقل ، لأنه لا يمكن تحققه على مستوى النهاية وانما بطريقة ظنية ، على المستوى اللانهائي(٨٠) .

ولم يشك نيقولا دي كوز مطلقاً بأن الحياة السلبية ، التي تجعل توافق الاضداد ممكنا ، تفتح افقاً آخر للاهوت والفلسفة المسيحيتين ، بالسماح لهما تماما بتطعيم حوار متماسك ومثمر مع الاديان الاخرى . وبكل اسف ، فإن استبصاراته ، بالنسبة للمسيحية الغربية ، وكذلك اكتشافاته لم تتابع ، وألف الكوزي كتابه سلام الايمان في ١٤٥٣ في الحين الذي أقدم فيه الأتراك على احتلال القسطنطينية وانقطاع الامبراطورية البيزنطية عن الوجود . وفي الواقع ، ان سقوط (روما الثانية) يبرز بطريقة تدعو للشفقة عدم جدارة اوروبا لأن تحفظ ، أو تعيد توليد ، الوحدة على المستوى الديني والسياسي . وبالرغم من ذلك فإن هذه الكارثة ، التي كان قد وعاها بألم ، يستعيد دي كـوز في كتابه سلام الايمان بحججه لمصلحة الوحدة الأساسية للاديان. وهو لم يرتبك بمسألة الخصوصيات : الشرك ، اليهودية ، المسيحية ، الاسلام . وباتباع دي كوز للحياة السلبية ، يبرز ليس عدم الاستمرارية فحسب وانما ايضاً الاستمرارية بين طقوس المشركين والعقيدة الحقيقية . لأن المشركين «يعبدون الألوهة في كل الآلهة»(٨١) . أما بالنسبة للفوارق بين التوحيد النقي لليهود والمسلمين ، والتوحيد التثليثي للمسيحية ، فإن دي كوز يعيد إلى الذاكرة بأن «الله بصفته خالقاً هو تثليث وواحد ولكنه بصفته اللانهائية فهو ليس تثليثاً ولا واحداً ، ولا أي شيء آخر مما يمكن قوله . لأن الأسماء الموصوفة لله مشتقة من المخلوقات ؛ والله في ذاته لا يمكن ادراكه وهو فوق كل ما يمكن تسميته أو قوله»(٨٢) . وما هو اكثر من ذلك ، ان غير المسيحيين الذين يعتقدون بخلود الروح يفترضون ، دون علم ، المسيح الذي قتل وقام .

إن هذا الكتاب المبهر والجريء أهمل اهمالاً شبه تام . وكما يذكر بيليكان فإن (سلام الايمان) قد اكتشف في نهاية القرن الثامن عشر من قبل ليسينغ . ومما له دلالته أن الرؤية الشمولية لنيقولا دي كوز ألهمت ناتان دير وايز Nathan derweise وليس أقل من ذلك دلالة ان سلام الايمان مازال مجهولاً من قبل مختلف المسكونيين المعاصرين .

لقد كان نيقولا دي كوز آخر لاهوتي ـ فيلسوف هام للكنيسة الرومانية الموحدة غير المجزأة ، وبعد خمسين سنة من موته الف مارتن لوثر في ١٥١٧ الاطروحات

الخمسة وتسعين الشهيرة (ف. ٣٠٩ع) . وبعد بضع سنوات ، ضاعت بما لا يمكن ترميمه وحدة المسيحية الغربية . ومع ذلك فإنه منذ الفيلدوا والفرنسيسكان في القرن الثاني عشر حتى جان هوس[٨٣] . واتباع الورع الحديث في القرن الخامس عشر ، كانت الجهود الهادفة لاصلاح و«تطهير» بعض الممارسات والمؤسسات ، عديدة ، ولكن دون أن تنفصل مطلقا عن الكنيسة .

ومع بعض الاستثناءات النادرة ، فإن هذه الجهود بقيت دون نتيجة . ويمثل المبشر الدومينيكاني جيرولا موسافونا رولا (١٤٥٤ـ١٤٩٨) آخر محاولة للاصلاح المشروع داخل الكنيسة الرومانية ، وقد اتهم بالهرطقة ، واحرق جسده على المحرقة بعد ان اعدم شنقا . ومنذئذ فإن الاصلاحات ستجرى ضد الكنيسة الكاثوليكية أو خارجاً عنها .

بالتأكيد ان كل هذه الحركات الروحية ، والتي هي احيانا على هامش الاصولية ، كانت ، مع الانعكاسات التي اثارتها ، متأثرة ، قليلا أو كثيراً ، مباشرة بتغييرات النظام السياسي ، والاقتصادي والاجتماعي . غير ان ردات الفعل المعادية للكنيسة ، وبخاصة تجاوزات التفتيش ، اسهمت في افقار ، لا بل تصلب شرايين التجربة المسيحية وهرمها . أما بالنسبة لتحولات النظام السياسي ، الهامة جداً بالنسبة للتاريخ الأوروبي - فإنه يكفي هنا التذكير بانتصار الملكيات ، وانطلاقة القوة الروحية الجديدة التي ساندتها : الوطنية . واكثر أهمية بالنسبة لموضوعنا : على قرب الاصلاح، أصبحت الحقيقة العالمية - سواء للدولة أو الطبيعة - مستقلة عن ميدان العقيدة .

ربما ان المعاصرين لم يقيموا بعد حسابا لذلك ، ولكن لاهوت وسياسة اوكهام ستقوم من مجرى التاريخ ذاته .

٣٠٢ - بيزنطة وروما . مسألة الفيليوك

إن الفوارق بين كنائس الغرب والشرق ، الموضحة سابقاً منذ القرن الرابع (ف ٢٥١ع) ، تتأكد أثناء القرون التالية . وقد كانت الاسباب متعددة : تقاليد ثقافية مختلفة (يونانية - شرقية من جهة ، ورومانية جرمنية من الجهة الاخرى) ؛ والجهل

المتناوب ليس في اللغات فحسب ، وانما ايضا في اللغة اللاهوتية المتناوية ؛ اتساع الفوارق في الأنظمة الثقافية أو الكنسية (زواج الكهنة ، المحرم في الغرب ؛ استعمال الفطير ، في الغرب والخبز مع الخمر في الشرق ؛ الماء المضاف للخمر في سر القربان المقدس في الغرب الخ . . .) . وقد احتج البابا نيقولا ضد ترفيع عاجل لرجل علماني (لاييـك) لرتبةبطريرك «ناسيا» حالة امبرواز المكرس مباشرة اسقفا لميلانو . ولم ترض بعض مبادهات روما البيزنطيين ؛ وعلى سبيل المثال ، عندما أعلن البابا في القرن الرابع سيادة الكنيسة على السلطة الزمنية ؛ أو ، في ٨٠٠ صدق على تتويج شارلمان بصفته امبراطوراً رومانيا ، مع ان هذا اللقب يعود دوماً للامبراطور البيزنطي .

إن بعض تطورات العقيدة والمؤسسات الكنسية أعطت للمسيحية الشرقية مظهراً خاصا . ولقد رأينا أهمية تمجيد الايقونات في الامبراطورية البيزنطية (ف ٢٥٨ع) و«المسيحية الكونية» كما كانت عاشتها الشعوب الزراعية لأوروبا الجنوبية ـ الشرقية (ف ٢٣٦ع) . ان القناعة بأن الطبيعة بكاملها قد كان أعيد شراؤها وتقديسها بالصليب وبالقيامة يبرر الثقة في الحياة ويشجع بعض التفاؤل الديني . ونعيد إلى الذاكرة ايضا الأهمية الملحوظة المعطاة من قبل الكنيسة الشرقية لتقديس طغراء المسيح ـ «ختم هبة الروح القدس» . وهذا الطقس يتبع مباشرة التعميد ويحول كل لاييك (أي فرد من اللاوس laoos = الشعب) لحامل للروح القدس ؛ وهذا ما يفسر في آن واحد المسؤولية الدينية لكل اعضاء الجماعة ـ واستقلال هذه الجماعات المحكومة بالأسقف والمنتظمة في ميتروبول . ويضاف إلى ذلك خط مميز آخر : القناعة بأن المسيحي الحقيقي يمكن له ان يدرك من هنا الألوهية (théosis) (ف ٣٠٣ع) .

وحصلت القطيعة بجمع الفيليوك filioque إلى قانون الايمان Credo لنيسي ـ القسطنطينية ، فاصبح المقطع يقرأ الآن : «الروح القدس في انبثاقه عن الآب والابن» . والمثال الأول المعروف للفيلوك يرجع بتاريخه لمجمع طليطلة الثاني ، المنعقد في سنة ٥٨٩ ، للمصادقة على اهتداء الملك ريكاردو من الآريوسية إلى الكاثوليكية[٨٤] . وبتحليل الصيغتين عن قرب نجد انهما تعبران عن مفهومين مميزين للألوهية . ففي التثليث الغربي . روح القدس هو الضامن للوحدة الالهية . وعلى

العكس ، فإن الكنيسة الشرقية تشير إلى واقعة ان الله الآب هو المصدر ، والمبدأ والعلة للتثليث[٨٥] .

وحسب بعض الكتاب ، كان الاباطرة الجرمن هم الذين فرضوا الصيغة الجديدة للكريدو (عقيدة قانون الايمان) . «إن دستور الامبراطورية الكاروينجية هو الذي عمَّم في الغرب استعمال الفيليوك وحدد لاهوتا فيليوكيا صرفا . وتعلق ذلك باضفاء الشرعية ضد بيزنطة ، التي كانت حتى ذلك الحين واضعة اليد على الامبراطورية المسيحية ، الموحدة بالتعريف ، على تأسيس دولة جديدة ذات مطامح عالمية»[٨٦] . ولكنه لم يحصل الا في عام ١٠١٤ ـ وبناء على طلب الامبراطور ـ هنري الثاني ـ أن أنشد الكريدو مع فيليوك في روما[٨٧] . (يمكن اعتبار هذا التاريخ كمميز لبداية التمذهب) .

ومع ذلك ، فإن العلاقات بين الكنيستين لم تنقطع نهائيا . ففي ١٠٥٣ ، أرسل البابا ليون التاسع إلى القسطنطينية بعثة ، موجهة من قبل مندوبه الرئيس ، الكاردينال هومبرت ، ليعيد ربط العلاقات القانونية والتهيئة لاتحاد ضد النورمانديين الذين احتلوا ايطاليا الجنوبية . ولكن بطريرك بيزنطة (ميشيل سيرولير) بدا متحفظاً ورافضاً كل التزام . وفي ١٥ تموز ١٠٥٤ أودع المندوبون عندئذ على مذبح كنيسة القديسة صوفيا محضراً بالحرمان ضد (سيرولير) متهمين إياه بعشرة هرطقات من بينها أنه سحب الفيليوك من الكريدو وسمح بزواج الكهنة .

ومنذ هذا الانفصال ، لم تنقطع عداوة الغربيين ضد الاغريق عن التزايد . غير ان مالا يمكن اصلاحه حصل فقط في ١٢٠٤ ، عندما هاجمت جيوش الصليبية الرابعة في سنة ١٢٠٤ القسطنطينية ونهبتها ؛ محطمة الايقونات وملقية برفات القديسين على المزابل . وحسبما يذكر المؤرخ البيزنطي نيسيتاس شونياتس ، فإن عاهرة غنت اغاني فاحشة على العرش البطريركي . ويعيد المؤرخ المذكور إلى الذاكرة ان المسلمين «لم يغتصبوا نساءنا [. . . .] ولم يلحقوا البؤس والتعاسة بالسكان ، ولم يجردونهم من ثيابهم لكي يجعلونهم يمشون عراة عبر الشوارع ، ولم يجعلونهم يهلكون من الجوع ويحرقونهم بالنار [. . . .] . . انظروا اذن كيف عاملتنا هذه الشعوب المسيحية التي تحمل الصليب باسم الرب وتشاطرنا ديانتنا»[٨٨] . وكما ذكرنا آنفا (ف ١٠٤ع) فإن بودوان دي فلاندر

قد أعلن امبراطورا لاتينيا لبيزنطة وان الفينيسي موروزيني اعلن بطريركاً للقسطنطينية .

لم ينس الاغريق (اليونان) مطلقاً هذا المشهد المأساوي . مع ذلك ، وبسبب التهديد التركي ، عاودت الكنيسة الارثوذكسية المفاوضة مع كنيسة روما بعد عام ١٢٦١ ، وقد طلبت بالحاح عقد مجمع مسكوني بهدف تنظيم تناقض الفيليوك والتهيئة للاتحاد . ومن جانبهم ، فإن الاباطرة البيزنطيين ، الذين كانوا يركزون حساباتهم على المساعدة العسكرية للغرب ، كانوا قلقين ليروا تحقيق الاتحاد مع روما . واستمرت المفاوضات اكثر من قرن ، واخيراً ، في مجمع فلورنسة (١٤٣٨-١٤٣٩) قبل ممثلو الارثوذكسية ، بضغط من الامبراطور ، شروط روما ، غير ان الاتحاد سرعان ما أصبح عاجزاً بسبب الشعب ورجال الدين . ومن جهة أخرى ، وبعد اربع سنوات ، وفي سنة ١٤٥٣ ، احتلت القسطنطينية من قبل الاتراك وانقطعت الامبراطورية البيزنطية عن الوجود . مع ذلك استمرت انشاءاتها الروحية في الحياة ، في اوروبا الشرقية وفي روسيا ثلاثة قرون على الأقل .

لقد كانت «بيزنطة بعد بيزنطة» حسب عبارة المؤرخ الروماني ن. ايورغا[٨٩] . وقد سمح هذا التراث الشرقي لانطلاقة المسيحية (الشعبية) التي لم تثبت لارهاب التاريخ المستمر فحسب ، وانما أنشأت عالما من القيم الدينية والفنية التي تنغرس جذورها في العصر الحجري النيوليتيك (ف ٣٠٤ع) .

٣٠٣ ـ الرهبان المطمئنون . القديس غريغوار بالاماس

لقد اشرنا سابقاً للتأليه (theosis)[٩٠] وإلى كبار الفقهاء ، غريغوار النيسي ومكسيم لوكونغسور الذين منهجوا هذه النظرية للاتحاد مع الله (ف ٢٥٧ع) ففي كتابه حياة موسى يتكلم غريغوار دي نيس عن «الظلمة المنيرة» أو موسى «يصرح بأنه يرى الله» [٢-١٦٣-٦٤] . وبالنسبة لمكسيم لوكونفيسور ، أن هذه الرؤية لله في الظلمات تنتج الألوهة ، وبعبارة اخرى ، فإن المؤمن يسهم في الله . إن التأليه هو اذن عطاء مجاني

«عمل من الله الكلي القدرة خارجاً بحرية من تصاعده مع البقاء تماما وجوهريا غير ممكن معرفته»[٩١] . كذلك الأمر فإن سيميون اللاهوتي الجديد (٩٤٢-١٠٢٢) والصوفي الوحيد من الكنيسة الشرقية يتكلم عن تجاربه الخاصة ويصف في هذه العبارات سر التأليه : «لقد وافقتني يا ربي ، ان هذا الهيكل القابل للفساد - جسدي البشري - سيتحد إلى جسدك المقدس ، وإن دمي سيختلط بدمك ؛ ومن الآن ، أنا عضوك الشفاف والرائق»[٩٢] .

وكما قلنا سابقا ، فإن التأليه يشكل المبدأ المركزي للاهوت الارثوذكسي . يضاف إلى ذلك انه مرتبط صميماً بالزمالة الروحية للمطمئنين héychastes (من كلمة hesychya = طمأنينة) وهم المتوحدون الساكنون أديرة جبل سيناء . وقد كانت الممارسة المفضلة لهؤلاء الرهبان «صلاة القلب» أو«صلاة يسوع» . فهذا النص القصير («ربنا يسوع المسيح ابن الله ، ارحمنا») يجب أن يردد بدون كلل ، بتأمل «داخلي» . وبدءاً من القرن الرابع ، انتشرت الاطمئنانية hésy chasme من جبل سيناء في العالم البيزنطي . وقد اكد اللاهوتي السينائي كليماك (القرن ٦-٧) على أهمية الهيزيشيا hesy chya[٩٣] . ولكنه مع نيسيفور المتوحد (القرن الثالث عشر) انغرس هذا التيار الصوفي في جبل آتوس وفي اديرة أخرى . ويعيد نيسيفور إلى الذاكرة أن هدف الحياة الروحية هو الوعي بالتقديسات «للكنز المخبوء في القلب» وبعبارة أخرى جمع الروح (النوس le nous) إلى القلب ، «مكان الله» . ونحصل على هذا الجمع «بانزال» الروح في القلب بعربة التنفس .

ان نيسيفور هو «الشاهد الأول ، المحدد بيقين ، لصلاة يسوع المخلوطة مع صياغة تنفسية»[٩٤] . وهو في رسالته حول حراسة القلب ، يعرف هذه الطريقة بتفصيل . «هكذا قلت لك ، اجلس أنت ، استجمع نفسك ادخلها - قلت نفسك - في فتحتي انفك ؛ هذا هو الطريق الذي يستعيره النَّفس ليذهب إلى القلب . ادفعه ، اجبره للنزول في قلبك في ذات الوقت من الهواء المتنشق . وعندما سيحصل ، سترى الفرح الذي سيتلو ذلك [. . .] كذلك هو الانسان الذي يعود لبيته بعد غياب لن يسترجع سروره من قدرته وعلى ملاقاةزوجه وابنائه ، كذلك النفس ، عندما تتحد بالروح ، تتمتع بسرور وبلذات لا توصف [. . . .] اعلم بالتالي ، انك في حين ان نفسك توجد هنالك ، لا يجب عليك لا أن تسكت ؛ ولا أن تبقى عاطلاً . ولكن لا

يكن لديك شواغل اخرى ، ولا تأملات سوى الهتاف : ربي يسوع المسيح ابن الله ، كن رحيماً بي. أي هدنة لأي ثمن»[٩٥] .

واكثر أهمية ايضا لانطلاقة الهيزيشاسم في جبل آتوس ، أن غريغوار السينائي (١٢٥٥-١٣٤٦) كان أكد على الدور المركزي لذكر الله «تذكر الهك ربك في كل وقت» . من أجل أن تعي النعمة الحاصلة بالتعميد ، ولكن المستترة بعدئذ بسبب الذنوب . ويفضل غريغوار العزلة الرهبانية في دير جماعي ، لأن الصلاة الطقوسية تظهر له خارجة جداً لكي تُطلق «ذكرى الله» . ولكنه يلفت انتباه المتنسك على أخطار الرؤى المثارة بالتخيل[٩٦] .

إن اللاهوت البيزنطي توقف عن كونه «لاهوت تكرار» بسبب التناقضات المثارة من الهيزيشاست بالدرجة الأولى . وحوالي ١٣٣٠ فإن اغريقيا من كالابر ، يدعى بارلام Barlaam ، وصل إلى القسطنطينية ، وكسب ثقة الامبراطور وكرس نفسه لوحدة بعض رهبان الهيزيشتاس ، انتقد بارلام بحدة طريقتهم واتهمهم بالهرطقة . وبدقة اكثر ، اتهمهم بالميسيليانية messalianisme[٩٨] .لأن الهيزيشتاس زعموا أنهم رأوا الله ذاته ، وعليه فإن الرؤية المباشرة لله ، بواسطة العيون الجسدية ، غير ممكنة . ومن بين المدافعين عن الهيزيشاست يتميز ، ومن بعيد ، غريغوار بالاماس ، وبالاماس هذا المتولد سنة ١٢٩٦ في بالاماس كرس كاهنا وامضى عشرين عاما في دير جبل آتوس . قبل ان يطوب اسقفا لتسالونيك . وفي رده على بارلام في ثلاثياته لأجل الدفاع عن القديسين الهيزيشاست جدد بالاماس اللاهوت الارثوذكسي في القسم الأكبر منه . وتتكون مساهمته الرئيسية في التمييز الذي أدخله بين الجوهر الالهي و«الطاقات» التي يتصل الله ويتجلى عبرها . «الجوهر الالهي والغير ممكن معرفته ، اذا لم يمتلك طاقة مميزة من ذاتها ، سيكون بالكلية غير قائم ولن تكون له سوى نظرة روح»[٩٩] . إن الجوهر هو «سبب» الطاقات ، «كل واحدة منها تعني حقيقة ملكية الهية متميزة ، ولكنها لا تشكل ابداً حقائق مختلفة ، لأنها كلها هي أعمال لالـه واحد حي»[١٠٠] . (إن مبدأ الطاقات حرِّم من قبل المجامع البيزنطية في ١٣٤١ ، ١٣٤٧ ، ١٣٥١ .

وفيما يخص النور الالهي المرئي من قبل الهيزيشاست ، فإن بالاماس يرجع إلى نور التجلي فعلى جبل تابور Thabor ، لم يكن هنالك أي تغير بيسوع ـ وانما تحول في

الرسل : هؤلاء ، بالنعمة ، استعادوا القدرة لرؤية يسوع كما كان ، مبهورين في نوره . وهذه القدرة ، كانت لدى آدم قبل الهبوط وستعوض للانسان في المستقبل الأخروي(١٠١) . ومن جهة أخرى ، فإن بالاماس يؤكد مطوراً بذلك تقليد الرهبان المصريين ، أن رؤية النور الغير مخلوق يترافق بالتنوير الموضوعي للقديس . «ان الذي يساهم بالطاقة الالهية [. . . .] يصبح بذاته ، وبنوع ما ، نوراً ؛ إنه متحد بالنور ، ومع النور يرى بوعي كامل كل ما بقي خفياً على من ليس لديهم هذه النعمة»(١٠٢) .

وفي الواقع ، على اثر التجسيد ، أصبحت اجسادنا «معابد للروح القدس الذي هو فينا» [ارسالة للكورنثيين ٦ : ١٩] ؛ وبتقديس القربان المقدس ، يوجد المسيح داخلنا . «نحمل نور الآب في شخص يسوع المسيح» [ترياد - ١ - ٢ و٣) . هذا الحضور الالهي داخل جسدنا «يحول الجسد ويجعله روحيا [. . . .] لدرجة ان الانسان برمته يصبح روحاً»(١٠٣) . ولكن هذه «الروحنةآ للجسد لا تستدعي الانفصال من المادة . بل على العكس ، فإن المتأمل «بدون ان ينفصل أو ان يكون منفصلاً عن المادة التي ترافقه منذ البدء» . يوصل لله ، «عبره ، جملة الخليقة»(١٠٤) . ويتمرد اللاهوتي الكبير ضد الافلاطونية ، التي بهرت في القرن الرابع عشر ، اثناء «نهضة الباليولوج» Renaissance de Paleologues ، النخبة المثقفة (الانتلجنسيا) البيزنطية وحتى بعض اعضاء الكنيسة(١٠٣) . وبالعودة إلى التقليد التوراتي ، فإن بالاماس يصر على أهمية التقديسات التي تصبح المادة عبرها متصاعدة الجوهر transubstantia lisée دون ان تكون منعدمة .

إن انتصار الهيزشاسم واللاهوت البالاماتي حرض على اعادة تجديد الحياة التقديسية ، كما حرض على اعادة تجديد بعض المؤسسات الكنسية ، وقد انتشرت الهيزيشاسم بسرعة في أوروبا الشرقية ، في الولايات الرومانية ودخلت إلى روسيا حتى نوفوغورد . وان «نهضة» الهللنستية ، مع تمجيد الفلسفة الافلاطونية ، لم يتواصل ، وبعبارة أخرى ، ان بيزنطة والبلاد الارثوذكسية لم تعرف الحركة الانسانية . ويقدر بعض الباحثين انه ، بفضل النصر المزدوج لبالاماس - ضد اوكهامية بارلام وضد الفلسفة الاغريقية - فإن الارثوذكسية لم تفسح المجالا لأية حركة من حركات الاصلاح .

ويضاف إلى هذا أن واحداً من اكثر اللاهوتيين جرأة بعد بالاماس كان غير متدين (لاييك) ، وهو نيقولا كابازيلا (١٣٢٠-١٣٧١) ، موظف كبير في الادارة البيزنطية . وليس كابازيلا فحسب هو الذي أحيا بوضوح تقليداً استمر عند كل الشعوب الارثوذكسية ، ولكنه اعتبر اللاييك كأسمى من الراهب ، فنموذج هذا الأخير هو الحياة الملائكية . في حين ان اللاييك هو رجل كامل . وان هذا من جهة أخرى بالنسبة لغير المتدينيين كما كتب نيقولا كابازيلاس بهدف ان يعوا البعد العميق لتجربتهم المسيحية ، وبدئيا سر التقديسات[١٠٦] .

حواشي الفصل السابع والثلاثون

١ ـ من الراجح أن بوغوميل كان قد عرف بعض افكار ثنائية مذاعة من قبل البوليسيان والميساميان ، هراطقة آسيا الوسطى (القرن ٦ـ١٠) . انظر لمحة سريعة عن نظرياتهم وتاريخهم في كتاب ستيفن رونسمان (مانوية القرون الوسطى) .

٢ ـ انظر ـ في مكان آخر ـ رويرت بروتنغ ، بيزنطة وبلغاريا ـ وسيوجد مواز في الصليبية ضد الألبيجوا ، حيث سيوضح ان حسد امراء الشمال حرق من أجل ثروة نبلاء الجنوب .

٣ـ ٤ـ اسماء المراجع المعتمدة

٥ ـ رونسمان ـ التزويرات البوغوميلية والمزورات الكاذبة .

٦ ـ ٩ ـ المراجع السابقة ـ والمصادر المذكورة اسماءها .

١٠ ـ الاسم ـ Katharas الطاهر ـ فرض نفسه حوالي ١١٦٣ فقط

١١ ـ يضاف إلى ذلك ، انه بفضل أعمال الدعاوى المرفوعة من قبل التفتيش ، عرفت بشكل افضل المفاهيم واحتفالات الكاذار من قبل البوغوميليين .

١٢ ـ سيكون من العبث التأكيد حول الاختلافات المذهبية . فبعض الكازاريين انكروا ألوهية المسيح ، وبعضهم ذكر التثليث في حفلاته وبعضهم قبل سلسلة من الايونات بين الله والعالم كل منها مدخول من الجوهر الالهي (رونثمان) .

١٣ ـ حسب الظاهر . ان الرفيتيوم لم يكن يحتوي أي تأكيد هرطقي : «ثمة خطان يشيران فقط إلى ان الذين يتلون كانوا يعلمون الثنائية : وتلك هي الطاقة التي يجرم الكلام معها عن آثام الجسد ، وهذه العبارة ذات الدلالة «لا يمكن لديك أية شفقة بالنسبة للجسد ، المتولد في الخطيئة ، وانما ليكن عندك شفقة للروح المحتجز في السجن» (رونثمان) المصدر السابق

١٤ ـ ١٥ ـ اسماء المراجع .

١٦ ـ يفسر فريدريك هير بهذا الرفض الخسارة ، بالنسبة للكاثوليكية من افريقيا الشمالية والمانيا . (عالم القرون الوسطى) .

١٧ ـ ١٩ ـ اسماء المراجع .

٢٠ ـ «بينما كنت أتأمل حول ارتفاعات الروح نحو الله ، تذكرت من بين اشياء أخرى المعجزة الحاصلة في هذا المكان للقديس فرانسوا ذاته : رؤية السيرافين المجنح في شكل صليب . وعليه يبدو لي كذلك ان هذا الظهور مثل الوجد للسيد الأب وارشد بخط السير الروحي الواجب اتباعه للوصول اليه»

٢١ ـ ٢٢ ـ اسماء المراجع .

٢٣ ـ من أجل مقارنة الوثائق انظر ـ الياد ـ الشامانية (سلم الجنة) في التقليد المسيحي . انظر دوحة انسلم ستولز ـ صوت الصوفية ـ حول السلم في التصوف الاسلامي واليهودي انظر الكسندر الثمان (سلم الصعود) .

٢٤ ـ itinérarium فصل ١ ـ قسم ٢ ـ يضاف إلى ذلك ان هذه المحطات الثلاثة من الصعود نحو الله ـ من الخارج وفي الداخل وإلى ما فوق ـ تلائم كل واحدة مظهرين ، نستطيع الدلالة عليها كانبثاقات وتصاعد . والمقصود اذن ستة محطات مرمزة لستة اجنحة للسيرافيين الذي باعتناقه ، آثار امراض القديس فرنسوا . .

٢٥ ـ ايتيان جيلون يقول «اذا كانت مميزات الفكر الحديث التمييز بين ما يمكن البرهنة عليه وما لا يمكن فانه في القرن الثالث عشر تأسست الفلسفة الحدية ، وانها مع البير الكبير حددت ذاتها ، وشعرت بقيمتها وحقوقها» .

٢٦ ـ حياة توماس كانت قصيرة ومجردة من الاحداث المأساوية . ولد بالقرب من اجنة حوالي ١٢٢٤ وفي بداية ١٢٢٦ وارتدى ثياب الدومينيكان في ١٢٤٨ وفي السنة التالية ذهب لباريس ليدرس تحت توجيه البير الكبير واجيز في اللاهوت في ١٢٥٦ وعلم توماس في باريس ١٢٥٦ـ١٢٥٩ وفيما بعد في عدد من مدن ايطاليا ، عاد الى باريز ١٢٦٩ ولكنه تركها مجدداً في ١٢٧٢ وعلم في نابولي ١٢٧٣ . ودعي من قبل غريقوار العاشر لثاني مجمع عام في ليون . وسافر توماس في كانون ثاني ١٢٧٤ ، ولكنه توقف بسبب مرضع في (فوسا نوفا) حيث مات في ٧ آذار . ومن بين كتاباته العديدة ـ اكثرها شهرة حيث أظهر فيها توماس عبقريته الحقيقة المجموع اللاهوتي والمجموع ضد الوثنيين .

٢٧ ـ جيلسون ـ الفلسفة في القرون الوسطى

٢٨ ـ انظر مناقشة هذه الادانات في المرجع السابق . عدد كبير من الاطروحات كان لابن رشد ، وبعضها يرجع لتعليم توماس .

٢٩ ـ ستيفن اوزمن ـ عصر الاصلاح

٣٠ ـ حسب جيلسون «ان دراسة أوكهام تسمح بملاحظة واقعة تاريخية ذات أهمية رئيسية . وانه

بتجاهلها دائما ، ذلك لأن النقد الدخل المقدم ضدها بما نسميه ، بتعبير غامض ، الفلسفة السكولاستيكية ، حتى اثارت خرابها قبل ان تنجح الفلسفة المسماة حديثة بالتكون

٣١ ـ انظر مناقشات هذه الاطروحة في المرجع السابق .

٣٢ ـ من جهة اخرى ليس الا في أيامنا ان هذه المؤلفات ، في اللاتينية وفي لغة وطنية هي على أن تطبع

٣٣ ـ الياد ـ غوامض واحلام واساطير

٣٤ ـ واسم المرجع

٣٥ ـ يمكن مقارنة هذا المفهوم مع رسالة البهاجاظ وجيتا (فقرة ١٩٣ـ١٩٤ع)

٣٦ ـ عدد من النصوص تشير مع ذلك للهوية المطلقة بين الله التثليثي والألوهة . انظر المراجع المذكورة

٣٧ ـ عن ايكهارت في احدى مواعظه «عندما قلت ان الله لم يكن كائنا وهو فوق الكائن ، فانني لم اجحد الكائن بل على العكس انني نعته بالكائن الأكثر رفعة» .

٣٨ ـ ٣٩ ـ اسماء مترجمي النصوص المثبتة

٤٠ ـ ان الزمن حسب ايكهارت اكبر عقبة في القرب من الله ، وليس فقط الزمن «وانما ايضا الاشياء الزمنية والانجازات الوقتة حتى اريج الزمن»

٤١ ـ في رسالته عن الانفصال ، يعتبر ايكهارت هذه الممارسة كأعلى حتى من التواضع والاحسان . الادنة يؤكد ان الاحسان هو واحد من الطرق التي توصل للاتصال .

٤٢ ـ هذا التداخل بين الانطولوجيا والمعرفة يعكس بشكل ما مظهراً مفارقاً ان لم يكن مناقضا للاهوت ايكهارت وفي الواقع ، انه يبدأ مؤلفه النموذجي مع تحليل موضوعة حول الله ، في حين انه في الاسئلة الباريسية يؤكد ايكهارت ان الله معرف بصفة، عقلاً ، عمل المعرفة هو اذن فوق الأسى . (المراجع المعتمدة)

٤٣ ـ موعظة ٦ ـ هذه الاطروحة ادينت في افينيون ليس بكونها هرطقة وانما مشبهة بالهرطقة

٤٤ ـ ٤٦ ـ المراجع المعتمدة .

٤٧ ـ ان المجموعتين دفعتا باللعنة من قبل البابا لوسيوس الثالث في ١١٨٤

٤٨ ـ حسب رأي بعض الكتاب ، هذا الاسم مشتق من الالبيجونسيين

٤٩ ـ مكدونالد ـ البغوين والبيفارد .

٥٠ ـ قال لها المسيح ... ويذكر ليرنر .. ان ذات التجربة بالحب الهمت عمل البغونتين الفلامندي وهادويش أحد كبار الشعراء الصوفيين في القرن الثالث عشر .

٥١ ـ ليرنر ص . ٣٨ .

٥٢ ـ من المحتمل صحة ان بعض المجموعات شاركت في مبادىءالكاذار (انظر اسماء المراجع) .

٥٣ ـ هذا النقد الظالم يفسر بواقعه انه ، حوالي نهاية القرن الثالث عشر ، اضاع الرهبان كثيراً من حماسهم الاساسي وتمتعوا بامتيازات كنسية .

٥٤ ـ ٥٦ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٥٧ ـ مارغريت بوريه هرطقية بسلبية ، الصلاة المواعظ ، الصيامات ، الصلوات غير مجدية ، لأن الله (هو هنالك سابقاً) ولكن المرآة واحدة من النصوص الباطنية ، لا تتوجه الا لأولئك الذين يفهمون ـ انظر النصوص وتحليلاتها ، لدى ليرنر .

٥٨ ـ في هذا الأخير يمكن ان نقرأ (الشخص الذي يتنازل للخلق المرئي والذي ينفذ الله فيه بارادته كاملة [. . .] هو في آن واحد انسان واله [. . .] جسده هو بكامله مخترق بالنور الالهي [. . .] الذي يمكن ان يسمى رجل الهي» .

٥٩ ـ ليرنر ص ٢١٥ .

٦٠ ـ اقامة الباب في أمينيون ١٣٠٩-١٣٧٧ ، الانشقاق الكبير ١٣٧٨-١٤١٧ عندما كان ثلاثة بابواب او اثنان يحكمان في ذات الوقت .

٦١ ـ ان الظاهرة لم تكن جديدة ، فالمتسوطون ظهروا في بيروجيا في سنة ١٢٦٠ السنة ـ حب نبوّة جواشيم دي فلور ـ حيث بدأت المرحلة السابعة للكنيسة . في العشرات التالية ، انتشرت الحركة في اوروبا الوسطى ، ولكن باستثناء بعض الانقطاعات العابرة» زالت لتعاود ظهورها بقوة استثنائية في ١٣٤٩ .

٦٢ ـ انظر الوثائق المحللة من قبل ليفت هيرسي . . كل عضو من الجماعة كان يتوجب عليه ان يسوط نفسه مرتينْ باليوم علنا ومرة منفرداً ، اثناء الليل .

٦٣ ـ ٦٤ ـ اسماء المراجع

٦٥ ـ القرون الوسطى الخرافية ـ جورجي بالتروزاتي «نهاية القرون الوسطى مليئة بهذه الرؤى للحم المتحلل والهياكل العظيمة . وخشخشة الجماجم وقرقعة العظام مملأة بضجتها» .

٦٦ ـ وذات المرجع السابق يقول : مع انها من أصل هللنستي ، فإن هذه المفاهيم والصور وصلت للقرون الوسطى من اسيا وعلى الأرجح التيبت .

٦٧ ـ المرجع السابق

٦٨ ـ انظر الأمثلة المذكورة من قبل اوكلي حيث يذكر العديد من الصلوات على شرف القديسين الذين يشفون من الامراض ، والقديس بليز لمرض الحلق ، والقديس روشي لمنع الضاعون الخ . .

٦٩ ـ ليس الا في ١٩١٠ قد تم التوصل لتأكيد صحة عدد من المواعظ كاملة او مقاطع منها

٧٠ ـ «لقد عرفت أخا واعظا ، الذي في بداياته ، ربما خلال عشر سنوات ، تلقى مرتين في

العادة حيا صبحا ومساء مثل هذه النعمة الفطرية التي دامت لوقت عيدين . وخلال هذا الوقت كان مشبعاً في الله ، والحكمة الاذلية التي لم يستطع التكلم عنها . لقد ظهر له انه يحلق في الاجواء وانه يتجول بين الازمنة ولابدية في طوفان عميق من الاعاجيب التي لا يسبر غورها الله . .

٧١ ـ لقد نظم كاهنا في ١٣١٧ ، روس برديك انسحب في ١٣٤٣ مع جماعة من المتأملين في دير ، واصبح سريعاً راهبا حسب القاعدة الاوغسطينية وهنالك مات عن عمر أهم عمله .

٧٢ ـ بعدئذ كتب الكتاب الصغير للتنوير ليجعل مقبولا مملكة الحب الصعبة . وقد يوجد الجوهري من مذهب روس برديك في الاطروحة الطويلة (زواج روحاني) جهم عمله . وفي نص صغير الحجر المتوهج .

٧٣ ـ ٧٦ ـ اسماء المراجع

٧٧ ـ بعد ان لازم علة جامعات مشهورة من بينها جامعة باودمق ١٤١٧ـ١٤٢٣ كرس كاهنا حوالي ١٤٣٠ عميداً لكاتدرائية القديس فلورنتان في كوبلانس . وقبل في الكلية القنصلية بيال في ١٤٣٠ . مع ذلك انضم الى حزب البابا أوجين ١٧ وارسله هذا كمندوب الى القسطنطينية لدعوة البطريرك المشرقي والامبراطور يوحنا بالبولوج إلى مجمع فلورنسا ، بهدف التحضير لتوحيد الكنائس . وفي الفترة التي تفصل بين اثنين من اعماله الاكثر اهمية الدوكتا المجهولة (١٤٤٠) والرؤية الالهية ١٤٥٣ ، رفع نيقولا لرتبة كاردينال ١٤٤٨ واسقف بريكسن ١٤٥٠ وفي بريكسن دخل في مشاحنة مع الدوق سيجموند دي تيرول ١٤٥٧ وانسحب لروما مكرساً سنواته الأخيرة لاعماله وتوفي في ثودي سنة ١٤٦٢

٧٨ ـ جاروسلاف ـ بيليكان (تيولوجيا سلبية ودين ايجابي)

٧٩ ـ الكوزي ـ يعترف بأن التيولوجيا السلبية هي أعلى من التيولوجيا الايجابية ، ولكنه يؤكد انهما تتفقان في تيولوجيا واصلة .

٨٠ ـ ولنلاحظ بأن الفوارق بين هذا المفهوم ـ أي توافق المتعارضات المنجزة عن مستوى الانهائي والصيغ القديمة والتقليدية متعلق بالتوحيد الواقعي للاضداد (انظر على سبيل المثال المسكارا والنيرفان فقرة ١٨٩ ـ ٢٩٦)

٨١ ـ يذكر بيليكان «انه انت الذي يعطي الحياة . . والكائن انت الذي نبحث عنه في مختلف انظمة العقيدة والذي نسميه بمختلف الاسماء لأنه كما توجد أنت حقا . تبقى مجهولاً وغير ممكن ادراكه» .

٨٢ ـ ذات المرجع ـ بيليكان .

٨٣ ـ الكاهن التشيكي جان هوس (١٣٦٩ـ١٤١٠) سمي رئيس جامعة براغ في سنة ١٤٠٠ ، انق في مواعظه رجال الدين ، والاساقفة والبابوية ، متأثراً بجان وليكف ١٣٢٥ـ١٣٨٢ . كتب هوس كتابه الأكثر أهمية دي الكليزيا ١٤١٣ . . واستدعى لكونستانس ليدافع عن نفسه ١٤١٤ واتهم بالهرطقة وادين بالحرق .

٨٤ ـ من الراجح جداً ان الفيليوك أضيف للاشارة على الفرق بين الاريوسيين والكاثوليك فيما يتعلق بثاني سخص من التثليث .

٨٥ ـ انظر تحليل النصوص بلمج بيلكان .

٨٦ ـ ٨٩ ـ اسماء المراجع .

٩٠ ـ فكرة مبنية على كلمات المسيح ذاتها (وانا وهبت لهم ما وهبت لي من المجد ، ليكونوا واحداً كما نحن واحد ، انا فيهم وأنت في ليبلغوا كمال الوحدة (يوحنا ١٧ : ٢٢ـ٢٣)

٩١ ـ ٩٥ ـ اسماء المراجع .

٩٦ ـ يذكر ما يندورف ان المقصود خط اساسي للتقليد الصوفي الارثوذكسي : التخيل تحت كافة الاشكال الارادية وغير الارادية هو العدد الاكثر خطراً للاتحاد مع الله

٩٧ ـ في سنة ١٣٣٩ انيطت به بعثة موقتة قبل بينوا ١٤ بأفينيون .

٩٨ ـ بالنسبة للميسالين ، الهدف الغائي للمؤمن كان الاتحاد الوحداني مع جسد النور للمسيح

٩٩ ـ ١٠٠ ـ اسم المرجع .

١٠١ ـ هذا يعني ان الادراك الحسي لله في نوره الغير مخلوق مرتبط بكمال الأصول ، وفي النهاية ، في الجنة ما قبل التاريخ والآخرة التي ستضع نهاية للتاريخ . ولكن الذين سيصبحون جديرين بملكوت الله يتمتعون منذ الآن برؤية النور الغير مخلوق امثال الرسل على جبل تهابور (انظر الياد تجارب النور الصوفي ـ ميستوفوليس وختمى ص ٧٤)

١٠٢ ـ عظة مترجمة من قبل فالوسكى (لاهوت الانوار)

١٠٣ ـ ١٠٤ ـ اسماء المراجع

١٠٥ ـ «في التحقق من فكرة الفقيه الهيزيشاست ، ادارت الكنيسة البيزنطية ظهرها لروح النهضة» ج ، ميردروف ـ المدخل .

١٠٦ ـ هذه الكتب هي ، الحياة في يسوع المسيح ، وتفسير الألوهة الطقوسية ، ومازالت تقرأ في اوساط الجماعات الارثوذكسية .

الفصل الثامن والثلاثون

دين ـ سحر وتقاليد هرمسية قبل وبعد الاصلاحات

٣٠٤ ـ استمرارية حياة التقاليد الدينية الماقبل المسيحية

كما لاحظنا تكراراً ، فإن تمسيح christianisations الشعوب الأوروبية لم ينجح في محو مختلف التقاليد الإتينية . وقد افسح اعتناق المسيحية المجال لتركيبات وتوليفات دينية تـظهـر في العديد من المرات بكل وضوح الابداعية المميزة للثقافات «الشعبية» زراعية أو رعوية . وقد سبق أن أعدنا للذاكرة بعض الأمثلة من «المسيحية الكونية» (ف ٢٣٧ع) واظهرنا من جهة أخرى[١] ـ الاستمرارية ـ منذ العصر الحجري (النيوليتيك) حتى القرن التاسع عشر ـ لبعض الثقافات والاساطير والرموز ذات العلاقة مع الحجارة ، والمياه والنبات . ونضيف انه ، على اثر اعتناقهم للمسيحية ، حتى سطحيا ، فإن العديد من التقاليد الدينية الاتنية ، كذلك الأمر بالنسبة للميتولوجيات المحلية ، قد تطابقت ، أي ادخلت في نفس «التاريخ المقدس» وافصحت في اللغة ذاتها ، عن الدين والميتولوجيا

المسيحية . وهكذا على سبيل المثال ، ان ذكرى آلهة العاصفة استمرت في الحياة في خرافات القديس ايلي Elie ، وان عدداً كبيراً من الأبطال قاتل التماسيح تمثل بالقديس جرجس (الخضر) ؛ وان بعض الاساطير والطقوس المتعلقة بالربات ادخلت في الفولكلور الديني للعذراء مريم . وفي آخر المطاف ، فإن الاشكال التي لا حصر لها في انواع مختلفة من التراث الوثني قد صيغت في ذات المجموعة الاسطورية ـ الطقوسية التي تمسحت خارجياً .

وسيكون من العبث عرض كل الانساق من «المخلفات الوثنية» . ويكفي ذكر بعض الحالات الموحية بصورة خاصة ؛ وعلى سبيل المثال الكاليكانتزاري ، les Kallikantzari غيلان تسكن القرى الاغريقية خلال الأيام العشرة (ما بين عيد الميلاد والغطاس) والتي تصل السيناريو الاسطوري ـ الشعائري لسنتورات des Centaures العصور القديمة الكلاسيكية ٢ ؛ أو الشعيرة القديمة للسير على النار ، المدخلة في حفلة الاناستيناريات des anasténaria في تراقية[٣] ، أو أخيراً ودائماً في تراقيا اعياد الكرنفال التي تذكّر بنيتها بالأعياد «الديونيزية في الحقول» des Anthesteries المحتفل بها في اثينا ، في الألف الأولى قبل العصر المسيحي (ف ١٢٣ع)[٤] . ولنلاحظ من جهة أخرى أن العديد من القصص والموضوعات الروائية المؤكدة في القصائد الهوميرية هي قائمة حاليا في الفولكلور البلقاني والروماني ايضا[٥] . واكثر من هذا : ان ليوبولد شميث بتحليله للاحتفالات الزراعية لأوروبا الوسطى والشرقية تمكن من اظهار تضامنها مع سيناريو اسطوري ـ شعائري زال من اليونان قبل هوميروس[٦] .

وبالنسبة لموضوعنا ، يقتضي ايراد بعض الأمثلة التوفيقية الوثنية ـ المسيحية مظهرة في ذات الوقت صمود مقاومة التراث التقليدي وعملية التمسيح . وقد اخترنا ، كبداية الشعيرة المعقدة للأيام الاثنا عشر لأنها تمدد جذورها في ما قبل التاريخ . وبما انه لا مجال لاظهارها في مجموعة (حفلات ، العاب ، اغاني ، رقصات ، مواكب بأقنعة حيوانية) فإننا نركز على الاغاني الشعائرية لعيد الميلاد Nöel . فقد تأكد في كل اوروبا الشرقية حتى بولونيا ، ان الاسم الروماني والسلافي كوليند Colinde يشتق من كاليندا جانواري Calendde Ganuarii . وقد حاولت الكنيسة استئصالها ، خلال قرون ، ولكنها لم تفلح . (في عام ٦٩٢ كرر مجمع القسطنطينية بعبارات صارمةتحريمها). وفي آخر

المطاف تمسح العديد من الكاليند ، وبهذا استعارت الشخصيات والقصص الميتولوجية للمسيحية الشعبية[٧] وهذه الشعيرة تجري عادة بدءاً من قرب عيد الميلاد (٢٤ كانون أول) حتى صبيحة الليلة التالية . تعيَّن جماعة من ستة إلى ثلاثين شابا كولاندا توري Colin datoiri رئيساً لهم عارفاً بالعادات التقليدية ، ويتجمعون خلال ٤٠ او ١٨ يوماً لاربع او خمس مرات في الاسبوع في أحد البيوت لتلقي التعليم اللازم . ومساء ٢٤ كانون أول ، يقوم الكوليندا توري ، وهم مرتدون ثياباً جديدة مزينة بالزهور والاجراس الصغيرة ، بالغناء اولاً في بيت مضيفهم ، وبعدئذ يزورون كل سكان القرية . وفي الشوارع يصرخون ، وينقرون على الدفوف والطبل بهدف ان تبعد الضجة الارواح الشريرة ويعلنون لرب البيت عن اقترابهم .وهمينشدون أول كوليندا تحت النافذة ، وبعد ان يحصلوا على الإذن ، يدخلون إلى المنزل ويكملون عملهم المسرحي ، فيرقصون مع الصبايا ويتلون التبريكات التقليدية . والكوليندداتوزي يجلبون الصحة والثروة ممثلتين بغصن صغير اخضر من الصنوبر موضوع في اناء مملوء بالتفاح وحبات البازيلاء . وباستثناء العائلات الفقيرة ، فهم يتلقون اعطيات ، اكاليل ، كعك ، ثمار ، لحم اسماك الخ . . . وبعد ان يطوفوا القرية ينظم الجمع عيداً تساهم فيه الشبيبة .

ان طقس الكوليند هو على درجة من الغنى والتعقيد . وتشكل التبريكات والمأدبة الاحتفالية العناصر الاكثر قدماً ، انها متضامنة مع الاحتفالات العيدية للسنة الجديدة[٨] . ويتلفظ الرئيس ، متبوعاً بالكوليندداتوري الآخرين ، بمدائح (urare) يمجد فيها النبالة والكرم وغنى رب البيت . ويمثل الكوليندداتوري أحيانا جماعة من القديسين (القديس يوحنا ، القديس بطرس ، القديس جرجس القديس نيقولا) . وبعض الكوليند ، عند البلغار ، لهم كقاعدة لازمة زيارة الله ، مصحوبين بالطفل يسوع ، أو بمجموعة من القديسين . زد على ذلك ، فإن الكوليندداتوري هم «مدعوون» مرسلون من قبل الله يجلبون الحظ والصحة[٩] . وفي قصة اوكرانية مختلفة ، يأتي الله ذاته لايقاظ رب البيت ويبشره بقرب «الكوليندداتوري» ، وعند رومان ترانسلفانيا ، ان الله ينزل من السماء على سلم من شمع ، وفي ثياب مبهرة مزينة بالنجوم حيث رسمت عليها ايضا الكوليندارتوري[١٠] .

إن عدداً من الكوليند ، تعكس «المسيحيةالكوزمية»المميزة لشعوب جنوب شرق اوروبا . ويوجد فيها مراجع لخلق العالم ، وانما بدون علاقة بالتقليد التوراتي . فالله أو

يسوع خلق العالم في ثلاثة أيام ، الا انه وقد لاحظ أن الارض كانت واسعة جداً كي يمكن تغطيتها بالسماء ، القى يسوع ثلاث حلقات تحولت إلى ملائكة ، وهؤلاء انتجوا الجبال[11] . وحسب كوليند آخر ، بعد ان صنع الله الأرض وضعها على اربعة اعمدة من فضة لكي يسندها[12] . ويمثل عدد كبير من الاغاني ، الله كراع يعزف على الناي ، مع قطيع كبير من النعاج يسوقها القديس بطرس .

واكثر الكوليندات عددا وأقدمها ، هي التي تدخلنا في عالم آخر خيالي . ويحصل العمل في العالم بكامله ، بين كبد السماء (زينيت) والوديان العميقة ، أو بين الجبال والبحر الأسود . فبعيداً جداً ، في وسط البحر ، توجد جزيرة مع شجرة جبارة ، يرقص حولها سرب من الصبايا[13] . وإن شخصيات هذا الكوليند العتيقة ممثلة بطريقة خرافية : انها جميلة وغير مرئية ، انها تحمل الشمس والقمر على ثيابها (مثل الله في الكوليندات المسيحية) . وصياد شاب يمتطي جواداً عاليا في السماء قريب جداً من الشمس . ومنزل معلم الاجتماع وزوجته مؤسطران : المعلم وأتباعه معروضين في مشهد فردوسي ويشابهون الملوك . وابطال الكولندات الأكثر جمالاً هم صيادون ورعاة ، الأمر الذي يؤكد عراقتها في القدم . وبناء على طلب الإمبراطور يتصارع البطل الشاب مع أسد ، فيصرعه ويقيده . وخمسون فارس يحاولون اجتياز البحر «الاسود» ولكن واحداً ينجح بالوصول إلى الجزيرة ، حيث يتزوج أجمل الفتيات . وابطال آخرون يلاحقون الحيوانات الكاسرة المرهوبة بمزية سحرية وينتصرون عليها .

إن سيناريوهات العديد من الكوليندات تذكر ببعض الشعائر التلقينية المسارية وقد تم التعرف فيها على أثار طقوس لمسارة الصبايا[14] . ففي الكوليندات التي تغنيها الفتيات والنساء الشابات ، كما في أعمال شفاهية ايضا ، تثار مصائب تتعرض لها عذراء تائهة أو معزولة في أمكنة قفراء ، وتثار آلامها الحاصلة نتيجة مسخها الجنسي والتهديدات بموت وشيك . وعلى خلاف التلقينات الذكورية ، فإن أية شعيرة دقيقة لم يحافظ عليها . وتستمر التجارب التلقينية النسائية في الحياة ، فقط في العوالم الخيالية للكوليندات والأغاني الاحتفالية الأخرى . وعلى كل حال فإن هذه المعطيات الشفاهية تساهم ، بصورة غير مباشرة في المعرفة الروحانية النسوية القديمة .

٣٠٤ - رموز وشعائر لرقص تطهيري

إن التثقيف التلقيني للكوليندااتوري[١٥] قد اكمل بالتلقين في الجماعة المغلقة للراقصين التطهيريين Cathartiques المعروفين باسم كالوساري Calusari[١٦] . ففي هذه المرة ، لا يتلقى الشباب التقاليد والاغاني المتشاركة مع سيناريو عيد الميلاد ، وانما سلسلة من الرقصات المميزة وميتولوجيا خاصة . فاسم اللرقص كالوس Calus مشتق من الكلمة الرومانية كال Cal (حصان) (في اللاتينية Caballus) . والمجموعة مؤلفة من سبعة أو تسعة أو احدى عشر شخصاً مختارين ومثقفين من قبل رئيس اكبر سنا . وهم مسلحون بدبابيس وسيوف ومزودون اضافة إلى ذلك برأس حصان من الخشب وراية ، ونباتات طبية مثبتة بطرف عصا . وكما سنرى ، فإن واحد من الكالوزاري المسمى (الأخرس) أو (المقنع) يلعب دوراً مختلفاً عن بقية المجموعة .

ويجري التثقيف ، خلال اسبوعين أو ثلاثة في الغابات أو أماكن منعزلة . وما أن تقبل من الرئيس حتى تجتمع الكالوزارات عشية عيد العنصرة ، في مكان سري ، ويحلفون وايديهم على الراية بأنهم سيطيعون القواعد والاعراف للمجموعة ، وان يتعاملون كاخوان ، وان يحافظوا على النظافة (الطهارة) اثناء التسعة (أو الاثني عشر أو الاربعة عشر) يوما التالية ، وان لا يفشوا سراً مما رأوه أو سمعوه ، وان يطيعوا رئيسهم . وعندما يتم حلف اليمين ، يطلب الكالوزاريون الحماية من ملكة الجنيات ، هيروديادا (= ايروديادا) ، ويرفعون دبابيسهم في الهواء ثم يضربونها ببعضها . ويفرضون السكوت خوفاً من أن تجعلهم الجنيات (Zine)* مرضى . وبعد القسم وحتى التفرق الشعائري للمجموعات ، يبقى الكالوساري مجتمعين دائماً .

ان عدداً من العناصر يعيد إلى الذاكرة التلقين في جمعية رجال (Mannerbund) : العزلة في الغابة ، عهد السرية ، دور «الراية» ، الدبوس والرمح ، رمزية رأس الحصان[١٧] . إن الصفة الاساسية والمميزة للكالوزاري هي عنوانهم

---

* يلاحظ كلمة جن العربية = Zin

البهلوانات موقعة الرقص Aicrobates-chorégraphes، وبخاصة قابليتهم لاعطاء الانطباع بأنهم يتحركون في الأجواء . ويكل وضوح تذكر الوثبات ، والقفزات والنطات والشقلبات بهرولة الحصان ، ومن ذات الوقت ، الطيران ورقص الجنيات (Zin) . مع ذلك ، فإن اولئك الذين يظنون ان الجنيات قد جعلتهم مرضى ، يأخذون بالقفز والصراخ «مثل الكالوزاري ، يظهرون انهم لم يمسوا الارض»

إن العلاقات بين الكالوزاري وبين الجن هي بغرابة متساوية الحدين : الراقصون يطلبون ويحسمون حماية هيروديا‌د، مخاطرين تماما بأن يصبحوا ضحايا موكبها التابعين ، الجنيات . انهم يقلدون طيران الجن ولكنهم يمجدون في ذات الوقت تضامنهم مع الحصان ، الرمز المذكر و«البطولي» بامتياز . ان هذه العلاقات ذات الحدين تظهر كذلك في نشاطاتهم وطرق تكونهم . فاثناء خمسة عشر يوما تقريباً . يذهب الكالوزاري مصحوبين باثنين أو ثلاثة من عازفي الكمان إلى القرى والمزارع المجاورة ، راقصين ، لاعبين ، ومحاولين شفاء ضحايا الجنيـات . ويعتقد أن الجنيات أثناء هذه الفترة ، أي الاسبوع الثالث بعد اعياد الفصح ، في أحد عيد الغطاس ، تطير ، وتغني وترقص وبخاصة اثناء الليل ، وانه يمكن سماع اجراسها وطبولها وادواتها الموسيقية الأخرى . لأن للجنيات في خدمتها العديد من عازفي الكمـان، ونافخي الابواق وحتى حامل الراية . والحماية المفضلة ضد الجنيات هو التوم والارطماسية (نبتة عطرية) فهذه النباتات ذاتها سحرية ـ طبية بحيث ان الكالوزاري يضعونها في كيس صغير على طرف عصي راياتهم . ويعلكون ما يمكن من الثوم .

وتقـوم المعالجـة في سلسلـة من الرقصـات ، المكملـة ببعض الأعمـال الشعائرية[١٨] . وفي بعض المقاطعات ، يحمل المريض الخاضع للمعالجة خارج القرية ، بالقرب من غابة ، ويوضع وسط حلقة من الكالوزاري . واثناء الرقص ، يلامس الرئيس أحد الراقصين بالراية ، فيسقط الراقص على الأرض . ويدوم الاغماء . حقيقيا أو مفتعلا من ثلاث إلى خمس دقائق . وفي فترة السقوط ، يفترض بالمعالج أن ينهض ويهرب ؛ وعلى كل حال يأخذه اثنان من الكالوزاري بذراعيه ويبتعدان به بالسرعة الممكنة . إن المقاصد العلاجية للاغماء واضحة : فالمرض يترك المعالج ويدخل في أحد الكالوزار ، الذي يموت حالاً ، ولكنه يرجع بعدئذ للحياة لأنه متلقي initié .

إن سلسلة من المشاهد المضحكة تمثل في الفترة ما بين الرقصات ونهاية الحفلة . وان الدور الأكثر أهمية يرجع إلى الأخرس . وعلى سبيل المثال ، يرفعه الكالوزاري في الهواء ويتركونه يسقط فجأة . ومعتبراً كميت ، فإنه يبكي على الأخرس من قبل المجموعة بكاملها ويهيئون انفسهم لدفنه ، ولكن ليس قبل سلخه . . . الخ . . وإن المشاهد الاكثر هزلية والاكثر اعداداً تمثل آخر يوم ، عندما ترجع الجماعة إلى القرية .

يشخص اربعة من الكاليزوري بطريقة فظة بعض الشخصيات المألوفة : الكاهن ، التركي أو (القوقازي) ، الطبيب والمرأة . ويجرب كل واحد اجراء الحب مع المرأة ، والتمثيل الايمائي هو عدة مرات على درجة من الاباحية . ان (الأخرس) المتصل بعضو تذكير (قضيب) من الخشب ، يثير المرح الصاخب الشامل بحركاته الفظة والمركزة . واخيراً يقتل واحد من الممثلين ويبعث ، وتصبح المرأة حاملاً[١٩] .

ومهما كان مصدر الكالوس فإنه بأشكاله المؤكدة في القرون الاخيرة ، معروف في رومانيا فقط ، وربما هو معتبر كابداع لثقافة شعبية رومانية . إن ما يميز في آن واحد هو قدميته وبنيته المكشوفة (التي تفسر التمثيل لعناصر منتمية لسيناريوهات أخرى ، على سبيل المثال المشاهد الساخرة) . ان المؤثـرات الظرفية لمجتمع اقطاعي (الراية) ، السيف ، ونادرا (المهامين) هي مركبة على ثقافة زراعية قديمة ، وهي تثبت الدور الشعائري للدبوس ، والسارية المقولبة للصنوبرة (شجرة مميزة في الحفلات ـ الما قبل المسيحية) . اذا لم نقل شيئاً عن الايقاع ذاته . ومع ان تحقيق اليمين يجري على اسم الله ، فإن السيناريو ليس له شيء ظاهر من المسيحية . وقد عاودت السلطات الكنسية العمل بعنف ، وبعض النجاح ، لأن كثيراً من الملامح القديمة المؤكدة في القرن السابع عشر ، قد زالت . وفي نهاية القرن التاسع عشر ايضاً . في بعض الاقاليم ، كان التجمع ممنوعاً على الكالوزاري لمدة ثلاث سنوات . ولكن الكنيسة قررت أخيراً مسامحتهم .

وهكذا ، وبالرغم من الستة عشر قرنا من المسيحية والتأثيرات الثقافية الأخرى ما يزال ممكنا ، بعد جيل تقريباً ، حل رموز آثار السيناريوهات المسارية في المجتمعات الزراعية لأوربا جنوب . شرق . هذه السيناريوهات التي كانت مصاغة في المنظومات

الاسطورية ـ الشعائرية للعام الجديد ودورة الربيع . ففي بعض الحالات ، لدى الكالوزاري ، على سبيل المثال ، يبدو التراث القديم واضحاً وبخاصة في الرقصات والتكوينات الميلودية المميزة لها . وعلى العكس ، فإن النصوص هي التي حفظت العناصر المسارية في السيناريو الاسطوري ـ الشعائري للكلوليند . ويمكن القول ، انه على اثر تأثيرات دينية وثقافية مختلفة ، زال عدد من الشعائر المتضامنة مع المسارات التقليدية (أو انها قد موهت جذريا) ، في حين ان البنى الايقاعية والميتولوجية قد استمرت بالحياة .

وعلى كل حال ، فإن الوظيفة الدينية للرقصات والنصوص الميتولوجية واضحة . وبالنتيجة ، فإن تحليلاً صحيحا للعالم الخيالي للكولنيدات هو قابل ليكشف نموذج تجربة دينية وابداعية ميتولوجية مميزة لفلاحي أوروبا الوسطى والشرقية . ومع الأسف ، فإنه لم يوجد بعد تأويل مناسب للتقاليد الزراعية ، وبعبارة أخرى ، تحليل للنصوص الشفاهية الاسطورية ـ الدينية المقارنة لتفسير الأعمال المكتوبة . فمثل هذا التأويل كان سيبرز ايضاً المعنى العميق للاذعان إلى التراث التقليدي اكثر من اعادة التفسيرات الابداعية للرسالة المسيحية . ففي تاريخ «كلي» للمسيحية ، يجب أن يؤخذ في الحسبان ايضا الابداعات المميزة للشعوب الزراعية . إلى جانب مختلف التيولوجيات المنشأة بدءاً من العهد القديم والفلسفة الاغريقية ، ويقتضي ملاحظة المخططات الاجمالية للتيولوجيا الشعبية : وسنجد ، عدداً من التقاليد القديمة المعاد تفسيرها والمعطاة الصبغة المسيحية ، منذ النيوليتك حتى الديانات الشرقية والهللنستية .[٢١] .

٣٠٦ ـ مطاردة الساحرات وتعاقبات الديانات الشعبية .

إن «مطاردة الساحرات» مشروع مؤسف ومشهور في القرنين ١٦ و ١٧ ، وقد تابع بواسطة التفتيش أو الكنائس المعاد اصلاحها ، ازالة عقيدة شيطانية واجرامية ، والتي هي برأي اللاهوتيين ، كانت تهدد اساسات الديانة المسيحية ذاتها . وقد ابرزت البحوث الحديثة[٢٢] . سخافة الاتهامات الرئيسية : علاقات صحيحية مع الشيطان ،

تهتكات ، قتل الاطفال ، أكل لحم الانسان ، ممارسة الشقاوة . . . وقد اعترف ، تحت التعذيب ، عدد بارز من الساحرين والساحرات ، بهذه الأعمال الشائنة والجرمية ، وادينو بالحرق . وقد كانت السيناريوهات الاسطورية الشعائرية للسحر بكل بساطة من اختراع اللاهوتيين. ورجال التفتيش .

مع ذلك ، فإن هذا الرأي يجب ان يناقش ، وفي الواقع ، اذا لم تكن الضحايا مذنبة بالجرائم والهرطقات التي اتهمت بها ، فإن بعضهم اعترف بأنه قد مارس حفلات سحرية ـ دينية من أصل وبنية «وثنية» ؛ وهي حفلات محرمة منذ زمن طويل من قبل الكنيسة ، حتى ولو كانت ، احيانا ، لها الشكل الظاهري للمسيحية . ويشكل هذا التراث الاسطوري الشعائري جزءاً من الدين الشعبي الأوروبي . هذا وان الأمثلة التي سنناقشها ستسمح لنا بفهم العملية التي على اثرها اعترف بعض معتنقي هذا الدين الشعبي ـ وحتى اعتقدوا ـ انهم مارسوا عبادة الشيطان .

وفي آخر المطاف ، فإن مطاردة الساحرات تابعت تجميد استمرارية حياة (الوثنية) اي ، .اساسا ، عبادات الخصب والسيناريوهات المسارية . وكانت النتيجة افقار التدين الشعبي ، وفي بعض الاقاليم ، انحطاط المجتمعات الزراعية[٢٣] .

وحسب دعاوي التفتيش في ميلان ، سنة ١٣٨٤ و ١٣٩٠ اعترفت امرأتان بانتمائهن لجمعية تديرها ديانا هيروديـاس والتي كان اعضاؤها من الأحياء وكذلك من الأموات . وكانت الحيوانات التي يأكلنها خلال الوجبة الاحتفالية يعاد احياؤها (بدءاً من عظامها) من قبل الربة . وكانت ديانا («السيدة الشرقية Signora oriente»)تعلم المؤمنين بها استعمال الاعشاب الطبية لشفاء مختلف الأمراض ، وكشف فاعلي السرقات ومماثلة السحرة[٢٤] . ومن الواضح أن هؤلاء المؤمنين بديانا لم يكن لديهم شيء مشترك مع صانعي الافعال السيئة الشيطانية . ومن الراجح جداً ، أن شعائرهم ورؤهام كانت مرتبطة بعقيدة قديمة من عقائد الخصب . غير ان تحريات التفيس غيرت الوضع جذريا ، كما سنرى ، ففي اللورين في القرنين ١٦ و١٧ ، اعترف السحرة المطلوبون مباشرة أمام السلطات بأنهم كانوا «شافون ـ الهيون devins–guérisseurs» ، ولكنهم ليسوا سحرة ؛ وبعد التعذيب فقط ، انتهوا إلىٰ القول بأنهم كانوا «عبيداً للشيطان[٢٥]» .

وحالة المتشردين benandanti توضح بطريقة تدعو إلى الشفقة التحول ، تحت ضغط التفتيش ، من عقيدة سرية للخصب لممارسة السحر الأسود . ففي ٣١ آذار / ١٥٧٥ أُخبِرَ النائب الرسولي العامle Vicariegeneral ومفتش أكويلية وكونكورديا بوجود سحرة في بعض القرى ، وهم تحت اسم بيناندانتي ، وكانوا أعلنوا عن انفسهم بأنهم سحرة طيبون لأنهم قاوموا السحرة stregoni . وقد أظهر التحقيق المتعلق بالبيتاندانتي الأولين الوقائع التالية : لقد تجمعوا سراً ، اثناء الليل ، اربع مرات في السنة (اي في اسابيع الاوقات الاربعة) ؛ وقد بلغوا مكان اجتماعهم على ظهر ارنب ، وهر أو حيوان آخر ؛ وهذه الاجتماعات لم تكن تمثل أية واحدة من الخصائص (الشيطانية) المعروفة جداً ، المتعلقة بجماعات الراقين ؛ ولم يكن يوجد هنالك لا ارتداد ولا جحود ولا ازدراء للتقديسات أو الصليب ، ولا عبادة للشيطان ، واساس الشعيرة بقي مع ذلك غامضا . وقد واجه جماعة البيندانتي (المشردون) وهم مزودون بأغصان الشمرة السحرة (ستريغ وستريغوني) الذين ، كانوا هم مسلحين بأنواع من الأغصان والجونك . وقد ادعوا انهم حاربوا الأفعال السيئة للسحرة واشفاء ضحاياهم . وليخرج البيندانتي ظافرين من هذه المعارك للازمنة الاربعة Quatres-temps ، ولتصبح المحاصيل وفيرة هذه السنة ، والا فإن المجاعة والجدب سيتتابعان[٢٦] .

وقد كشفت تحقيقات تالية تفصيلات حول تجنيد البيناندانتي وتركيب جمعياتهم الليلية . واكدت ان «ملاكاً من السماء» طلب إليهم معاودة التجمع وانهم كانوا ملقنين باسرار الجماعة ما بين سن العشرين والثانية والعشرين سنة . وكانت الجمعية المنظمة على الطريقة العسكرية تحت قيادة رئيس تجتمع عندما كان هذا الاخير يدعوها لهذا الاجتماع بواسطة صوت طبل . وكان اعضاؤها مرتبطين بقسم السر . وكانت جمعيتهم تعادو اجتماعها ، مشتملة احيانا زهاء خمسة آلاف بيناندتني ، وكان بعضهم من ذات المقاطعة ولكن الاكثرية لم تكن تعرف بعضها . وكانت لهم راية من جلد السمّور ، بيضاء مذهبة ، في حين ان راية السحرة كانت صفراء ومرفوعة من اربعة شياطين . وكان لكل البيناندانتي خط مشترك : لقد كانوا ولدوا «مع القميص» أي ولدوا محظوظين ، مع غشاء يسمى غطاء للرأس coiffe .

عندما كان التفتيش الأمين على مفهومه المقولب عن محفل السبت للسحرة ، يسألهم فيما اذا كان «الملاك» قد وعدهم بأطعمة نقية ، وبنساء ولذات شهوانية أخرى ، كانوا ينكرون هذه الاشارات بكبرياء . وكانوا يقولون للمفتشين ان السحرة (ستريغوني) وحدهم ، الذين كانوا يرقصون ويتسلسون في جمعياتهم . ان النقطة الاكثر غموضاً المتعلقة بالبيناندانتي بقيت (سفرهم) نحو مكان اجتماعاتهم . فقد كانوا يأتون إليها ، وحيا inspirito ، في الحين الذي يكونون نائمين ، كما يقولون .

لقد كانوا يقعون قبل «سفرهم» في حالة وهن كبرى وسبات شبه تخشبي ، وكانت روحهم اثناء ذلك على وشك ان تترك اجسادهم . ولم يكونوا يستعملون ابداً الدهونات لأجل تهيئة «سفرهم» الذي مع انه يتم روحياً ، كان واقعياً في نظرهم .

في سنة ١٥٨١ أدين اثنان من البيناندانتي بعقوبة حبس لمدة ستة اشهر بسبب الهرطقة وفداحة اخطائهما . وقد رفعت دعاوى أخرى خلال السنوات الستين التالية التي سنرى نتائجها . ولنحاول الآن ، على ضوء وثائق العصر ، اعادة تكوين بنية هذه العقيدة الشعبية السرية . لقد كانت الشعيرة المركزية لها تتركب بوضوح في معركة احتفالية ضد السحرة لضمان وفرة المحاصيل والخمور وكل «ثمرات الأرض»[٢٧] . إن واقعة كون المعركة كانت تأخذ مكانها في الليالي الاربعة الحرجة للتقويم الزراعي ، لا تدع مجالاً للشك بالنسبة لموضوعها . فمن المرجح أن المواجهة بين البيناندانتي والستريفوني كانت تمدد السيناريو لشعيرة عتيقة من الامتحانات والمباريات بين مجموعتين متخاصمتين ، وبهدف اخفاء القوى الخلاقة للطبيعة واعادة تجديد المجتمع البشري[٢٨] .

ومع ان البيناندانتي زعموا بأنهم حاربوا من أجل الصليب ومن «أجل الايمان بالمسيح» فإن معاركهم الاحتفالية لم تكن مسيحية سوى بشكلها السطحي .[٢٩] ومن جهة اخرى فإن الستريفوني لم يكونوا متهمين بجرائم عادية ضد تعاليم الكنيسة ؛ ولم يلصق بهم سوى تخريب المحاصيل وافتتان الأولاد . وأنه في سنة ١٦٣٤ فقط (بعد ٨٥٠ دعوى ووشايات أعلم بها تفتيش اكويلية وكونكورديا) صودف لأول مرة اتهام ملصق بالستريفوني يعتبرهم كمجرمين باحتفالهم بمحفل السبت الشيطاني التقليدي .

مع ذلك ، فإن الاتهامات بالشعوذة Sorcellerie المؤكدة في ايطاليا الشمالية لا تحكي عن عبادة الشيطان وانما عن عبادة مرفوعة لديانا(٣٠) .

ومع ذلك ، وكنتيجة للعديد من الدعاوى ، فإن البيناندانتي بدؤا يتوافقون مع قالب ابليسي نسبه لهم التفتيش باصرار . ولم يكن بعد محل للتساؤل ، لفترة معطاة ، عما تشكله النقطة الأساسية : شعيرة الخصب ، وبعد سنة ١٦٠٠ اعترف البيناندانتي أنهم لم يبحثوا سوى عن شفاء ضحايا المشعوذين . ولكن هذا الاقرار لم يكن دون مخاطرة ، لأن التفتيش كان قد اعتبر الاستعداد لطرد الحظ السيء دليلاً واضحاً على الشعوذة(٣١) . ومع الزمن أصبح البيناندنتي أكثر وعيا بأهميتهم فضاعفوا الشكايات ضد اشخاص قالوا عنهم انهم مشعوذون . وبالرغم من هذه العداوة المتنامية ، فقد شعروا بانفسهم منجذبين دون وعي نحو السترايغ والستريغوني ، وفي سنة ١٦١٨ اعترفت واحدة من البيناندانتي بأنها ذهبت لمحفل سبت ليلي يرأسه الشيطان ، مضيفة مع ذلك بأن ذهابها كان بهدف الحصول من هذا على القدرة بالشفاء(٣٢) .

وأخيراً وفي ١٦٣٤ وبعد خمسين عاماً من الدعاوي التفتيشية ، قدر البيناندانتي انهم ليسـوا سوى واحد مع السحرة (ستريغ وستريغوني)(٣٣) . وقد اعترف أحـد المتهمين بأنه كان ممسوح الجسد بمرهم خاص ، وانه ذهب للسبت حيث شاهد كثيراً من السحرة محتفلين بالشعائر ، راقصين ومستسلمين لأعمال جنسية فاضحة ، معلنا مع ذلك ان البيناندانتي لم يساهموا في التهتك . وبعد بضع سنوات ، اعترف أحد البيناندانتي بأنه وقع ميثاقاً مع الشيطان ، وازدرى المسيح والعقيدة المسيحية وقتل ثلاثة اطفال . وقد أظهرت دعاوى أخرى العناصر التي لا مفر منها منذئذ للصورة الكلاسيكية لسبت السحرة ، وللبيناندانتي المعترفين بأنهم مارسوا حفلات الرقص وقدموا الاحترامات للشيطان وقبّلوا مؤخرته . وقد حصلت إحدى هذه الاعترافات الاكثر مأساوية في عام ١٦٢٤ . اذ قدم المتهم وصفاً دقيقاً للشيطان ، وروى كيف اعطاه روحه واعترف بأنه قتل اربعة اطفال ملقيا لهم المصير السيء . غير انه عندما كان يوجد لوحده مع نائبي التفتيش الاسقف الانكليكاني ، كان يعلن السجين بأن اعترافه كان كاذبا وانه لم يكن لابيناندانتي ولا ستريغون . وكان القضاة يتفقون على ان هذا السجين «اعترف بما

لقن به» . وغير معروف ما كان عليه الحكم ، لأن المعني بالأمر كان يشنق في زنزانته . واخيراً ، كانت تلك آخر دعوى كبيرة مرفوعة على البينانداني[٣٤] .

ولنتناول الصفة العسكرية للجماعة ، التي كانت هامة قبل دعاوى التفتيش . فهي لا تتعلق بمثال منفرد . وقد كنا ذكرنا فهي سلف حالة ذلك الشيخ الليتواني من القرن السابع عشر الذي ، تحول مع رفاقه إلى ذئاب ونزلوا للجحيم وقاتلوا الشيطان والسحرة ، من أجل استعادة الأموال المسروقة (قطعان ، وقمح وثمار اخرى من الأرض) . ويقارن كارلو جينز بحق البينانداني والذئاب اللتيوانية الممسوخة بالشامانيين الذين ينزلـون ، بوجد ، إلى العالم التحت ارضي لضمان حماية جماعتهم[٣٥] . ولا يسوغ ان ننسى ، من جهة اخرى ، المعتقد العام في اوروبا الشمالية ـ والذي بحسبه ان المحاربين الموتى والآلهة كانوا يقاتلون القوى الشيطانية[٣٦] .

إن التقاليد الشعبية الرومانية تسمح لنا بشكل افضل فهم أصل ووظيفة هذا السيناريو الاسطوري ـ الشعائري . ونعيد إلى الذاكرة أن الكنيسة الرومانية كغيرها من الكنائس الارثوذكسية ، لم يكن عندها مؤسسة مشابهة للتفتيش . وهكذا ، مع ان الهرطقات لم تكن مجهولة . فإن الاضطهاد ضد السحرة لم يكن لا كثيفاً ولا نمطياً . ونحصر التحليل بعبارتين حاسمتين بالنسبة لمسألتنا : ستريغا striga ، كلمة لاتينية «الساحر» و«ديانا» ، ربة رومانية أصبحت معلمة للسحرة في اوروبا الغربية . وستريفا اعطت ستريغوا strigöi في الرومانية «سحرة» سواء أحياء أو أموات (في هذه الحالة الأخيرة هامات Vampircs) . ان الستريغوا تتولد مع غطاء الرأس Coiffe ؛ وعندما يدركون أمومتهم يتلبسونها ويصبحوا غير مرئيين ، ويقال عنهم بأنهم موهوبون بقوى ما فوق طبيعية ؛ على سبيل المثال ، يستطيعون الدخول إلى المنازل من ابواب، مرتجة ويلعبون بدون عقاب مع الذئاب والدببة ، ويستسلمون لكل الأفعال السيئة الخاصة بالسحرة ؛ ويثيرون الأمراض المعدية لدى البشر والقطيع ،ويَسيطرون، ويمسخون الناس ، ويجلبون سنوات الجدب ، وبسيطرتهم على المطر يستنذفون الحليب من الابقار ، وبخاصة يطرحون الحظ السيء . ويستطيعون التحول لكلاب ، وقطط وذئاب وأحصنة وخنازير وضفادع وحيوانات اخرى . وهم مهتمون بالاختلاط خارج بعض

الليالي ، بصورة متفردة بالقديس جرجس والقديس اندريه . ويرجوعهم إلى منازلهم ، ينفلون ثلاثة دورات ويرجعون إلى شكلهم البشري . وتمتطي ارواحهم بتركها لأجسادهم أحصنة ، مكانس أو براميل ويجتمع الستريغوا بعيداً عن القرى ، في حقل معين أو «على طرف العالم ، هنالك حيث لا ينبت العشب» . وما يصلون للمكان حتى يستعيدون شكلهم البشري ويبدؤون في المضاربة فيما بينهم بالدبوس ، والفأس والمنجل والأدوات الاخرى . وتستمر المعركة كل الليل ، لتنتهي بالبكاء والمصالحة العامة . ويرجعون متعبين شاحبي الألوان ، غير عالمين بما حصل لهم ، ثم يسقطون في نوم عميق[٣٧] .

من المؤسف انه لا يعرف شيء ، بالنسبة لمعنى وموضوع هذه المعارك الليلية ، هذا وإن موكب الموتى الشائع في اوروبا الوسطى والشرقية يفكرنا بالبيناندانتي وبالوايلدهيز Wildeheer ايضا . ولكن البناندانتي يأخذون بدقة من الستريغا ، في حين ان الستريغوا الرومان كانوا يتضاربون فيما بينهم وينتهون دائماً في معاركهم إلى الدموع والمصالحة العامة . أما بالنسبة للمشابهة مع الوايلدهير ، فيوجد نقصان الخط الأكثر تمييزاً : الضجة المرعبة التي كانت ترهب القرويين . وعلى كل حال ، ان مثال السحرة الرومان يوضح رسمية مخطط لما قبل المسيح مبني على اسفار حلمية oniriques ومعركة طقوسية وجدية ، وهو مخطط تأكد في العديد من اقاليم اوروبا .

إن قصة ديانا ، ربة داسي Dacie القديمة ، هي ايضا ذات دلالة . فمن الراجح جداً ان اسم ديانا حل محل الاسم المحلي لربة أهلية جنتو- تراس . ولكن قدم المعتقدات والطقوس المتعلقة بديانا الرومانية لا ريب فيه . وفي الواقع ، يمكن الافتراض دائماً ، ان المراجع القروسطية التي تمس عبادة وميتولوجيا ديانا ، لدى الشعوب ذات اللغة الرومانية - ايطالية - فرنسية - اسبانية - بورتغالية ، كانت تعكس بشكل بارز ، رأي الرهبان القراء مسكوبة في النصوص اللاتينية . ولا يعرف تقديم فرضية من هذا النوع بالنسبة لقصة ديانا لدى الرومان . ان اسم الربة أتى من ذينا Zina (Cdzian) في اللغة الرومانية ، تعني «جنية» . واضافة لذلك ، اشتقت كلمة أخرى من ذات الجذر : زيناتيك Zinatec ، تعني «من هو مخبول ، ضعيف العقل أو مجنون» بمعنى «مأخوذ» مملوك بديانا أو الجنيات[٣٨] .

وعليه فقد رأينا (ف ٣٠٤ع) العلاقات ، ربما المتقابلة بين les Zine الجن والكالوساري . فالجن يمكن ان يكونوا قساة ، ومن عدم الفطنة لفظ اسمهم . فيقال : «القديسات» «المحسنات» «الروزالي» أو بساطة «هنَّ» (iele)

إن الجنيَّات ، اللواتي هن خالدات ، لهن مظهر فتيات جميلات مسرات ومبهرات . مرتديات البياض ، بصدور عارية وغير مرئيات نهاراً ومتمتعات باجنحة ، يتنقلن في الأجواء وبخاصة ليلاً . ويحببن الرقص والغناء ، وهنالك حيث يرقصن يبلو عشب الحقول كأنه مشيط بالنار . وهن يصبن بالمرض كل من يراهن وهن يرقصن أو من يخرق بعض المحرمات وهذه الأمراض لا يمكن لها ان تشفى الا بواسطة الكالوزاري les Ĉalusari (٣٩) .

ان الوثائق الرومانية بفضل اقدميتها معين كبير لفهم السحر الأوروبي . وفي المكان الأول ، لا يمكن ان يحصل أي شك بالنسبة لاستمرارية بعض الشعائر والمعتقدات القديمة التي تمس الخصب والصحة خاصة . وثانيا ، فإن هذه السيناريوهات الاسطورية ، الشعائرية اقتضت صراعاً بين مجموعتين من القوى المتعارضة رغم تكاملها مع بعض . مجموعة مشخصة شعائريا من قبل شبان وصبايا (بيناندانتي ، ستريغا ، كالوزاري) . وثالثا ، فإن الصراع الاحتفالي كان يتبع أحيانا بمصالحة بين مجموعات متخاصمة . ورابعاً فإن هذا الانشطار الشعائري للمجموعة المتضامنة كان يقتضي بعض التعارض ، لأن أحد المجموعتين المتخاصمتين ، مع التعبير عن حالة الحياة والخصب الكونيين ، كان يشخص دائما المظاهر السلبية . وما هو اكثر من ذلك . ان تشخيص المبدأ السلبي كان يمكن له ، تبعاً للفترة وللظروف التاريخية ، ان يفسر كمظهر للشر (٤٠) . وهذا هو ما كان يظهر انه حصل في حالة الستريغوا الرومانية ، وفي مقاس أصغر ، الجنيات ، الجنيات التي تناسب «موكب ديانا» . وتحت ضغط التفتيش ، فإن تفسيراً مماثلاً وجد متعلقاً بالبيناندانتي . وهذه العملية . بسبب التماهي الدوري لاستمرارية حياة الطقوس ـ الأسطورية الماقبل المسيحية مع الاجراءات الشيطانية ، واخيراً مع الهرطقة ، كانت اكثر تعقيداً في اوروبا الغربية .

٣٠٧ ـ مارتان لوثر والاصلاح في المانيا

في التاريخ الديني والثقافي لأوروبا الغربية ، يصنف القرن الذي سبق تكثيف مطاردة السحرة بين القرون الأكثر ابداعا . وهو كذلك ليس فحسب بسبب الاصلاحات الحاصلة ، بالرغم من العقابيل الكثيرة ، بواسطة مارتان لوثر وجان كالفان ، وانما ايضاً لأن العصر ـ الذي دام تقريباً من مارسيليو فيسينو (١٤٣٣-١٤٩٩) إلى(جيوردانوبرينو (١٥٤٨-١٦٠٠) ـ يتميز بسلسلة من الاكتشافات (الثقافية ، والعلمية والتكنولوجية ، والجغرافية) والتي تلقت بدون استثناء دلالات دينية . وسيكون ثمة مجال لمناقشةالقيم أو الوظائف القديمةللافلاطونية المحدثةالتي اعيدت صياغتها من قبل الانسانيين الطليان ، ومن الكيمياء الجديدة ، والطب الكيميائي لباراسيلز والنظام الشمسي المركزي héliacentrisme لكوبيرنيكوس وجوردانوبردنو . ولكن ، حتى الاكتشاف التكنولوجي كاكتشاف المطبعة كانت له نتائج دينية هامة ؛ وفي الواقع لعبت دوراً اساسياً في انتشار وانتصار الاصلاح . وقد كانت اللوثرية منذ بدايتها «ابنة الكتاب المطبوع» :فبمساعدةهذهالآلة استطاع لوثر ، النقل ، بقوة ، وبدقة ، لرسالته من طرف لآخر من اوروبا[٤١] .

ومعلوم ايضاً المعارضات للنظام التيولوجي المثارة باكتشاف اميركا . غير ان كريستوف كولومبس كان فيما سلف واعيا بالخاصية الأخروية لأسفاره . ففي «الظروف الرائعة» (التي نجهلها) ، «اظهر الله يده» . لقد اعتبر كولومب سفره «كمعجزة واضحة» . لأنه لا يتعلق فحسب باكتشاف «الهند»وانما بعالم متخيل . «انني أنا الذي اختارني الله كمبعوثه ، مظهراً لي من أية جهة توجد السماء الجديدة والأرض الجديدة التي تكلم الله عنها بلسان القديس يوحنا ، في رؤياه ، والتي كان اشار إليها يسوع فيما سلف»[٤٢] . وتبعاً لحسابات كولومب ، فإن نهاية العالم يجب ان تحصل بعد ١٥٥ سنة . ولكنه ، من هنا ، بفضل الذهب الآتي من «الهند» فإن اورشليم يمكن لها ان تفتتح و«البيت المقدس» سيمكن ان يعاد «للكنيسة المقدسة»[٤٣] .

وككل معاصريه ، فإن مارتن لوثر شارك في العديد من الأفكار والمعتقدات العامة لعصره ، وعلى سبيل المثال ، لم يشك مطلقاً بالقوة الرهيبة للشيطان ولا بضرورة حرق السحرة ، وقبل الوظيفة الدينية للكيمياء(٤٤) . وكالعديد من اللاهوتيين المتدينين واللاييك الذين مارسوا نظاما روحيا (ف ٢٩٩-٣٠٠ع ع)فإن مارتن لوثر وجد عزاءه الصوفي في تيولوجيا دوتشla Theologia deutsh ، وهو نص وضعه مباشرة بعد التوراة والقديس اوغسطين(٤٥) . ولقد قرأ وتأمل في كثير من الكتب ، وبسرعةتأثر بغليوم اوكهام . ولكن عبقريته الدينية لا تفسر بروح عصره . وعلى العكس ، فإن التجارب الشخصية لمارتن لوثر هي التي اسهمت في قسم كبير ، لتغير جذريا التوجه الروحي للعصر . وتماما كما في حالة محمد ، فإن سيرته الذاتية تساعدنا لفهم المصادر الابداعية الدينية .

ولد في ١٠ تشرين ثاني ١٤٨٧ في ايسيلبن (تورينج) وسجل طالباً في جامعا ايرفرت وحصل على اجازة في ١٥٠٥ ، وبعد بضعة اشهر ، اثناء عاصفة رهيبة ، نجا من الهلاك فنذر ان يصبح راهبا . وفي ذات السنة ، دخل دير الاوغسطينيين في ايرفرت . وبالرغم من معارضة والده ، لم يتراجع مارتان عن قراره . وكرس كاهنا في نيسان سنة ١٥٠٧ .

وعلّم الفلسفة الاخلاقية في جامعات ويتنبرغ وايرفوت ، وفي نوفمبر ١٥١٥ ، بمناسبة سفره لروما ، ذهل من انحطاط الكنيسة . وبعد سنتين من حصوله على الدكتوراة في اللاهوت ، تسلم كرسي الكتابة المقدسة في ويتنبرغ ، وافتتح مسيرته بشرح على التكوين .

ولكن قلقه الديني ازداد بمقدار ما فكر حول غضب وعدالة الرب ـ الاب ، يهوه العهد القديم . ولم يكتشف الا في ١٥١٣ او ١٥١٤ المعنى الحقيقي لعبارة«عدالة الله» : انه العمل الذي به يجعل الله رجلا عادلاً ، وبعبارات أخرى ، العمل الذي به يتلقى ، المؤمن ، بفضل إيمانه ، العدالة المتحصلة بتضحية المسيح . وهذا التفسير للقديس بولس ـ «ان البار بالايمان يحيا» [رسالة إلى الرومان ١-١٢] ـ يشكل اساس لاهوت مارتان لوثر . «لقد شعرت بأنني ولدت من جديد ، كما قال فيما بعد ، وانني دخلت الجنة من

ابوابها المفتوحة» . ويتأمله حول الرسالة إلى الرومان ـ التي هي حسب رأيه «أهم وثيقة من العهد الجديد» ـ فإن لوثر عرف عدم امكانية الحصول على التبرير «أي علاقة متسقة مع الله» بأعماله الخاصة . وعلى العكس فإن الانسان هو مبرأ ومنقذ بالإيمان بالمسيح فقط . وكالايمان تماما ، فإن الخلاص منوط مجاناً بالله . وقد اعلن لوثر هذا الاكتشاف في درسه لسنة ١٥١٥ ، مفصلاً ما كان اسماه «تيولوجيا الصليب» .

وقد بدأ نشاطه الاصلاحي في ٣٠ /اكتوبر ١٥١٧/ ففي هذا اليوم ، علق مارتن لوثر على باب الكنيسة من قصر ويتنبرغ اطروحته الـ ٩٥ ضد صكوك الغفران indulgences[٤٦] . مهاجما فيها الانحرافات المذهبية والثقافية للكنيسة . وفي نيسان ١٥١٨ كتب باحترام إلى الباب ليون العاشر ولكنه استدعي إلى روما ليبريء نفسه . فطلب لوثر إلى فريدريك الحكيم ، منتخب ساكس ، أن يحاكم في المانيا . وحصلت المواجهة في اوكسبورغ ، في تشرين أول ١٥١٨ أمام الكاردينال كاجيتان ، ولكن الراهب الأوغسطيني رفض ان يتراجع ؛ فبالنسبة له ، كما هو من جهة أخرى بالنسبة لعدد من الاساقفة واللاهوتيين[٤٧] ليس لمسألة صكوك الغفران أي تبرير عقائدي . ونما النزاع بشكل خطير في الأشهر التالية ، ففي لايبزغ سنة ١٥١٩ انكر لوثر الأولوية البابوية قائلاً ، بأن البابا ، هو ايضاً يجب عليه الخضوع لسلطة الكتاب المقدس . وجاء الجواب ، في ١٥ حزيران سنة ١٥٢٠ بالبراءة البابوية المسماة Exsurge Domini ؛ فقد انذر لوثر بالتراجع خلال مدة شهرين ، تحت طائلة حرمانه . غير ان المتهم القى علنا نسخة من البراءة في النار واذاع بالمقابل اربعة كتب ، التي تحتسب بين الاكثر وضوحاً والاكثر أهمية من اعماله .

ففي المنشور (إلى النبالة المسيحية والأمة الالمانية) (آب ١٥٢٠) يرفض سيادة البابا على المجمعات ، والتمييز بين رجال الدين واللاييك واحتكار رجال الدين للكتابة ، وفي هذا الشأن اعاد إلى الذاكرة ، ان كل المسيحيين هم كهنة ، بفضل تعميدهم . وبعد شهرين اعلن ، متوجها إلى اللاهوتيين ، استهلالاً حول الاسر البابلي للكنيسة ، مهاجماً رجال الدين وسوء استعمال التقديسات . وقبل لوثر ثلاث تقديسات فقط ـ التعميد ـ سر القربان المقدس ـ الاعتراف ـ ثم تنازل بعدئذ عن الاعتراف ، وبفضل حماية منتخب ساكس ، بقي مختبئاً في قصر وارتبورغ (١٥٢١) ولم يرجع إلى ويتنبورغ الا في السنة

التالية[٤٨] . وقد بدأت القطيعة النهائية مع روما ، قطيعة كاهن يمكن تفاديها لو أنّ الامبراطور شارلكان أصر على الادارة البابوية لتقوم بانجاز الاصلاحات المطلوبة من كل الجهات . وفي الواقع ، فإن اللاييك ، وكذلك عدد من الرهبان ، شاطروا ، حسب ايضاح ستيفن اوزمن «ذات الشعور المشترك لطغيان ديني لا حل له» .

ان المذكرة المقدمة في مارس ١٥٢١ باسم : احزان الامبراطورية الرومانية المقدسة . وبخاصة مجموع الأمة الالمانية ـ والمعبرة عن مشاعر الطبقة الاريستوقراطية والبورجوازية ، كررت انتقادات لوثر ضد البابا ، وكبار القساوسة الالمان ، والكنيسة ورجال الدين بصورة عامة[٤٩] . وبعد رجوعه إلى ويتنبورغ ، كان على المصلح ان يبشر ضد حركة (نبؤية) وبعض التجديدات المنجزة اثناء غيابه . وفي السنوات التالية ، واجه صعوبات اخرى على اثر (ثورات عامية ضد السلطة)yaecqueries التي انفجرت في ١٥٢٤ في المانية الجنوبية ، وبأقل من سنة ، انتشرت في كل البلاد ، ونشر لوثر (ضد الفوضويين hardes المجرمين وقطاع الطرق من الفلاحين) سنة ١٥٢٥ رسالة هجاء كانت ومازالت منتقدة جداً[٥٠] . وخلال هذه الثورات الفلاحية تزوج لوثر راهبة قديمة كاترين فان بورا ، التي انجبت له ستة اولاد . وفي هذه الفترة حصلت المجادلة مع (ايراسمس) (ف ٣٠٨ع) .

وتتابع تنظيم الاصلاح بمعونة (ميلانشتون ١٤٩٧ـ١٥٦٠) واعوان آخرين . لقد أصر لوثر على اهمية التراتيل اثناء الخدمة وهو نفسه كتب عدداً منها . وعلى اثر شرحه للصلاة ، التي اعترف فيها بالحضور الفعلي للمسيح ، انفجرت خصومة مع المصلح السويسري (زوينغلي) الذي لم يكن موافقاً الا على حضور رمزي .

لقد كانت هذه السنوات الاخيرة على جانب من الصعوبة ، وبخاصة بسبب احداث سياسية . وكان على لوثر قبول حماية السلطة الزمنية ، لأنه فضل القوة على الفوضى والعماية . انه لم يتوقف عن مهاجمة انصار اصلاح جذري .

وفي آخر المطاف ، أعلن بطريقة اكثر دوغمائية اللاهوت والعقيدة في حركته الانجيلية ، التي أصبحت الكنيسة اللوثرية . ومات في ١٨ شباط ١٥٤٦ .

٣٠٨ ـ لاهوت لوثر . جداله مع ايراسمس

في رسالة مؤرخة حزيران سنة ١٥٢٢ كتب مارتن لوثر : «لا أقبل انه يمكن لنظريتي ان تحاكم من قبل شخص ، حتى من قبل الملائكة . إن من لا يقبل نظريتي لا يمكن الوصول للخلاص» . ويذكر جاك ماريتين هذا النص[٥١] كدليل على الصلف وتركز الأنانية . وعليه ، يتعلق بردة مميزة لمن لا يجرؤ على الشك باختياره الإلهي ولا ببعثته النبوية . وبكونه متلقيا الكشف الذي هو الحرية المطلقة للرب الأب الديَّان ، يدين وينقذ حسب قراره الخاص ، فإن لوثر لن يسامح أي تفسير آخر . وان عنفه الذي لا يسامح يعكس حمية يهوه وغيرته تجاه البشرية . وان الكشف الذي كافأ لوثر ـ التبرير ، واذن الخلاص ، بالايمان فقط solafide ـ هو نهائي وغير قابل للمس به ، حتى الملائكة لا تستطيع محاكمته .

وهذا الكشف ، الذي غيَّر حياته ، شرحه لوثر باستمرار ودافع عنه في لاهوته . وعليه ، لقد كان لاهوتيا بارزاً ومثقفاً[٥٢] . وعشية اطروحاته ضد صكوك الغفران ، هاجم لاهوت نهاية القرون الوسطى في خصومته ضد لاهوت السكولاستيك (٤ آب ١٥١٧) . فحسب تعليم كنيسة القرون الوسطى الموضحة بخاصة من قبل توما الأكويني ، ان المؤمن الذي يطبق الخير في حالة من النعمة يساعد في خلاصه الخاص . ومن جهة أخرى ، فإن تلامذة أوكهام العديدون كانوا يقدرون ان العقل والوعي ، منحتان من الله ، لم تحذفا بالخطيئة الأصلية ، والنتيجة فإن من يفعل الخير حسب اتجاهه الأخلاقي الطبيعي يتلقى النعمة كمكافأة ، وبالنسبة للأوكهاميين ، فإن مثل هذه العقيدة لا تقتضي البتة البيلاجوسية (نظرية الراهب بيلاجوس ٣٦٠ـ٤٢٠م الذي انكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الارادة التامة) . لأن الله في آخر المطاف هو وحده الذي يريد انقاذ الانسان دائما .

وقد هاجم لوثر بعنف في خصومته ضد التيولوجيا السكولاستيكية هذه النظرية . فارادة الانسان بطبيعتها الخاصة ليست حرة ان تفعل الخير . فبعد السقوط ، لا نستطيع التكلم «حرية التحكم» ، لأن الذي يسود منذئذ الانسان هو انانيته الذاتية المطلقة

والسعي اللاهث وراء رغباته الخاصة . وليس المقصود دوما اتجاهات أو أعمال لا اخلاقية ؛ فأحيانا يفتش الانسان عما هو خير ونبيل ، ويطبق الدين ويحاول التقرب من الله . ومع ذلك ، فإن هذه الأعمال هي آثمة ايضاً ، لأن مصدرها ذات الأنانية التي اعتبرها لوثر كنموذج اساسي لكل نشاط انساني «خارج النعمة»(٥٣) .

وقد أدان لوثر ايضاً اخلاق اريسطو التي بحسبها ، تتحصل الفضائل الخلقية بالتعليم . وفي آخر المطاف رأى في لاهوت السكولاستيك بيلاجوسية جديدة . وبالنسبة له ، ان الخير ، سواء أتم في أو خارج ، حالة النعمة لا يسهم مطلقا في انقاذ الروح . ومنذ خريف ١٥١٧ ، تاريخ الخصومة ، يعاود لوثر باستمرار أخذ التفسير للايمان وحده solafide . انه يلح بصورة أقل على المحتوى الدوغمائي للايمان ؛ ان تجربة الايمان في ذاتها هي التي تجلب البراءة fiducia الصافية والشاملة ، كبراءة الأطفال .

أما بالنسبة للانسجام بين العقل والايمان ، فإن لوثر اعتبره مستحيلاً ، وصنف بين الوثنيين أولئك الذين اكدوه . فليس للعقل شيء مشترك مع نطاق الايمان . إن قواعد الايمان ، كما كتب فيما بعد . «ليست ضد الحقيقة الجدلية (أي منطق اريسطو) وانما خارج ، أو تحت ، وفوق ، وحول وما وراء»(٥٤) .

ويعود لوثر ايضاً على النغمة الاساسية للتيولوجيا ـ التبرير بالايمان ـ رادّاً على الانتقادات المصاغة من قبل ايراسموس في كتابه حرية التحكم De libro Arbitrin . إن المواجهة بين هذين العقلين الكبيرين هي ذات دلالة محزنة ونموذجية معا . فقد هاجم ايراسمس (١٤٦٩ـ١٥٣٦) منذ زمن طويل اساءات الاستعمال ، وفساد الكنيسة مصراً على ضرورة الاصلاحات الملحة . وما هو اكثر من ذلك ، كان قد عارض بلطف البيانات الأولى للوثر(٥٥) . ولكنه ، كمسيحي طيب وانساني مخلص ، فإن ايراسمس رفض المساهمة في تفجير الجماعة المسيحية ، فقد شجب الحرب ، والعنف الكلامي وعدم التسامح الديني ، وقد طالب باصلاح جذري للمسيحية الغربية ، وان يكون ذلك ليس ضد صكوك الغفران وعدم احترام الكهنة والكرادلة ودجل الرهبان فحسب ، وانما ايضا ضد الطريقة السكولاستيكية وغموض اللاهوتيين . وقد اعتقد ايراسمس بضرورة التعليم الأكثر عقلانية واعاد التذكير بدون توقف بالفائدة الكبرى التي يمكن

للمسيحية ان تستخلصها في تمثلها للثقافة الكلاسيكية[٥٦] . وكان مثله الأعلى السلام كما بشر به المسيح : فهو وحده يستطيع أن يضمن المساعدة بين الشعوب الأوروبية .

وفي ٣١ آب ١٥٢٣ كتب ايراسمس إلى اورليش زوينغلي : «اعتقد انني علمت تقريباً كل ما علمه لوثر ، ولكن بدون قسوة ، وانني امتنع عن بعض التناقضات الملغزة»[٥٧] . ومع انه لم يقبل بعض افكار لوثر ، فقد كتب رسائل في مدحه ، مع علمه أن هذه الرسائل سوف تشهر[٥٨] . وعندما اعلنت اطروحات لوثر بأنها هرطقية ، احتج ايراسمس معتبراً أن الخطأ ليس هو بالضرورة هرطقة[٥٩] . وطلب إلى اللاهوتيين الكاثوليك الرد على تفسيرات لوثر بدلاً من ادانته وبما أن ايراسمس اعلن ضرورة الحوار فهو قد اتهم ـ بدئياً من قبل لوثر ، وبالتالي من روما ـ بالحيادية ، لا بل بفقدان الشجاعة ، وهو اتهام قد يكون صحيحاً عشية حرب دينيةضروس وجديدة ، في حين ان الاذعان لقسم من الايمان كان يوحي علنا بالاستشهاد . ولكن المثل الأعلى لا يراسمس ـ التسامح المتبادل والحوار بهدف التعارف وايجاد مصدر مسيحي مشترك . يعاود اكتساب فعلية شبه عاطفية في الحركة المسكونية لهذا الربع الأخير من القرن العشرين .

وبعد العديد من المراوغات خضع ايراسمس لضغوط روما وقبل ان ينتقد لوثر . ومن جهة اخرى ، شعر بنفسه متبعداً اكثر فأكثر عن اللاهوتية الجديدة لويتنبرغ . ومع ذلك لم يظهر نفسه مستعجلاً جداً . ولم يرسل إلى المطبعة كتابه حرية التحكم De libro arbleitro المنجز في عام ١٥٢٣ إلا في شهر اب ١٥٢٤ (نشرت النسخ الأولى في ايلول) . وكان النقد في اكثريته معتدلاً ، وقد ركز ايراسمس على تأكيد لوثر بأن التحكم الحر هو في الواقع وهم . وعليه ، فإن لوثر قد كتب ، مدافعا عن اطروحاته ضد أمر الكنيسة بالحرمان : «لقد عبّرت بشكل سيء عندما قلت بأن الارادة قبل حصولها على العناية هي اسم فارغ فقط . فقد كان يجب القول بالأحرى صراحة بأن الارادة الحرة هي في الحقيقة خيال أو اسم دون حقيقة . لأنه ليس في مكنة الانسان اتمام الشر أو الخير . وكما تفسر بحق مقالة ويكليف المدانة في كونستانس : كل شيء له مكانه بضرورة مطلقة»[٦٠] .

ويحدد ايراسمس وضعه بوضوح : «باختيار حر نعرف قوة الارادة البشرية التي بها يستطيع انسان المثابرة على الاشياء التي تقود لخلاص ابدي ، أو (يستطيع) الانحراف عنها»[٦٣] .

وبالنسبة لايراسمس كانت حرية الاختيار بين الخير والشر الشرط الواجب Sinequanon للمسؤولية البشرية «اذا كانت الارادة غير حرة ، فإن الاثم لا يمكن له ان يعزى (للانسان) ، لأن الاثم لا يوجد اذا لم يكن اراديا»[٦٢] . وما هو اكثر من ذلك : اذا لم يكن الانسان حراً في اختياره ، فإن الاله سيكون مسؤولاً عن الافعال السيئة كما هو مسؤول عن الافعال الخيرة[٦٣] . وقد اصر ايراسموس في عدد من المناسبات على الأهمية الحاسمة للعناية الالهية . إن الانسان لا يساعد في خلاصه ، وانما تماما كطفل مساعد من قبل والده ، يتعلم المشي ، كذلك المؤمن يتعلم أن يختار الخير ويتجنب الشر .

ويرد لوثر في كتابه استخدام التحكم Deservo.arbitrio سنة ١٥٢٥ ، وهو مؤلف حفظ له طيلة حياته حباً كبيراً . إنه اعترف منذ البدء «بالقرف ، والغضب والاحتقار» الذي أوحى به كتيِّب ايراسمس[٦٤] . والجواب ، الأطول باربع مرات من كتاب حرية التحكم ، قد كتب بحماس وحمية ، وهو يتجاوز لاهوتيا افق ايراسمس . فينعي عليه لوثر انشغاله بالسلام العالمي . «أتريد كصانع للسلام ان تضع نهاية لمعركتنا» . الا انه بالنسبة للوثر يتعلق بـ «حقيقة جدية ، حيوية ، ابدية ، ومهما توجب ان تكون اساسية مدعومة ومدافع عنها بثمن الحياة نفسها ، حتى ولو أن العالم برمته غير ملقى في الفوضى والصراع فحسب ، وانما كان ايضاً مقطع الأوصال ومردود للفناء[٦٥] . وبعدئذ يعاود بسرعة كبرى ، الدفاع عن لاهوته ، ولكن بدعابة وسخرية .

وقد اجابه ايراسمس في كتاب كبير Hyperaspites حيث لم يخف شراسته وشعوره . ولكن المصلح لا يعير الاهتمام عن رفضه . ولم يخطيء نفسه : فالضجة ازدادت حوله ؛ وفي الواقع كانت الحروب الدينية قد بدأت .

٣٠٩ - زوينغلي - كالفان - والاصلاح الكاثوليكي .

في ١١ تشرين الاول ١٥٣١ سقط المصلح السويسري اولريش زوينغلي[٦٧] ، إلى جانب العديد من رفاقه ، في معركة كابل Kappel . ومنذ بضع سنوات ، كان قد غرس الاصلاح في زوريخ ومدن أخرى . وبفضل زوينكلي تمتعت زوريخ باحترام مساوٍ لويتنبرغ . ولكن الكانتونات الكاثوليكية المهددة بالعزلة التامة تجمعت في حملة ضد أهالي زوريخ ؛ وقد ضمن لهم النصر عددهم وتفوقهم العسكري . وقد اوقف موت زوينغلي توسع الاصلاح في سويسرا وثبّت ، حتى بداية القرن التاسع عشر ، الحدود الطائفية للبلاد . ومع ذلك استمر عمل زوينكلي وتدعم بفضل خليفته هنري بولينجر . وقد كان زوينكلي ألف عدة رسالات من بينها حول العناية الالهية providence والتعميد وسر القربان المقدس ، وان تفسير هذا الكتاب الاخير خاصة هو الذي يظهر أصولية الاصلاح السويسري . وبسبب هذا التفسير أيضاً لم يمكن له أن يحقق الاتحاد مع حركة لوثر[٦٧] .

إن زوينكلي يصر على الحضور الروحي للمسيح في قلب المؤمن المتلقي التقديس . وبدون الايمان لا قيمة للقربان المقدس مطلقا . إن العبارة : «هذا هو جسدي» يجب لها ان تفهم رمزيا ، كما لو انها تذكير بتضحية المسيح التي قوّت الايمان بالخلاص .

وكان لوثر قد غبط بحق الحريات السياسية في سويسرا . ومع ذلك ، ففي سويسرا ايضاً توجب للاصلاح الديني أن يأخذ حذره من السلطة السياسية . وقد اعتبر زوينكلي بحق ، اكثر راديكالية من لوثر . إلا أن الحرية الدينية ، في زوريخ كما في واينبرغ ، شجعت الاتجاهات الراديكالية المتطرفة . وبالنسبة لزوينكلي ، فإن المواجهة الاكثر قسوة والأكثر مدعاة للشفقة كانتت مع كونراد غريبيل مؤسس الحركة المسماة (من قبل خصومها) ضـد التعميـد . فغريبيل كان قد انكر قيمة التعميد للاطفال[٦٨] . وحسب رأيه ، ان هذا التقديس لا يمكن له ان يدار سوى للبالغين ، وبدقة اكثر ، لأولئك الذين اختاروا بحرية احتذاء حياة المسيح . وبالنتيجة فإنه كان على المهتدين ان

يعاد تعميدهم(٦٩) . وقد هاجم زوينكلي هذا المذهب في رسالات اربعة ، ولكن بدون نجاح كبير .إن أول اعادة تعميد حصلت في ٢١ يناير سنة ١٥٢٨ ، وفي اذار ، منعت السلطات المدنية هذه الهرطقة ، وقد اعدم اربعة من غير المتعمدين . وفي سنة ١٥٢٦ مات غريبيل بعد ان كان تم توقيفه قبل سنة .

وبالرغم من التعذيبات والاضطهادات(٧٠) فإن عدم التعميد انتشر بشكل واسع في سويسرا والمانيا الجنوبية بعد ١٥٣٠ . ومع الزمن ، انقسم هذا «الاصلاح الجذري» إلى عدة مجموعات ، من بينها «الروحانيون» امثال الباراسيلز وسيباستيان فرانك وفالنتين ويجل .

وكلَوثر وزوينكلي كان على جان كالفان ان يدافع عن لاهوته ضد انصار عدم التعميد(٧١) . لقد ولد في ١٥٠٩ في نويون Noyon ودرس في باريس في كلية مونتيجو (١٥٢٣ـ٥٨) وألف أول كتاب له في ١٥٣٢ (تعليق على Declementis لسينيكا) . وبعد ان عرف كتابات لوثر ، أخلى حبه للحركة الانسانية المكان للتيولوجيا . وعلى الارجح ان كلفان اهتدى في ١٥٣٣ ، وفي ١٥٣٦ التجأ لجنيف . وسمي راعي ابرشية وانضم بحماس لتنظيم الاصلاح .

ومع ذلك ، فبعد عامين ، طرد من قبل مجلس المدينة . فاستقر عندئذ في ستراسبورغ ، حيث دعاه الانساني واللاهوتي الكبير مارتان بوسر (١٤٩١ـ١٥٥١) . وفي ستراسبورغ عرف كالفان افضل فترةمن حياته. فقد تعلم كثيراً، بفضل صداقته مع بوسر ونشر في ١٥٣٩طبعة معادة من دستور الديانة المسيحية(٧٢) . l'institution dela relegion echrétienne(٧٢). وفي ١٥٢٠ تعليقاًعلى رسالة إلى الرومان . وفي سنة ١٥٤٠ ايضا ، تزوج ايدليت دي بور ارملة غير متعملة مهتدية . ومع ذلك فقد تفاقم الوضع في جنيف ، ورجاه المجلس الاقليمي ان يعود ، وبعد عشرة اشهر من التردد ، قبل كالفان ان يعود في ايلول سنة ١٥٤١ وبقي فيها حتى موته في ايار ١٥٦٤ .

وبالرغم من بعض المقاومة ، نجح كالفان في فرض مفهومه عن الاصلاح ، في جنيف : الكتاب المقدس هو السلطة الوحيدة التي تقرر في كل مسائل الايمان وتنظيم

الكنيسة . ومع ان الانتاج الادبي لكالفان يتضمن بشكل ثابت تناقضات سياسية ، وكنسية وتيولوجية ، فإنه انتاج عجيب . وهو قد حرر رسائل معتبرة تتضمن تعليقات حول العهد القديم والعهد الجديد ، وعدداً كبيراً من الرسائل والكتيبات ذات العلاقة مع مختلف مظاهر الاصلاح ، ومواعظ حول رسائل القديس بولس الخ . . . ويبقى أهم اعماله دستور الديانة المسيحية وهو مميز بكماله الادبي . وظهرت الطبعة النهائية للنص اللاتيني منه في ١٥٥٩[٧٣] .

إن تيولوجيا كالفان لا تشكل منهجاً أبداً . إنها على الاكثر مجمل تعليق على الفكر التوراتي . فكالفان يتحرى ويتأمل العهدين ، المقروئين والمفهومين مراراً على ضوء القديس اوغسطين . ويتعرف كذلك على تأثير (لوثر) ، مع ان هذا لم يذكر . ويناقش كالفان في ترتيب شخصي ، المسائل الاساسية للاهوته : معرفة الله بصفته خالقاً وربا ، والوصايا العشر والايمان (حسب رمز الرسل) ، التبرير بالايمان ومزايا الأعمال ، وسبق التقدير العناية الالهية ، والتقديستين الصحيحتين (التعميد وسر القربان المقدس) ولكن الصلاة ايضا ، وسلطات الكنيسة والحكومة المدنية . والانسان ، بالنسبة لكالفان ، لا يتوقف مطلقاً عن ان يكون مخطئاً ، فأعماله الجيدة تصبح ممكنة القبول بالنعمة الالهية فقط . ان المسافة بين الله المتصاعد (المفارق) والمخلوق يمكن الغاؤها بالوحي المحفوظ في الكتب المقدسة . مع ذلك ، لا يستطيع الانسان معرفة الله بذاته وانما فقط بصفته ان الله مظهر ذاته للبشرية . والتقديستان تشكلان الوسيلة التي يتصل بها المسيح بالمؤمن .

لقد اتفق على اعتبار كالفان كالأقل أصالة بين كبار لاهوتيي الاصلاح . لأنه سبق ، منذ التصلب العقائدي لآخرهم لوثر ، ان اضاعت الابداعية اللاهوتية اولويتها في الكنائس المعاد اصلاحها . وان ما يهم هو تنظيم الحرية الفردية واصلاح المؤسسات الاجتماعية ، بدءاً بالتعليم العام . ولقد كشف لوثر ـ وأوضح هذا المبدأ في حياته الخاصة ـ أهمية الفرد المبدع . وبأكثر من «كرامة الانسان» الممجدة من قبل الحركة الانسانية ، فإن حرية الفرد برفض كل سلطة اخرى خارج الله جعلت ممكنا ـ بعملية بطيئة من ابطال صفة القداسة ـ «العالم الحديث» كما بدا في عصر الأنوار وتأكد مع الثورة الفرنسية وانتصار العلم والتكنولوجيا .

أما بالنسبة لكالفان، فإنه لم يساهم فحسب ، اكثر من لوثر ، بالتقدم الاجتماعي والسياسي للكنيسة ، ولكنه أوضح بمثاله الوظيفة والأهمية اللاهوتيتين للنشاط السياسي . وفي الواقع ، لقد تقدم سلسلة التيولوجيات السياسية الطائفة في النصف الثاني من القرن العشرين : تيولوجيا العمل ، تيولوجيا التحرير ، التيولوجيا المضادة للاستعمار الخ . . وفي هذا المنظور ، يتكامل التاريخ الديني في اوروبا الغربية بعد القرن السادس عشر بالأولوية في التاريخ السياسي والاجتماعي ، والاقتصادي والثقافي للقارة .

إن الاصلاح الأخير الهام ، ذلك الذي حصل في مجمع ترانت (١٥٤٥-١٥٦٣)[٧٤] معقد جداً . واصلاح ترانت هذا بدأ متأخراً ومعاقاً بانتشار الحركات الانجيلية ، وهو يتطور تحت ضغط التاريخ المعاصر ويتابع بصورة خاصة تدعيم السلطة السياسية للمقر المقدس ، ومع ذلك ، فإن عدداً من اللاهوتيين والاعضاء الأعلين في التراتبية كانوا طالبوا منذ فترة سابقة ، باصلاحات حقيقية ، وبدئياً بتجديد سلطات البابا واحياء سلطة الاساقفة . وقبل بضع سنوات من افتتاح مجمع ترانت ، وتحت الحاح الامبراطور شارلكان ، كان هنالك مجال في ريجنسبورغ ، في نيسان ١٥٤١ ، لمناقشات بين اللاهوتيين البروتستانت (من بينهم بوسر وميلانكتون) واللاهوتين الكاثوليك (جون ايك وغروبر الخ . . .) . وفي بضعة اسابيع ، اتفق الطرفان على بعض المسائل الاساسية (على سبيل المثال ، طبيعة الانقاذ بصفته «تبريراً مزدوجاً») .

ومما يؤسف له ان المجمع جعل مثل هذا التقارب غير مجدٍ . فقد كان البابا ومستشاروه الجزويت مشغولين باصلاحات من شأنها أن تحول ، في البلدان الكاثوليكية ، دون ظهور لوثر وزوينكلي وكالفان جدد . وكان دستور المجمع يقوم على ان اطروحات البابا وحده هي التي كان من الممكن قبولها . وكما كان متنظراً ، فإن الاتجاه الرجعي قد انتصر . مع ذلك ، فإن المجمع أعاد قيام سلطة الاساقفة «على شرط السكني في اسقفياتهم» وعارض بحماس ضد لاأخلاقية وخدانة الكهنة ، واتخذ مقررات هامة ، فيما يتعلق بالتعليم اللاهوتي لرجال الدين الخ . . واضافة إلى ذلك ، فإن المجمع شجع ترميمات النظام الطقوسي المؤهل لارضاء حاجة اللاييك بحياة دينية اكثر رسمية .

وان ما يدعى بالكاثوليكية الماقبل التثليثية هي في جزء منها النتيجة لمثل هذه الاجراءات التطهيرية ولكنها ايضاً من عمل بعض كبار الصوفيين والرسل . ان تقليد صوفية القرون الوسطى والورع الحديث عرف انطلاقة جديدة مع القديسة تريزا دافيلا (١٥٤٢-٨٢) والقديس يوحنا الصليبي (١٥٤٢-٩١) . وان التجربة الصوفية الموحدة المعلنة من قبل القديسة تريزا بعبارة الزواج بين الروح ويسوع ، حصلت على تقدير استثنائي[٧٥] . رغم شكوك التفتيش ، ولكن اغناطيوس دي ليولا (١٤٣١- ١٥٩٦) مؤسس رهبانية اليسوعيين ، الذي أسهم في النجاح - الخلقي والديني والسياسي - ضد الاصلاح .[٧٦] . فمع انه كان يوجد تجارب صوفية ، التي تكلم عنها ، فتلك كانت الرسالة «التأمل في العمل» ، حسب عبارة شهيرة ، كان قد اختارها اغناس دي ليولا . وانه بدئياً بالنسبة لأعماله - ملاجىء ايتام - مأوى لقدامى العاهرات ، مدارس ثانوية ومعاهد ، ارساليات إلى القارات الثلاث الخ . . . كان قد نظر إليه باعجاب .

ويمكن تلخيص مذهب دي ليولا كما يلي : طاعة مطلقة لله ،وبالتالي لممثله على الأرض ، الحبر الأعظم والرئيس العام للرهبانية ، واليقين بأن الصلوات ، والتأمل والقدرة على التمييز التي تنتج من ذلك ، يمكن لها ان تغير الشرط البشري ، والثقة بأن الله يشجع كل جهد باهداء البشر ، وكذلك اذن الجهد بهدف التحسن الذاتي ، والتأكيد بأن صالح الاعمال وبصورة خاصة اعمال المشاريع لمساعدة المحتاجين هي مرضي عنها من قبل الرب .

وبمقارنة تيولوجيا اغناس بتيولوجيات لوثر وكالفان تبدو الأولى متفائلة ، الأمر الذي أمكن له ان يفسر بالتجارب الصوفية لايغناس ، تجارب وجهت ايضاً طريقته بالتأمل مما للوظيفة وللقيمة الموجهتين للعمل . فالطاعة العمياء لممثل الله على الأرض تخالف أصلها الصوفي ؛ ويمكن مقارنتها بتمجيد الامام (ف ٢٧٣ع) والمعلم الروحي في الهندوسية ؛ فهنالك ايضا برر هذا التمجيد بتيولوجيا صوفية .

إن العبقرية الدينية لايغناس دي ليولا تفسر بخاصة في تمارينه الروحية ، رسالة قصيرة بدأ تأليفها بعد تبصره الصوفي الأول، في مانيز بالقرب من مونتسيرا. وهي تتعلق بموجز عملي ، يدل يوما فيوماً ، على الصلوات والتأملات المفيدة لذلك (ليس من

الضرورة ، عضوا من الرهبانية) الذي يمارس اعتزالاً لأربعة اسابيع . وهذا المؤلف يحتوي ويحدد تقليداً تأملياً قديما ومسيحياً . حتى الممارسة الشهيرة للاسبوع الأول ، والجهد للتخيل ليؤلف بطريقة ملموسة وحيَّة منظراً أو مشهداً تاريخياً ، له مقدمات في القرن الثاني عشر . ولكن اغناس يطور الطريقة لهذا التصور مع دقة تذكر ببعض الصياغات التأملية الهندية . ان المعتزل يتعلم اضفاء القداسة على الحيِّز الذي يوجد فيه ، بالقائه له بقوة التخيل في الفضاء حيث يجري في الحاضر التاريخ المقدس . ويتوجب عليه رؤية اورشليم القديمة ليسوع المسيح ويتابع ببصره العذراء ويوسف في الطريق نحو بيت لحم وهكذا دواليك . حتى عندما يأكل ، يستطيع ان يرى بأنه يأكل مع الرسل .

وما تتوجب الاشارة إليه ، هو الدقة والصرامة في الممارسات الروحية ، فكل اندفاع تعبدي مراقب بعناية . والتطهير المتزايد للمعتزل لا يهيء ابداً وحدة صوفية . والهدف من الاعتزال هو تكوين رياضات athlètes روحية ـ وارسالها في العالم .

٣١٠ ـ انسانية ، افلاطونية ـ محدثة وهرمسية طيلة عصر النهضة .

عهد كوزمودي ميديتشي إلى الانساني الفلورنسي الكبير مارسيليو فيسينو (١٤٣٣-١٤٩٩) ترجمة مخطوطات افلاطون وافلوطين التي كان جمعها خلال العديد من السنوات . مع ذلك ، وحوالي سنة ١٤٦١ ، اشترى كوزمو مخطوطاً للمجموع الهرمسي وطلب إلى فيسينو ليقدم له مباشرة ترجمة لاتينية . في هذه الاثناء ، لم يكن بعد فيسينو قد بدأ بترجمته لافلاطون ، فوضع المحاورات جانبا وكرس نفسه بكل سرعة لترجمة الرسائل الهرمسية . وفي ١٤٦٣ ، لسنة ، قبل موت كوزمو تمت هذه الترجمات . وهكذا كان المجموع الهرمس Corpushermeticus أول نص اغريقي ترجم ونشر من قبل مارسيل فيسين[٧٧] الأمر الذي يظهر الاحترام لهرمس مثلث الحكمة Hermès Trismégiste المعتبر كمؤلف للرسائل الهرمسية (ف ٢٠٩ع) .

لقد لعبت الترجمات اللاتينية لفيسين ، وبخاصة المجموع الهرمسي ، وافلاطون وافلوطين ـ دوراً هاماً في التاريخ الديني لعصر النهضة : فهي قد حققت انتصارا

للافلاطونية المحدثةفي فلورنسا، واثارث فائدةمولعة بالهرمسيةفي كل اوروباتقريبا.
وكان الانسانيون الايطاليون الأول ـ من بيترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) إلى لورنزوفالا (١٤٠٥-١٤٥٧) قد افتتحوا آنفا توجها دينياً جديداً . برفض التيولوجيا السكولاستيكية والرجوع إلى آباء الكنيسة . وقدر الانسانيون أنهم بصفتهم مسيحيين لاييك وكلاسيكيين ممتازين يستطيعون الدراسة والمقارنة بشكل أفضل من رجال الدين للعلاقات بين المسيحية من جهة والمفاهيم الماقبل المسيحية المتعلقة بالألوهة والطبيعة البشرية من جهة اخرى . وكما لاحظ شارل ترينكوس فإن هذا التقييم الجديد للانسان المنتصر ليس هو بالضرورة من أصل وثني ؛ إنه بالأولى ملهم بالتقليد الوطني[٧٨] .

ومع الافلاطونية المحدثةالمطروحةعلى الشعب من قبل فيسين ودبيكو ديلاميرا ندولا (١٤٦٣-١٤٩١) وايميدو دي فيستربوا (١٤٦٩-١٥٣٢) كسب تمجيد الشرط الانساني بعداً جديداً ، وانما بدون التنازل مطلقاً عن النصوص المسيحية . فالله في خلقه للعالم ، أعطى للانسان السيادة على الأرض ، وكان ذلك «عبر أعمال الانسان بصفته الها على الأرض وان العمل الخلاق للتاريخ والحضارة يجب لها ان تنجز»[٧٩] .
ولكن تعظيم الانسان ، اتجاه مميز للانسانيين ، مستوحى منذئذ اكثر فأكثر من الافلاطونية المحدثة الماقبل المسيحية ومن الهرمسية .

وبكل وضوح ، ان فيسين وبيك دولاميراندولا لم يكن لديهما شك بالنسبة لأصولية ايمانهما . وقد سبق في القرن الثاني ، ان المنافح عن الدين (لاكتانس) كان قد اعتبر هرمس مثلث الحكمة ، حكيما ملهماً من قبل الله ، وانه فسر بعض النبوأت الهرمسيةكما لو أنها أكملت بولادةيسوع المسيح ، وقد عاد مارسيل فيسين وأكد هذه النغمة بين الهرمسية والسحر الهرمسي من جهة والمسيحية من جهة ثانية . واعتبر (بيك) ان ماجيا وقابالا أقرتا الوهية المسيح[٨١] . وان العقيدة العالمية في لاهوت قديم محترم prisculheologia وفي «اللاهوتين القدامى المشهورين» ـ زرادشت ، وموسى ، وهرمس مثلث الحكمة ، وداوود ، واورفيه ، وفيتاغورس ، وافلاطون ـ عرفت الآن طوفانا استثنائيا .

ويمكن ان نتبين في هذه الظاهرة عدم الرضى العميق المتخلف من قبل السكولاستيك والمفاهيم القروسطية للانسان والعالم ، وردة ضد ما يمكن تسميته مسيحية

(اقليمية provincial) ، أي غربية صرفة ، كذلك الالهام بديانة عالمية عبر التاريخ وبدئية . وقد كان بيك تعلم العبرية لكي يتعلم أصول القبالة ، كشف هو في رأيه يسبق ويفسر العهد القديم ، وقد أمر البابا الكسندر السادس برسم لوحة جدارية fresque في الفاتيكان غنية بصور ورموز هرمثية اي (مصرية) . فمصر القديمة ، وبلاد فارس ، والاسطورة الزرادشتية ، و(المذهب السري الأورفية ، كلها تكشف (اسراراً) تتجاوز حدود اليهودية ـ المسيحية والعالم الكلاسيكي المعاد اكتشافه حديثا من قبل الانسانيين .) وهو يتعلق ، في الواقع ، باليقين بإمكانية اعادة وجود الكشوفات الأولية لمصر وآسيا والتي يمكن اظهار تضامنها ومصدرها الوحيد . (يصادف ذات الحماس وذات الأمل ، مع انه في علاقات اكثر تواضعاً ، في القرن التاسع عشر ، بعد اكتشاف السنسكريتية وأولية الفيدا والاوبانيشاد) .

لقد لازمت الهرمسية ، خلال ما يقرب من عصرين ، مالا يحصى من اللاهوتيين والفلاسفة ، سواء مؤمنين أو غير مؤمنين . واذا كان جوردانو بردنو (١٥٤٨-١٦٠٠) قد استقبل بحماس بالغ اكتشافات كوبرنيك ، فذلك لأنه فكر بأن المركزية الشمسية l'héliocentyrisme كان لها دلالة دينية عميقة وسحرية . وفي حين وجوده في انجلترا تنبأ برونو برجوع عاجل للدين السحري لقدامى المصريين كما كان موصوفاً في الاسكليبيوس l'asclepius . وكان جوردا نوبرونو قد شعر بنفسه اسمى من كوبرنيك لأنه في حين ان هذا الأخير لم يفهم نظريته الخاصة الا بصفته رياضيا ، فإن برونو استطاع تفسير المخطط الكوبرنيكي كأنه الكتابة الهيروغليفية للاسرار الالهية[٨٣] .

غير ان جوردانو برونو تابع هدفاً مختلفاً : فقد طابق هرمس مع الديانة المصرية ، معتبرا كأنه الاكثر قدما وبالنتيجة كان بنى عالميته الدينية على دور السحر المصري ، وعلى العكس فإن عدداً من المؤلفين في القرن السادس عشر ترددوا في اللجوء إلى السحر الهرمسي ، الذي كان معتبرا آنئذ هرطقة . وتلك كانت حالة لوفيفر ديمتابلس (١٤٦٠-١٥٣٧) ، الذي ادخل الهرمسية إلى فرنسا : فقد فصل الكثير من المجموعة الهرمسية عن رسالة اسكليبيوس Asclepius . والافلاطوني المحدث سمفوريان شامبيه (١٤٧٢-١٥٣٩) حاول أن يظهر ان كاتب المقاطع السحرية من الاسكليبوس لم يكن هرمز وانما أبوليه Apulée[٨٤] ، وفي القرن السادس عشر في فرنسا كما هو الأمر في أي

مكان من أوروبا ، أخذت القيمة المثالية للهرمسية ، بدئيا ، وبخاصة لعالميتها الدينية ، القابلة لانعاش السلام والوفاق ، وبحث الكاتب البروتستانتي فيليب دي مورني في الهرمسية عن وسيلة للخلاص من أهوال الحروب الدينية . وفي كتابه عن حقيقة الدين المسيحي (١٥٨١) يذكر مورني بأن هرمس يرى «ان الله واحد [. . . .] وله وحده ينتمي اسم الأب والابن [. . . .] وحده وله ينتمي الكل ؛ بدون اسم ، وافضل كل الاسماء»[٨٥] .

وكما كتب ج ـ واجن «هذا التأثير للهرمسية قد مسَّ البروتستانت والكاثوليك ؛ مفضلا لدى البعض والبعض الآخر ، الاتجاهات الأكثر سلمية iréniques»[٨٦] . إن الديانة المحترمة المكتشفة من قبل هرمس والمقسمة في البدء بين البشرية بكاملها ، استطاعت ، حتى يومنا اعادة اقامة السلام العالمي والاتفاق بين مختلف الطوائف . وفي مركز هذا الكشف توجد (الوهية) الانسان ، الكون الأصغر microcosme الذي هو تخليق كل الخليقة . «الكون الأصغر هو الهدف الغائي للكون الاكبر macrocosme في حين ان الكون الاكبر هو مقر الأصغر [. . .] . الأكبر والاصغر هما مرتبطان تماما فيما بينهما بحيث ان أحدهما هو دوما حاضر في الآخر»[٨٧] .

ان العلاقة ، الاكبر ـ الاصغر كانت معلومة في الصين وفي الهند القديمة واليونان . ولكنها وجدت لدى بارسيلز وتلامذته بصورة خاصة حيوية جديدة[٨٨] . فقد جعل الانسان من الممكن الاتصال بين الاقاليم السماوية والعالم الأعلى من العالم القمري . وفي القرن السادس عشر تمثل الفائدة بالنسبة للسحر الطبيعي جهداً جديداً بهدف تقريب الطبيعة من الديانة . ان دراسة الطبيعة شكلت في الواقع بحثاً لفهم الله بشكل أفضل وسنرى التطور العظيم لهذا المفهوم .

٣١١ ـ تقييمات جديدة للكيمياء : من باراسيلز لنيوتن

كما سبق وذكرنا ، فإن الترجمات اللاتينية للمؤلفات الكيميائية المحفوظة أو المؤلفة في اللغة العربية ترجع في تاريخها إلى القرن السابع . ومن بين الأكثر شهرة منها التابو

لاسمارقدينا Tabule Smaragdina المنسوبة لهرمس ، المتمتعة بتقدير بارز ، ففي هذا الكتاب توجد الصيغة الشهيرة التي توضح التضامن بين الهرمسية والكيمياء : «كل ما هو في الأعلى هو مثل كل ما في الأدنى ، وكل ما هو في الادنى هو مثل كل ما هو في الأعلى بهدف اكمال اعجوبة الوحدة» .

ولقد اتبع الكيميائيون الغربيون السيناريو ،! المعروف سابقاً في العصر الهللنستي (ف ٢١١ع) للمظاهر الاربعة لعملية التحول ، أي للحصول على حجر الفلسفة .

ان المظهر الأول (النغريدو la nigredo) ـ الارتداد لحالة الميوعة للمادة ـ يناسب «الموت» للكيمياء . وحسب باراسيلز ، «ان من يريد الدخول للملكوت الله يجب اولاً الدخول مع جسده في أمه ويموت هنالك» . الأم هي المادة الأولى ، الكتلة المختلطة ، الأبيسوس[٨٩] . la prim a materia,la massa confusa l'abyssus وبعض النصوص تشير إلى التزامن synchromisme بين القطع الكيميائي l'opus alchymicum والتجربة الصحيحية للمريد l'adepte . «الاشياء ترجع تامة بأمثالها ، ولأجل هذا فإن على الصانع ان يساهم في العملية»[٩٠] . «تحولوا انتم من حجارة ميتة إلى حجارة فلسفية حية» ذلك ما كتبه دورن Dorn . وحسب جيشتل Gichtel «لا نتلقى ابداً روحاً جديدة فحسب مع هذا التجديد ، وانما ايضاً جسداً جديداً . هذا الجسد مستخرج من كلمة الهية أو من الحكمة السماوية» . إنه لا يتعلق ابداً بعمليات مخبر فقط ، فهذا قد ثبت بالتأكيد على فضائل وصفات الكيميائي : فهذا يجب ان يكون طاهرا ، متواضعا ، صبوراً ، نقيا ، ويجب ان تكون لديه الروح الحرة والمنسجمة مع العمل ؛ ويجب عليه في آن واحد ان يعمل وان يفكر ويتأمل الخ . . .

وفي موضوعنا ، سيكون من غير المفيد ، تلخيص المظاهر الأخرى للكتلة l'opus . ولنلاحظ مع ذلك ، الصفة المتناقضة للمادة الأولى وحجر الفلسفة . وحسب الكيميائين ان الأولى والأخرى توجدان في كل مكان وتحت كل الاشكال ، وهي معينة بمئات المصطلحات . ولكي لا نذكر سوى نص واحد لعام ١٥٢٦ ، فإن الحجر «مألوف

لكل الناس شبابا وشيوخا ، انه يوجد في البرية ، والقرية ، والمدينة وفي كل الاشياء والمخلوقة من قبل الله ؛ ومع ذلك فهي موضع ازدراء من قبل الجميع . الاغنياء والفقراء يستعملونها كل يوم . انها ملقاة في الشارع من قبل الخدم . والاطفال يلعبون بها . ومع ذلك لا أحد يتفحصها ، مع انها بعد الروح الانسانية ، الشيء الاكثر عجبا والأكثر قيمة ثمينة على الأرض» . واحتمالا ان هذا يتعلق «بلغة سرية» التي هي في آن واحد التعبير عن التجارب الغير ممكن نقلها من جهة اخرى بترجمة اللغة اليومية ، واتصال سري بمعنى خفي للرموز .

فالحجر يجعل من الممكن تطابق الاضداد[٩١] ، وهي تطهر و«تكمل» المعادن . والكيميائيون العرب هم الذين اضفوا على الحجر الفضائل العلاجية ، وبواسطة الكيمياء العربية وصل مفهوم الاكسير الحيوي إلى الغرب . وقد تكلم روجيه باكون عن «معالجة تزيل عدم نقاوة وكل شوائب المعدن الخسيس» والذي يمكنه تحديد العمر البشري لعدة قرون . وحسب ارنولد دي فيلانوفا ، فإن الحجر يشفى كل الأمراض ويعيد إلى الشيوخ شبابهم .

وفيما يتعلق بالتحول وانتقال المعادن إلى ذهب ، المؤكدة فيما سلف في الكيمياء الصينية (ف ١٣٤ع) فإنه يعجل بالايقاع الزمني ويسهم اذن في عمل الطبيعة ، وكما جاء في كتاب «المجموع الكامل la Summa perfextionés» وهو كتاب كيميائي من القرن الرابع عشر «مالا تستطيع الطبيعة ان تتمه في حقبة طويلة من الزمن ، نستطيع اكماله في قليل من الوقت بفننا» .

ان ذات الفكرة معروضة من قبل بن جونسون في مسرحيته الكيميائي (فصل ٢ مشهد ٢) اذ يؤكد الكيميائي ان «الرصاص وغيره من المعادن ، ستكون من الذهب اذا توفر لها الوقت لتصبح ذلك» وتضيف شخصية أخرى : «وان هذا ما يحققه فننا» . وبعبارات أخرى ، ان الكيميائي يبدل بالزمن . . .[٩٤] .

إن مبادىء الكيمياء التقليدية ، بمعنى نمو التعدين وتحول المعادن ، والاكسير والالتزام بالسر ، لم تعارض في عصر النهضة والاصلاح[٩٥] . ومع ذلك فإن افق

الكيمياء القروسطية تغير تحت صدمة الافلاطونية المحدثة والهرمسية . وقد نال اليقين بقدرة الكيمياء على مضاعفة عمل الطبيعة دلالة مسيحية . وقد أكد الكيميائيون آنئذ بأنه تماما كما ان المسيح افتدى الانسانية بموته واضطهاده فإن الكتلة الكيميائية يمكنها ضمان الخلاص للطبيعة . وقد شابه أحد مشاهير الهرمسية من القرن السادس عشر (هنريش كونرات) حجر الفلاسفة مع يسوع المسيح «الابن الاكبر le fils macroseme» ، وفكر اضافة إلى ذلك بأن اكتشاف الحجر سيرفع القناع عن حقيقة طبيعة الكون الأكبر ، كذلك فإن المسيح قد منح الطوبى الروحية للانسان أي الكون الاصغر . وان الاعتقاد الراسخ بمكنه الكيمياء انقاذ الانسان والطبيعة معا مدد والحنين لتجديد جذري ، وهو حنين لازم المسيحية الغربية منذ جيوشام دي فلور .

وكان جون دي (المولود سنة ١٥٢٧) والكيميائي الشهير، والرياضي والموسوعي ، قد اقنع الامبراطور رودولف الثاني بأنه امتلك سر التحول ، وكان يقدر ان اصلاحاً روحانيا للانفراج العالمي يمكن اتمامه بفضل قوى مطلقة بواسطة (العمليات السرية) وفي المكان الأول منها العمليات الكيميائية[٩٦] . كذلك فإن الكيميائي الانكليزي الياس اشمول قد رأى في الكيمياء علم التنجيم وسحر الطبيعة «المخلص» لكل العلوم .

وفي الواقع ، وبالنسبة لانصار بارسيلز وفان هيلموت ، فإنه يمكن فهم الطبيعة بدراسة «الفلسفة الكيميائية» أي «الكيمياء الجديدة» أو العلاج الحقيقي[٩٧] . وقد كانت الكيمياء وليس التنجيم ، هي التي شكلت المفتاح المؤهل لحل مغاليق الاسرار في السماء والأرض . وبما ان الخلق كان مفسراً كعملية كيميائية ، فإن الظواهر السماوية والأرضية يمكن لها ان تفسر بعبارات كيميائية . ومع الأخذ في الحسبان علاقات الأكبر ـ الاصغر ، فإن «الفيلسوف ـ الكيميائي» يستطيع ان يضبط appréhender أسرار الأرض وكذلك الاجرام السماوية . وهكذا قدم روبرت فلود وصفا كيميائيا لدورة الدم مقتفية الحركة الدورية للشمس[٩٨] .

وكالعديد من معاصريهم ، فإن الهرمسيين و«الفلاسفة الكيميائيين» انتظروا ـ والبعض من بينهم اعدله بحماس كبير ـ اصلاحاً عاماً وجذريا لكل المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية . وقد كانت المحطة الأولى التي لا مندوحة عنها لهذا التجديد

العالمي هي اصلاح العلم . وقد أوجب كتاب صغير مجهول Fama Fratermitatis منشور في ١٦١٢ نموذجاً جديداً للتعليم . وكشف هذا المؤلف وجود جمعية سرية هي «الصليب الوردي» ، ومؤسسها الاسطوري كرستيان روزن كروت كان اتقن «الاسرار الحقيقية للطب» وانطلاقاً من ذلك كل العلوم الاخرى : وكتب فيما بعد عدداً من الكتب ، غير ان هذه المؤلفات كانت مقبولة حصراً لاعضاء التنظيم الروزيكروسياني Rosicrucièn(٩٩) . وقد كان مؤلف فاما فراتر نيتانيس المشار إليه توجه الى كل علماء اوروبا طالبا إليهم الانضمام إلى الأخوة لاكمال اصلاح المعرفة ؛ وبعبارات أخرى لكي يُسرِّعوا في تجديد العالم الغربي . وقد كان لهذه الدعوة صداها المنقطع النظير . فبأقل من عشر سنوات نوقش المنهاج الموضوع من قبل الجمعية السرية للصليب الوردي في مئات متعددة من الكتب والكراريس .

ونشر جوهان فالنتان اندرياس المعتبر من بعض المؤرخين كمؤلف لكتاب فامافراترنيتاتيس في ١٦١٩ كتابا اسمه المدينة المسيحية (كريستيان بوليس) المؤلف الموحي ، على الارجح ، لباكون بكتابه ، اطلانطيس الجديدة(١٠٠) . وقد اقترح اندرياس دستوراً لجماعة العلماء ، بهدف احياء طريقة جديدة للتعليم مبنية على «الفلسفة الكيميائية» . وفي يتوبيا المدينة المسيحية ، كان مركز الدراسات هو المخبر : هنالك «تزوجت السماء والارض» و«اكتشفت الاسرار الالهية التي طبعت وجه البلاد»(١٠١) ومن بين كبار المعجبين باصلاح المعرفة المطلوبة بالفاما فراتيريتيس وجد روبرت فلود عضو الكلية الملكية للفيزيائيين ، وكان هذا ايضاً تلميذاً متحمساً للكيمياء السرية . وقد اعتمد فلود بأن من غير الممكن تطويع الفلسفة الطبيعية بدون دراسة معمقة للعلوم السرية . وبالنسبة لفلود فإن «الطب الحقيقي» كان الأساس حتى للفلسفة الطبيعية . ان معرفة الكون الاصغر أي الجسم البشري - تكشف لنا بنية العالم وتنتهي لتوصلنا لقرب الخالق . واضافة لذلك ، بمقدار ما نعرف العالم اكثر ، بمقدار ما نتقدم اكثر في معرفة الذات(١٠٢) .

وحتى وقت قصير ، لم يكن يشك ابداً بدور نيوتن في هذه الحركة العامة الهادفة لتجديد الدين والثقافة الأوروبيتين ، بواسطة تركيب جريء للتقاليد السرية والعلوم الطبيعية ، صحيح ان نيوتن لم يعلن أبداً نتائج تجارية الكيميائية ، مع انه أعلن ان

بعضها قد كلل بالنجاح . وقد اتيح لمخطوطاته الكيميائية العديدة المجهولة حتى عام ١٩٤٠ أن تحلل بدقة من قبل البروفيسور بيتي تيتر دوبوس في كتابه اساس الكيمياء النيوتونية (١٩٧٥) . وقد أكد البروفيسور دوبوس ان نيوتون جرب في مخبره العمليات الموصوفة بما لا يحص من المؤلفات الكيميائية «في مقياس لم يدرك لا قبله ولا بعده» . وقد أمل نيوتن ، بمعونة الكيمياء ، اكتشاف بنية الميكرو . الشامل micro-Univer بهدف ان يقارن بمنظومته الكوزمولوجية . ولم يرضه بما فيه الكفاية اكتشاف مركز الثقل ، أي القوة التي تمسك الاجرام في مداراتها . ولكنه بمقدار ما تابع بدون كلل التجارب من ١٦٦٩-١٦٩٦ ، فهو لم ينجح لمضاهاة القوى التي حكمت الجسيمات . وعلى كل حال ، عندما بدأ في ١٦٧٩-١٦٨٠ دراسة ديناميكيا الحركة الفلكية ، طبق على الكون مفاهيمه «الكيميائية» للجاذبية[١٠٣] .

وكما عرض ميغوير وراتانسي ، فقد كان نيوتن مقتنعا انه ، في البدء ، «أوصل الله لبعض المتميزين اسرار الفلسفة الطبيعية والدين . وقد ضاعت هذه المعرفة فيما بعد ، واعيد استردادها بعدئذ ، وعندئذ تجسدت في خرافات وصيغ اسطورية ، حيث بقيت مستترة لغير متلقي الاسرار . غير ان هذه المعارف يمكن ان تكتشف في زمننا بالتجربة وبطريقة اكثر دقة»[١٠٢] . ولهذا السبب ، فإن نيوتن تفحص بصورة خاصة الأقسام الاكثر باطنية للآداب الكيميائية ، آملاً ان هذه الاقسام كانت تحتوي على الحقائق السرية . ومما له دلالته ان مؤسس الميكانيك الحديث لم يرفض التقليد لكشف بدئي وسري ، كذلك لم يرفض مبدأ التحول . وكما كتب في (الضوء Opticko) ١٧٠٤ «ان تغير الاجسام إلى نور والنور إلى جسم ، يتوافق تماما مع قانون الطبيعة ، لأن الطبيعة تبدو مشحونة . . بالتحول . .» وحسب دوبوس «فإن الفكر الكيميائي لنيوتن كان مؤسساً بقوة بحيث لم ينكر ابداً صحته العامة .وفي معنى آخر ، كل مجرى حياة نيوتن بعد سنة ١٦٧٥ يمكن تفسيره كجهد طويل بهدف تكامل الكيمياء والفلسفة الميكانيكية» .

وبعد نشر المباديء des principia كان الخصوم قد حرصوا بأن (les forces) (القوى) لنيوتن كانت في الحقيقة «نوعيات سرية» . وقد اعترف البروفسور «دوبس» ، بأن لهذه الانتقادات سببها ولها منطقها : «قوى نيوتن كانت تشبه كثيراً التجاذبات

والتنافرات المستورة ، التي تكلم عنها الأدب ، السري لعصر النهضة» . مع ذلك اعطى نيوتن للقوى نظاما انطولوجياً معادلاً لنظام المادة والحركة . وبفضل هذا التشابه المدعم بتحديد كمية الأصول ، سمح للفسفة الميكانيكية ان ترتفع فوق مستوى التصور . وبتحليل المفهوم النيوتوني للقوة توصل ريتشارد ويستغول إلى نتيجة ان العلم الحديث هو النتيجة لزواج التقليد الهرمسي والفلسفة الميكانيكية(١٠٥) .

إن العلم الحديث في انطلاقه الاستعراضي تجاهل تراث الهرمسية . وبعبارة أخرى ، ان انتصار ميكانيك نيوتن انتهى بالغاء مثله الأعلى العلمي الخاص . وفي الواقع ان نيوتن ومعاصريه انتظروا نموذجاً مختلفاً جداً من الثورة العلمية . وبتمديد وتطوير الأمال والاهداف للكيميائيين ـ الجدد لعصر النهضة ـ وفي المكان الأول الغفران للطبيعة ، فإن عقولاً مختلفة عن باراسليز ، وجولادي كومينيوس و ج. ف ـ اندريا وفلود ونيوتن رأت في الكيمياء المثال لمشروع ليس أقل طموحاً ، وبخاصة كمال الانسان بطريقة جديدة من المعرفة . وفي منظورهم ان مثل هذه الطريقة يجب ان تتكامل في مسيحية غير طائفية ، التقليد الهرمسي والعلوم الطبيعية ، أي الطب والفلك والميكانيك . وهذا التركيب شكل في الواقع ابداعاً مسيحياً جديداً ، قابلا للمقارنة بالنتائج المثيرة المتحصلة بالتكامل السابق للافلاطونية والارسطوطالية والافلاطونية المحدثة . وهذا النسق من المعرفة المحلم به والمعلن والمقام جزئياً في القرن الثامن عشر ، يمثل المشروع الأخير المجرب في أوروبا المسيحية بهدف الحصول على «المعرفة الشاملة» .

حواشي الفصل الثامن والثلاثون

١ ـ خاصة ، في تاريخ الأديان فصل ٧ ، ٨ ـ٩
٢ ـ ح. س لاوسون ـ الفولكلور الحديث في اليونان والدين الاغريقي القديم
٣ـ٤ الطقوس الشعبية في تراقيا ـ روميو .
٥ ـ هومر والملحمة الشعبية الرومانية س. بوغهير
٦ ـ شميدت . . .
٧ ـ تستعمل بخاصة الوثائق الفولكلورية الرومانية وانما مع الفوارق ، ويوجد ذات السيناريو في كل مكان من اوروبا الشرقية ـ الياد ـ تاريخ الاديان ـ شعبية متاتانية
٨ ـ اسطورة الرجوع الابدي ـ الياد .
٩ ـ يسمون عهد الاوكرانيين (الخدم الصغار لله)
١٠ ـ ١١ ـ حول هذه القاعدة الفولكلورية ـ انظر من زالموسكي لجنكيز خان ـ الياد .
١٢ ـ ١٣ ـ في بعض الروايات الأخرى ان الشجرة الكونية هي في وسط البحر أو على الشاطىء المقابل .
١٤ ـ يضاف الى ذلك انه تحت ادارة امرأة عجوز ، يجتمع المجمع الاحتفالي من الصبايا دوريا ويتلقى التعليم التقليدي المتعلق بالجنسية ، الزواج الشعائر الجنائزية ، اسرار النبات الطبي (مونيكا براتوبسكو) .
١٥ ـ ١٦ ـ اسماء المراجع
١٧ ـ يضيف الأمير دويمتري كونتمير بعض المعلومات ذات الدلالة والتي لم يصادق على بعضها الا في القرن التاسع عشر وحسب المؤلف فإن الكالوساري يتكلمون بصوت نسائي ويغطون وجوههم بقماش ناعم من الكتان لكي لا يعرفهم أحد ، ويعرفون اكثر من ١٠٠ رقصة مختلفة ، بعضها عجيب بحيث ان الراقصين يظهرون وكأنهم لا يمسون الأرض «كما لو انهم

يطيرون في الاجواء» ان الكالوزاري ينامون فقط في الكنائس ، لكي لا يعذبون من قبل الجنيات . Zin

١٨ ـ يعالج المريض بالاعشاب وينثر الثوم على وجهه ويكسر قنينة ماء ويضحي بدجاجة سوداء .

١٩ ـ انظر (ملاحظات حول الكالوزاري ، وتاريخ الاديان الشعبية)

٢٠ ـ ٢٢ ـ اسماء المراجع المعتمدة الكثيرة .

٢٣ ـ ٢٤ ـ لأجل ، استخراج ومنهم الظاهر ، جرى تحليل بعض الامثلة والوثائق الفولكلورية الرومانية كثيرة

٢٥ ـ ٢٩ ـ اسماء المراجع ـ المعتمدة

٣٠ ـ ليس الا في ١٥٣٢ ان بعض اتباع ديانا اقروا تحت التعذيب ، بأنهم دنسوا الصليب والمقدسات ـ انظر الوثائق التي ذكرها جميز بنورح)

٣١ ـ ٣٣ ـ ذات المرجع

٣٤ ـ ذات المراجع ومع ذلك وفي فترة متأخرة في ١٦٦١ فإن البيندانتي كانت لديهم الشجاعة ليعلنوا بأنهم قاتلوا من أجل الدين المسيحي ضد الستريغوني . . وقد وجد ج.ب روسيل في ميلان بعض الآثار لمعتقدات مشابهة للبيندانتي .

٣٥ ـ ٣٦ ـ جيزنبسرع .

٣٧ ـ حول الستريفوا انظر الوثائق الفنية المجمعة من قبل اوفيد بيرليا ـ بوخارست . وأقل شيوعاً هي العقيدة التي كان الستريغوا الموتى يدهنون بدهان خاص ويذهبون بالمدخنة فيما مكانوا ينقاربون فيما بينهم بذات السلاح مع الاحياء . . وكما في الكثير من المعتقدات الشعبية الاخرى في اوروبا فإن القوم يعتبر كأحسن دفاع ضد الستريغوا الاحياء والموتى . . وفي كتاب الكوركتور لبوشارد من القرن الثاني دفاع من الاعتقاد بأن بعض النسوة يدعين انهن خرجن في الليل من الابواب المغلقة وطرن للغيوم للقتال» . . ولكنه لا يعرف ضد من قاتلت هؤلاء النسوة

٣٨ ـ الاسم لجماعة خاصة من الجن . . وهو مشتق على الأرجح من اللاتينية حان وتاديان . . وهي جنيات يقظات تعطين اسمهن للعيد الهام للقديس يوحنا المعمدان .

٣٩ ـ في تحليل أخير ، ان السيناريو المحدث بواسطة الكالوزاري يقتضي ازابة الافكار والتقنيات السحر ـ دينية ، المتعارضة والمتكاملة معا . ان الاثبات المدهش لهذا السيناريو القديم تفسيره الاقرب احتمالاً في الواقعة التي قربها وسهلتها المبادىء المتعارضة (مرض) موت صحة (خصب) وهي مشخصة في اكثر العبادات تمجيداً للألوهة الأولية الانثى والذكر : الجنية والبطل المقتول على حصانه .

٤١ ـ أ ج ديكنز ـ يقول «لأول مرة في التاريخ حاكم عدد من القراء قيمة الافكار الثورية عبر جماعة وسيطة استعملت اللغة الوطنية متلاصقة مع فن الجرائد والكاريكاتير .

٤٢ ـ ٤٣ ـ اسماء المراجع

٤٤ ـ حول الشيطان ـ انظر مقاطع من تعليق على رسالة القديس بولس لأهل غلاطة ، اعيدت كتابتها في الأنطولوجيا ـ د(أرس ـ كورس . وادوارد بيتر . وقال لوثر «لن يوجد لدي اية شفقة على هؤلاء السحرة ، سأحرقهم جميعاً» أما بالنسبة للكيمياء ، كان لوثر قد اعترف بأنها ترضيه جداً «انها تسرني ليس فحسب من أجل امكانيات الاستعمال المتعددة الموجودة في تطويع المعادن ، وفي التقطير وفي تصعيد تكرير الاعشاب والسوائل ، وانما ايضا بسبب من الرموز دلالاتها السرية المبهرة جداً في موضوع قيامة الموتى في اليوم الآخر . لأنه كذلك كما في الفرن ، فإن النار تستخرج وتفصل من مادة الاجزاء الاخرى ، وترفع النفس والحياة والنسغ والقوة في حين ان المواد غير النقية ، الثفل ، تبقى في القعر كجسد ميت ودون قيمة كذلك الله ويوم الدينونة ، سيفصل كل الاشياء ، بالنار العادلون مع الظالمين» .

٤٥ ـ طباعة هذا المؤلف المغفل الجارية في المانيا حوالي ١٣٥٠ كانت من جهة أخرى ، أول كتاب مطبوع له .

٤٦ ـ كانت الكنيسة تستطيع اعطاء صكوك غفران المستخلصة في خزينة المزايا المجمعة من قبل المسيح والعذراء والقديس . واصبحت الممارسة شعبية بدءاً من أول الصليبية عندما في ١٠٩٥ اعلن الباب اوربان ان الصليبيين سيستفيدون من التنزيل الموقت لآثامهم ، ولكن خاصة في زمن لوثر ان بعض الكنسيين اسائوا استعمال هذه الممارسة جاعلين الناس يعتقدون ان مع هذه الصكوك كان يشتري الرخصة بارتكاب الذنب .

٤٧ ـ سبق لانوسفت الثالث ان جرب بعشرة ابطال هذه الممارسة ولكن بي Pie هو الذي وضع نهاية في ١٥٦٧ لسوء استعمال الصكوك .

٤٨ ـ اثناء هذه الاقامة ترجم الى الالمانية ـ العهد الجديد (والترجمة الكاملة للكتاب المقدس انتهت في ١٥٣٤) وحول النزور الرهبانية ، دعا إلى زواج الكهنة للرهبان وتحريرهم من نذورهم .

٤٩ ـ اوزمان ـ عصر الاصلاح ص ٢١٨ .

٥٠ ـ الجاكيري قمعت بقسوة متناهية من قبل تحالف الامراء .

٥١ ـ يذكر ورك ـ ان (الأنا للوثر كانت في رأيه المركز الذي يجب ان تتركز حوله كل البشرية ولقد جعل نفسه الانسان العالمي ، الذي يجب ان توجد فيه نموذجها» .

٥٢ ـ بين ١٥٠٩ـ١٥١٧ درس عن قرب اريسطو ، القديس اوغسطين ، الآباء واعمال كبار اللاهوتيين للقرون الوسطى .

٥٣ ـ ٥٦ ـ المراجع .

٥٧ ـ Ferrish ـ (الالغار) كانت التأكيدات الشهيرة للوثر ، والتي تنتمي إليها أعمال القديسين على محيط الاسم ، بأن حرية الاختيار هو اسم فارغ ، ويستطيع الانسان البراءة بالايمان .

٥٨ ـ ٦٥ ـ ايراسمس ادخل مقاطع تعكس بعض انتقاداته للوثر في الطبعات الجديدة من العهد الجديد . وانظر المراجع المذكورة . . .

٦٦ ـ ولد زويكلي بالقرب من زوريخ سنة ١٤٨٩ ودرس في بال وفيينا قبل أن يكرس كاهنا في ١٥٠٦ وقد اكبر باعجاب لوثر ، ولكنه لم يعتبر كلوثري ، لأنه توجه باصلاح اكثر راديكالية في ١٥٢٤ . وقد تزوج خفية أرملة اعطته اربعة اولاد . وفي السنة التالية نشر ذويكلي اطروحاته السبعة معلنا الانجيل المصدر الوحيد الصحيح لاهوتيا وفي ١٥٢٥ظهر المنشور الأول المحتج (تعليق على الدين الصحيح والخطأ) . مجمع زوريخ قبل الاصلاح : الصلاة اللاتينية ابدلت بخدمة القربان المقدس في المانيا ، أزالت الصور من الكنائس ، والاديرة أصبحت دينيوية .

٦٧ ـ اسماء المراجع .

٦٨ ـ من جهة أخرى هذا التعميد لم يكن مؤكداً عليه في الاناجيل وعليه فإن احترام السلطة الوحيد والمطلق للكتاب المقدس كان الآن عاماً في الجماعات المصلحة .

٦٩ ـ من هنا العبارة anafraptcse ، من جهة غير سليمة ، لأن المهتدين لم يعترفوا بالقيمة التقديسية لأول تعميد .

٧٠ ـ قدر المؤرخون ان عدد غير المتعدين ما بين ٨٥٠ـ٥٠٠٠ قد اعدموا منذ ١٥٢٥ـ٦١٨= وقد احرقوا أو قطعت رؤوسهم أو اغرقوا .

٧١ ـ لأول مرة ، كل الدلائل جمعت حللت من قبل (بالك) .

٧٢ ـ اكملت في فرنسا في ١٥٣٥ واستمرت المؤسسة يعاد النظر فيها وتتزايد من قبل كالفن في الطبعات المتأخرة .

٧٣ ـ ان مشهداً معقد مزعجاً كان الاعدام ، ففي سنة ١٥٥٣ انتقد ميشيل سيرفيه الطبيب الاسباني القدير كالفان ،وبالنسبة للكثيرين ان دور كالفان في موت سيرفيه اوصل خصومه رجعية للبروتستانت ، تماما كما في معاملة غاليلية من قبل التفتيش الصقت بالكنيسة الكاثوليكية

٧١ ـ التوقيف الاول من ١٥٤٥

٧٤ ـ التوقيف الأول دام من اذار ١٥٤٥ لشتاء ١٥٤٧ والثاني من ١٥٥١ ايار الى ايار ١٥٥٢ والاخير من نيسان ١٥٦١ لكانون اول ١٥٦٣

٧٥ ـ سنرجع إلى هذه المسائل في فصل نهائي مكرس للمورفولوجيا والمقارنات للتجارب الصوفية القديمة الشرقية والغربية .

٧٦ ـ ولد اغناس دي ليولا في ١٤٩١ في ليولا ، وكان في شبابه روما نتيكيا ومغامراً ، وقد جرح اثناء الحرب الفرنسية الاسبانية ١٥٢١ جرحاً بالغاً ، وقرأ بعض الكتب الدينية من بينها تقليد يسوع المسيح والسيرة الذاتية للقديس فرانسوا والقديس دومينيك وقرر الاقتداء بها ،

وبمناسبة اول حج له لمونتشيرا في اذار ١٥٢٢ ، عقد نذراً على مذبح العذراء بأن يكرس نفسه لخدمة الرب ومنذئذ عاش اغناس حياة متقشفة بقسوة صائماً أحيانا اسبوعاً بكامله مسافراً دوماً على رجليه في ثياب ممزقة ، ومكرساً سبع ساعات في اليوم للصلاة . وبعد ان تعلم اللاتينية في مدرسة اولية في برشلونة ، وصل إلى باريس في شباط ١٥٢٨ وتسجل في كوريم منتيجو وأصبح مجازا في ١٥٣٢ . حصل اغناسعلى انشاء مع تسعة رفاق له نظاما جديداً تمت الموافقة عليه من قبل المحكمة في ١٥٤٠ . وحدد بدئيا بستين رهبانية يسوعية ، وحين وفاة اغناس بلغ عددها في ١٥٥٦ اكثر من الف عضو .

٧٧ ـ جوردانو بروتود الهرمسية ـ فرنسيس . أ .ـ وحتى ذلك الحين رسالة هرمسية واحدة .

٧٨ ـ شارل ترسكو . . انظر المراجع . . ان التحقيق الكامل للشخصية لا يقتضي أبداً دوما مثالاً مستعاراً من الوثنية ، انه يفسر بصورة خاصة بالتجديد ليتولوجيا النعمة .

٧٩ ـ ٨٢ ـ اسماء المراجع .

٨٣ ـ جوردانو بروتود ـ. ان مثقفا هرمسيا اسحق كازوبون ، ظهر في ١٦١٢ بأن المجموع الهرمسي كان مجموعة نصوص متأخرة ـ لا تسبق القرن الثاني أو الثالث (ف ٢٠٩ع) ولكن التدير الاسطوري (للاسرار المصرية) يستمر في مداعبة خيال الانتلجنسيا الأوروبية تحت شكل جديد (سر الهيروغليف)

٨٤ ـ حول هرمسية القرن السادس عشر انظر ايضا ـ التويولوجيا القديمة ـ فصل ٣ ـ يورث .

٨٥ ـ الكاثوليكي فرانسيسكو باتريذي كان يعتقد ان دراسة المجموع الهرمسي يمكن لها اقناع البروتستانت الالمان بالرجوع الى الكنيسة .

٨٦ ـ ٨٨ ـ اسماء المراجع .

٨٩ ـ حدادون وكيميائيون ص ١٣٢ ـ بعض الاشارات (من التحريم الفلسفي ، الزخرفة ، المنشأة من قبل باسيل قالنتين . مع عبارة فيتريال تشير للضرورة الغير ممكنة التطبيق (زر ادنى الارض وبالتطهير ستجد الحجر السري» .

٩٠ ـ Liber Platonis quartorum (التي أصلها العربي لا يمكن ان يكون متأخراً عن القرن العاشر) . . ويوجد ذات المبدأ عند الكيميائيين الصينيين .

٩١ ـ حسب بازيل فالنتين (الشر يجب ان يصبح ذات الشيء كالخير) ـ وستاركلي يصف الحجر كأنه (الموافقة للاضداد ، محققاً للصداقة بين الاعداء) . .

٩٢ ـ موزلوف ـ أصل الكيمياء . .

٩٣ ـ ٩٥ ـ حدادون وكيميائيون ـ م. الياد . . وحتى في القرن الثامن عشر لم يضع

العجماء موضع التساؤل نحو التعدين . لقد تساءلوا مع ذلك اذا كانت الكيمياء تستطيع مساعدة الطبيعة في هذا التطور وبخاصة اذا «كان اولئك المدعون بفعل ذلك كانوا شرفاء ، أغبياء اوغيلان» . وهرمان بوارصان (١٦٦٤-١٧٣٩) المعتبر كأكبر كيميائي (عقلاني) في زمنه الشهير بتجاربه حصراً ، كان يعتقد ايضاً بتحول المعادن . وسنرى الأهمية للكيمياء في الثورة العلمية المكتملة بنيوتون .

ح ٩٦ - ٩٨ - اسماء المراجع المعتمدة .

٩٩ - انظر - احلام كيميائي عصر النهضة (دوبوس) . . ولنلاحظ انه في بداية القرن الساب عشر ، يوجد السيناريوهات الثرة في النصوص الصينية والهللنسيتية : ان كشفا بدئياً ، اعيد اكتشافه حديثا وانما حفظ خاصة للمتلقي الاسرار

١٠٠ - ١٠٥ - اسماء المراجع المعتمدة . . والمتعددة . .

الفصل التاسع والثلاثون

الديانات التيبيتية

٣١٢ - ديانة الرجال .

تماما كالديانات الهندية والمسيحية القديمة والقروسطية ، فإن الديانة التيبيتية ، تمثل في أوجها تركيبا مميزاً ، نتيجة عملية طويلة من التمثل والتوفيقية . ولما قبل بضع عشرات من السنين ، فسر العلماء الغربيون ، متبعين في ذلك المؤلفين التيبيتين ، التاريخ الديني للتيبت وكأنه نزاع بين الدين المحلي البون le Bon والبوذية الهندية ، التي انتصرت في الأخير تحت شكل اللامية Lamaisme . وقد كشفت بحوث حديثة ، وفي المحل الأول منها ، تحليل الوثائق التي وجدت في مغارة توان - هوانغ Touen- houang (القرن ٨ - ١٠) وضعاً اكثر تعقيداً . فمن جهة ، أصبح يؤخذ في الحسبان الآن أهمية واندماج الدين المحلي ، الذي سبق الـ بون والانتشار الأول للبوذية ، وعليه ، فإن هذا الدين التقليدي (المسمى «دين الرجال») مر بصمت من قبل مؤلفي بون كما من قبل البوذيين .

ومن جهة أخرى ، فقد بُديء بمعرفة افضل للخاصية الدخيلة والتوفيقية للبون وبخاصة منابعه الايرانية والهندية . بالتأكيد ان الوثائق التي نحوذها متأخرة (الأحرف الهجائية التيبتية اخترعت في القرن السابع) وتعكس النتائج مجادلات واستعارات متبادلة بين البوذية والبون ومع ذلك تحت غطاء لامي أو بون يمكن فك رموز الخطوط المميزة للديانة التقليدية . ويميز المؤرخون التيبتيون ديانة الآلهة (لها ـ شوز lha- chos) عن ديانة الرجال (مي ـ شوز mi-chos) ، فقد دل الأول بالتتابع تارة على البون وتارة البوذية ، ودل الثاني على الديانة التقليدية .

إن مصدر هاماً لمعرفة «دين الرجال» ـ المسمى جكك Gcug (أو شوز «عرف») ـ قد تكون بواسطة «الحكايات» ، أي بالاساطير النشكونية والمتعلقة بشجرات الانساب ، وهذه الحكايات كانت تروى طقوسيا بمناسبة الزيجات ، واعياد السنة الجديدة ، وفي المباريات المختلفة على شرف آلهة الأرض الخ . . وكما في كثير من الديانات القديمة ، فإن تلاوة اسطورة الأصل لجمعية ، ولمؤسسة أو لطقس ، يعيد تحيين الاستمرارية مع الزمن الاسطوري «للبدايات» واستطراداً ، كان يضمن نجاح عملية مشروع[1] . ان القصة الصحيحة لاساطير الأصول كانت «عملاً دينيا ضروريا لدعم النظام للعالم وللمجتمع»[2] .

وكما في أي مكان آخر ، فإن اساطير الأصول تبتديء بالتذكير بالنشكونية . فالعالم خلق من قبل الآلهة السماوية فيفا phyva ، متخيلة كما لو انها جبال السماء . (سنعود فيما بعد على الأهمية الدينية والرمزية للجبال) . فالبعض من هذه الآلهة ـ الجبال نزل على الأرض ، جالباً معه الحيوانات والنباتات ، وعلى الأرجح البشر الأول . وهذه الفترة الفردوسية ، عندما كان البشر يعيشون بالقرب من الارباب ، كان لها ان تدوم عشرة آلاف سنة . ولكن شيطانا ، مستكنا تحت الطابق التاسع تحت الأرض نجح في الافلات ونشر الشر على الأرض . فانسحبت الارباب للسماء ، واستمر العالم بالتدهور خلال مئات الألوف من السنين . ومع ذلك ، فإن بعض الرجال طبقوا ايضا الجكك Gcug منتظرين «عصر الكفرة» الذي سيظهر على إثره عالم جديد ، وستعود الآلهة إلى الأرض وستبعث الأموات .

ويتعلق بالتأكيد ، باسطورة معروفة جدا «لكمال البدايات» متبوعاً بالانحطاط المتنامي والشامل .غير أنه يفترض كذلك وجود تأثيرات هندية (الدورات الكونية المتضمنة مئات الألوف من السنوات) وتأثيرات ايرانية (الشيطان الذي يفسد الخليقة) .

إن للعالم بنية ثلاثية : تسكن الآلهة فيفا في العلى ، والآلهة المائية وتحت الأرض كلو Klu تقطن في الأسفل ، والبشر في الوسط . وكان أول ملك إلها نازلاً من السماء توحد مع الوهة ـ جبل ، وهكذا أحيا النموذج من الاسياد الاسطورية السبعة التي تتبع . وتتكلم الأساطير حول أصل المقر المسكون ـ انواع مختلفة لأسطورة نشكونية ـ إما عن شيطان مقهور أو حيوان مقطع ، واما عن زواج مختلط بين إله (جبل ، صخرة أو شجرة) وربة (بحيرة نبع أو نهر) . وهذا الزواج الالهي مخلوط أحيانا مع اقارب مما فوق الطبيعة للملك أو بطل . «كل جماعة ساكنة مقراً معيناً تتعارف هكذا في جدها وفي مكانه المقدس»[٣] .

وفي الديانة التقليدية ، كان دور الملك اساسيا[٤] . وكانت الطبيعة الالهية للسيد تظهر بتألقه وبقدراته السحرية . ولم يبق الملوك الأولى على الأرض الا في النهار ، ثم عادوا إلى السماء ليلاً . انهم لم يعرفوا الموت بمعنى الكلمة ، ولكنهم لفترة معينة صعدوا نهائيا إلى السماء على حبلهم السحري ، مو mu أو دمو dmu وتقول مجموعة اخبار بونوبو bonopo ان هؤلاء الملوك الأول «كان لهم في قمة رأسهم حبل mu من نور ، حبل متباعد أو (مشدود) بلون اصفر فاقع (أو اغبر) . وفي اثناء موتهم كانوا يتحللون (كقوس قزح) بدءاً من اقدامهم ويذوبون في الحبل mu من يافوخ الرأس . والحبل مو من نور . كان يذوب بدوره في السماء»[٥] . وهذا هو السبب الذي من أجله لم يكن يوجد قبور ملكية قبل آخر ملك من أصل إلهي ديغون Digun ، فقد كان هذا متعجرفاً وسريع الغضب ، وبمناسبة محزنة ، قطع بدون انتباه حبله الخاص مو . عندئذ أخذت جثث الملوك تدفن في الأرض ؛ لقد اكتشفت قبورهم وعرفت بعض الحفلات المطبقة اثناء جنازاتهم[٦] . ومع ذلك فإن بعض الكائنات المتميزة ، القديسون والسحرة في المكان الأول ـ مازالوا ينجحون ايضاً في الصعود إلى السماء بفضل حبلهم /مو/ .

إن اسطورة الحبل /مو/ المقطوع من قبل ديجون تستعيد في نص آخر ، تاريخ فصل البشر والآلهة فيفا على اثر اقحام الشر في العالم . غير أن أهميتها بالنسبة لتاريخ الفكر الديني التيبيتي هي اكبر بكثير . لأن الحبل مو يشغل وظيفة كوزمولوجية ، من جهة : اذ انه يوصل الأرض بالسماء كقطب للعالم aximundi ، ومن جهة أخرى ، يلعب دوراً مركزيا في نموذج التشابه ، كوزموس - مسكن - جسم بشري . واخيراً ، وبدءاً من احدى الفترات ، التي يصعب تحققها ، يوجد الحبل مو في الفيزيولوجيا البارعة وفي الطقوس التي تضمن التحرير والتصاعد السماوي لروح الميت .

وبالتأكيد ، ان التأثيرات الهندية في البون هي واضحة . ولكن الصفة الأصلية لهذه العقدة الاسطورية - الشعائرية ورمزيتها لا يمكن لها ان تكون موضع شك . ان التشابه كون - بيت جسم بشري هو مفهوم قديم جداً ، سائد في انتشاره في اسيا . ومع ان البوذية قد عرفت هذه المشابهة فهي لم تعطها قيمة انقاذية (ف ١٦٠ع) .

إن الجبال تمثلت بالسلم أو الحبل مو للجد الأول النازل على الأرض . وقبور الملوك تسمى «جبال»[٧] . ومن جهة اخرى ، فإن الجبال المقدسة - (الآلهة الحقيقية للبلاد) أو «أسياد المكان» - هي معتبرة «كأعمدة للسماء» أو «مسامير الأرض» وان «ذات الوظيفة يمكن تسنمها بالأعمدة المقامة بالقرب من القبور أو المعابد»[٨] . وان اله ارضية البيت ، هو ايضاً ، مشار إليه «كعمود السماء» أو «بمسمار تثبيت الارض» . والسماء والعالم تحت الأرض تشابه طوابق يمكن المرور إليها بواسطة «باب للسماء» و«باب للأرض» . ويوصل في المنزل . بين الطوابق بواسطة سلم مصنوع من جذع شجرة . و«لباب السماء» يناسب ثقب السقف الذي يدخل منه النور ويخرج الدخان ؛ و«لباب الأرض» تناسب الموقدة[٩] .

وتماما كالجبل المقدس - «رب البلاد» - يندمج بالسلم مو الذي يوصل السماء بالأرض ، وفي الجسم البشري واحد من الآلهة الحامية ، وبدقة المسماة «اله البلاد» ،

توجد على قمة الرأس حيث يخرج الحبل مو (على الأكتاف يستقر «الاله المحارب» و«اله الانسان») . والسلم مو هو كذلك يسمى «سلم الريح» .

والريح هو مبدأ الحياة مشابه للبرانا Prana لدى الهنود «انه ، في وقت واحد الهواء الذي يستنشق وهو سائل رقيق في الجسد»[١٠] . «التنامي نحو الأعلى» ينجز بالحبل مو . ومن المرجح جداً ، ان هذه المفاهيم قد أعدت بالتوفيقية اللامية . وعلى كل حال فإن الاجراء المتخذ من قبل اللامات les lamas للخلاص النهائي للروح يذكر بحالة الملوك الاسطوريين من الذوبان في الحبل مو[١١] . وبعبارات أخرى ، ان القديس مؤهل ، في حين وفاته ، لأن يردد ، روحيا ، ما أنجزه الملوك الاسطوريون ماديا inconcreto قبل الحادثة المؤسفة لديغون Digun (مفهوم يذكر بالاساطير من الشمال الاسيوي حول انحطاط الشامانية الحالية : الشامانيون الأوائل صعدوا للسماء بلحمهم وعظمهم) (ف٢٤٦ع) .

سنعود لدور النور في التقاليد الدينية التيبيتية ، ونضيف هنا ، ان الديانة التقليدية ، إلى جانب التماثل ـ كون ـ بيت ـ جسد بشري الذي تكلمنا عنه ، تقتضي اضافة إلى ذلك بعض التناسق بين البشر والآلهة lha ، وأحياناً لا تتميز «الأرواح» بلا bla عن «الآلهة» lha ، الملفوظتان بذات الطريقة ، وغالباً ما يخلط التيبيتيون بين العبارتين . وتعرف «ارواح» أو «حيوات» عدة خارجية ، تستقر في الأشجار والصخور أو الموضوعات المسكونة بالآلهة[١٢] . وقد رأينا من جهة أخرى «آلهة البلاد» والآلهة المحاربة تسكن ايضا في مستقرات طبيعية كما تسكن في الجسد البشري .

وبعبارات اخرى ، ان الانسان بصفته كائنا روحانيا ، يشاطر في شرط إلهي ، وبخاصة ، الوظيفة والمصير للآلهة ذات البنية الكونية . الأمر الذي يفسر الأهمية إلى مالا يحصى من المباريات الشعائرية ، منذ سباقات الخيول ، والالعاب الرياضية والمصارعات المختلفة ، حتى مسابقات الجمال ، والرمي عن القوس ، واحتلاب الابقار والمناظرات الخطابية ، ويكون حصول المباريات خاصة بمناسبة العام الجديد . وتتشكل القاعدة الاساسية لسيناريو العام الجديد بالمصارعة بين آلهة السماء والشياطين مصورة بجيلين . وكما في سيناريوهات مشابهة أخرى ، فإن انتصار الآلهة كان يضمن نصر الحياة الجديدة

للسنة الجديدة التي ابتدأت . «تحضر الآلهة في الاستعراض وتضحك بالاشتراك مع البشر . المباراة بالالغاز وتلاوة القصص مثل قصص الملاحم ، لها اثر على المحصول وعلى القطيع . وباعتبار ان الآلهة والبشر مجتمعون بمناسبة الأعياد الكبرى ، فإن العقبات الاجتماعية تتأكد ، ولكنها تهدأ في ذات الوقت . وان الجمع المرتبط بما فيه (أصل العالم والأجداد) وبموضع سكناه (جبال واجداد مقدسة) يشعر بنفسه نشيطاً»[١٣] .

وتبدو التأثيرات الايرانية في الاحتفال التيبيتي للعام الجديد واضحة ، غير ان السيناريو الاسطوري ـ الشعائري قديم جداً : يوجد في العديد من الاديان التقليدية . وبعبارة اخرى ، انه يتعلق بمفهوم مؤكد بشكل واسع في العالم[١٤] . وبحسب هذا المفهوم ؛ إن الكوزموس والحياة ، كوظيفة الآلهة والشرط البشري ،محكومة كلها بذات الايقاع الدوري ، المشكل من قطبيات متناوبة ومتكاملة مطبقة بالتناوب ، ولكنها تحل نفسها دوريا في وحدة شمولية من نوع توافق الاضداد Coincidentia appositarium ويمكن مقارنة المفهوم التيبيتي بتعارض اليانغ الين واعادة تكاملهما الايقاعي في التاو (ف ١٣٢ع) . وعلى كل حال فإن الديانة التقليدية التي صادفها البوذيون الأول في التيبت لم تكن «خليطاً لمفاهيم سحرية ـ دينية فوضوية ومشتتة [. . . .] وانما كانت ديانة لها تطبيقاتها وشعائرها المتجذرة في نسق بنيوي ، مؤسس على مفاهيم ذات قاعدة معارضة جذريا لتلك التي ساندت البوذية[٥] .

٣١٤ ـ البون : مواجهات وتوفيقية

يرد التساؤل بحق «عن الاسباب التي أوصلت المؤرخين (التيبيتين) المتأخرين لطمس الديانة القديمة ، التي انقرضت حتى باسمها ذاته جكك Gcug وابدالها بديانة (البون le Bon) والتي بتكوينها كديانة مشكلة يجب ردها للقرن الحادي عشر . ومن جانب (المختصون بالمقدس) البون ـ بو des bon-po فإن الشيء قابل للفهم : كانوا بلا ريب مهيئين لتصنع لهم ترجمة تزيد في رفعة تقديرهم ، باضفاء صفة الأقدمية العريقة عليهم»[١٥] . أما بالنسبة للمؤرخين البوذيين ، فإن الأضاحي الدموية والمفاهيم الأخروية للديانة المحلية قد أضحت موضع اشمئزازهم ، وبالنتيجة تمثلوها بالمعتقدات والتطبيقات «السحرية» بون .

ومن العسير وصف البون قبل إظهار انتشار البوذية في التيبت . فقد اصطدمت هاتان الديانتان منذ البدء ، مع تأثرهما المتبادل ببعضهما ، وأخيراً ، وبدءاً من القرن التاسع استعار البون المحوَّر aggus-Bon المبدأ ، والألفاظ والمؤسسات اللامية . ومع ذلك ، فمن المتيقن أن الطقوسيين ، والمتألهين و«السحرة» بون ـ بو bon-po كانوا يعملون في التيبت قبل تدخل المبشرين البوذيين . ومن جهة اخرى ، فإن إظهار البون لهذه النقطة من موضوعنا يسمح بالتحقق من تعددية وأهمية العناصر الغريبة التي ساهمت في تركيبة التدين التيبيتي . وفي الواقع ، وعلى الأقل فإن بعض اصناف البون ـ بو يشهد بأصلها الدخيل . وحسب التقليد ان «البون الاجنبي» قد ادخل من زهانجشون Zhangshung (جنوب ـ غرب التيبت) أو من تاريخ Tozig (ايران) . الأمر الذي يفسر ، من جهة اخرى العناصر الايرانية القابلة للكشف عنها في بعض مفاهيم بون ، ومن جهة أخرى ، تجعل محتملاً ، وجود التأثيرات الهندية (وبخاصة الشيقية Shivaites) قبل تدخل البوذية .

إن اقدم الوثائق تظهر من مختلف الطبقات من بون ـ بو : اصحاب شعائر ، مضحون ، متنبئون ، طاردوا الأرواح الشريرة ، سحرة الخ . . وليس هنالك مسألة ، قبل القرن الحادي عشر ، لتنظيم موحد ، مصاغ بشكل جيد من كل هؤلاء «المختصين بالمقدس» . ومن بين ادواتهم الطقوسية ، نذكر المنصات المعينة لأسر الشياطين وبخاصة ، الطبلة من نوع شاماني لأنها كانت تسمح للسحرة بالصعود للسماء . وعمامة الصوف ، العلامة المميزة للبون ـ بو كانت استخدمت حسب التقليد ، لاخفاء اذني حمار المؤسس الخرافي للبون ، شيزاب ني بو (تفصيل ثمين لأنه تنكر لأصله الغربي ، وهو يتعلق ، في الواقع ، بنغم لميداس midas)[١٧] . وإلى جانب مختصين آخرين بالمقدس ، فإن البون ـ بو كانوا يحمون الملوك ورؤساء القبائل . انهم كانوا يتمتعون بدور هام في الجنائز (في الدرجة الأولى الجنائز الملكية) التي كانت تقود ارواح الموتى للآخرة ، وكانت مشهورة بأنها قادرة لاستدعاء الأموات وللتعزيم عليهم .

وثمة وثائق أخرى ، متأخرة اكثر ، تمثل اضافة إلى ذلك نشكونيات مختلفة وتيولوجيات ، لا بل ارشادات ما ورائية منهجة قليلاً أو كثيرا . هذا وان التأثيرات الهندية وبخاصة منها البوذية هي تأثيرات بارزة ، الأمر الذي لا يقتضي ابداً الوجود المسبق لكل

نظرية ، ومن الراجح جداً ان البون - بو (العلمانيين) (علماء انساب ، مسجلوا اساطير لاهوتيون ، قد تواجدوا منذ زمن طويل مع الطقوسيين والسحرة) .

وقد روى المؤلفون البون - بو المتأخرون «تاريخهم المقدس» كما يلي : مؤسس البون سيكون شيزاب - في - بو («الرجل - الكاهن - شين «الممتاز») .

إن ولادته وسيرته الذاتية هما على نموذج ولادة وسيرة ساكيا موني ويادماسامبهافا Sakyamuni et de Padmasamhava (سنشير إلى هذا الأخير فيما سيأتي) . لقد قرر شيزاب أن يولد في بلاد غريبة (زهان - شانغ او ايران) . دخل شعاع من نور ابيض ، تحت شكل سهم (صورة مني رجولي) ، في الطاقية الجمجمية للأب ، في حين ان شعاعاً من نور أحمر (ممثلاً العنصر النسوي ،الدم) دخل في رأس الأم . وفي ترجمة أخرى ، اكثر قدما ، ان شيزاب ذاته هو الذي نزل من قصر سماوي تحت شكل خمسة الوان (اي مثل قوس قزح) . وممسوخاً في عصفور ، تعلق على رأس أمه المقبلة وشعاعان ، أحدهما ابيض ، والآخر أحمر ، صادران من اجزائه الجنسية دخلا عن طريق الجمجمة جسد المرأة[١٨] . وفي أحدى المرات على الأرض ، واجه شيزاب أمير الشياطين . فلحق به وطوّع بقدراته السحرية الشياطين التي صادفها . ولضمان خضوعها ، قدمت له هذه اشياء وصيغ محتوية على جوهر قدراتها ، وهكذا أصبحت الشياطين الحارسة لمذهب ولتقنيات البون[١٩] . الأمر الذي يعني بأن شيزاب كشف للمختصين بالمقدس بون - بو الصلوات التي توجب عليهم رفعها للآلهة والوسائل السحرية لطرد الشياطين . وبعد ان أقام البون في التيبت وفي الصين انسحب شيزاب من العالم ، ومارس التنسك ، وكالبوذا ادرك النيرفانا . ولكنه ترك إبنا هو الذي نشر مجمل المذهب خلال ثلاث سنوات .

ومن المتفق عليه اعتبار الشخصية الاسطورية المتخفية تحت اسم شيزاب كخالق للنظام المذهبي بون ، بالمعنى الذي جمعه ونظمه كتلة كبيرة ومتضادة من عادات وشعائر وتقاليد ميتولوجية ، ومن التعزيمات والعبارات السحرية - «ليست البتة نصوصا ادبية ، لأن هذه ، قبل زمنها ، لم توجد الا بعلدد صغير»[٢٠] . إن القانون بون يتكون بدءاً من القرن التاسع ، بتجميع النصوص المفروض فيها ان تكون باطنية اثناء اضطهادات الملوك البوذيين ، والتي توجد فيما بعد[٢١] . ويرجع شكلها النهائي ، في تاريخه ، إلى القرن

الخامس عشر ، عندما جمعت النصوص المنسوبة لشيزاب (مترجمة من لغة ذهانج - شونج) في الـ ٧٥ جزءاً من كانجور Kanjur ، وشروحها في الـ ١٣١ جزءاً من تانجور Tanjur . هذا وان تصنيف وعناوين هذه المؤلفات مستعارة بوضوح من القانون اللامي . ويتبع المذهب عن قرب مذهب البوذية «قانون عدم الثبات ، وتشابك الأعمال التي تحتوي دورة السمسارا (التناسخ) . وبالنسبة لبون ايضاً ، فإن الهدف المنشود هو التيقظ ، وحالة بوذا ، أو بالأحرى شكل الماهايانيك mahayunique والخواء»[٢٢] .

وكما هو الأمر لدى الرهبان البوذيين «القدامى» أي تلامذة بادماسامبهافا (ر. ف ٣١٥ع) فإن المذهب بون صيغ بتسعة «عربات» (أو «طرق») . والثلاث عربات الأخيرة متشابهة في الديانتين ، والستة الأولى تقدم كثيراً من العناصر المشتركة ، غير انها لدى البون - بو (المختصين بالمقدسات) تتضمن اضافة لذلك العديد من المعتقدات والممارسات السحرية المميزة[٢٣] .

وقد تأكدت عدة نشكونيات في الكتابات (بون) . ومن بين اكثرها أهمية ، نذكر الخلق بدئيا من بيضة أولية ، أو اعضاء عملاق له هيئة بشرية ، من نموذج بيروشا (قصة محفوظة في ملحمة جيزار l'epopéede Gesare) أو في النهاية ، كالعمل الغير مباشر لاله مفارق deus Othiosus انبثق منه مبدأن متعارضان جذريا . ويبدو التأثير الهندي واضحاً في النشكونيتين الأوليتين ، وحسب الثالثة ، لم يكن يوجد في البدء سوى امكانية صرفة بين كائن ولا كائن ، الذي غالبا ما يعطي لنفسه اسم «مخلوق ، معلم الكائن» . ومن هذا «المعلم» يصدر نوران ، ابيض واسود ، ينسلان «إنسانين»deushommes احدهما أبيض والآخر اسود . هذا الأخير «جهنم السوداء l'Enfer noir ، الشبيه برمح ، هو التجسيد لغير كائن ، مبدأ النفي أو السلب ، صانع كل الشرور وكل المصائب . والانسان الأبيض ، الذي أعلن نفسه «معلما يحب الوجود» ، هو تجسد الكائن ومبدأ كل ما هو خير وخالق في العالم . بفضله عبدت الآلهة من قبل البشر وحاربت الشياطين وممثلي الشر[٢٤] . وهذا المفهوم يعيد إلى الذاكرة اللاهوت الذرفاني (ف ٢١٣ع) المنقولة على الأرجح من قبل ما نوي آسيا الوسطى .

ويشار ايضا للخاصية التوفيقية للبون ، وبأنها تقليدية اكثر مما هي محورة . وكما

سنرى فإن اللامية ، قد اخذت وطورت ذات العملية . وتبدو التوفيقية مميزة للابداعية الدينية وللعبقرية التيبيتية في العصر التاريخي .

٣١٥ - تكوين وتطور اللامية

حسب التقليد ، اقيمت البوذية في التيبت من قبل الملك سرونغ - باستان - سغام - بو (٦٢٠ - ٦٤١) المعتبرة فيما بعد كصدور عن بوذا افالو كيتز هفارا . غير ان المساهمة العرضية لهذا الملك في نشر الشريعة من الصعب التأكد منها بدقة. ومعلوم أنه اتبع على الأقل ، في جزء منها ، الممارسات الدينية القديمة . ومن جهة أخرى ، يبدو مؤكدا أن الرسالة البوذية كانت معلومة في بعض أقاليم التيبت قبل القرن السابع .

وبصفتها ديانة دولة ، تأكدت البوذية لأول مرة في الوثائق الرسمية تحت حكم الملك كريستون ايد - بكان (٧٥٥-٧٩٧ ؟) . فهذا الملك ، المعلن انبثاقا عن مانجوسري manjusri ، دعا كبار العلماء الهنود سانتاركشيتا ، وكامالاشيلا ويادماسامبهافا ، إلى التيبت[٢٥] . وقد تنازع حماية الملك اتجاهان : «المدرسة الهندية» معلمة طريقاً تدرجية للخلاص ، و«المدرسة الصينية» التي عرضت تقنيات تهدف للتنوير المؤقت (شانغ ، وفي اليابانية زين) . وبعد ان شهد تقديم ودفاع كل مدرسة عن طرائقها على التوالي ما بين (٧٩٢-٧٩٤) ، اختار الملك الاطروحة الهندية . وقد جرت هذه المقارنة الشهيرة في دير بزام - ياز المؤسس من قبل خري - ستون Khris-ston في بداية حكمه ، وقد كان هذا الأول في سلسلة طويلة من الأبنية الرهبانية التي ستشاد خلال عدد من القرون . وخريستون هو الذي الحق دوما الملكيات بالاديرة ، مفتتحاً بذلك العملية التي ستوصل إلى الثيوقراطية اللامية .

وقد دعم خلفاءه البوذية بصفتها دينا رسميا ، وتمتع الرهبان في القرن التاسع بوضع متميز في التراتبية السياسية ونالو ملكيات متزايدة الأهمية بصورة دائمة ، وقد أثار الملك رال - با - كان (٨١٥-٨٣٨) بحماسة المتطرف لصالح الرهبان ، مقاومة النبلاء ، ثم انه اغتيل ، ففجر شقيقه الذي خلفه (٨٣٨ - ٨٢٢) اضطهاداً عنيفاً ضد البوذيين :

حسب الروايات الاخبارية المتأخرة ، ان هذا قد دعم بقوة البون ، الا انه قد اغتيل ايضا ، وبعد ذلك تجزأت البلاد في مقاطعات متناحرة باستمرار ، وغرقت في الفوضى . وحرِّمت البوذية خلال اكثر من قرن . فدنست المعابد ، وهدد الرهبان بالموت ، مكرهين على الزواج أو اعتناق البون . وانهارت المؤسسات الكنسية ودمرت المكتبات ، ومع ذلك فإن عدداً من الرهبان المنعزلين استمر بالوجود ، وبخاصة في المقاطعات الهامشية . وقد اوجدت هذه الفترة من الاضطهاد والفوضى المناخ المفضل لانتشار السحر والممارسات التانترية من نموذج تهتكي .

وحوالي سنة ٩٧٠ أرسل ملك بوذي يي - سي - أود من التيبت الغربية ، رين سن بزان بو (٩٥٨-١٠٥٥) إلى كشمير للبحث عن معلمين هنود . ومع هذا بدأ الانتشار الثاني للبوذية . ونظم رين مدرسة كما عمد إلى ترجمة النصوص القانونية ومراجعة الترجمات القديمة[٢٦] . وفي سنة ١٠٤٢ وصل معلم تانتري كبير يدعى آتيسا إلى التيبت الغربية فلقن رين سن ، الذي أصبح مسناً ، كما لقن تلامذته ؛ ومن بين هؤلاء الاخيرين (بردم - ستون) الذي أصبح الممثل المعتمد بالتقاليد التي علّمها آتيسا . وتتعلق هذه باصلاح حقيقي ، هادف لاحياء تكوينات أصولية للبوذية : سلوك اخلاقي دقيق للرهبان ، والعزوبية والتنسك ، والطرق التقليدية للتأمل الخ . . .

وقد نال دور الجورو guru في اللاما التيبيتية (بلاما - bla.ma) أهمية ملحوظة . ويطرح اصلاح آتيسا وخلفائه. الأسس لما سيصبح فيما بعد مدرسة «الفضلاء» دجيلكوبا Dge-lug-pa ، غير ان عدداً من المتدينين ، المعلنين عن انفسهم بادماسامبهافالم يقبلوا ابداً هذا الاصلاح . ومع الزمن سينتهون «كالقدماء» نينينغمابا (رنين - ما - با) .

وما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر تدخلت مجموعة من كبار المعلمين الروحانيين، المنشئين لمدارس جديدةوالمؤسسين لرهبانيات أصبحت شهيرة. وسافر الرهبان التيبيتيون إلى الهند،وكشمير ونيبال للبحث عن (الغورو) guru المعلمين المشهورين ، بأمل ان يلقنوهم بأسرار الخلاص (وبخاصة التنترية) . وقد كان هذا العصر عصر مشاهير اليوجيين ، والصوفيين والسحرة ، ناروبا ، وماربا ، وميلاريبا . فاستلهموا ونظموا مختلف (المدارس) التي سينقسم بعضها ، مع الزمن ، إلى عدة

فروع . واذا كان من غير المجدي تعدادها ، فإنه يكفي التذكير باسم تزونغ - كها - با (١٣٥-١٤١٩) ، المصلح الناشط في خط آتيسا ومؤسس المدرسة ذات المستقبل الكبير ، والتي تلقى تلامذتها اسم (الجدد) أو الفاضلون (جيلوغبا) . وقد اتخذ الخليفة الثالث لتسونغ - كها - بالقب الدالاي لاما سنة ١٥٧٨ ، وقد نجح (الفاضلون الفيلوبا تحت حكم خامس دالاي لا ١٦١٧-١٦٨٢ نهائيا بتحقيق انتصارهم . ومنذئذ وحتى وقتنا ، يعرف الدالاي لاما بأنه الرئيس الديني والسياسي الوحيد للبلاد . وقد ضمنت مصادر ثروة الأديرة والعدد الكبير من الرهبان ، القراء والقادة الروحيون معاً ، القوة والاستقرار لليثوقراطية اللامية .

أما بالنسبة للقدامى ، نيينغمابا ، فقد تميزوا علاوة على النقل الشفهي الغير منقطع للمذهب ، وبالكشوفات المتحصلة بالاستلهام الوجدي لمتدين بارز ، أو المحفوظة في الكتب المشهور أنها «أخفيت» اثناء الاضطهادات و«اكتشفت» فيما بعد . وكما هو الأمر لدى البيون - بو ، فإن العهد الكبير للمكتشفات من النصوص يمتد . لدى (القدامى) من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر . ونظم راهب موهوب جداً ، ومتعلم من القرن الرابع عشر يدعى (كلونشن) مجموعة التقاليد نينغامبا في نظام نظري مصاغ بشكل جيد . ومع المفارقة ، فإن الاعتراف الحقيقي (بالقدامى) بدء اعتباراً من القرن السابع عشر . ومع ذلك ، وبالرغم من مختلف الأنظمة الفلسفية ، وبخاصة تنوع الطقوس ، لم يوجد انقطاع حقيقي بين «القدامى» و«الجدد» . وفي القرن التاسع عشر ، تحققت حركة من نوع كنسي ، تابعت تكامل كل «المدارس» البوذية التقليدية .

٣١٦ - مذاهب وممارسات لامية .

لا يعتبر التيبتيون كمجددين فيما يتعلق بالمذهب ، الا انه يجب أن يؤخذ في الحسبان واقعة انه «في حين ان البوذية قد تلاشت في الهند في بداية القرن الثالث عشر ، غير مخلفة وراءها سوى نصوص ، فهي قد استمرت بالتفتح في التيبت في تقليد حي»[٢٧] . وقد وصل المبعوثون البوذيون الأوائل بعد الانتصار في الهند إلى العربة الكبيرة Grand véhicule (ماهايانا . رف ١٨٧ع) .

وقد كانت المدارس السائدة المادهياميكا ، «الطريق الوسط» المؤسسة من قبل ناجارجونا (القرن الثالث) ، واليوغاكارا أو فيجنانافادا المنشأة من قبل آذنجا (القرن ٤ـ٥) ، واخيراً التانترا أو فاجرايانا («عربة الالماس») . وخلال القرون الخمسة التالية ، ارسلت كل هذه المدارس ممثليها إلى التيبت ، وسارعت في تكوين اللامية .

ويمكن القول ، باختصار ، ان «الاصلاحات» (جيلوغبا) تبعت تعليم ناغارجونا ، مستعملة المنطق والجدل كوسيلة لتحقيق الخواء Vacuité وانطلاقاً منه ، الحصول على الخلاص (ر. جزء ٢) ، في حين ان (القدامى) اتبعوا في المكان الأول التقليد المؤسس من قبل آذنجا ، الذي أعطى أهمية حاسمة للصياغات اليوجية من التأمل .

ونؤكد مع ذلك بدقة على ان هذا التمييز لا يقتضي الازدراء بالجدل لدى (القدامى) ، ولا غياب اليوجا في تعليم «الاصلاحيين» . أما بالنسبة للشعائر التانترية فمع انها مطبقة بخاصة من قبل النينغامبا فهي لم تكن مجهولة من قبل الجيلوغبا . وباختصار ، كان للمتدينين الخيار بين طريق مباشر وطريق تدزيجي . ولكن الأول كالآخر يفترضان ان المطلق (= الخواء) لا يمكن ادراكه الا بحذف الثنائيات : ذات (مفكرة) ـ موضوع (فكرة) ، عالم ظاهري ـ حقيقة كلية ، سمسارا ـ نيرفانا . وحسب ناجارجونا ، يوجد نوعان من الحقائق : الحقيقة النسبية ، الاتفاقية (سامفرتي) والحقيقة المطلقة (بارامانثا) . ففي المنظور الأول ، ان العالم الظاهري ، مع انه اونطولوجيا غير حقيقي ، يوجد بطريقة مقنعة تماما في تجربة الانسان العادية . وفي منظور الحقيقة المطلقة ، تكتشف الروح عدم حقيقة كل ما يظهر موجوداً ، ولكن هذا الكشف لا يمكن التعبير عنه بالكلام ، ومثل هذا التمييز بين الحقيقتين ـ اتفاقية ومطلقة ـ يسمح بالحفاظ على قيمة السلوك الخلقي والنشاط الديني للمؤمنين اللاييك .

ان النوعين من الحقيقة هما على علاقة مع مختلف اصناف الكائنات البشرية . وبالتأكيد ، ان كل واحد يمتلك ، في حالة الكمون ، طبيعة البوذا ، ولكن تحقيق البوذية يرتبط بمعادلة كارمية Karmique لكل فرد ، نتيجة وجوداته السابقة التي لا حصر لها . المؤمنون اللاييك ، المحكومون بالحقيقة الاتفاقية ، يبذلون جهدهم في تجميع المزايا باعطيات إلى الرهبان والفقراء ، وبعدد من الطقوس وبالحج ، وبتلاوة صيغة (اوم ماني

بادم هوم om mani padme hum) . فبالنسبة لهم «الايمان هو خاصة ، العمل الذي يعد في التلاوة ، ايمان يسمح بنوع من التركيز ويمحو الذات»(٢٨) . أما بالنسبة للمتدينين ، فإن وضعهم يختلف حسب درجة كمالهم الروحي . وان عدداً من الرهبان يشاطرون أيضاً في منظور الحقيقة الاتفاقية . بعضهم ، باختيارهم الطريقة السريعة من التنوير ، يجهد لتحقيق تماهي النسبي والمطلق ، والسمسارا والنرفانا، أي الادراك بطريقة تجريبية ، للحقيقة الكلية ، الخواء Vacuité . وبعضهم يعلن بسلوكه المنحرف ، بل الضال ، انهم فارقوا «الثنائيات» المخادعة من الحقيقة الاتفاقية .

وكما في الهند (ف ٣٣٢ع) ، فإن المدارس المختلفة للتانترية هي التي طبقت ، بصورة خاصة ، ومع التزامها باكبر سرية ، تقنيات التأمل والشعائر الهادفة لتحقيق توافق المتضادات la coin cidentia appositerum على كافة المستويات من الوجود . ولكن كل المدارس التيبيتية قبلت المفاهيم الاساسية للبوذية (ماهايانا) ، وفي المقام الأول منها ان العلم الأرفع (براجنا) مبدأ انثوي وسلبي ، مرتبط صميمياً بالممارسة ، أو «وسيلة» (اوبايا) ، ومبدأ مذكر وايجابي ، وانه بفضل «الممارسة» تستطيع «الحكمة sapience» ان تظهر نفسها . وان اتحادهما ، المتحصل من قبل الراهب على اثر شعائر وتأملات معينة ، يمنح السعادة الكبرى (ماهاسوكها) .

وهنالك خط مميز للامية وهو الأهمية الرئيسة للغورو (معلم)guru . وبالتأكيد ، انه في الهند البراهمانية والهندوسية ، كما في البوذية الدائية ، كان المعلم معتبراً كأب روحي للتلميذ ، ولكن البوذية التيبيتية رفعت الغورو لمرتبة شبه الهية : فهو الذي يمنح المسارة للتلميذ ، ويشرح له المعنى الباطني للنصوص ، ويوصل إليه مانترا un mantra سرية وكلية القدرة . ويبحث المعلم بدئيا عن ماهية «الميل السائد» عند التلميذ ، لكي يكتشف الوهيته الحارسة ، وانطلاقا منها ، نوع التانترا الذي يناسبه .

أما بالنسبة للتلميذ ، فإن الايمان بمعلمه (غورو) يجب ان يكون مطلقاً . «تكريم شعرة واحدة من المعلم هي مزية اكبر من تمجيد كل البوذات في كل الازمنة (الماضي والحاضر والمستقبل)(٢٩) . واثناء التأمل يتماهى التلميذ بمعلمه ، الذي هو بذاته متوحد مع الآلهة العليا . ويخضع المعلم تلميذه للعديد من التجارب ، بهدف اكتشاف صفة

وحدود ايمانه . مار با يدفع بتلميذه ميلاريبا إلى حد اليأس ، باذلاله ، ويشتمه ويضربه ، ولكنه لم ينجح ابداً في زعزعته من ايمانه وبتأثير ماربا ، الغاضب ، الظالم والقاسي ، جداً بايمان تلميذه الذي غالباً ما يبكي في الخفاء .[٣٠]

ويتكون النشاط الديني للرهبان ، اساسا ، في سلسلة من التمارين الروحية من نموذج يوجي ـ شعائري ، وحيث ان اكثر التمارين أهمية هو التأمل[٣١] . ويمكن للمتدين ان يستعمل بعض الموضوعات الخارجية لدعم التأمل : صور للآلهة ماندالا الخ . . ولكنه كما في الهند ، وبخاصة في التانترية (ف ٣٣٣ع) ، يجب أن تدخل الآلهة الممثلة ، أي «مخلوقة» ومعروضة كما لو على شاشة من قبل الراهب . ويحصل (الفراغ) بدئياً ، حيث تنبثق الآلهة بدءاً من مقطع صوفي . وفي الحال يتوحد الراهب مع هذه الآلهة . «فيكون هنالك آنئذ جسد الهي ، مشع وفارغ ، وبامتزاجه دون ذوبان في الألوهة يساهم ـ بواسطتها بالفراغ» . وفي هذه اللحظة تكون الألوهة حاضرة فعلاً . «يحكى ، على سبيل المثال ، لتأكيدها ، انه بعد مثل هذا الاستحضار بواسطة التأمل ، ان الآلهة الممثلة على الصورة خرجت منها ، واجرت دورة وعادت للدخول إليها : وعندئذ امكن ملاحظة ان الثياب والملحقات كانت في حالة عدم انتظام على الصورة . وقد كان تأمل المعلم بودهيساتف في ساماي كثيفاً جعل الآلهة «ايجابيا» حاضرة على مشهد من كل الناس : فقد خرجت التماثيل من المعبد واجرت الدورة وعاودت الدخول لمحلها»[٣٢] .

ان بعض التأملات تتطلب مهارة تقنيات هاثايوغا (ف ١٤٣) ؛ وعلى سبيل المثال، انتاج الحرارة (غتوم ـ مو gtum-mo)، الذي يسمح للنساك ان يجففوا على اجسادهم العارية وفي وضح الثلج ، اثناء ليلة شتاء . عدداً كبيراً من الشراشف المبللة[٣٣] . وتستتبع بعض تأملات أخرى للناسك ، الحصول على قوى يوجية (سيدهي) (ف ١٩٥ع) من نوع فقيري Fakirique ؛ وعلى سبيل المثال ، نقل (روحه) في جسد أحد الأموات ، وبعبارة أخرى إحياء الجثة . واكثر التأمل رعبا ، «القطع» gead كود ، ويتكون في تقديم لحمه الخاص ليُفترس للشياطين . «ان قوة التأمل ، تبعث ربة سيفاً من نور ؛ انها تقفز لرأس الذي يقدم الاضحية ، فتقطع رأسه وتقطعه ، وحينئذ تتسارع الشياطي والحيوانات الكاسرة على هذه البقايا الخافقة فتفترس اللحم

وتشرب الدم . وتقيم الكلمات الملفظة لبعض الجاتكاس jatkas ، التي تروى كيف ان البوذا ، في مرحلة تجسد سابق قدم لحمه للحيوانات الجائعة والشياطين أكلةلحوم البشر»[٣٤] .

وهذا التأمل يذكر بالتقطيع لمساري لشامان المستقبل من قبل الشياطين وأرواح الاسلاف . ومن جهة أخرى فليس هذا ، هو المثل الوحيد لادخال المعتقدات والتقنيات الشامانية ، في اللامية lamaisme . فبعض اللاميين السحرة تصارعـوا فيما بينهم بوسائل سحرية ، تماما كما يفعل الشامانيون السيبيريون . واللامات les lamas يوجهون الأوامر للفضاء تماما كالشامانيين ، ويطيرون في الأجواء ، الخ . . .[٣٥] . ومع ذلك ، وبالرغم من بنيتهم الشامانية ، فإن التأملات المرعبة للنساك التيبيتين مزودة بدلالات وقيم روحيةمن مستوى اخر. «ان التأمل لهيكله العظمي الخاص»هو تمرين شاماني مميز، يهدف ، في اللامية ، لتجربة وجدية بانعدام حقيقة العالم والذات . ونقتصر على مثال الراهب الذي يجب عليه رؤية نفسه «كهيكل عظمي ابيض ، مشع ، وضخم تخرج منه شعلات كبيرة تملاء فراغ العالم»[٣٦] .

٣١٧ ـ انطولوجيا وفيزيولوجيا صوفية للنور

إن هذه القدرة على التمثل وعلى اعادة تقييم مختلف التقاليد سواء أكانت محلية وقديمة ، أو أجنبية وحديثة ، تميز العبقرية الدينية التيبيتية . وتلاحظ النتائج لمثل هذه التوفيقية بتفحص بعض المفاهيم والشعائر المتعلقة بالنور . وقد لاحظنا سابقاً دور النور باظهار اسطورة الحبل مو وبعض النشكونيات المحلية أو بون . ويقدر جوزيب توسي الأهمية المعطاة للنور («سواء أكان هذا كمبدأ مولد ، أو كرمز للحقيقة العليا ، أو ككشف منظور مميز لهذا النور ، الذي يأتي منه كل شيء والذي هو حاضر في ذاتنا»)[٣٧] . كمميز اساسي للتجربة الدينية التبيتية . وبالنسبة لكل المدارس اللامية ، فإن الروح هي نور ، وبهذه الهوية تشكل الاساس لمذهب الخلاص التيبيتي[٣٨] .

مع ذلك نعيد التذكير ، بأن النور كان معتبرا في الهند وكأنه تجلى للروح والطاقة الخلاقة على كافة المستويات الكونية ، وذلك منذ زمن الريغ ـ فيدا (ف ٨٢) . ان المطابقة الوهية نفس ، نور ، مني رجولي مصاغة بوضوح في البراهمانا وفي الاوبانيشاد[٣٩] . وان ظهور الآلهة ، وكذلك ولادة أو اشراقة مخلّص (بوذا ـ ماهافيرا) ، تظهر بافراط من نور مما وراء الطبيعة وبالنسبة لبوذية ماهايانا ، فإن الروح = (الفكرة) هي «منورة طبيعياً» . ويعرف من جهة أخرى ، دور النور في التيولوجيات الايرانية (ف ٢٦٥ ع) فيمكن الافتراض اذن بأن الهوية روح ـ نور ، ذات الأهمية في اللامية ، ستكون النتيجة لأفكار وافدة من الهند ، وبصورة غير مباشرة من ايران . ومع ذلك يحسن تفحص عملية اعادة التفسير واعادة التقييم داخل اللامية ، لاسطورة مما قبل البوذية حول أصل الانسان بدءاً من النور .

فحسب تقليد قديم ، ولّد النور الأبيض بيضة ، خرج منها الانسان الأول . وتحكي رواية اخرى ان الكائن الأول تولد من الفراغ وانه كان يشع بالنور . وفي النهاية يفسر تقليد آخر كيف حصر العبور من الانسان ـ النور إلى الكائنات البشرية الحالية . ففي البدء كان البشر لا جنس لهم ، وبدون شهوات جنسية ، وكان النور عندهم في ذاتهم ، وكانوا يشعونه . ولم يكن هنالك بعد لا شمس ولا قمر . وعندما استيقظت الغريزة الجنسية ، أخذت الاعضاء تظهر ، وعندئذ ظهرت الشمس وظهر القمر في السماء في البدء ، وقد كان البشر يتكاثرون بالطريقة التالية : دخل النور الذي انبثق من جسد الذكر في رحم الانثى فأناره ولقحه . واشبعت الغريزة الجنسية بالنظر فقط . ولكن البشر انحطوا وبدأوا يتلامسون بالايدي ، واخيراً اكتشفوا القران الجنسي[٤٠] .

والنور والجنس ، حسب هذه المعتقدات ، مبدآن متضادان . عندما يسود واحد من بينهما . لا يستطيع الآخر ان يظهر وبالعكس . وهذا ما يعيد القول بأن النور محتوى او (بالأولى : مأسور) في المني الذكوري ، وكما كنا ذكرنا سابقاً فإن وحدة الجوهر Consubstantialité للروح (الالهية) ، للنور وللمني الذكوري هو مفهوم هندو ـ ايراني . ولكن أهمية النور في الميتولوجيا والتيولوجيا التيبيتية (الحبل مو الخ) ، توحي بأصل محلي لهذه النغمة الاناسية النورية . وهذا ما لا يستثنى ابداً معاودة تفسيرها المتأخر على اثر ، تأثيرات مانوية ، على ما هو راجح .

وفي الواقع ، وبحسب المانوية ، فإن الانسان الأول ، المشكل من خمسة أنوار ، قد غلب وافترس من قبل شياطين الظلمات . ومنذئذ ، توجد الانوار الخمسة اسيرة في البشر ، الخلائق الشيطانية ، وبخاصة في المني (ف ٢٣٣) ويصادف النور الخماسي في تفسير هندو- تيبيتي للميزونا maithuna قران طقوسي يحتذي «اللعبة» ، الالهية ، لأنه لا يجب ان يكتمل بقذف منوي (ف ٣٣٤ع) . ويؤكد كل من كاندرا كيرتي وتزون كايا في شرحهما للجوهياساماجا تانترا على هذا التفصيل : اثناء الميزونا ، حصل قران بنظام صوفي ، وعلى اثره حصل الزوجان على الشعور النيرفاني . هذا الشعور النيرفاني ، عند الرجل ، والمسمى بودهيسيتا «فكرة التيقظ» يظهر نفسه - وبنوع ما هو مشابه الى - نطفة (bindu بندو) ، تنزل من قمة الرأس وتملأ الاعضاء الجنسية بدفقة من نور خمسي . ويقرر كاندراكيرتي : «اثناء القران ، يجب التأمل حول عضو التذكير (vagra) والرحم بادما Padma كما لو أنهما ممتلئان ، في الداخل ، بالنور الخماسي»[٤١] . ويبدو التأثير المانوي واضحاً في صورة النور الخماسي ويلاحظ مشابهة أخرى (ولكنها لا تقتضي بالضرورة الاستعارة) بين التواصل التانتري بعدم قذف المني والدفاع المانوي لجعل المرأة حاملاً .

في حالة الموت ، تطير روح القديسين واليوجيين من قمة الرأس كسهم من نور وتغيب عن طريق «تقب الدخان للسماء»[٤٢] . وبالنسبة لعموم الفانين ، فإن اللاما يفتح فوهة في رأس الميت لتسهيل (طيران الروح) في المظهر النهائي لسكرة الموت (الاحتضار) وخلال بضعة أيام من الموت ، يقرأ أحد اللامات لتنبيه المتوفي كتاب البارود تودول Bardo Thodol (= كتاب تيبيتي للموت) . ويتوقع له اللاما بأنه سيستيقظ فجاءة بواسطة نور باهر : وهذا هو اللقاء مع ذاته الخاصة التي هي في ذات الوقت الحقيقة الكلية . ويضيف النص الموجه إلى الميت : «لا تخف ، لا ترتعب ، ان هذا هو ألق طبيعتك الخاصة» ويكمل النص ايضا ، ان أصوات الرعد وغير ذلك من المظاهر المرعبة «غير قادرةعلى الحاق الضرر بك» . أنت غير مؤهل للموت . ويكفي ان تعرف ان هذه الظهورات هي اشكالك الخاصة من الفكر . اعرف كل هذاكما لو كان البارود le bardo (اي الحالة المتوسطة)[٤٣] . ولكن الميت المشروط بوضعه الكارمي لا يعرف ، تطبيق هذه النصائح . ومع انه تلقى تباعاً انواراً نقية - ممثلة للخلاص . وللتماهي مع

جوهر البوذا ـ فإن المتوفي ينقاد منجذبا بالانوار غير النقية ، مرمزة لشكل ما من وجود ـ تالٍ ويعبارة أخرى العودة للأرض[٤٤] .

ان كل انسان له خطة بالحصول على التحرر في لحظة موته : يكفيه ان يعرف نفسه في ضوء النور الذي يجربه في هذه اللحظة . والقراءة بصوت عال لكتاب الموت يشكل دعوة شاملة ؛ ولكن الميت هو دائما المقرر لمصيره . انه هو الذي يتوجب عليه ان تكون لديه ارادة باختيار ضوء النور والقوة على مقاومة مغريات الوجود ـ التالي . وبعبارة أخرى ، ان الموت يقدم امكانية جديدة لأن يتلقن ، ولكن هذه المسارة تقتضي كأية مسارة أخرى ، سلسلة من التجارب التي يلزم التلميذ الجديد بمواجهتها والتغلب عليها . ان تجربة النور لموت تال تشكل آخر ، وربما أصعب تجربة مسارية .

٣١٨ ـ تحيين بعض الابداعات الدينية التيبيتية .

إن البارد وتودول ، هو بالتأكيد النص الديني التيبيتي الاكثر شهرة في العالم الغربي . وقد ترجم ونشر بالانكليزية في عام ١٩٢٨ ،وأصبح بعد عام ١٩٦٠ لحد ما الكتاب المفضل ، وبخاصة لعدد كبير من الشباب . وهذه الظاهرة لها دلالتها بالنسبة لتاريخ الروحانية الغربية المعاصرة . انه يتعلق بنص عميق وصعب ، لا مثيل له في أي أدب ديني آخر . وان الفائدة التي يثيرها ، ليس بين علماء النفس والمؤرخين والفنانين فحسب ، وانما أيضاً ، وبخاصة لدى الشباب ، لهي ذات مغزى عرضي symptomatique : انه في وقت واحد ، يدل على ابطال صفة القداسة الشبه تامة للموت في المجتمعات الغربية المعاصرة ، وعلى الرغبة اللاهثة لاعادة التقييم ـ دينيا وفلسفياً ـ للعمل الذي يتم ، ويضع الوجود البشري موضع التساؤل[٤٥] .

وبنسب اكثر تواضعا ، ولكنها ذات دلالة ايضاً تلك الشعبيـة المتزايدة للشامبالا shambala ، بلاد غامضة ، والتي حسب التقليد ، حافظت على نصوص الكالاكاركا[٤٦] .

ويوجد عدد من الادلاء نحو شامبالا ، مؤلفة من قبل اللامات ، ولكنها بالأحرى تتعلق بجغرافيا اسطورية ، وفي الواقع ، ان الصعوبات الموصوفة في الأدلة (جبال ، انهر ، بحيرات ، صحاري ، غيلان مختلفة) تذكر بخطوط السير les itinéraires نحو البلدان الخرافية التي تكلم عنها العديد من الميتولوجيات والفولكلورات . وما هو اكثر من ذلك ان بعض المؤلفين التيبيتين يؤكدون بامكانية الوصول للشامبالا على اثر سفر منجز في الحلم او في حالة انتشاء[٤٧] . وفي هذه المرة ايضا ، ان تخيل الاسطورة القديمة لبلاد فردوسية ، وبالتالي واقعية يكشف حنيناً مميزاً للمجتمعات الغربية المنزوعة عنها صفة القداسة . ويحسن التذكر للظفر الاستعراضي للقصة القصيرة الافق المفقود Horizonperdu وبخاصة ، للفيلم المستوحى منها .

وبعد الباردو تودول ، فإن المؤلف التيبيتي الوحيد الذي لاقى بعض النجاح في الغرب كان حياة ميلاريبا la vie de milarepa ، المحرر نحو نهاية القرن الثاني عشر والمترجم للفرنسية من قبل ج. باكو (١٩٢٥) وللأنكليزية من قبل ايوان - دانتر (١٩٣٨) . ومن المؤسف ، ان المؤلف الشاعري لميلاريبا (١٠٥٢ - ١١٣٠) بالكاد قد بدأ يعرف . إن حياة ، وكذلك مؤلف ميلاريبا تمثل فائدة استثنائية . فهذا الساحر الصوفي ، والشاعر ، قد كشف بشكل يدعو للعجب عن العبقرية الدينية التيبيتية فماليربا بدأ بتطويع السحر بهدف التأر لنفسه ضد عمه ، وبعد طول تدريب قاس عند ماربا ، اعتزل في مغارة ، مدركاً القداسة ، وعرف غبطات «ناج في الحياة» . وفي قصائده - التي ستصبح شهيرة عندما ستترجم من قبل الشعراء -، ان يجدد تقنية الاغاني (دوها doha) للتنتاريين الهنود بتبنيه للأغاني الوطنية . «هذا ما فعله بتذوق ، وانما ايضاً ضمن الفكرة بجعل الفكر البوذي عامياً ، وبأن يجعله مألوفاً ، بادخاله ضمن الأغاني الشعبية»[٤٩] .

وأخيراً ، من الراجح ، أن «ملحمة جيزار» ستكون مكتشفة قريبا ، ليس من قبل المتخصصين بالمقارنة فحسب ، وانما ايضاً من قبل جمهور المثقفين . ومع ان التحرير النهائي يبدو حاصلاً حوالي القرن الرابع عشر ، فإن الدور الأكثر قدما للملحمة تأكد قبل ثلاثة قرون . والنغم المركزي شكل بتحول البطل . فعبر العديد من التجارب ،

يصبح الولد البشع والشقي محاربا لا يقهر واخيراً يصبح الملك المعظم جيزار قاهر الشياطين والملوك في اقطار العالم الاربعة[٥٠] .

واذا تذكرنا الاصداء في الغرب لبعض الابداعات التيبيتية ، فذلك لأن عدداً من الرهبان والمثقفين التيبيتيين قد وجدوا ، على إثر الاحتلال الصيني ، مشتتين في كل مكان تقريبا في العالم . وهذه الدياسبورا (الشتات) أمكن لها مع الزمن ، أن تحور جذريا ، أو حتى ان تمحي ، التقليد الديني التيبيتي . غير ان التعليم الشفاهي للامين من جهة اخرى ، يمكن له ان يحصل ، في الغرب نتيجة قابلة للمقارنة مع خروج العلماء البيزنطيين المثقلين بمخطوطات ثمينة ، بعد سقوط القسطنطينية .

ويمثل التركيب الديني التيبيتي بعض المشابهة مع الهندوسية المتوسطة ومع المسيحية . وفي الحالات الثلاثة ، يتعلق الأمر بلقاء بين ديانة تقليدية (أي قداسة ذات بنية كونية) وديانة للخلاص (البوذية ، الرسالة المسيحية ، الفشنوية) وتقليد باطني (تانتريسم ، غنوصية ، تفنيات سحرية) . وهذه الصلة اكثر وقعا بين الغرب القروسطي المسود بالكنيسة الرومانية والثيوقراطية اللامية .

٥-٢٢/١١/٩٨٥

حواشي الفصل التاسع والثلاثين

١ ـ مظاهر الاساطير . م الياد

٢ ـ أ.ـ ستين ـ حضارة التيبت «لكي توثق علاقة الجماعة مع الآلهة والاجداد من الضروري الصعود في كل قصة للأصل لهذه المؤسسة وتلك هي القصة التي يجب ان تكون رسمية وحقيقية ، وذلك هي مسألة الشعائر ذاتها للامية التي تذكر دوماً بالأصل السابق الاسطوري الذي يبرر هذه القيمة» .

٣ـ٦ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٧ ـ القبور والقصور للملوك القدامى كانت مبنية على طريقة مو حتى بعد قطع الحبل من قبل ديجون .

٨ ـ الجبال المقدسة هي كذلك آلهة حروب ، تهدي رؤساء أو ملوك وهي مرتبطة بأهل نسب القبيلة .

٩ ـ على سقف المنزل توجه (آلهة القمة) الممثلة بمذبحين من حجارة وراية . وطقسهم مضاهي لذلك المتجز على الجبال .

١٠ ـ سبق تأكيد التوفيقية في القرن الحادي عشر ـ ميلاريا تكلم عن قطع الحبل ، والتسلق للتحرير .

١١ ـ ١٥ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

١٦ ـ يقول بلوندو (ديانات التيبت . في الواقع ان البوذية (لم يمكن لها قبول الاضاحي الحيوانية ، وبالأولى البشرية . ولكنها وبصورة خاصة ، ان مفهوم الملك ـ الاله الذي يقيم نظام العالم ، والايمان بالخلود ، وفي حياة سعيلة بعد الموت ، مفهومة على صورة الحياة الارضية ومقيمة هذه الاخيرة اذن . ولم تترك اي محل للمبادىء الاساسية للبوذية : استمرارية كل وجود ، بما في ذلك ، وجود الكون ، والألم المرتبط بالوجود ، التناسخ samaseura وتبعية الأعمال المحتمة في هذه الحياة أو الآخرة ومن جهة اخرى

Kamman المثل الأعلى الممثل بـ البوغ كمثال للعدالة الاجتماعية ، لسعادة البشرية وليس الكمال الخلقي .

١٧ ـ ستين ـ بحوث حول الملحمة (البارد) في التيبيت

١٨ ـ ستين ـ يقول : حسب التيبيتيين ، في فترة الانسان ، تدخل روح الطفل بواسطة ثقب في رأس الأم ، وبواسطة هذا الثقب تترك الجسد في لحظة الموت .

١٩ ـ ٢٠ ـ اسماء المراجع المعتمدة

٢١ـ نغم اسطوري تأكدعلى فترات في الشرق الادنى والعالم الاغريقي ـ الروماني في العصر الهللتسيتي ، وفي الهند والصين . الأمر الذي لا يستثنى من جهة سوى ان عدداً قليلا من النصوص قد استمرت حقيقة واعيد ايجادها بعد الاضطهادات .

٢٢ ـ أ.م. بلوندو ـ اضافة الى ذلك يستعيد البون نظرية البودهيراتفا ونظرية الاجساد الثلاثة لبوذا. في البانتيون بالرغم من اختلاف الاسماء (عدد من اصناف الآلهة والشياطين مشتركة في الديانتين» .

٢٣ ـ ٢٤ ـ اسماء المراجع .

٢٥ ـ حول هذا الأخير اقيمت ميتولوجيا كاملة منذ اسند إليه ايمان التيبت ، واعتبره بعضهم كأنه البوذا الأول .

٢٦ ـ لقد عرض هكذا عن الاسس لمجموع كبير : المائة جزء من كانجور (مستكملة على خطابات بوذا والـ ٢٢٥ جزءا من تانجور ترجمات الشروح والرسائل النظامية المؤلفة من قبل المؤلفين الهنود) .

٢٧ ـ اسم المرجع

٢٨ ـ بفضل المزايا المجمعة اثناء هذه الحياة ، يأمل اللاييك باعادة التجسيد في حالة أعلى

٢٩ ـ نصوص ذكرها ستين ـ ديانة التيبت .

٣٠ ـ كل دير موصول بزنزانات خاصة من أجل العزلة والتأمل للرهبان

٣١ ـ ٣٢ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

٣٣ ـ يتعلق بتقنية قديمة مؤكدة سابقاً في الهند القديمة (تابا ٧٨ع) ومميزة للشامانيين ـ م الياد حول الشامانية .

٣٤ ـ ر. بليشتيمر ـ الكنيسة الصفراء يقول «ان ممارسة good لا يمكن لها ان تكون سوى نتيجة لتحضير طويل روحاني . انها محفوظة للتلميذ القوي بخاصة ، المتكلم روحانيا وان لم يكن ، رازها لهلوسات اثارها بذاته ، فهو سيضيع العقل . ورغم الاحتياطات المتخذة من قبل المعلمين ، فإنه قد يحصل احيانا على ما يبدو»

٣٥ ـ ٣٦ ـ اسماء المراجع المعتمدة

٣٧ ـ ٤٠ ـ اسماء المراجع المعتمدة

٤١ ـ نص ذكره توكسي . . ونذكر انه بالنسبة للماهايانا فإن العناصر الكونية السكندزها والداهو موحدة مع التاتاغاتا . وعليه فإن الحقيقة الكلية للتاتاغاتا هي النور الملون بألوان مختلفة . «كل التاتاغاتات هي الانوار الخمسة» كما يكتب كاندرا كيرتي

٤٢ ـ هذه الشعيرة اطلاق الروح من يافوخ الرأس تسمى ايضا (فتحة باب السماء)

٤٣ ـ ايفان ديتز (كتاب الموت)

٤٤ ـ بعد الانوار الابيض والازرق يرى النور الأصفر والاحمر والاخضر واخيرا كل الانوار مجتمعة

٤٥ ـ تقصد النجاح في عالم الغرب المعاصرة قورن بالانتشار السريع للرفض الهيكلي squelettes الذي هو حسب (لوفر) من أصل تبيتي .

٤٦ ـ هذه المدرسة التانترية قد درست بشكل غير كاف بدءاً من اسيا الوسطى والبنغال وكشمير وبعدئذ ادخلت في التيبت مع نموذج مميز من قياس الزمن وتطبيقاته الفلكية .

٤٧ ـ ٥٠ ـ اسماء المراجع المعتمدة .

فهرست موضوعات الجزء الثالث

ديانات أوراسيا القديمة - الكنائس المسيحية حتى الأزمنة الأيقونية - نهضة الإسلام - الكاثوليكية الغربية
صوفيات إسلامية - اليهودية وتمرد باكوربا - حركات دينية في أوروبا القرون الوسطى حتى الإصلاح - ديانة التيبت

